غابرييل غارسيا ماركيز

القصص القصيرة الكاملة



ترجمة : صالح علماني

غابرييل غارسيا ماركيز

القصص القصيرة الكاملة

القصص القصيرة الكاملة

Author: Gabriel García Márqez
Title : Todos los cuentos
Translator : Saleh Almani
Al- Mada : P.C.
First Edition : 2008

اسم المؤلف :غابرييل غارسيا ماركيز
عنوان الكتاب :القصص القصيرة الكاملة
ترجمة :صالح علماني
الناشر :المدى
الطبعة الأولى :٢٠٠٨

دار المدى للثقافة والنشر

سورية- دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

غابرييل غارسيا ماركيز

القصص القصيرة الكاملة

ترجمة صالح علماني

عينا كلب أزرق

OJOS DE PERRO AZUL

الإذعان الثالث

La tercera resignación

(1947)

هناك كان الضجيج مرة أخرى. ذلك الضجيج البارد، القاطع، الرأسي الذي يعرفه جيداً؛ لكنه يأتيه الآن حاداً ومؤلماً، فيشعر كما لو أنه صار، من يوم لآخر، غير معتاد عليه.

إنه يدور في جمجمته الفارغة، أصم وواخزاً. خلية نحل انتصبت بين أربعة جدران جمجمته. وكان يتعاظم أكثر فأكثر في حركة حلزونية متتالية، ويضربه من الداخل جاعلاً فقرات ظهره تهتز اهتزازاً محموماً وغير متوازن مع بنيته المادية كرجل متين. ثمة شيء كان يعمل «في المرات الأخرى» بصورة طبيعية، وهو يدق الآن الرأس من الداخل بضرب مطرقة قاسية وفظة، توجهها عظام يد معروقة، عظمية، تجعله يتذكر كل الأحاسيس المريرة في الحياة. وجد الدافع الحيواني لإطباق قبضتيه والضغط على الصدغين حيث نفرت الشرايين الزرقاء، البنفسجية، بالضغط الثابت لألمه اليائس. كان يود لو يحدد براحتي يديه الحساستين موقع ذلك الضجيج الذي يثقب له اللحظة، بريشة حفر ذات رأس حاد من الألماس. حركة هِرٍّ أليف قلصت عضلاته عندما تصوره مطارَداً في جنبات رأسه الساخن، الممزق بالحمى. وكان على وشك اللحاق به. لا، فللضجيج جلد زلق، يكاد يكون لمسه متعذراً. ولكنه كان مستعداً للحاق به، بإستراتيجيته التي تعلمها جيداً، والضغط عليه طويلاً وبصورة حاسمة، بكل ما في يأسه من قوة. لن يسمح له بالدخول مرة أخرى من أذنه، والخروج من فمه، من كل مسام من مساماته، أو من عينيه اللتين تزيغان لدى مروره ويصيبهما العمى وهما تريان هروب الضجيج

من أعماق ظلمتهما المستهترة. لن يسمح له بمواصلة الضغط على زجاجهما المطحون، على نجومهما الثلجية، وعلى الجدران الداخلية للجمجمة. هكذا كان ذلك الضجيج: بلا نهاية، مثل ضرب رأس طفل بحائط من الإسمنت. مثل كل الضربات القوية الموجهة إلى أشياء الطبيعة الراسخة. لكنه لن يسبب له مزيداً من العذاب إذا ما استطاع محاصرته، عزله. وقطع تلك الهيئة المتبدلة عن ظله بالذات. والإمساك به. الضغط عليه، بصورة حاسمة الآن، والإلقاء به بكل قواه على الأرض المرصوفة، ودوسه بقدميه بشراسة إلى أن يصبح غير قادر على الحركة حقاً، إلى أن يتمكن من القول، وهو يلهث، إنه أمات الضجيج الذي يعذبه، الذي يصيبه بالجنون، وها هو ذا الآن مُلقى على الأرض كأي شيء تافه، متحولاً إلى ميت بالكامل.

ولكن، كان من المستحيل عليه أن يضغط على صدغيه. فقد تقلص ذراعاه، وصارا الآن ذراعي قزم. ذراعان صغيران، سمينان، شحميان. حاول أن يهز رأسه. وتمكن من هزه. عندئذ تبدى الضجيج بقوة أكبر داخل الجمجمة التي تصلبت وتضخمت، وشعر بها مشدودة بقوة أكبر بفعل قوة الجاذبية. كان ثقيلاً وقاسياً ذلك الضجيج. ثقيلاً وقاسياً إلى حد سيشعر معه، لو أنه استطاع الإمساك به وتحطيمه، بأنه يمزق أوراق زهرة من رصاص.

لقد شعر بهذا الضجيج «في المرات السابقة» بالإلحاح نفسه. شعر به، مثلاً، يوم مات أول مرة. عندما انتبه - وهو يرى جثة - أنها جثته هو بالذات. نظر إليها وتلمسها. أحس أنه غير محسوس، وأنه لا يشغل مكاناً، وأنه لا وجود له. لقد كان جثة بالفعل، وكان يشعر بمرور الموت على جسده الشاب العليل. وكان الجو المحيط قد تصلب في أنحاء البيت كله كما لو أنه امتلأ بالإسمنت، ووسط تلك الكتلة — التي ترك فيها الأشياء مثلما كانت عندما كان الجو هواءً — كان هو مسجى بعناية في تابوت من إسمنت صلب، إنما شفاف. في تلك المرة كان «هذا الضجيج» أيضاً في رأسه. كم كان باطن قدميه

بعيداً وبارداً، هناك في الطرف الآخر من التابوت، حيث وُضعت وسادة، لأن الصندوق كبير على مقاسه، وكان لا بد من ضبطه، وتكييف الجسد الميت مع ملبسه الجديد والأخير. لقد غطوه بالأبيض، وشدوا منديلاً حول فكه السفلي. أحس بأنه جميل في كفنه، جميل إلى حدّ الموت.

كان في نعشه، جاهزاً لأن يُدفن؛ ومع ذلك، كان يعرف أنه ليس ميتاً. ولو انه حاول النهوض لفعل ذلك بكل سهولة، «روحانياً» على الأقل. ولكن ليس هناك ما يستحق العناء. فمن الأفضل له الاستسلام للموت هناك؛ أن يموت بـ «الموت» الذي هو داؤه. فمنذ زمن بعيد قال الطبيب لأمه، بجفاء:

ـ سيدتي، طفلك مصاب بداء خطير: إنه ميت، ومع ذلك ـ واصل قائلاً ـ: سنبذل كل ما هو ممكن للإبقاء على حياته في ما بعد الموت. سنتمكن من جعل وظائفه العضوية تستمر في عملها بوساطة نظام تغذية ذاتي معقد. ولن تتغير سوى الوظائف الدافعة وحدها، أي الحركات التلقائية. وسنعرف حياته من خلال النمو الذي سيتواصل بصورة طبيعية. إنه بكل بساطة «موت حي». موت فعلي وحقيقي...

إنه يتذكر الكلمات، ولكن بصورة مشوشة. ربما لم يسمع هذه الكلمات قط، ولم تكن إلا من ابتداع عقله عندما ترتفع حرارته بسبب الحمى التيفية.

عندما يغرق في الهذيان. عندما يقرأ قصة الفراعنة المحنطين. عندما ترتفع حرارته، كان يشعر بأنه هو نفسه بطلها. وهناك بدأ نوع من الفراغ في حياته. ومنذ ذلك الحين لم يعد قادراً على تمييز أو تذكر ما هي الأحداث التي تشكل جزءاً من هذيانه وأيها يشكل جزءاً من حياته الحقيقية. ولهذا يخامره الشك الآن. فربما لم يتكلم الطبيب قط عن هذا «الموت الحي» الغريب. إنه أمر غير منطقي، شاذ، ومتناقض بكل بساطة. وهذا ما يجعله يتشكك الآن في أنه ميت بالفعل. لأنه ميت منذ ثمانية عشر عاماً.

ومنذ ذلك الحين ـ في زمن موته كان عمره سبع سنوات ـ، أوصت أمه بأن يُصنع له تابوت صغير من خشب أخضر، تابوت لطفل. لكن الطبيب أمر بأن يصنع له صندوق أكبر، صندوق يتسع لإنسان عادي بالغ، لأنه يمكن لذلك التابوت الصغير أن يكبح النمو، ويجعل منه ميتاً مشوهاً أو حياً غير طبيعي. أو أن وقف النمو سيحول دون ملاحظة التحسن. وبناء على ذلك التنبيه، أوصت له الأم على تابوت كبير، يتسع لجثة شخص بالغ، ووضعت فيه ثلاث وسائد عند القدمين، لضبطه على مقاسه.

وسرعان ما بدأ يكبر داخل الصندوق، بحيث يمكن لهم في كل سنة انتزاع قليل من الصوف من الوسادة الأخيرة لمنح النمو هامشاً إضافياً. أمضى على تلك الحال نصف حياة. ثمانية عشر عاماً (صار عمره الآن خمساً وعشرين سنة). وبلغ طول قامته النهائي، الطبيعي. لقد أخطأ النجار والطبيب في التقدير وجعلا التابوت أكبر بنصف متر. افتراضا أنه سيكون بمثل قامة أبيه الذي كان مارداً شبه همجي. لكنه لم يكن كذلك. والشيء الوحيد الذي ورثه عنه هو لحيته الكثة. لحية زرقاء، غزيرة الشعر، اعتادت أمه حلاقتها له كي تراه بهيئة وقورة في تابوته. وكانت هذه اللحية تضايقه بصورة فظيعة في أيام القيظ.

غير أن شيئاً آخر كان يقلقه أكثر من «هذا الضجيج». إنها الفئران. فمنذ طفولته، تحديداً، لم يكن هناك ما يقلقه، ما يستثير فزعه، أكثر من الفئران. وكانت هذه الحيوانات المقرفة بالذات هي التي اجتذبتها رائحة الشموع التي تحترق عند قدميه. وكانت قد قرضت ثيابه، وكان يعرف أنها سرعان ما ستبدأ بقرضه هو نفسه، بأكل جسده. تمكن في أحد الأيام من رؤيتها. كانت خمسة فئران لامعة، زلقة، تصعد إلى التابوت متسلقة قائمة المنضدة وتأخذ في التهامه. وعندما تنتبه أمه إلى ذلك، لن يكون قد بقي منه سوى أنقاض: العظام القاسية والباردة. ولم يكن التهام الفئران له هو أشد

ما يخيفه، لأنه يستطيع في نهاية المطاف مواصلة العيش بهيكله العظمي. ما يعذبه هو الخوف الغريزي الذي يشعر به من هذه الحيوانات الصغيرة. فجلده يقشعر لمجرد التفكير في هذه الكائنات كثيفة الشعر التي تجوب جسده، وتتسل في ثنايا جلده، وتلامس شفتيه بقوائمها الجليدية. وقد صعد أحدها حتى رموشه وحاول قرض قرنية عينه. رآه ضخماً، فظيعاً، في جهاده اليائس لثقب شبكية العين. وابتدع عندئذ موتاً جديداً، واستسلم بالكامل للدوار الوشيك.

تذكر أنه قد بلغ سن الرشد. صار عمره خمسة وعشرين عاماً، وهذا يعني أنه لن ينمو أكثر من ذلك. وصارت ملامحه ثابتة وجدية. لكنه عندما يشفى لن يتمكن من الحديث عن طفولته. فهو لم يعشها. لقد قضاها ميتاً.

كانت أمه تحيطه بعناية صارمة خلال الزمن الذي استغرقه الانتقال من الطفولة إلى البلوغ. اهتمت اهتماماً بالغاً بنظافة التابوت والحجرة كلها. وكانت تكثر من تبديل زهور المزهريات، وتفتح النوافذ كل يوم ليدخل الهواء الجديد. ويا للرضا الذي نظرت به إلى شريط القياس في ذلك الوقت، عندما كانت تتأكد، بعد قياسه، أنه نما عدة سنتيمترات! كانت تشعر برضا الأمومة وهي تراه حياً. واهتمت كذلك بتجنب وجود غرباء في البيت. فمن غير اللائق، في نهاية المطاف، وجود ميت، لأعوام طويلة، في حجرة أسرية. كانت امرأة متفانية. لكن تفاؤلها ما لبث أن بدأ بالانحطاط. وقد رآها، في الأعوام الأخيرة، تنظر بكآبة إلى شريط القياس. فطفلها لم يعد ينمو. وفي الشهور الأخيرة لم يزدد نموه ولو ميليمتراً واحداً. وكانت أمه تعرف أنه سيكون من الصعب الآن إيجاد طريقة للتأكد من حضور الحياة في ميتها العزيز. كانت تخشى أن يطلع عليه الصباح يوماً وهو ميت «حقاً»، وربما لهذا السبب استطاع هو، في ذلك اليوم، ملاحظة أنها تقترب من التابوت بحذر، وتشم جسده. لقد وقعت في أزمة تشاؤوم. وأهملت في الفترة الأخيرة العناية، بل إنها لم تعد تهتم

بإحضار شريط القياس معها. فقد صارت تعرف أنه لن ينمو أكثر مما هو عليه.

هو كان يعرف أنه صار الآن ميتاً «بالفعل». يعرف ذلك من تلك السكينة الوديعة التي استسلم لها جسده. فكل شيء قد تغير بصورة مفاجئة. خفقُ القلب الذي لا يُدرَك، ولا يشعر به أحد سواه، قد تلاشى الآن من نبضه. وصار يشعر بالثقل، تجذبه قوة داعية وقادرة نحو مادة الأرض الأولية. وبدا أن قوة الجاذبية تشده الآن نحوها بتسلط لا خلاص منه. كان ثقيلاً مثل جثة مؤكدة لا تُدحض. لكنه أكثر راحة هكذا. حتى إنه لم يعد مضطراً لأن يتنفس كي يعيش موته.

جال على أعضاء جسده واحداً فواحداً، بالتخيل، دون أن يلمس نفسه. هناك، على وسادة قاسية، كان رأسه يميل ميلاً خفيفاً إلى اليسار. تخيل فمه المفتوح قليلاً بسبب نسمة البرودة الخفيفة التي تملأ حلقه بحبيبات بَرَد. كان مشروخاً مثل شجرة عمرها خمسة وعشرون عاماً. وربما حاول إطباق فمه، فالمنديل الذي كان يشد فكه تراخى قليلاً. لم يستطع أن يرتب نفسه، يصلح مظهره، أو أن يتخذ وضعاً يبدو فيه ميتاً وقوراً. العضلات والأعضاء لم تعد تستجيب بدقة، كما في السابق، لنداء جهازه العصبي. لم يعد الشخص نفسه الذي كان عليه قبل ثمانية عشر عاماً، حين كان طفلاً عادياً يمكنه التحرك على هواه. أحس بذراعيه متهدلين، ممددين إلى الأبد، وملتصقين بجانبي التابوت المبطن. وكان بطنه قاسياً، مثل لحاء شجرة جوز. وأبعد منه الساقان الكاملتان، المضبوطتان، تكملان تكوينه الجسدي كراشد. كان جسده يرقد بتثاقل، إنما باستكانة، ودون أي استياء أو ضيق، كما لو أن العالم قد توقف فجأة، ولم يعد هناك من يكسر الصمت. كما لو أن كل رئات الأرض قد توقفت عن التنفس حتى لا تعكر سكون الهواء الخفيف. كان يشعر بالسعادة، مثل طفل مستلق على ظهره فوق عشب بارد

وكثيف، يتأمل سحابة عالية تبتعد في سماء الأصيل. كان سعيداً، بالرغم من أنه يعرف أنه ميت، وأنه يرقد إلى الأبد في الصندوق المبطن بحرير اصطناعي. كان يتمتع بصفاء بصيرة عظيم. لم يعد كما كان في السابق، بعد موته الأول، حيث شعر بأنه محشور، فظ. الشموع الأربعة التي وُضعت حوله، وكانت تتبدل كل ثلاثة أشهر، بدأت تُستنفد من جديد؛ وبالتحديد عندما صارت ضرورة لا بد منها. أحس بقرب نداوة أزهار البنفسج الرطبة التي جاءت بها أمه ذلك الصباح. أحس بها في أزهار السوسن والورود. لكن ذلك الواقع الرهيب كله لم يعد يسبب له أي قلق؛ بل على العكس، كان سعيداً، وحيداً مع وحدته. هل سيشعر بالخوف بعد ذلك؟

من يدري. كان من الصعب التفكير في اللحظة التي ستضرب بها المطرقةُ المساميرَ لتدخل في الخشب الأخضر ويطقطق التابوت تحت الأمل المؤكد بأن يتحول إلى شجرة من جديد. جسده المشدود الآن بقوة أكبر إلى أمر الأرض، سيوسد في حفرة رطبة، طينية وطرية؛ وهناك في الأعلى، فوق أربعة أمتار مكعبة، ستأخذ بالخمود آخر ضربات عمال الدفن. لا، لن يشعر هناك بالخوف. لأن ذلك سيكون استمراراً لموته.. الاستمرار الأكثر طبيعية لحالته الجديدة.

لن تبقى درجة حرارة واحدة في جسده، وسيكون نخاعه قد برد إلى الأبد، وستتغلغل بعض نجوم الثلج في نقي عظامه. كم سيكون جيداً اعتياده على حياته الجديدة كميت! وفي أحد الأيام ـ مع ذلك ـ سيشعر أن درعه المتين سينهار؛ وعندما يحاول ذِكر ومراجعة كل عضو من أعضائه، لن يجد أياً منها. سيشعر أنه بلا شكل محدد ومضبوط، وسيعرف مستسلماً أنه فقد تكوينه الجسدي ذا الخمسة والعشرين عاماً، وأنه تحول إلى حفنة تراب بلا شكل، وبلا أبعاد هندسية.

في تراب الموت التوراتي. ربما سيشعر حينذاك بحنين خفيف، بحنين إلى عدم كونه جثة رسمية، ذات كينونة جسدية، وإنما جثة

متخيلة، تجريدية، مركبّة فقط في الذاكرة الغائمة لأقربائه. وسيعرف عندئذ أنه سيصعد عبر أوعية الامتصاص الشعرية الدقيقة لشجرة تفاح، وسيستيقظ عندما يقضمه جوع طفل في صباح خريفي. وعندئذ سيعرف ـ وهذا سيُشعره بالحزن ـ أنه وحدته فقط: إذ أنه لم يعد ولو مجرد ميت عادي، جثة عادية.

قضى الليلة الأخيرة سعيداً، لا يرافق وحدته أحد سوى جثته.

لكنه مع النهار الجديد، لدى نفاذ أول خيوط أشعة الشمس الفاترة من النافذة المفتوحة، أحس أن جلده يستعيد الطراوة. تفحص الوضع لحظة، وهو ساكن ومتصلب. ترك الهواء يمر فوق جسده. لم يخامره أي شك: هناك كانت «الرائحة». فخلال الليل، كانت الحالة الجيفة قد بدأت تفعل فعلها. لقد بدأ جسده بالتفسخ، بالتعفن، مثل أجساد كل الموتى. «الرائحة» هي، دون ريب، رائحة لحم نتن مؤكدة، تختفي وتعود للظهور بقوة أكثر نفاذاً. لقد تفسخ جسده بحرارة الليلة الفائتة. أجل. إنه يتفسخ. بعد ساعات قليلة ستأتي أمه لتبدل الزهور، ولسوف تصفعها، من العتبة، رائحة اللحم النتن. وعندئذ سيأخذونه لينام موته الثاني بين الأموات الآخرين.

لكن الخوف وخزه، فجأة، في الظّهر. الخوف! يا للكلمة العميقة، شديدة المغزى! إنه يشعر الآن بالخوف، بخوف «جسدي»، حقيقي. ما هو سببه؟ إنه يفهم ذلك تماماً، ولحمه يقشعر: ربما لا يكون ميتاً. لقد وضعوه هنا، في هذا الصندوق الذي يشعر الآن أنه طري، مبطن، ومريح بصورة رهيبة؛ وفتح له شبح الخوف نافذة الواقع: سيدفنونه حياً!

لا يمكن أن يكون ميتاً، لأنه يعي كل شيء تماماً، يعي الحياة التي تدور من حوله، مدمدمة. ورائحة أزهار الهيليوتروبو الفاترة التي تنفذ من خلال النافذة المفتوحة وتختلط بـ «الرائحة» الأخرى. إنه يعي تماماً سقوط الماء البطيء في المستنقع. وصرير الجدجد الذي ظل في الركن ومازال يواصل الغناء، معتقداً أن الفجر لا يزال مستمراً.

كل شيء ينكر عليه موته. كل شيء ما عدا «الرائحة». ولكن، كيف له أن يعرف أن هذه الرائحة هي رائحته؟ ربما تكون أمه قد نسيت، البارحة، أن تبدل ماء المزهريات، فبدأت سيقان الزهور فيها بالتعفن. وربما يكون الفأر الذي سحبه الهر إلى الحجرة قد تفسخ بفعل الحر. لا. لا يمكن «للرائحة» أن تكون من جسده.

منذ لحظات كان سعيداً بموته، لأنه اعتقد أنه ميت. فالميت يستطيع أن يكون سعيداً بوضعه الذي لا خلاص منه. أما الحي، فلا يمكنه الإذعان لأن يُدفن حياً. ومع ذلك، أعضاؤه لا تستجيب لندائه. وهو لا يستطيع التعبير عن نفسه، وهذا هو ما يسبب له الرعب؛ أكبر رعب في حياته وفي موته. سيدفنونه حياً. يمكنه أن يشعر. أن يعي اللحظة التي يسمرون فيها الصندوق. سيشعر بخواء الجسد المحمول على أكتاف الأصدقاء، بينما غمه ويأسه يتعاظمان مع كل خطوة يخطوها موكب الجنازة.

سيحاول، دون طائل، النهوض، والنداء بكل قواه الخائرة، والطرق من داخل التابوت المظلم والضيق كي يعرفوا أنه كان مازال حياً، وأنهم سيدفنونه حياً. سيكون كل ذلك بلا جدوى، لأن أعضاءه لن تستجيب لنداء جهازه العصبي العاجل والأخير.

سمعَ جلبةً في الحجرة المجاورة. أيكون نائماً؟ أتكون كل هذه الحياة كميتٍ مجرد كابوس؟ لكن قرقعة الأواني لم تستمر. أحزنه ذلك، وربما شعر بالاستياء. كان يتمنى لو أن أواني الدنيا كلها تتكسر بضربة واحدة، هناك إلى جواره، حتى يستيقظ بفعل سبب خارجي، بعد أن أخفقت إرادته في ذلك.

ولكن لا. لم يكن حلماً. وهو واثق من أنه لو كان حلماً لما أخفقت المحاولة الأخيرة في العودة إلى الواقع. هو لن يستيقظ أبداً بعد اليوم. إنه يشعر بليونة التابوت، وقد عادت «الرائحة» الآن بقوة أكبر، بقوة صار يشك معها في أن تكون رائحته. ودَّ لو أنه يرى أقرباءه قبل أن يبدأ في التفسخ، وقبل أن يجعلهم منظر اللحم النتن يشعرون

بالقرف. يمكن للجيران أن يهربوا مبتعدين عن التابوت وهم يضعون مناديل على أفواههم. وسيبصقون. لا. ليس هذا. من الأفضل أن يدفنوه. من الأفضل الخروج من «هذا الوضع» بأسرع ما يمكن. هو نفسه يريد التخلص الآن من جثته. إنه يعرف الآن أنه كان ميتاً حقاً، أو أنه حي بصورة لا يمكن التعرف عليها. لا فرق. لكن «الرائحة» تتواصل بإلحاح على كل حال.

سيستمع بإذعان إلى آخر الصلوات، وآخر التراتيل اللاتينية يرددها بصورة خاطئة مساعدو الكاهن. وسينفذ حتى عظامه برد المقبرة الممتلئ بالتراب والعظام، وربما تتبدد قليلاً هذه «الرائحة». وربما ـ من يدري! ـ يُخرجه إلحاح اللحظة الوشيكة من هذا السبات. عندما يشعر أنه يسبح في عرقه، في مياه لزجة وكثيفة، مثلما كان يسبح قبل مولده في رحم أمه؛ فربما يكون عندئذ حياً.

لكنه سيكون آنذاك مذعناً تماماً للموت، وربما يموت عندئذ من الإذعان.

الضلع الآخر للموت

La otra Costilla de la muerte

(1948)

دون أن يدري السبب، استيقظ من نومه مجفلاً، دون معرفة السبب. رائحة بنفسج وفورمالدهيدو لاذعة تأتي، قوية وفسيحة، من الغرفة الأخرى، لتختلط برائحة الأزهار حديثة التفتح المتسربة من الحديقة التي طلع عليها الفجر. حاول استرداد هدوئه، استعادة الحماسة التي فقدها فجأة في النوم. لابد أن الفجر قد بزغ، ففي الخارج، في البستان، بدأ يُسمع تدفق الماء بين الخضار، وبدت السماء زرقاء من النافذة المفتوحة. جال ببصره على الغرفة المعتمة محاولاً تفسير ذلك الاستيقاظ المفاجئ، المنتظر. راوده انطباع، بل يقين *جسدي*، بأن أحداً قد دخل وهو نائم. ومع ذلك، كان وحيداً، ولا تبدو على الباب الموصد من الداخل أي آثار عنف. وفوق هواء النافذة، كانت تستيقظ نجمة صبح. ظل ساكناً لحظة كمن يحاول إرخاء التوتر العصبي الذي دفعه إلى سطح النوم. وبينما هو يغمض عينيه، ووجهه إلى أعلى، بدأ البحث من جديد عن خيط الصفاء الذي انقطع. الدم المتجمع عناقيد سال في حلقة، بينما هناك، في صدره، كان يأس قلبه المتمكن يسجل، ويسجل إيقاعاً حاداً وخفيفاً كما لو أنه آتٍ من سباق جري مندفع. راجع في ذهنه اللحظات الفائتة. ربما يكون قد رأى حلماً غريباً. قد يكون كابوساً. لا. لم يكن هناك شيء خاص، لا وجود لأي سبب يبرر الجفلة في «هذا».

كانوا في قطار ـ يمكنني تذكر ذلك الآن ـ وسط منظر ريفي ـ هذا الحلم الذي أراه بكثرة ـ منظر طبيعة صامتة، فيه أشجار اصطناعية، زائفة، تُثمر مواسي ومقصات وغيرها من مختلف أدوات

صالون الحلاقة ـ أتذكر الآن أنه عليّ قص شعري ـ. لقد رأى هذا الحلم مراراً، لكنه لم يسبب له مثل هذه الجفلة. وراء إحدى الأشجار كان يقف أخوه، الآخر، توءمه الذي دُفن في ذلك المساء، وهو يومئ ـ حدث لي هذا في الحياة الواقعية يوماً ـ كي يوقف القطار. وعندما اقتنع بعدم جدوى إيماءاته، راح يعدو وراء عربة القطار إلى أن سقط لاهثاً وقد امتلأ فمه بالزبد. صحيح أنه كان حلمه العبثي، غير العقلاني، لكنه لا يسبب بأي حال ذلك الاستيقاظ المضطرب. أغمض عينيه ثانية، وكان صدغاه لا يزالان ينبضان بتدفق الدم الذي يصعد إليهما بثبات مثل قبضة مطبقة. توغل القطار في جغرافية مجدبة، مقفرة، مضجرة، لكن ألماً أحس به في ساقه اليسرى صرف انتباهه عن المنظر الطبيعي. لاحظ أن هناك ورماً في إصبعها الوسطى ـ عليّ ألا أواصل استعمال هذا الحذاء الضيق ـ. وبصورة طبيعية، كما لو أنه معتاد على ذلك، أخرج مفكاً من جيبه، وانتزع به رأس الورم. وضعه بعناية في صندوق صغير أزرق ـ هل تُرى الألوان في الحلم؟ ـ رأى طرف خيط دهني أصفر يطل من الجرح. ودون أن يتأثر، كما لو أنه كان ينتظر وجود هذا الخيط، جذبه ببطء، وبدقة حذرة. كان شريطاً طويلاً، طويلاً جداً، ظهر تلقائياً دون إزعاج أو ألم. بعد ثانية من ذلك رفع بصره ورأى أن عربة القطار قد أقفرت، وأن أخاه وحده هو من تبقى في مقصورة أخرى من القطار، وكان يرتدي ثياب امرأة أمام مرآة، ويحاول أن يسمل عينه اليسرى بمقص.

كان ذلك الحلم يزعجه في الواقع، لكنه لا يستطيع أن يفسر سبب اضطراب دورته الدموية، طالما أنه في مرات أخرى سابقة، عندما كانت الكوابيس مريعة، تمكن من الحفاظ على هدوئه. أحس بيديه باردتين. وكانت رائحة البنفسج والفورمالدهيدو تلح أكثر، وتتقلب مزعجة وشبه عدوانية. وبعينين مغمضتين، وهو يسعى إلى كسر إيقاع تنفسه المرتفع، حاول البحث عن موضوع تافه كي يغرق في الحلم الذي انقطع قبل دقائق. يمكن له، على سبيل المثال،

أن يفكر في أنه عليّ الذهاب خلال ثلاث ساعات إلى وكالة الدفن كي ألغي النفقات. وفي الركن، رفع جدجد متأخر في السهر صريره وملأ الحجرة بحنجرته الحادة، القاطعة. بدأ التوتر العصبي يتراجع بطيئاً، ولكن بصورة فعالة، ولاحظ مرة أخرى تراخي عضلاته، مرونتها؛ أحس أنه منبطح على الفرشة اللينة والكثيفة بينما الجسد، خفيفاً، منعدم الوزن، يجتاز إحساساً عذباً من الطوباوية والتعب، وآخذاً بفقدان الوعي ببنيته المادية، بهذه الماهية الأرضية، الثقيلة، التي تحدده وتضعه في منطقة مضبوطة لا يمكن الخطأ بها في سلم مملكة الحيوان، وتتحمل في هندستها مجموعة متكاملة من الأجهزة والأعضاء المحددة هندسياً ترفعه إلى التراتبية التعسفية للحيوانات العاقلة. الجفنان، وهما وديعان الآن، يتهدلان على القرنية بالطريقة الطبيعية نفسها التي تختلط بها الذراعان والساقان في مجموع أعضاء راحت تفقد استقلاليتها ببطء؛ كما لو أن الجسد كله قد اختلط في جهاز واحد، كلي، وترك هو ـ الرجل ـ جذوره الفانية ليتغلغل في جذور أخرى أكثر عمقاً ورسوخاً؛ في الجذور الأبدية لحلم متكامل ومحدد. سمع في الخارج، في الجانب الآخر من العالم، غناء الجدجد آخذ بالخفوت إلى أن تلاشى من حواسه التي انقلبت إلى الداخل، فأغرقته هو في مفهوم جديد وغير معقد للزمان والمكان، ماحية وجود هذا العالم المادي، العضوي والمؤلم، المترع بحشرات وروائح بنفسج وفورمالدهيدو لاذعة.

بهدوء، وهو محاط بدفء جو السكينة المشتهاة، أحس بخفة موته المصطنع واليومي. غاص في جغرافية لطيفة، في عالم سهل، مثالي؛ عالم كأن من صممه طفل، دون معادلات جبرية، دون وداعات غرامية ودون قوى جاذبية.

لم يكن بمقدوره أن يحدد بدقة كم من الزمن مضى عليه وهو على تلك الحال، بين هذا السطح النبيل من الأحلام والوقائع؛ لكنه يتذكر أنه انتفض فجأة في الفراش، كما لو أن عنقه قد جُزَّ

بسكين، وأحس أن أخاه التوءم، أخاه الميت، يجلس على حافة السرير.

مرة أخرى، كما حدث من قبل، صار قلبه قبضة وصلت إلى فمه ودفعته إلى القفز. النور الوليد، والجدجد الذي مازال يطحن العزلة بأرغنه المحتد، والهواء البارد المتصاعد من عالم الحديقة، كل شيء يسهم في إعادته مجدداً إلى العالم الواقعي. ولكنه قادر في هذه المرة أن يدرك السبب في اختلاجه. خلال لحظات الغفوة المقتضبة ـ إنني أدرك ذلك الآن ـ خلال الليل كله، حين ظن نام نوماً هادئاً، دون *أفكار*، كانت ذاكرته مثبتة على صورة واحدة، ثابتة، لا تتغير، على صورة *مستقلة بذاتها* تفرض نفسها على تفكيره رغم إرادة التفكير نفسه ومقاومته. أجل. دون أن يلحظ هو ذلك تقريباً، راح «هذا» التفكير يسيطر عليه، يملؤه، يسكنه بالكامل، متحولاً إلى خلفية في العمق تظل ثابتة وراء الأفكار الأخرى، مشكلاً الدعامة، الفقرة الحاسمة لمأساة نهاره وليله الذهنية. فكرة جثة أخيه التوءم تسمرت في مركز الحياة بأسرها. والآن، بعد أن تركوه هناك، في قطعته من الأرض، برموش مرتعشة من المطر، الآن *يشعر بالخوف* منه.

لم يظن قط أن الضربة ستكون قوية إلى هذا الحد. من خلال النافذة الموارِبة عادت إلى النفوذ من جديد الرائحة التي اختلطت الآن برائحة أرض رطبة، وعظام غارقة، وخرجت حاسة شمه للقائها بغبطة، بسعادة رهيبة لرجل بهيمي. كانت قد انقضت ساعات كثيرة منذ اللحظة التي *رآه* فيها يتلوى مثل كلب جريح تحت الملاءات، يعوي، ويعض تلك الصرخة الأخيرة التي ملأت حنجرته بالملح؛ في محاولة منه لأن يقطع بأظفاره الألم الذي يتسلقه عبر الظهر حتى جذور الورم. لا يمكنه نسيان أصصه كحيوان محتضر، متمرد حيال الحقيقة التي توقفت في مواجهته، والتي قيدت جسده بعناد، بثبات لا سبيل إلى وقفه، وبصورة قطعية كما الموت نفسه. هو رآه

خلال لحظات احتضاره الهمجي الأخيرة. عندما كسر أظفاره على الجدران وهو يحك هذه القطعة الأخيرة من الحياة التي تفلت من بين أصابعه، تستنزف دمه، بينما الغنغرينة ***تندس فيه*** عبر خاصرته مثل امرأة لا تلين. ثم رآه ينهار على بطنه فوق السرير المشعث، بقدر أدنى من الإنهاك، مستسلماً، متعرقاً، في الوقت الذي وجهت به أسنانه المغطاة زبداً ابتسامة رهيبة، مسخية، إلى العالم، وبدأ الموت يتدفق عبر عظامه مثل نهر من رماد.

وكان أن فكر عندئذ في أن الورم قد كف عن إيلامه في بطنه. تخيلته مكوراً - الآن أحس هو بالشعور نفسه -، متورماً مثلما شمس داخلية، غير محتمل مثل حشرة صفراء تمد شعيراتها الذميمة نحو عمق الأمعاء (أحس أن أحشاءه قد اضطربت كما قبل حاجة عضوية وشيكة) ربما أُصاب ذات يوم بورم مثل ورمه. سيكون في البدء كرة صغيرة، لكنها متنامية، تأخذ بالتفرع، وتكبر في بطني مثل جنين. وربما سأشعر به عندما يبدأ في التحرك، والانتقال نحو الداخل بغضب طفل يسير في نومه، متنقلاً عبر أمعائي، أعمي - وضع يديه على معدته ليكبح الألم الحاد - بأيديه الجزعة ممدودة نحو الظل، باحثة عن الرحم الدافئ، عن الرحم المضياف الذي لن تعثر عليه أبداً؛ وفي أثناء ذلك تأخذ أرجله المئة بالتشابك في حبل سري طويل وأصفر. أجل. ربما أُصاب أنا - المعدة - مثل هذا الأخ الذي مات للتو، بورم في جذر الأحشاء. الرائحة التي كانت الحديقة قد أرسلتها تصل الآن قوية، مقززة، ملتفة بنتانة تثير الغثيان. يبدو الزمن كما لو أنه قد توقف عند حافة الفجر. ونجمة الصبح تخثرت على الزجاج، بينما الغرفة المجاورة، حيث كانت الجثة طوال الليلة الفائتة، مازالت تواصل دفع رسالتها من الفورمالدهيدو. إنها، حقاً، رائحة مختلفة عن رائحة الحديقة. فهذه رائحة أشد غماً، وأكثر تحديداً من تلك الرائحة المختلطة للزهور غير المتجانسة. رائحة كان يربطها على الدوام، بعد أن عرفها، بالجثث. كانت رائحة جليدية ووافرة خلفها

فورمول المدرجات. فكر في المختبر. تذكر الأحشاء المحفوظة في كحول مطلق، والطيور المحنطة. الأرنب المشبع بالفورمول يتصلب لحمه، ينزح ماءه ويفقد مرونته الوادعة إلى أن يتحول إلى أرنب أبدي، مخلد. أرنب فورمولي. من أين تنبعث هذه الرائحة؟ ***الطريقة الوحيدة لوقف التفسخ.*** لو ***كان لنا*** نحن البشر فورمول في عروقنا ***لصرنا*** مثل القطع التشريحية المغموسة في الكحول المطلق.

سَمِعَ، هناك في الخارج، وقع المطر المتزايد الذي يطرق زجاج النافذة المواربة. هواء بارد، بهيج وجديد دخل محملاً بالرطوبة. اشتدت برودة اليدين، وجعلته يشعر بحضور الفورمول في شرايينه، كما لو أن رطوبة الفناء قد تغلغلت في عظامه. رطوبة. «هناك» يوجد الكثير من الرطوبة. فكر بشيء من الاستياء في ليالي الشتاء التي ينفذ فيها المطر من خلال العشب، وتذهب الرطوبة لتنام على خاصرة أخيه، وتسري عبر جسده مثل جهاز دوران محدد. كان يبدو له أن الموتى يحتاجون إلى جهاز دوران آخر يطوح بهم نحو موت آخر لا خلاص منه وأخير. تمنى في هذه اللحظة ألا يهطل مزيد من المطر، وأن يكون الصيف فصلاً سرمدياً وسائداً. وبسبب ما كان يفكر فيه، شعر بالاستياء من إلحاح ذلك الوقع الرطب على زجاج النافذة. يريد أن يكون طين المقابر جافاً، وأن يظل جافاً دوماً، فقد كان يقلقه التفكير في أنه بعد انقضاء خمسة عشر يوماً، عندما تبدأ الرطوبة بالسريان عبر النخاع، لا يعود هناك رجل مثله، مثله بالضبط، تحت التراب.

أجل. ***هما*** كانا أخوين توءمين، متشابهين تماماً، لا يمكن لأحد التمييز بينهما من النظرة الأولى. وفي السابق، عندما كانا يعيشان حياتيهما المنفصلتين لم يكونا إلا ***أخوين توءمين***، عاديين ومنفصلين مثل رجلين مختلفين. لم يكن هناك أي عامل ***روحي*** مشترك بينهما. أما الآن، مع التصلب، والواقع الرهيب الذي يتسلق عبر ظهره كحيوان لا فقاري، هناك شيء قد ذاب في محيط جوه المتكامل،

شيء يعلن عن نفسه كخواء، كما لو أن هاوية سحيقة قد انفتحت إلى جانبه. أو كأن نصف جسده قد شُق بضربة فأس؛ ليس هذا الجسد التام، التشريحي، الخاضع لتحديد هندسي دقيق؛ ليس هذا الجسد الطبيعي الذي يشعر بخوف الآن، وإنما جسد آخر يأتي مما وراء جسده، وكان غارقاً معه في الليل المائي السائل للرحم الأمومي، وكان يتسلق معه فروع نسب قديم؛ وكان معه في دمٍ أربعة أزواج من الأسلاف، وجاء منذ الماوراء، منذ بداية الدنيا، حاملاً بثقله، بحضوره الغامض، التوازن الكوني كله. ربما كان في دماء عروق إسحاقٍ ورفقة، ربما كان أخوه الذي ولد مقيداً من عقبيه، وأقبل متعثراً من جيل لجيل، وليلة بعد ليلة، ومن قبلة إلى قبلة، ومن حُبٍ إلى حُبّ، نازلاً عبر أوردة وخصيات إلى أن وصل، كما في رحلة ليلية، إلى رحم أمه الأخيرة. المسار الغامض عبر الأسلاف يبدو له الآن مؤلماً وحقيقياً، الآن وقد اختل التوازن وتبين أن المعادلة نهائية. كان يعرف أن ثمة نقصاً في انسجامه الشخصي، في تكامله الشكلي واليومي: ***لقد تحرر يعقوب من عقبيه بصورة لا مفر منها***.

خلال أيام مرض أخيه لم يراوده هذا الشعور، لأن الوجه الهزيل المشوه من الحمى والألم، مع اللحية النامية، اختلف اختلافاً كبيراً عن وجهه.

عندما همدت بلا حراك، وهو ممدد على موته الكلي، استُدعي حلاق كي «يشذب» الجثة. كان هو حاضراً، ملتصقاً بالجدار، عندما جاء الرجل مرتدياً البياض ومسلحاً بأدوات مهنته النظيفة... وبدقة معلم محترف، غطى لحية الميت بالرغوة ـ الفم زبدي، هكذا رأيته قبل أن يموت ـ، وببطء، كمن هو آخذ بالكشف عن سر رهيب، بدأ حلاقتها. وكان أن داهمته عندئذ «تلك» الفكرة المرعبة. فبينما كان وجه أخيه التوءم الشاحب والترابي آخذاً بالظهور، مع مرور موسى الحلاقة عليه، بدأ هو يشعر أن تلك الجثة ليست ***شيئاً*** غريباً عنه، وإنما هي مصنوعة من مادته الأرضية نفسها، وأنها

تكراره الخاص... راوده الإحساس الغريب بأن ذويه قد انتزعوا من المرآة صورته، الصورة التي يراها منعكسة على زجاج المرآة وهو يحلق ذقنه. وهذه الصورة التي تستجيب الآن لكل حركة من حركاته، اكتسبت الاستقلال. لقد رآها تُحلَق في مرات أخرى، كل صباح. ولكنه يشهد التجربة الدراماتيكية في أن رجلاً آخر هو من ينتزع لحية صورة مرآته، صارفاً النظر عن حضوره العضوي. راوده يقين مؤكد بأنه إذا ما اقترب من مرآة، في تلك اللحظة، فسوف يجدها خاوية، حتى لو لم تجد الفيزياء تفسيراً دقيقاً لهذه الظاهرة. أهو وعي ازدواج الشخصية! أيكون أناه الآخر جثة! حاول، يائساً، إبداء رد فعل، تلمس الجدار الراسخ الذي صعد فيه باللمس مثل تيار أمان. أنهى الحلاق عمله، وأطبق برأس المقص جفني الجثة. ظل الليل يرتعش بداخله، في العزلة التي لا رجعة عنها للجسد المقتلع عن مثيله. هكذا كانا بالضبط. أخوان متطابقان، متكرران بصورة مثيرة للقلق.

وكان عندئذ، حين لاحظ مقدار ما هما عليه هاتين الطبيعتين من ترابط حميم، أن خطر له أن شيئاً استثنائياً، غير متوقع، سيحدث. تخيل أن انفصال الجسدين في المكان ليس إلا ظاهرياً في حين أن لهما، في الواقع، طبيعة واحدة، كلية. وربما حين يصل التفسخ العضوي إلى الميت، يبدأ هو، الحي، بالتعفن أيضاً ضمن عالمه المتحرك.

سمع كيف أن المطر بدأ يقطر بقوة أكبر على زجاج النافذة، وأن الجدجد قطع حبله فجأة. كانت يداه الآن باردتين بشدة، ببرودة طويلة منتزعة الأنسنة. ورائحة الفورمالدهيدو النفاذة جعلته يفكر في احتمال انجذابه إلى التعفن الذي ينقله إليه أخوه التوءم من هناك، من حفرته الجليدية في الأرض. هذا مجرد سخف! ربما تكون الظاهرة مقلوبة؛ فالتأثير يجب أن يمارسه هو المتبقي حياً، بطاقته، بخليته الحيوية! وربما ـ عند هذا المستوى ـ سيظل هو وأخوه على السواء على

حالهما، يدعمان توازناً بين الحياة والموت ليحميا نفسيهما من التفسخ. ولكن، من يمكنه تأكيد ذلك؟ أليس ممكناً أيضاً أن يظل الأخ الميت عصياً على التفسخ بينما يغزو التعفن الحي بأخطبوطاته الزرقاء؟

فكر في أن الفرضية الأخيرة هي الأكثر احتمالاً، واستسلم لانتظار مجيء ساعته الرهيبة. صار لحمه طرياً، دهنياً، وظن أنه يشعر بأن مادة زرقاء تكسوه بالكامل. تشمم نحو الأسفل وصول روائحه البدنية، لكن فورمول الحجرة المجاورة وحده هو الذي هز أغشية الشم لديه برجفة جليدية لا يمكن الخطأ بها. لم يعد يقلقه شيء بعد ذلك. ومن ركنه حاول الجدجد إعادة البدء بأغنيته، بينما بدأت ترشح من السقف قطرة كبيرة ومضبوطة على منتصف الحجرة بكامله. سمعها تهوي دون أن يُفاجأ لأنه يعرف أن الخشب عتيق في ذلك المكان؛ لكنه تخيل تلك القطرة المكونة من ماء بارد، طيب وودود، آتية من السماء، من حياة أفضل، حياة أكثر اتساعاً وأقل امتلاء بظواهر بلاهة، كالحب أو الهضم أو التوأمة. ربما ستملأ هذه القطرة الغرفة خلال ساعة، أو خلال ألف عام، وتُذيب هذا الدرع الفاني، هذه المادة عديمة الجدوى التي ربما ___ ولم لا؟ ـ لن تكون بعد لحظات قصيرة إلا مزيجاً لزجاً من زلال البيض والمصل. كل شيء متشابه الآن. وبينه وبين قبره لا يقف شيء سوى موته بالذات. ومستسلماً سمع القطرة، غليظة، ثقيلة، مضبوطة، ترتطم في العالم الآخر، في عالم الكائنات العاقلة الخاطئ والعبثي.

حواء في هرتها
Eva está dentro de su gato

(1948)

لاحظت فجأة أن جمالها قد انهار، وأنه صار يؤلمها جسدياً مثل ورم أو سرطان. مازالت تتذكر ثقل هذا الامتياز الذي حملته على جسدها خلال فترة المراهقة وتركته الآن يسقط عنها ـ من يدري أين ـ بإنهاك مستسلم، بإيماءة أخيرة لحيوان أصابه الانحطاط. من المستحيل مواصلة تحمل ذلك العبء مزيداً من الوقت. كان لابد لها من أن تترك في مكان ما تلك الصفة غير المجدية لشخصيتها، تلك القطعة من اسمها التي زادت عن الحاجة بقوة إبراز ذاتها. أجل، كان لابد من التخلي عن الجمال في أي مكان؛ عند منعطف ناصية، في ركن من الضواحي؛ أو تركه منسياً على مشجب الملابس في مطعم من الدرجة الثانية، مثل معطف عتيق لا نفع فيه. لقد تعبت من كونها محط كل اهتمام، ومن العيش محاصرة بنظرات الرجال الطويلة. في الليل، عندما تغرس في عينيها دبابيس السهاد، تتمنى أن تكون امرأة عادية، بلا جاذبية. ضمن جدران غرفتها الأربعة، يبدو كل شيء معادياً لها. وبيأس، تشعر بتطاول أرقها تحت بشرتها، في رأسها، دافعاً الحمى إلى أعلى، إلى جذور الشعر. بدا كما لو أن شرايينها قد سُكنت بحشرات صغيرة وساخنة، تستيقظ مع اقتراب الفجر، يومياً، وتذرع بقوائمها المتحركة، في مغامرة تحت جلدية ممزِقة، ذلك الجزء الطيني المزهر حيث كان يتموضع جمالها التشريحي. عبثاً كانت تحاول تلك الحشرات الرهيبة. لم يكن ذلك ممكناً. فقد كانت جزءاً من كيانها. إنها موجودة هناك، حية، منذ ما قبل وجودها العضوي بوقت طويل. أتت من قلب أبيها الذي غذاها

بصورة مؤلمة فـي ليـالي عزلتـه اليائسة. أو ربمـا انصبت فـي شـرايينها عبر الحبل الذي ربطها بأمها منذ بداية العالم. فمن غير المشكوك فيه أن تلك الحشرات لم تولد تلقائياً في جسدها. وهي تعرف أنها جاءتها من الماضي، وأنه كان على كل من حملوا لقبها أن يتحملوها، وأنهم عانوا منها مثلها عندما يتعذر التغلب على الأرق حتى الفجر. إنها هذه الحشرات نفسها التي ترسم هذا التعبير المرير، هذا الحزن الذي لا عزاء له في وجوه أسلافها. لقد رأتهم ينظرون من وجودهم المنطفئة، من صورتهم القديمة، ضحايا هذا الغم نفسه. إنها مازالت تتذكر وجه أم جدتها الباعث على القلق، والتي كانت تتوسل، من لوحة صورتها الهرمة، لحظة واحدة من الراحة، ثانية سلام من تلك الحشرات التي تواصل، هناك في مجاري دمها، تعذيبها وتجميلها دون رحمة. لا، هذه الحشرات ليست منها. إنها أتت منتقلة من جيل إلى جيل، داعمة بدروعها الدقيقة جداً كل شهرة طائفة مختارة، ومختارة بصورة مؤلمة. لقد ولدت هذه الحشرات في رحم أول امرأة حملت طفلة جميلة. ولكن، كان من الضروري، من الملح، وقف ذلك الإرث. كان لابد لأحد من التخلي عن مواصلة نقل ذلك الجمال المصطنع. لن يجدي نساء سلالتها نفعاً الإعجاب بأنفسهن عند عودتهن من المرآة، إذ كانت هذه الحشرات تقوم في الليل بعملها البطيء والفعال، دون هوادة، بثبات متواصل لقرون. لم يعد الأمر جمالاً، بل هو مرض يتوجب كبحه، لابد من قطعه بصورة حاسمة وجذرية.

مازالت تتذكر الساعات غير المتناهية في ذلك الفراش المزروع بإبر ساخنة. تلك الليالي التي كانت تحاول فيها دفع الزمن كي تتوقف هذه الحشرات، مع مجيء النهار، عن إيلامها. ما نفع جمال مثل هذا؟ كانت تفكر، ليلة إثر ليلة، وهي غارقة في يأسها، بأنه كان من الخير لها أن تكون امرأة عادية، أو أن تكون رجلاً، بدل التمتع بهذه الفضيلة غير المجدية، والتي تتغذى على حشرات نائية

الأصول تُسَّرع في مجيء الموت المحتم إليها. ربما ستكون سعيدة لو كانت لها تلك المشية الخرقاء، وذلك القبح المحزن نفسه الذي لصديقتها التشيكوسلوفاكية التي لها اسم كلب. كان من الأفضل لها أن تكون قبيحة، كي تتمكن من النوم بهدوء مثل أي مسيحي آخر.

لعنت أسلافها. فهم المسؤولون عن أرقها. هم الذين تناقلوا هذا الجمال الثابت، الدقيق، كما لو أن الأمهات، بعد موتهن، يهززن رؤوسهن ويجددنها ليُطَعِّمن بها جذوع بناتهن. كان ذلك كما لو أن الرأس نفسه، رأس واحد فقط، جرى تناقله، بالأذنين نفسيهما، وبأنف مشابه وفم متطابق، وبالذكاء الثقيل نفسه، في النساء كلهن اللواتي كان عليهن تلقيه دون مفر كميراث جمال مؤلم. وهناك، في انتقال الرأس، أتى ذلك الميكروب الأبدي الذي ازداد رسوخاً عبر الأجيال، واكتسب شخصية، وقوة، حتى تحول إلى كائن لا يُقهر، إلى مرض لا شفاء منه، وعند وصوله إليها، بعد أن مرّ بعملية مراقبة معقدة، صار مريراً ومؤلماً، من غير الممكن تحمّله... مثل ورم أو سرطان بالضبط.

وفي ساعات الأرق تلك كانت تتذكر الأشياء التي تضايق حساسيتها المرهفة. تتذكر تلك الأشياء التي تشكل العالم العاطفي، حيث نمت، كما في حساء كيميائي، تلك الميكروبات الباعثة على اليأس. وفي الليالي، بعينيها المدورتين المفتوحتين والمفزعتين، كانت تتحمل وطأة الظلام الذي يسقط على صدغيها مثل رصاص ذائب. وفي ما حولها تغفو الأشياء كلها. ومن ركنها، تحاول هي، كي تخدع النعاس، أن تراجع ذكريات طفولتها.

لكن التذكر كان ينتهي على الدوام برعب من المجهول. كانت أفكارها، بعد أن تجول في أركان البيت القاتمة، تجد نفسها دوماً في مواجهة الخوف. وعندئذ يبدأ الصراع. الصراع الحقيقي ضد ثلاثة أعداء ثابتين. لم يكن بمقدورها ـ لا، لم يكن بمقدورها أبداً ـ أن

تنزع الخوف من رأسها. كان عليها تحمّله مشدوداً إلى حنجرتها. وكل هذا لمجرد العيش في هذا المنزل القديم، من أجل أن تنام وحيدة في ذلك الركن، بعيدة عن بقية العالم.

كانت أفكارها تمضي دوماً عبر الممرات الرطبة المظلمة، تنفض عن الصور الغبار المتيبس والمغطى بنسيج العناكب. هذا الغبار المُقلق والرهيب الذي يتساقط من أعلى، من ذلك المكان الذي تتحلل فيه عظام أسلافها. وكانت تتذكر على الدوام «الطفل». تتخيله هناك، سائراً في نومه، تحت العشب في الفناء، بجانب شجرة البرتقال، وفي فمه حفنة من تراب مبلل. يبدو لها كأنها تراه في عمقه الطيني، يحفر نحو الأعلى بأظافره، بأسنانه، هارباً من البرد الذي يعض ظهره؛ باحثاً عن مخرج إلى الفناء عبر ذلك النفق الصغير الذي حشروه فيه مع الحلزونات. في الشتاء تسمعه ينتحب ببكائه الطفلي، متسخاً بالوحل، مغموراً بالمطر. كانت قد تصورته كاملاً. في الحال التي تركوه عليها قبل خمس سنوات في تلك الحفرة الممتلئة بالماء. لا يمكنها التفكير في أنه قد تحلل. بل على العكس، لابد أنه جميل جداً وهو يبحر في ذلك الماء الكثيف كما في رحلة لا مخرج منها؛ أو تراه حياً، لكنه مذعور، خائف من كونه وحيداً، مدفوناً في فناء بالغ الكآبة. هي نفسها كانت قد اعترضت على تركه هناك، تحت شجرة البرتقال، على مقربة شديدة من البيت. كانت تخافه. كانت تعرف أنه في الليالي التي يلاحقها فيها الأرق سيعرف هو ذلك. سيعود عبر الممرات الفسيحة ليطلب منها أن ترافقه، ليطلب منها أن تدافع عن نفسها من تلك الحشرات الأخرى التي تقرض جذور أزهار بنفسجها. سيعود إليها كي تسمح له بالنوم إلى جانبها مثلما كان يفعل وهو حي. إنها تخاف من أن تشعر به من جديد إلى جوارها بعد أن يكون قد قفز عن جدار الموت. تخاف من سرقة هاتين اليدين اللتين يجيء بهما «الطفل» مطبقتين دوماً كي تدفئا قطعة جليده الصغيرة. كانت تود، بعد أن رأته يتحول إلى إسمنت،

مثل تمثال الخوف مدفوناً فوق الطين، أن يأخذوه بعيداً كي لا تتذكره في الليل. ومع ذلك تركوه هناك، حيث يقبع الآن غير متأثر، رثاً، يغذي دمه بوحل الديدان. وعليها أن تذعن لرؤيته عائداً من عمق ظلماته. لأنها دوماً، ودون تغيير، حين تقبع مؤرقة، تأخذ بالتفكير في «الطفل» الذي لابد أنه يناديها من قطعة أرضه الصغيرة كي تساعده على الهرب من ذلك الموت العبثي.

ولكنها الآن، في حياتها الجديدة، الزمانية، وغير المكانية، صارت أكثر طمأنينة. إنها تعرف أن كل شيء، هناك، خارج عالمها، سيواصل مساره بالإيقاع السابق نفسه؛ وأنه لابد لغرفتها من أن تكون لا تزال غارقة في الفجر، وأن أشياءها، أثاثها، كتبها الثلاثة عشر المفضلة، مازالت في أماكنها. وأنه في سريرها الخاوي، بالكاد بدأ يتبدد الآن عبق الجسد الذي كان يحتل فراغها كامرأة مكتملة. ولكن، كيف أمكن حدوث «هذا»؟ كيف أمكن لها هي، بعد أن كانت امرأة جميلة، يعج دمها بالحشرات، ويلاحقها خوف الليل الشامل، أن تكون قد تركت الآن الكابوس الهائل، الأرق، كي تلج الآن عالماً غريباً، مجهولاً، أُلغيت فيه كل الأبعاد؟ تذكرت. في تلك الليلة ـ ليلة تحولها ـ كانت البرودة أشد من المألوف، وكانت وحيدة في البيت، يعذبها الأرق. لم يكن هناك من يعكر الصمت، والرائحة التي تصعد من الحديقة كانت رائحة خوف. كان العرق ينبثق من جسدها كما لو أن دم شرايينها ينسكب مع شحنته من الحشرات. كانت تتمنى أن يمر أحد في الشارع، أن يصرخ أحد، ويكسر ذلك الجو الراكد. أن يتحرك شيء في **الطبيعة**، أن تعود الأرض للدوران حول الشمس. ولكن دون جدوى. لم يستيقظ حتى أولئك الرجال الحمقى الذين ظلوا نائمين تحت أذنها، داخل الوسادة. وهي أيضاً كانت ثابتة بلا حراك. كانت الجدران تفوح برائحة طلاء قوية وطازجة، تلك الرائحة الكثيفة، العظيمة التي لا تُشم بالأنف وإنما بالمعدة. وفوق المنضدةِ الساعةُ الوحيدة، تقرع الصمت بآليتها

المميتة. «الزمن... آه، الزمن...!» تتهدت متذكرة الموت. وهناك، في الفناء، تحت شجرة البرتقال، كان «الطفل» لا يزال يبكي بكاءه الخافت من العالم الآخر.

لجأت إلى كل معتقداتها. لماذا لا يطلع الفجر في تلك اللحظة، أو تموت هي دفعة واحدة؟ لم يدر بخلدها قط أن الجمال سيكلفها كل هذه التضحيات. في تلك اللحظة ـ كما هي العادة ـ كان جمالها لا يزال يؤلمها فوق الخوف. وتحت الخوف كانت تواصل تعذيبها تلك الحشرات الدؤوبة. كان الموت قد شدها بإحكام إلى الحياة مثل رتيلاء تنهشها بحنق، مستعدة لدفعها إلى الإذعان. لكن اللحظة الأخيرة كانت تتأخر. ويداها، هاتان اليدان اللتان يشد عليهما الرجال ببلاهة، بعصبية بهيمية جلية، كانتا بلا حراك، يشلهما الخوف، هذا الرعب غير العقلاني الآتي من أعماقها، دون أي مسوغ، إلا معرفتها بأنها مهجورة في هذا البيت القديم. حاولت إبداء ردّ فعل، لكنها لم تستطع. كان الخوف قد امتصها تماماً، وظل هناك، ثابتاً، عنيداً، وشبه متجسد؛ كما لو أنه شخص غير مرئي قرر عدم الخروج من غرفتها. وكان أكثر ما يقلقها هو أن هذا الخوف ليس له أي مسوغ، وإنه خوف فريد، بلا سبب، خوف لمجرد الخوف.

كان اللعاب قد صار كثيفاً على لسانها. وكان مُعذِّباً بين أسنانها ذلك الصمغ القاسي الذي يلتصق بالحلق ويسيل دون أن تستطيع وقفه. كانت تشعر برغبة مختلفة عن الظمأ. رغبة سامية تشعر بها أول مرة في حياتها. وللحظة نسيت جمالها، سهادها، خوفها اللاعقلاني. ولم تعد تعرف نفسها. وظنت لبرهة أن الميكروبات قد خرجت من جسمها. أحست أنها قد التصقت بلعابها. أجل، هذا كله جيد جداً. جيد أن الحشرات قد هجرتها وأنها تستطيع الآن أن تنام؛ ولا بد لها من إيجاد وسيلة لإذابة ذلك الراتينج الصمغي الذي يخدر لسانها. لو أنها تستطيع الوصول إلى حجرة المؤونة و... ولكن ما هذا

الـذي تفكـر فـيه؟ انتفـضت مفاجـأة. فهـي لم تـشعر قـط بـ «هـذه الرغبة». إلحاح الحموضة أضعفها، ولم يعد مجدياً الانضباط الذي اتبعته بإخلاص لسنوات عديدة، منذ اليوم الذي دفنوا فيه «الطفل». إنهـا حماقـة، لكنهـا كانـت تـشعر بـاشمئزاز مـن أكـل برتقالـة. وكانت تعرف أن «الطفل» قد صعد حتى أزهار البرتقال وأن ثمار الخريف المقبل ستكون متخمة بلحمة، باردة ببرودة موته الرهيبة. لا، لا يمكنها أكلها. كانت تعرف أنه تحت كل شجرة برتقال في العالم هناك طفل مدفون يمنح الثمار الحلاوة بكلس عظامه. ومع ذلك، عليها أن تأكل الآن برتقالة. فهي العلاج الوحيد لهذا الصمغ الذي يخنقها. من الحماقة التفكير في أن «الطفل» موجود داخل ثمرة. ستستغل هذه اللحظة التي كف فيها الجمال عن إيلامها لتصل إلى حجرة المؤونة. ولكن... ألم يكن ذلك غريباً؟ إنها المرة الأولى في حياتها التي تشعر فيها برغبة حقيقية في أكل برتقالة. بدت سعيدة، سعيدة. آه، يا للمتعة! أن تأكل برتقالة. لم تدر ما السبب، لكنها لم تشعر قط بمثل هذه الرغبة الملحة! ستنهض، سعيدة بأنها صارت، مرة أخرى، امرأة عادية، وستصل وهي تغني إلى حجرة المؤونة، وهي تغني بسعادة، كامرأة جديدة، حديثة الولادة. بل إنها ستصل إلى الفناء و...

تهشمت الذكرى فجأة. كانت تتذكر أنها حاولت النهوض، وأنها لم تعد في سريرها، وأن جسدها قد اختفى، وأنه لم يعد هناك وجود لكتبها الثلاثة عشر المفضلة، وأنها هي ليست هي. إنها تجلس معتدلة الآن، تطفو، تشرد فوق عدم مطلق، متحولة إلى نقطة لا شكل لها، صغيرة جداً، دون وجهة. لم يكن بإمكانها تحديد ما جرى. كانت مشوشة. لديها إحساس فقط بأن هناك من دفعها نحو الفراغ من أعلى هاوية قمة سحيقة. أحست بأنها تحولت إلى كائن تجريدي، تخيلي. أحست أنها تحولت إلى امرأة لا مادية؛ كما لو أنها قد دخلت فجأة عالم الأرواح الطاهرة الشاهق والمجهول.

عادت إلى الشعور بالخوف. لكنه خوف مختلف عن الذي أحست به في اللحظة السابقة. فهو لم يعد الخوف من بكاء «الطفل». كان رعباً من غرابة، من غموض عالمها الجديد المجهول. والتفكير في أن ذلك كله قد حدث بصورة بالغة البراءة، بكثير من السذاجة من جانبها! ما الذي ستقوله لأمها التي ستعلم لدى عودتها إلى البيت بما حدث؟ بدأت تفكر في الذعر الذي سيصيب الجيران حين يفتحون باب غرفتها ويكتشفون أن الفراش خاو، وأن الأقفال لم تمس، وأنه لا يمكن لأحد أن يكون قد دخل أو خرج؛ ومع ذلك، هي ليست هناك. تصورت ملامح أمها اليائسة وهي تبحث عنها في كل أرجاء الغرفة، متكهنة، تُساءل نفسها «ما الذي جرى لهذه البنت؟». بدا لها المشهد واضحاً. سيلتم الجيران ويبدؤون في نسج تعليقات ـ بعضها خبيث ـ حول اختفائها. وسيفكر كل واحد منهم حسب طريقته الخاصة في التفكير. وسيحاول كل واحد تقديم أكثر التفسيرات منطقية، أو أكثرها قبولاً على الأقل، بينما أمها تركض يائسة عبر ردهات البيت الكبير، منادية إياها باسمها.

وستكون هي هناك. تتأمل اللحظة، تفصيلاً إثر تفصيل، من ركن ما، من السقف، من شقوق الجدار، أو من أي مكان؛ من الزاوية المناسبة، محتمية بوضعها غير المادي، بحالتها اللامكانية. كان التفكير في ذلك يضايقها. لقد أدركت الآن خطأها. لن تتمكن من تقديم أي تفسير، أو توضيح أي شيء، أو مواساة أحد. ولا يمكن لأي كائن حي أن يعلم بتحولها. الآن لن يكون لها فم ولا ذراعان ـ وربما هي المرة الوحيدة التي تحتاج إليها ـ ليعلم الجميع أنها هناك، في الركن، منفصلة عن العالم ثلاثي الأبعاد بمسافة لا سبيل إلى اجتيازها. كانت معزولة في حياتها الجديدة، ممنوعة تماماً من التقاط أحاسيس. إلا أن هناك، في كل لحظة، شيء يختلج فيها، قشعريرة تجتاحها، تغمرها، تجعلها تعرف عن هذا الكون العضوي الآخر الذي يتحرك خارج عالمها. لم تكن تشم، ولا ترى، لكنها

تعرف هذا الصوت وهذه الرؤيا. وهناك، في علياء عالمها العلوي، بدأت تعرف أن جواً من الغم يحيط بها.

قبل أقل من لحظة ـ وفق معايير عالمنا الزمني ـ كانت قد حققت الانتقال، بحيث أنها الآن فقط بدأت تعرف عادات وخصائص عالمها الجديد. في ما حولها، كانت تدور ظلمة مطلقة، جذرية. إلى متى سيدوم هذا الضباب؟ أيكون عليها أن تعتاده إلى الأبد؟ ازداد تركز غمها حين علمت أنها غارقة في هذا الضباب الكثيف العصي على الاختراق: أتكون في الليمبو؟ ارتعشت. تذكرت كل ما سمعته يوماً عن الليمبو. إذا كانت هناك حقاً فلابد أن تكون طافية في ما حولها أرواحٌ طاهرة لأطفال ماتوا دون تعميد، ممن كانوا يموتون طوال ألف عام. حاولت البحث في الظلمة عن مجاورة تلك الكائنات التي لابد أن تكون أشد نقاءً، وأكثر بساطة منها. كائنات معزولة تماماً عن العالم العضوي، ومحكومة بحياة السير نوماً والأبدية. ربما كان «الطفل» يبحث عن مخرج كي يصل إلى جسده.

ولكن لا. لماذا تكون في الليمبو؟ أتراها ماتت؟ لا. إنه مجرد تحول في الحالة، انتقال عادي من العالم العضوي إلى عالم أكثر سهولة، غير معقد، أُزيلت منه الأبعاد كلها.

لن يكون عليها الآن أن تعاني من تلك الحشرات تحت الجلدية. لقد انهار جمالها. والآن، في هذه الحالة الأولية، يمكنها أن تكون سعيدة. حتى لو ... ـ آه! ـ ليست سعيدة بالكامل، لأن رغبتها الأعظم الآن، الرغبة في أكل برتقالة، لم تعد قابلة التحقيق. إنه الشيء الوحيد الذي رغبت من أجله أن تكون مازالت في حياتها الأولى. كي تتمكن من إشباع الحاجة إلى الحموضة التي مازالت تلح عليها بعد الانتقال. حاولت توجيه نفسها لتصل إلى غرفة المؤونة، ولو لمجرد الشعور، على الأقل، بالرفقة الباردة والحامضة لحبات البرتقال. وكان أن اكتشفت عندئذ خاصية أخرى من خواص عالمها: إنها في كل مكان من البيت، في الفناء، في السقف، وحتى في شجرة

برتقال «الطفل». إنها في العالم العضوي الماورائي كله. ولكنها، مع ذلك، ليست في أي مكان. أحست مجدداً بالقلق. لقد فقدت السيطرة على نفسها. إنها خاضعة الآن لإرادة أعلى، إنها كائن بلا جدوى، عبثي، لا نفع فيه. ودون أن تدري السبب، بدأت تحزن. بل إنها بدأت تشعر تقريباً بالحنين إلى جمالها؛ إلى ذلك الجمال الذي هدرته تماماً هي نفسها.

لكن فكرة سامية بعثت فيها الحماسة. ألم تسمع بأنه يمكن للأرواح الطاهرة أن تدخل بإرادتها إلى أي جسد؟ وما الذي ستخسره، على أي حال، إذا ما حاولت ذلك؟ حاولت أن تتذكر مَن مِن أهل البيت يمكن إخضاعه للتجربة. إذا ما توصلت إلى تحقيق هدفها ستكون راضية: ستتمكن عندئذ من أكل برتقالة. تذكرت. ليس من عادة الخدم أن يكونوا هناك في مثل هذا الوقت. وأمها لم تصل بعد. لكن الحاجة إلى أكل برتقالة، وقد أضيف إليها الآن الفضول لرؤية نفسها مجسدة في جسد مختلف عن جسدها، أجبرها على التصرف بأسرع ما يمكن. ولكن لم يكن هناك أحد تتجسد فيه. إنه سبب محزن: لا يوجد أحد في البيت. عليها أن تعيش بصورة مؤبدة معزولة عن العالم الخارجي، في عالمها الخالي من الأبعاد، دون أن تتمكن من أكل أول برتقالة. وكل ذلك بسبب تفاهة. كان من الأفضل لها أن تواصل تحمل ذلك الجمال المعادي لبضع سنوات أخرى، بدل إلغاء نفسها إلى الأبد، والتحول إلى عديمة جدوى مثل بهيمة مستنفدة. لكن الأوان قد فات.

كانت على وشك الانسحاب، مخذولة، إلى منطقة نائية من الكون، إلى ناحية تستطيع فيها نسيان كل رغباتها الأرضية الماضية. لكن شيئاً جعلها تتوقف فجأة. لقد انفتح في عالمها المجهول وعد بمستقبل أفضل. أجل، هناك في البيت من يمكنها أن تتجسد فيه... في الهر! ترددت بعد ذلك. فمن الصعب عليها أن تعيش في حيوان. سيكون لها فرو ناعم، أبيض، وستتركز في عضلاتها

طاقة هائلة للقفز. وستشعر في الليل بعينيها تلمعان في الظلام مثل جمرتين خضراوين. وستكون لها أسنان بيضاء حادة، تبتسم بها لأمها من قلبها الهرّي ابتسامة حيوان عريضة وطيبة. ولكن لا...! هذا غير ممكن. تصورت نفسها فجأة محشورة في جسد قطة، تجوب من جديد ردهات البيت، مستخدمة أربع قوائم غير مريحة، مع ذلك الذيل الذي يتحرك طليقاً، بلا إيقاع، وغريب عن إرادتها. كيف ستكون الحياة من خلال هاتين العينين الخضراوين المضيئتين؟ في الليل ستموء متوجهة إلى السماء كي لا تصب إسمنتها القمري على وجه «الطفل» المستلقي ووجهه إلى أعلى مرتشفاً الندى. ربما ستشعر بالخوف أيضاً في وضعها الهرّي. وربما لن تستطيع، في نهاية المطاف، أكل البرتقالة بذلك الفم اللاحم. برودة آتية من هناك بالذات، متولدة من جذور روحها بالضبط، فارتعشت في ذاكرتها. لا، لا يمكن لها أن تتقمص القط. فهي تخشى أن تستشعر ذات يوم في حلقها، في حنجرتها، في جسدها رباعي القوائم كله، برغبة لا تُقاوم في أكل فأر. ربما لن تشعر برغبة في أكل برتقالة عندما تبدأ روحها بسكنى جسد القط، وإنما برغبة ملحة ومقرفة في أكل فأر. اجتاحتها قشعريرة وهي تتخيله أسيراً بين أسنانها بعد اصطياده. أحست به يجاهد في آخر محاولاته للهرب، في محاولة تحرير نفسه ليصل مرة أخرى إلى جحره. لا. كل شيء إلا هذا. من الخير لها أن تظل هناك إلى الأبد، في عالم الأرواح الطاهرة البعيد والغامض هذا.

لكن كان من الصعب الاستسلام للعيش منسية إلى الأبد. ولماذا عليها أن تشعر بالرغبة في أكل فأر؟ من الذي سيتفوق في هذا التركيب من امرأة وهرة؟ هل ستتفوق غريزة الجسد الحيوانية البدائية، أم إرادة المرأة النقية؟ وكانت الإجابة واضحة، بلورية. ليس هناك ما يدعو للخوف. ستتقمص الهر وستأكل برتقالتها المشتهاة. ثم إنها ستكون كائناً غريباً: هرٌّ له ذكاء امرأة جميلة. وستعود لتكون

محط كل الاهتمام... وكان أن أدركت عندئذ، وأول مرة، أنه فوق كل فضائلها، كان يهيمن غرورها كامرأة متافيريقية.

ومثل حشرة حين تضع قرون استشعارها في حالة تأهب، وجّهت طاقتها عبر كل أرجاء البيت بحثاً عن القط. لابد أنه مازال، في هذا الوقت، فوق المدفأة يحلم بأنه سيستيقظ وبين أسنانه عود ناردين. لكنه لم يكن هناك. عادت للبحث عنه، لكنها لم تجد المدفأة. والمطبخ لم يعد هو نفسه. وكانت أركان البيت غريبة؛ فهي لم تعد تلك الأركان المظلمة الممتلئة بخيوط العنكبوت. ولم يكن القط في أي مكان. بحثت على قرميد السطح، على الأشجار، في القنوات، تحت السرير، في غرفة المؤونة. وجدت كل شيء مختلطاً. فحيث ظنت أنها وجدت صور أسلافها، في مرة سابقة، لم تجد سوى قارورة زرنيخ. وابتداء من هناك، وأينما توجهت، كانت تجد زرنيخاً في كل أنحاء البيت، أما القط فاختفى. لم يعد البيت هو البيت السابق نفسه. ماذا جرى لأشيائها؟ ولماذا تغطي كتبها الثلاثة عشر المفضلة الآن طبقة من الزرنيخ؟ تذكرت شجرة برتقال الفناء. بحثت عنها وحاولت أن تجد «الطفل» من جديد في حفرته المائية. لكن شجرة البرتقال لم تكن في مكانها، ولم يعد «الطفل» سوى حفنة زرنيخ ورماد تحت صبَّة إسمنت ثقيلة. إنه ينام الآن نوماً نهائياً بالفعل. كل شيء كان مختلفاً. وكان البيت يعبق برائحة زرنيخ قوية تصفع حاسة شمها كما لو كانت تنبعث من عمق صيدلية.

عندئذ فقط أدركت أن ثلاثة آلاف عام قد انقضت منذ ذلك اليوم الذي رغبت فيه أن تأكل البرتقالة الأولى.

مرارةٌ لثلاثة سائرين نياماً

Amargura para tres sonámbulos

(1949)

إنها هناك الآن، مهجورة في أحد أركان البيت. أحدهم قال لنا قبل أن نُحضر أشياءها ـ ملابسها المفعمة برائحة خشب قُطع حديثاً، وحذاءها الخفيف الخاص بالوحل ـ إنها لا تستطيع أن تعتاد على تلك الحياة البطيئة، بلا طعوم حلوة، وبلا أي جاذبية سوى تلك العزلة القاسية المحكمة، الضاغطة على ظهرها دوماً. أحدهم قال لنا ـ وقد مر وقت طويل قبل أن نتذكر ذلك ـ إنه كان لها طفولة أيضاً. ربما لم نصدقه آنذاك. أما الآن، ونحن نراها جالسة في الركن، بعينين مذهولتين، وبإصبع على شفتيها، ربما نتقبل أنه كانت لها طفولة في أحد الأوقات، وربما كانت لها لمسة حساسة للبرودة التي تسبق المطر، ولأنها تحملت على الدوام إلى جانب جسدها، ظلاً غير متوقع.

هذا كله ـ وأشياء أكثر بكثير ـ صدقناه في ذلك المساء الذي أدركنا فيه أنها، بغض النظر عن عالمها السفلي الرهيب، كائن إنساني بالكامل. عرفنا ذلك، عندما بدأت فجأة، كما لو أن زجاجاً قد تحطم في الداخل، تُطلق صرخات مغمومة؛ بدأت تنادي كل واحد منا باسمه، متحدثة من خلال الدموع إلى أن جلسنا بجانبها؛ ورحنا نغني ونصفق، كما لو أنه يمكن لصخبنا أن يعيد اللحمة إلى الزجاج المفتت. وعندئذ فقط استطعنا أن نصدق أنه كانت لها طفولة في أحد الأوقات. بدا كما لو صرخاتها تشبه كشفاً بطريقة ما، كما لو أن فيها الكثير من شجرة مُتَذَكَّرة ونهر عميق، وعندما

نهضت، انحنت قليلاً إلى الأمام، ولم تكن قد غطت وجهها بعد بمريلتها، ولم تكن قد نفّت أنفها بعد، وكانت لا تزال دامعة العينين، وقالت لنا:

« لن أعود للابتسام».

خرجنا إلى الفناء، ثلاثتنا، دون أن نتكلم. ربما اعتقدنا أننا نحمل أفكاراً مشتركة. ربما فكرنا في أنه لن يكون من المستحسن إضاءة أنوار البيت. كانت ترغب في أن تظل وحيدة ـ ربما ـ، جالسة في الركن المظلم، تجدل الضفيرة الأخيرة التي يبدو أنها الشيء الوحيد الذي سيبقى من تحولها إلى البهيمة.

وفي الخارج، في الفناء، بينما نحن غارقون في بخار الحشرات العميق، جلسنا لنفكر فيها. لقد فعلنا ذلك في مرات سابقة. ويمكن لنا القول إننا كنا نفعل ما كنا نفعله في كل يوم من حياتنا.

ومع ذلك، كان الأمر مختلفاً في تلك الليلة. فقد قالت إنها لن تعود إلى الابتسام. وأيقنا، نحن الذين نعرفها جيداً، أن الكابوس قد تحول إلى حقيقة. وبينما نحن نجلس على شكل مثلث، كنا نتخيلها هناك في الداخل، تجريدية، عاجزة حتى عن سماع الساعات التي لا حصر لعددها وهي تقيس الإيقاع المحدد والدقيق، إيقاع تحولها إلى غبار. وفكرنا معاً: «لو كانت لدينا الشجاعة على الأقل لتمني موتها». لكننا كنا نريدها هكذا: قبيحة وجليدية، كمساهمة بائسة في عيوبنا الخفية.

كنا راشدين منذ ما قبل ذلك، منذ وقت بعيد. وكانت هي مع ذلك أكبر من في البيت سناً. وكان يمكن لها، في هذه الليلة بالذات أن تكون هناك، جالسة معنا، تشعر بنبض النجوم المرتعش، محاطة بأبناء أصحاء. كان يمكن لها أن تكون سيدة البيت المحترمة لو أنها صارت زوجة برجوازي طيب أو عشيقة رجل منظم ودقيق في عمله. لكنها اعتادت العيش في بُعد واحد، مثل الخط المستقيم، ربما لأنه لا يمكن لرذائلها أو فضائلها أن تُعرف من منظور جانبي.

كنا قد عرفنا ذلك كله منذ سنوات عديدة. حتى إننا لم نفاجأ ذات صباح، بعد استيقاظنا، حين رأيناها منبطحة في الفناء، تعض التراب في حالة سكون قاسية. عندئذ ابتسمت، وعادت تنظر إلينا. كانت قد سقطت من نافذة الطابق الثاني على طين الفناء. وظلت هناك متصلبة ومجسمة، مطروحة على وجهها فوق الطين الرطب. لكننا عرفنا بعد ذلك أن الشيء الوحيد الذي احتفظت به سليماً هو الخوف من المسافات، الخوف طبيعي في مواجهة الفراغ. رفعناها من كتفيها. لم تكن متصلبة مثلما بدت في البدء. بل على العكس، فقد كانت أعضاؤها مسترخية، متحللة من الإرادة، مثل ميت دافئ لم يبدأ في التصلب.

كانت عيناها مفتوحتين، وفمها متسخاً بذلك التراب الذي لابد أن له في فمها طعم ترسبات قبورية، عندما وضعناها ووجهها نحو الشمس، وبدا ذلك كما لو أننا قد وضعناها أمام مرآة. نظرت إلينا جميعاً بملامح منطفئة خالية من الجنس، أوحت لنا ـ وأنا أحملها بين ذراعي ـ بمقدار غيابها. قال لنا أحدهم إنها قد ماتت؛ وظلت مبتسمة بعد ذلك بتلك الابتسامة الباردة والهادئة التي كانت لها في الليل وهي تجول يقظة في أرجاء البيت. قالت إنها لم تدر كيف وصلت إلى الفناء. قالت إنها شعرت بحر شديد، وإنها كانت تسمع صوت جدجد نفاذ ـ هكذا قالت ـ يوشك أن يقوض جدار غرفتها، وإنها راحت تتذكر ترتيلات يوم الأحد، وخدها مشدود إلى الأرضية الإسمنتية.

كنا نعرف، مع ذلك، أنها غير قادرة على تذكر أي ترتيلة، كما اكتشفنا في ما بعد أنها فقدت كل مفهوم للزمن عندما قالت إنها نامت وهي تمسك من الداخل الجدار الذي كان الجدد يدفعه من الخارج، وإنها كانت نائمة تماماً عندما أمسكها أحدهم من كتفيها، وأبعد الجدار جانباً ووسدها موجهاً وجهها نحو الشمس.

في تلك الليلة، ونحن جالسون في الفناء، عرفنا أنها لن تعود إلى الابتسام من جديد. ربما آلمتنا جديتها الخالية من أي تعبير، وعيشها

القاتم والعنيد مهملة. كان يؤلمنا بعمق، مثلما آلمنا يوم رأيناها تقبع في الركن، حيث هي الآن؛ وسمعناها تقول إنها لن تعود بعد الآن إلى التجوال في البيت. لم نستطع تصديقها في البدء. فقد رأيناها طوال شهور كاملة تتنقل في غرف البيت في كل الأوقات، برأس متصلب وكتفين متهدلين، دون توقف، دون أي تعب على الإطلاق. كنا نسمع في الليل ضوضاءها الجسدي، كثيفاً، وهي تتحرك بين ظلمتين، وقد نظل في أحيان كثيرة مستيقظين في الفراش، نصغي إلى مشيتها المتكتمة، نلاحقها بأسماعنا عبر البيت كله. وقد قالت لنا، ذات مرة، إنها رأت الجدجد في المرآة، غارقاً، غائصاً في الشفافية الصلدة، وإنها اخترقت سطح الزجاج لتصل إليه. لم ندرِ في الواقع ما الذي كانت تعنيه، لكننا استطعنا جميعنا تبين أن ثيابها كانت مبللة، ملتصقة بجسدها، كما لو أنها خرجت للتو من بركة. ودون أن نحاول تفسير الظاهرة، قررنا القضاء على كل حشرات البيت: تحطيم الأشياء والهواجس المتسلطة على عقلها.

طلبنا تنظيف الجدارن. وأمرنا بقطع نباتات الفناء، فكان ذلك كما لو أننا نظفنا صمت الليل من نفايات قليلة. لكننا لم نعد نسمعها تمشي، ولم نعد نسمعها تتكلم عن الجداجد، حتى اليوم الذي ظلت، بعد وجبة الطعام الأخيرة، تنظر فيه إلينا، وجلست على الأرض الإسمنتية، دون أن تتوقف عن النظر إلينا، وقالت: «سأظل جالسة هنا»؛ فاجتاحتنا قشعريرة، لأننا استطعنا أن نرى أنها بدأت تشبه شيئاً يكاد يكون مثل الموت تماماً.

مضى على ذلك زمن طويل، حتى إننا اعتدنا على رؤيتها هناك، جالسة بضفيرتها نصف المجدولة، كما لو أنها ذابت في عزلتها وفقدت، وإن كانت مرئية، مَلَكَة الحضور الطبيعية. لهذا عرفنا الآن أنها لن تعود إلى الابتسام أبداً؛ لأنها قالت ذلك بقناعة وبالثقة ذاتها التي قالت بها لنا ذات مرة إنها لن تعود إلى المشي. فكان ذلك كما لو أننا موقنون من أنها ستقول لنا في ما بعد: «لن أعود إلى الرؤية»، أو

ربما: «لن أعود إلى سماع شيء»، وعرفنا أنها بشرية بما يكفي لأن تمضي، بإرادتها، في تصفية وظائفها الحيوية، وأن تشرع، بصورة متزامنة، في إلغاء حواسها واحدة بعد أخرى، حتى يوم سنجدها فيه متكئة إلى الجدار، كما لو أنها تنام أول مرة في حياتها. ربما لا يزال هناك وقت طويل لبلوغ ذلك، لكننا نحن الثلاثة، كنا نتمنى، ونحن جالسون في الفناء تلك الليلة، أن نسمع بكاءها الحاد والمفاجئ، مثل تحطم الزجاج، من أجل منحنا، على الأقل، الوهم بأن طفلاً (طفلة) قد ولد في البيت. كي نصدق أنها قد ولدت جديدة.

حوار المرآة
Diálogo del espejo
(1949)

الرجل السابق الذي شغل الغرفة، وبعد أن نام ساعات طويلة مثل قديس، ناسياً هموم وقلق الفجر حديث البرزوغ، استيقظ وقد تقدم النهار، وصخب المدينة غزا ـ تماما ـ هواء الغرفة المواربة. كان عليه أن يفكر ـ لو لم تكن روحه في حالة أخرى ـ في قلقٍ زخم من الموت، في خوفه التام، في قطعة الطين ـ صلصال منه بالذات ـ التي تحت لسان أخيه. لكن الشمس الجذلة التي تضيء الحديقة حرفت انتباهه نحو حياة أخرى أكثر عادية، أكثر دنيوية، وربما أقل حقيقة من وجوده الداخلي الرهيب. نحو حياته كرجل عادي، كحيوان يومي، جعلته يتذكر ـ دون أن يعتمد في ذلك على جهازه العصبي، على كبده الفاسد ـ الاستحالة التي لا خلاص منها للنوم كبرجوازي. فكر ـ وكان هناك، في الواقع، شيء من الرياضيات البرجوازية في تلعثم الأرقام ـ في ألغاز المكتب المالية.

الثامنة واثنتا عشرة. سأصل متأخراً بكل تأكيد. مرّ برؤوس أصابعه على خده. الجلد الخشن المزروع بجذوع نامية، خلّف لديه انطباعاً بالشعر الخشن عبر قرون استشعار أصابعه. بعد ذلك، تلمس براحة يده نصف المفتوحة الوجه الساهي، بحذر؛ بالهدوء الوقور للجرّاح الذي يعرف نواة الورم. ومن السطح اللين راحت تبرز نحو الداخل المادة الصلبة للحقيقة التي يجعلها الغم، في مناسبات، بيضاء شاحبة. هناك تحت أطراف أصابعه ـ وبعد أطراف الأصابع، عظمٌ في مواجهة عظمٍ آخر ـ كان شرطه التشريحي الذي لا رجعة عنه قد دفن نظاماً من المركبات، كوناً مضغوطاً من أنسجة، من عوالم أصغر،

تسند، ترفع درعه اللحمي إلى مستوى أقل ديمومة من الوضعية الطبيعية والأخيرة لعظامه.

أجل. فعلى الوسادة، برأسه الغاطس في المادة اللينة، وجسمه المنبطح على استرخاء أجهزته، كان للحياة مذاق أفقي، وضع أفضل لمبادئها الخاصة. كان يعرف أن هذه المهمة الطويلة، المرهقة التي تنتظره ستبدأ ـ إذا ما بذل جهداً أدنى بإطباق جفنيه ـ بالتحلل في مناخ غير معقد، ودون التزامات بالزمان أو المكان: دون حاجة، عند تحقيقها، إلى أن تتعرض هذه المغامرة الكيميائية التي تشكل جسده إلى أدنى انتقاص. بل على العكس، فهكذا، وجفناه مطبقان، سيكون هناك اقتصاد تام في الموارد الحيوية، غياب مطلق للاستهلاك العضوي. ويمكن لجسده الغارق في مياه الأحلام أن يتحرك، يحيا، يرتقي إلى أشكال وجودية أخرى يكون لعالمه الواقعي فيها ـ لحاجته الحميمة ـ زخماً مماثلاً إلى حدّ التطابق في العواطف ـ إن لم يكن أكبر ـ التي تظل معها ضرورة العيش كافية تماماً دون التسبب بأي ضرر في تكامله البدني. وستكون أسهل بكثير ـ عندئذ ـ مهمة التعايش مع الكائنات والأشياء، والعمل والتصرف مع ذلك كما هي الحال في العالم الواقعي. فمهام حلاقة الذقن، وركوب الأمنيبوس، وحلّ معادلات المكتب، ستكون سهلة وغير معقدة في الحلم، وستمنحه بعد تحقيقها الإحساس نفسه بالرضا الداخلي.

أجل، من الأفضل عمل ذلك بهذه الطريقة الاصطناعية، مثلما كان يفعل من قبل؛ باحثاً في الغرفة المضاءة عن اتجاه المرآة. مثلما كان سيواصل عمله لو لم يحدث، في تلك اللحظة، أن آلة ثقيلة، وحشية وعبثية، أفسدت مادة حلمة المستجد الدافئة. والآن، بعودته إلى العالم المتعارف عليه، اكتسبت المسألة بكل تأكيد طابعاً أشد خطورة. ومع ذلك، فإن النظرية الغريبة التي أوحت له للتو باسترخائه، قد حرفته باتجاه منطقة تفهم، ومن داخل رجله أحس بانزياح الفم نحو الجانبين، في حركة لا بد أنها كانت ابتسامة لاإرادية.

وبإحساس بالانزعاج - ما زال في أعماقه يواصل الابتسام. «لابد من حلاقة الذقن في حين أنه عليّ أن أكون منكباً على الدفاتر بعد عشرين دقيقة. الاستحمام ثماني دقائق. وبإسراع تصبح خمساً. والفطور سبع دقائق، نقانق عتيقة كريهة. متجر مابيل للمؤن، والبراغي، والعقاقير، والمشروبات؛ وهذا أشبه بصندوقٍ أعرفُ صندوق من هو؛ لقد نسيت الكلمة. (الأمنيبوس يتعطل أيام الثلاثاء ويتأخر سبع دقائق) بيندورا. لا، بيلدورا. وليس هكذا. بالإجمال نصف ساعة. لم يعد هناك وقت. لقد نسيت الكلمة، إنه صندوق يضم كل شيء. بيدورا. الكلمة تبدأ بحرف ب.»

مرتدياً الروب، وقد صار قبالة المغسلة، وجه ناعس، مشعث، ودون حلاقة، ألقى إليه نظرة ضجرة من المرآة. اجتاحته رعشة خفيفة، صاعدة مثل خيط بارد، حين اكتشف في تلك الصورة أخاه الميت في لحظة نهوضه. الوجه المتعب نفسه، النظرة نفسها التي لم تستيقظ تماماً بعد.

حركة جديدة بعثت إلى المرآة كمية من الضوء مكرسة للدفع إلى إيماءة لطيفة، لكن العودة العفوية لذلك الضوء جلبت له ـ خلافاً لنواياه ـ تكشيرة فظة. ماء. التدفق الدافئ انفتح غزيراً، وافراً، وموجة البخار الأبيض والكثيف فصلت بينه وبين زجاج المرآة. وهكذا ـ منتهزاً فرصة الانقطاع في حركة سريعة ـ تمكن من التوافق مع زمنه ومع الزمن داخل زئبق المرآة.

ارتفعت فوق حزام الشحذ الجلدي مائلة بحواف قاطعة، بمعادن باردة؛ وأظهرت له السحابة من جديد ـ وقد انقشعت الآن ـ الوجه الآخر، معكراً بتعقيدات عضوية، وقوانين رياضية، تحاول بها الهندسة صوغ طريقة جديدة للكتلة، شكل جديد للضوء. هناك، قبالته، كان الوجه، بنبض، بخفق حضوره الخاص، متحولاً إلى إيماءة، كانت في الوقت نفسه جدية باسمة وساخرة تطل على الزجاج الآخر الرطب الذي غادرته كثافة البخار.

ابتسم. (فابتسم) أخرج ـ لنفسه ـ لسانه (فأخرج ـ للواقعي ـ لسانه.) كان لسان من هو في المرآة عجينياً، أصفر: «هناك خلل في معدتك» شخَّص الحالة (بحركة دون كلام) مرفقاً ذلك بتكشيرة. عاود الابتسام. (فعاود الابتسام) لكنه استطاع الآن أن يلاحظ أن هناك شيئاً من البلاهة، من التصنع، ومن الزيف في هذه الابتسامة التي ترد عليه. مسد شعره (فمسد شعره) بيده اليمنى (اليسرى)، كي يرد، في الحال، النظرة الخجولة (ويختفي). استغرب سلوكه الشخصي بالوقوف أمام المرآة والقيام بحركات كأبله. ومع ذلك، فكر في أن الجميع يحافظون أمام المرآة على السلوك نفسه، فكان سخطه عندئذ أعظم، حيال اليقين بأنه هو، حيث الجميع بلهاء، يقدم إتاوة للابتذال. إنها الثامنة وسبع عشرة دقيقة.

كان يعرف أن الإسراع صار ضرورياً إذا كان لا يريد أن يُطرد من الوكالة. من تلك الوكالة التي تحولت، منذ بعض الوقت، إلى مكان انطلاق جنازته اليومية.

الصابون، ولدى ملامسته الفرشاة، أثار بياضاً ذا زرقة خفيفة أعادته من مخاوفه. كانت تلك هي اللحظة التي تصعد فيها رغوة الصابون في جسده، عبر شبكة شرايينه وتُسَهِّل له عمل كل الآلية الحيوية... هكذا، بعودته إلى حالته الطبيعية، بدا له أن الوضع صار أكثر راحة للبحث في دماغة الصابوني عن الكلمة التي أراد أن يقارن بها متجر مابيل. إنها بيلدورا. متجر خردوات مابيل. «بالدورا»، متجر المؤن أو متجر العقاقير. أو كل شيء معاً: بيندورا.

كان يفور في وعاء الصابون ما يكفي من الرغوة. لكنه واصل دعك الفرشاة بما يشبه الوله. كان مشهد الفقاعات الصبياني يمنحه سعادة طفل كبير واضحة، سعادة تصعد إلى قلبه، ثقيلة وقاسية، مثل خمرة رخيصة. كان يمكن عندئذ لبذل جهد جديد بحثاً عن المقطع الصوتي أن يكون كافياً كي تنفجر الكلمة ناضحة ووحشية، كي تخرج طافية على ذلك الماء السميك، العكر،

لذاكرته المتهرية. ولكن، مرة أخرى، كما في المرات السابقة، لم تكن الأجزاء الصغيرة المبعثرة، المفككة، للجهاز نفسه تلتئم بدقة لتتوصل إلى الاكتمال العضوي، وتأهب هو للتخلي إلى الأبد عن الكلمة: بيندورا!

لقد حان الوقت للتخلي عن ذلك البحث غير المجدي، لأن ـ رفع كلاهما نظره والتقيا بالعيون ـ أخاه التوءم كان قد بدأ، بالفرشاة المترعة برغوة الصابون، في تغطية ذقنه بالبرودة البيضاء المائلة إلى الزرقة، تاركاً يده اليسرى تتحرك ـ وحاكاه هو باليمنى ـ بنعومة ودقة إلى أن غطى المنطقة الخشنة. انحرف ببصره، ومثلت لعينيه هندسة عقارب الساعة منهمكة في حلّ معادلة غمّ جديدة: الثامنة وثماني عشرة دقيقة. كان يفعل ذلك ببطء شديد. وهكذا، بنيَّةٍ حازمة في أن ينتهي بسرعة، أمسك الموسى على شكل قرن ينصاع لحركة إصبعه الصغرى.

قدر أنه سينهي العمل خلال ثلاث دقائق، رفع ذراعه الأيمن (الأيسر) إلى مستوى أذنه اليمنى (اليسرى)، ملاحظاً في أثناء ذلك أنه ما من شيء يمكن أن يكون أصعب من حلاقة الذقن بالطريقة التي تفعل بها ذلك الصورة المرتسمة في المرآة. وكانت قد تفرعت عن هذه الملاحظة سلسلة كاملة من الحسابات المعقدة جداً بهدف التحقق من سرعة الضوء التي تقوم بها، بطريقة متزامنة *تقريباً*، رحلة الذهاب والإياب لإنتاج كل حركة. ولكن الجمالي الذي يسكنه، وبعد صراع مساوٍ تقريباً للجذر التربيعي للسرعة التي كان بإمكانه تقصيها، تغلّب على الرياضي، واتجه فكر الفنان نحو حركات الشفرة التي كانت تكتسي خضرة زرقة بيضاء مع اختلاف ضربات الضوء. وبسرعة ـ وكان الرياضي والجمالي قد تصالحا ـ نزل بحد الموسى على الخد الأيمن (الأيسر) حتى خط انتصاف الشفة، ولاحظ راضياً أن الخد الأيسر للصورة بدا نظيفاً وسط حواف الرغوة.

لم يكن قد انتهى بعد من نفض الشفرة، عندما بدأ يصله، من

المطبخ، الدخان المثقل برائحة اللحم المطبوخ الحريفة. أحس بالرعشة تحت لسانه، وبتدفق اللعاب السهل والرقيق الذي ملأ فمه بالمذاق النشط للدهن الساخن. كلى مطبوخة. أخيراً حدث تغير في متجر مابيل اللعين. بيندورا. لا، ليست هذه هي الكلمة. صخب الغدة وسط الصلصة انفجر في مسمعه، مع ذكرى مطر كأنه المطارق، وقد كان، بالفعل، مطر الفجر نفسه. يتوجب عليه بالتالي ألا ينسى الحذاء السميك والمعطف المطري. كلى بالصلصة. لا شك في ذلك.

من بين حواسه كلها ليست هناك واحدة تسحق عدم الثقة مثل حاسة الشم. ولكن، بغض النظر عن حواسه الخمس، وحتى لو كانت تلك الحفلة ليست إلا تفاؤلاً من جانب نخامه، فإن الحاجة إلى الانتهاء بأسرع ما يمكن، في تلك اللحظة، هي الحاجة الأشد إلحاحاً على حواسه الخمس. وبدقة وخفة ـ أبدى لها الرياضي والفنان أسنانهما ـ ارتفع بموسى الحلاقة من الأمام (الخلف) إلى الخلف (الأمام) حتى طرف الفم (الأيمن) الأيسر، بينما يده اليسرى (اليمنى) تمسد الجلد، ميسرة بذلك مرور حافة الشفرة المعدنية من الأمام (الخلف) إلى (الأمام) الخلف، ومن أعلى (أعلى) إلى أسفل، وإنهاء العمل ـ كلاهما يلهث ـ بالتزامن.

ولكن، لدى الانتهاء، وحين كان يقوم بآخر اللمسات على خده الأيسر بيده اليمنى، تمكن من رؤية مرفقه على صفحة المرآة. رآه ضخماً، غريباً، مجهولاً، ولاحظ مفاجأً أن هناك، فوق المرفق، عينين كبيرتين أيضاً ومجهولتين كذلك، تبحثان قلقتين عن وجهة الفولاذ. هناك من يحاول خنق أخي. ذراع قوية. دم! الشيء نفسه يحدث دائماً كلما فعلت هذا بتسرع.

بحث، في وجهه، عن الموضع المقابل؛ لكن إصبعه ظل نظيفاً، ولم تكشف اللمسة عن وجود أي سائل. فوجئ. لم تكن ثمة جروح في جلده، ولكن هناك، في المرآة، كان الآخر ينزف نزفاً خفيفاً. وفي أعماقه عادت تتجسد حقيقة الغم بأن مخاوف الليلة الفائتة

ستتكرر. وأنه الآن، قبالة المرآة، سيشعر مرة أخرى، سيعي ازدواجية الشخصية. ولكن الذقن كانت هناك (مدورة: وجهان متماثلان). هذه الشعيرات في نقرة الذقن تحتاج إلى موسى مدببة الرأس. ظن أنه لمح سحابة ارتباك تحجب الإيماءة المتعجلة لصورته. أيكون ممكناً أنه بسبب السرعة الكبيرة التي كان يحلق بها ـ وسيطَر الرياضي على الموقف تماماً ـ، لم تتوصل سرعة الضوء إلى تغطية المسافة لتسجل الحركات كلها؟ أيمكن له، في تعجله، أن يكون قد سبق صورة المرآة وأنهى المهمة قبلها بحركة واحدة؟ أم أنه من الممكن يا ترى ـ وهنا تمكن الفنان، بعد صراع قصير، من إبعاد الرياضي ـ أن تكون الصورة قد اكتسبت حياة خاصة بها وقررت ـ لأنها تعيش في زمن غير معقد ـ أن تنتهي ببطء أكبر من شخصها الخارجي؟

فتح صنبور الماء الساخن وهو القلق بصورة ظاهرة، وأحس بتصاعد البخار الدافئ والكثيف، بينما كان خبط وجهه بالماء الجديد يملأ أذنيه بضجة حلقية. خشونة المنشفة اللطيفة، المغسولة حديثاً، على البشرة جعلته يتنفس رضى عميقاً لحيوان صحي. بندورا! هذه هي الكلمة: بندورا.

نظر إلى المنشفة مفاجأً وأغمض عينيه مرتبكاً، بينا كان هناك، في المرآة، وجه مثل وجهه يتأمله بعينين كبيرتين غبيتين، والوجه مقطوع بخط داكن.

فتح عينيه وابتسم (ابتسم). لم يعد هناك ما يعنيه. إن متجر مابل هو صندوق بندورا.

رائحة الكلى الساخنة في الصلصة استدعت حاسة شمه، بمزيد من الإلحاح الآن. وأحس بالرضا ـ برضا إيجابي ـ لأن كلباً كبيراً، في أعماق روحه، أخذ يهز ذيله.

عينا كلب أزرق
Ojos de perro azul
(1950)

عندئذ نظرت إليّ. ظننتُ أنها تنظر إليّ أول مرة. لكنني بعد ذلك، عندما استدرت من وراء الشمعدان، وأنا أوصل الإحساس من فوق كتفي، وراء ظهري، بنظرتها المنزلقة والزيتية، أدركتُ أنني أنا الذي كنت أنظر إليها أول مرة. أشعلتُ سيجارة. ابتلعت الدخان الحريف والقوي قبل أن أدور بالمقعد، موازناً إياه على واحدة من قائمتيه الخلفيتين. بعد ذلك رأيتها هناك، مثلما كانت في كل الليالي، تقف إلى جوار الشمعدان، ناظرة إليّ. وخلال دقائق قليلة، لم نفعل شيئاً سوى ذلك: نظر كل منا إلى الآخر. أنا أنظر إليها من المقعد، موازناً إياه على إحدى قائمتيه الخلفيتين. وهي واقفة، بيد طويلة وساكنة فوق الشمعدان، تنظر إليّ. رأيت رموشها المضيئة كما في كل ليلة. وكان أن تذكرت عندئذ القول المعهود، حين قلت لها: «عينا كلب أزرق» فقالت لي دون أن ترفع يدها عن الشمعدان: «هذا. لن ننساه أبداً». خرجت من المدار وهي تتنهد: «عينا كلب أزرق. لقد كتبتُ هذا في كل مكان».

رأيتها تتوجه نحو خوان الزينة. رأيتها تظهر في زجاج المرآة المستديرة وهي تنظر إليّ الآن، أخيراً، في ذهاب وإياب ضوء حسابي. رأيتها تواصل النظر إليّ بعينيها الكبيرتين اللتين من جمر مشتعل: تنظر إليّ وهي تفتح العلبة المرصعة بصدف وردي. رأيتها تضع مسحوق بودرة على أنفها. وعندما انتهت من ذلك، أغلقت العلبة وعادت للنهوض واقفة، واتجهت من جديد نحو الشمعدان قائلة: «أخشى أن يحلم أحدهم بهذه الحجرة ويبعثر حاجياتي»؛ ومدت فوق اللهب اليد

الطويلة والمرتعشة نفسها التي كانت تدفئها قبل أن تجلس إلى المرآة. وقالت: «أنت لا تشعر بالبرد». فقلت لها: «أحياناً». وقالت لي: «لا بد أنك تشعر به الآن». عندئذ أدركتُ سبب عدم تمكني من البقاء وحيداً في المقعد. كان البرد هو ما يمنحني اليقين بوحدتي. «إنني أشعر به الآن ـ قلت ـ. وهذا غريب، لأن الليلة كانت هادئة. ربما انزلقت الملاءة عني». لم تُجب. بدأت تتحرك مرة أخرى باتجاه المرآة، وعدتُ أنا للدوران على المقعد مديراً لها ظهري. ودون أن أراها، كنت أعرف ما تفعله. أعرف أنها عادت للجلوس قبالة المرآة، وأنها ترى ظهري الذي كان لديه متسع من الوقت ليصل إلى عمق المرآة وتجده نظراتها التي كان لديها هي أيضاً الوقت الكافي تماماً للوصول إلى العمق والعودة ـ قبل أن تبدأ اليد الكرة الثانية ـ إلى الشفتين المطليتين الآن بالأحمر القرمزي، منذ حركة اليد الدورانية الأولى أمام المرآة. كنت أرى، قبالتي، الحائط الأملس الذي كان مثل مرآة أخرى عمياء، لا أراها فيها ـ جالسة وراء ظهري ـ، لكنني أتخيلها حيث هي كما لو أن هناك مرآة مكان الجدار. «إنني أراكِ»، قلت لها. ورأيت في الجدار كما لو أنها رفعت عينيها، ورأتني مولياً ظهري في المقعد، في عمق المرآة، ووجهي إلى الحائط. بعد ذلك رأيتها تخفض رموشها، مرة أخرى، وتتوقف بعينيها عند حمالة صدرها، دون كلام. وعدت أقول لها: «إنني أراك». وعادت هي لترفع عينيها عن حمالة صدرها. وقالت: «مستحيل». سألتُ لماذا؟ فقالت، وقد عادت عيناها مرة أخرى إلى حمالة صدرها: «لأن وجهك متجه نحو الحائط». عندئذ استدرتُ بالمقعد. وكنت أثبت السيجارة في فمي. وعندما صرت في مواجهة المرآة، كانت هي قد صارت مرة أخرى إلى جانب الشمعدان. وكانت يداها مفتوحتين الآن فوق اللهب تشويان، مثل جناحي دجاجة مفرودين، ووجهها مظَلَّلٌ بالضوء المتسرب من بين أصابعها. «أظن أنني سأصاب بالبرد ـ قالت ـ. لا بد أنها مدينة جليدية». أدارت وجهها جانبياً وتحولت بشرتها البرونزية المحمرة إلى الحزن فجأة. «افعلي شيئاً ضد هذا»،

قلتُ. فبدأت هي بخلع ملابسها قطعة فقطعة، بادئة من أعلى، بالصدار. قلت لها «سأستدير نحو الحائط». فقالت: «لا. لأنك ستراني على أي حال مثلما رأيتني وأنت تدير لي ظهرك». ولم تكن قد انتهت من قول ذلك إلا وكانت قد صارت عارية تقريباً، واللهب يلعق بشرتها النحاسية الطويلة. «لقد رغبتُ دوماً في أن أراك هكذا، بجلد بطنك الممتلئ بثقوب عميقة، كما لو أنهم صنعوك من خشب». وقبل أن أدرك أن كلماتي قد تحولت إلى خرقاء أمام عريها، ظلت هي ثابتة بلا حراك، تدفئ نفسها مدار الشمعدان، وقالت: «يخيل إليّ أحياناً أنني معدنية». صمتت لحظة. وتغير وضع اليدين على اللهب قليلاً. فقلتُ: «أحياناً، في أحلام أخرى، ظننتُ أنكِ لست سوى تمثال برونزي صغير في ركن في أحد المتاحف. وربما هذا هو سبب شعورك بالبرد». قالت: «أحياناً، عندما أنام على جانبي حيث القلب، أشعر أن جسدي يصير أجوف وأن جلدي مثل رقاقة من صفيح. وعندئذ، حين يضربني الدم من الداخل، أشعر كما لو أن أحداً يطرق ببراجم أصابعه على بطني، وأحس بصوتي النحاسي نفسه في الفراش. كما لو أنني مثلما قلتَ أنت: من صفائح معدن». واقتربت أكثر من الشمعدان. قلت لها: «كنتُ أود سماعك». فقالت: «إذا ما التقينا ذات مرة، ضع أذنك على أضلعي عندما أنام على جانبي الأيسر، وستسمع رنيني. كنتُ أتمنى على الدوام أن تفعل ذلك ذات يوم». سمعتها تتنفس بعمق وهي تتكلم. وقالت إنها لم تفعل شيئاً آخر غير هذا لسنوات. حياتها كانت مكرسة للقاء بي في الواقع، من خلال جملة التعريف هذه: «عينا كلب أزرق». وكانت تمضي في الشارع مرددة بصوت عالٍ، إنها وسيلة للتحدث إلى الشخص الوحيد الذي استطاع أن يفهمها:

«أنا التي آتي إلى أحلامك كل ليلة وتقول لي هذا: عينا كلب أزرق». وقالت إنها كانت تذهب إلى المطاعم وتقول للندل، قبل أن تطلب ما تريد: «عينا كلب أزرق». لكن أولئك الندل كانوا ينحنون لها باحترام، دون أن يتذكروا أنهم قالوا ذلك، ولو مرة واحدة، في

أحلامهم. ثم تكتب بعد ذلك على المناديل الورقية، وتحز بالسكين على طلاء الموائد: «عينا كلب أزرق». وعلى الزجاج المغطى بالبخار أو المعفر بالغبار في الفنادق، والمحطات، وكل المباني العامة، كانت تكتب بسبابتها: «عينا كلب أزرق». وقالت إنها دخلت ذات يوم إلى محل عقاقير، وشمت الرائحة نفسها التي أحست بها ذات ليلة في حجرتها، بعد أن حلمت بي. «لا بد أنه قريب»، فكرت وهي ترى بلاط المحل النظيف والجديد. عندئذ اقتربت من البائع وقالت له: «إنني أحلم دائماً برجل يقول لي:"عينا كلب أزرق"». وقالت إن البائع نظر إلى عينيها وقال لها: «الواقع يا آنستي أن عينيكِ هكذا». فقالت هي له: «أحتاج إلى العثور على الرجل الذي قال لي هذا في الحلم». فانفجر البائع في الضحك وتحرك إلى الطرف الآخر من حاجز الكونتوار. واصلت هي النظر إلى البلاط النظيف وشمّ الرائحة. ففتحت حقيبتها وجثت على ركبتيها، وكتبت على البلاط، بحروف كبيرة، بإصبع أحمر الشفاه القرمزي: «عينا كلب أزرق». رجع البائع إلى حيث كان أولاً. وقال لها «آنستي، لقد لوثتِ البلاط». ثم أضاف وهو يقدم لها خرقة مبللة: «امسحيه». وقالت، وهي لا تزال إلى جوار الشمعدان، إنها أمضت طوال بعد ظهر ذلك اليوم وهي مقرفصة، تنظف البلاط وتقول: «عينا كلب أزرق»، إلى أن تجمع الناس عند الباب وقالوا إنها مجنونة.

والآن، عندما انتهت من الكلام، كنتُ لا أزال جالساً في الركن، أحاول التوازن على الكرسي. «إنني أحاول كل يوم أن أتذكر العبارة التي سأجدك بها ـ قلتُ ـ. وأظن الآن أني لن أنساها في الغد. ومع ذلك، فقد قلت هذا الكلام نفسه دوماً، ودائماً كنت أنسى عند استيقاظي ما هي الكلمات التي أستطيع أن أجدك بها». قالت: «أنت نفسك اخترعتها منذ اليوم الأول». وقلت لها: «اخترعتها لأنني رأيت عينيك اللتين من رماد. لكنني لا أتذكرها أبداً في اليوم التالي». فتنفست بعمق وقد أطبقت قبضتيها بجانب الشمعدان: «لو أنني أستطيع أن أتذكر الآن على الأقل في أي مدينة كنت أكتب تلك العبارة».

لمعت أسنانها المضغوطة بقوة فوق اللهب. «أرغب في لمسكِ الآن»، قلتُ لها. فرفعت وجهها الذي كان ينظر إلى اللهب؛ رفعت النظرة الملتهبة التي كانت تُشوى مثلها، مثل يديها؛ وشعرتُ أنها رأتني، في الركن، حيث مازلتُ جالساً أتأرجح على المقعد. قالت «لم تقل لي هذا من قبل قط». فقلت «أقوله الآن، وهو حقيقي». ومن الجانب الآخر للشمعدان، طلبت مني سيجارة. كان عقب السيجارة قد اختفى من بين أصابعي. ونسيت أنني كنت أدخن. قالت «لا أدري لماذا لا أستطيع تذكر أين كتبتها». وقلت لها: «وللسبب نفسه لن أستطيع أنا تذكر الكلمات غداً». فقالت بحزن: «لا، المسألة أنني أظن أحياناً أنني حلمت ذلك أيضاً». نهضتُ وسرت نحو الشمعدان. كانت هي بعيدة بعض الشيء، وواصلتُ أنا المشي، والسجائر والكبريت في يدي، ولم أتجاوز الشمعدان. مددت لها السيجارة. ضغطت عليها بين شفتيها، وانحنت لتصل بها إلى اللهب، قبل أن أتمكن أنا من إشعال عود الثقاب. قلت: «في مدينة من العالم، على جميع الجدران، لا بد أن تكون مكتوبة هذه الكلمات: "عينا كلب أزرق". إذا ما تذكرتها غداً، فسوف أذهب للبحث عنكِ». رفعت رأسها من جديد، وكانت السيجارة قد اشتعلت بين شفتيها. «عينا كلب أزرق» قالت متنهدة، ومتذكرة، بينما السيجارة تميل نحو ذقنها، وإحدى عينيها نصف مغمضة. عبّت الدخان بعد ذلك، والسيجارة بين إصبعيها، وهتفت: «صار ذلك الآن أمراً آخر. لقد بدأتُ أشعر بالدفء». قالتها بصوت فيه شيء من الدفء والتهرب، كأنها لم تقله بالفعل، وإنما كمن كتبته على ورقة، وقرَّبت الورقة من اللهب بينما أنا أقرؤها: لقد بدأتُ أشعر ـ وكما لو أنها واصلت إمساك الورقة بين السبابة والإبهام، وتقليبها وهي تتآكل مشتعلة، وأنا انتهي من قراءة ـ ... بالدفء»، قبل أن تحترق الورقة بالكامل، وتسقط على الأرض مجدة، متضائلة، متحولة إلى مسحوق رماد خفيف «هكذا أفضل ـ قلتُ ـ أحياناً أشعر بالخوف من رؤيتك هكذا. ترتعشين إلى جوار الشمعدان».

كنا نلتقي منذ عدة سنوات. وفي بعض الأحيان، عندما نكون معاً، يُوقع أحدٌ في الخارج ملعقة صغيرة، فنستيقظ. وشيئاً فشيئاً رحنا ندرك أن صداقتنا مرهونة بالأشياء، بأشد الأحداث بساطة. وينتهي لقاؤنا على هذا النحو دوماً، بسقوط ملعقة صغيرة عند الفجر.

والآن، وهي إلى جانب الشمعدان، كانت تنظر إليّ. أنا أتذكر أنها نظرت إليّ هكذا من قبل، منذ ذلك الحلم البعيد الذي أدرتُ فيه المقعد على قائمتيه الخلفيتين، ووجدت نفسي قبالة امرأة مجهولة ذات عينين رماديتين. وكان أن سألتها في ذلك الحلم أول مرة: «من أنت؟» فقالت لي: «لا أتذكر». وقلت لها: «لكنني أظن أننا التقينا من قبل». فقالت دون مبالاة: «أظن أنني حلمت ذات مرة بك، في هذه الحجرة نفسها». قلتُ لها: «وهو كذلك. لقد بدأت أتذكر الآن». فقالت: «يا للغرابة. الحقيقة أننا التقينا في أحلام أخرى».

عبّت نفسين من السيجارة. بينما كنتُ لا أزال واقفاً أمام الشمعدان، عندما رحتُ أنظر إليها فجأة. نظرتُ إليها من أعلى إلى أسفل، وكانت لا تزال من نحاس؛ ولكن ليس من معدن صلب وبارد، وإنما من نحاس أصفر، لين، مطواع. وعدت لقول: «أرغب في لمسك». فقالت: «ستُفسد بذلك كل شيء». قلت: «لم يعد مهماً الآن. يكفي أن نقلب الوسادة كي نعود للقاء». ومددت يدي فوق الشمعدان. ولم تتحرك هي، بل أعادت القول قبل أن أتمكن من لمسها: «ستُفسد كل شيء». ثم أضافت: «إذا ما قمتَ بالالتفاف من وراء الشمعدان، فربما نستيقظ فزعين في مكان من العالم لا ندري أين سيكون». لكني ألححت: «ليس مهماً». وقالت: «إذا ما قلبنا الوسادة، سنعود للقاء. ولكنك حين تستيقظ، ستكون قد نسيت ذلك». بدأتُ التحرك نحو الركن. وظلت هي ورائي، تدفئ يديها على اللهب. ولم أكن قد وصلت إلى المقعد حين سمعتها تقول من وراء ظهري: «عندما أستيقظ في منتصف الليل، أظل أتقلب في الفراش، وخيوط الوسادة تحرق ركبتي، وأكرر حتى الفجر: «عينا كلب أزرق».

عندئذ صار وجهي في مواجهة الجدار. «ها قد بدأ الفجر بالبزوغ - قلتُ دون أن أنظر إليها - عندما دقت الساعة الثانية كنتُ مستيقظاً، وكان ذلك منذ وقت طويل». توجهتُ نحو الباب. وعندما أمسكتُ المقبض، سمعتُ مرة أخرى صوتها مثلما هو، دون تغيير: «لا تفتح هذا الباب - قالت - فالردهة ممتلئة بأحلام صعبة». قلت لها: «وكيف تعرفين ذلك؟». فقالت لي: «لأنني كنت هناك منذ لحظة، ولم أجد بداً من الرجوع عندما اكتشفت أنني نائمة على جانب القلب». كنتُ قد بدأتُ بفتح الباب. حركتُ مصراعه قليلاً، فحملت إليّ نسمةٌ باردةٌ وخفيفةٌ رائحةً ندية لأرض نباتية، لحقل رطب. تكلمت هي مرة أخرى. فالتفتُ أنا وتحرك مصراع الباب المثبت بمفصلات صامتة. وقلت لها: «أظن أنه لا وجود لردهة هنا في الخارج. فأنا أشم رائحة الريف». فقالت وقد صارت بعيدة بعض الشيء: «أعرف ذلك أكثر منك. وحقيقة الأمر أن هناك في الخارج امرأة تحلم بالريف». قاطعت ذراعيها فوق اللهب. وواصلت الكلام: «إنها تلك المرأة التي رغبت على الدوام في امتلاك بيت في الريف، ولم تستطع مغادرة المدينة قط». أنا أتذكر أنني رأيت تلك المرأة في أحد الأحلام السابقة، لكنني أعرف، وقد صار الباب موارباً، أنه عليّ أن أنزل لتناول الفطور خلال نصف ساعة. فقلت: «لابد لي على أي حال من الخروج من هنا كي أستيقظ».

هبت ريح للحظة في الخارج، ثم سكنت بعد ذلك، وسُمع تنفس شخص نائم تقلب للتو في فراشه. توقفت ريح الحقول. ولم يعد هناك مزيد من الروائح: «سأتعرف عليك غداً من خلال هذا ـ قلت ـ. سأتعرف عليك عندما أرى في الشارع امرأة تكتب على الجدران "عينا كلب أزرق"». وقالت بابتسامة حزينة ـ ابتسامة استسلام للمستحيل ولما هو بعيد المنال: «ومع ذلك، لن تتذكر شيئاً خلال النهار». وعادت تضع يديها فوق الشمعدان، وغطت قتامة وجهها غمامة مرارة: «أنت الرجل الوحيد الذي لا يتذكر، حين يستيقظ، أي شيء مما حلم به».

المرأة التي تصل في السادسة

La mujer que llegaba a las seis

(1950)

فُتح الباب الدوار. لم يكن هناك أحد في مطعم خوسيه في تلك الساعة. لقد دقت الساعة السادسة للتو، والرجل يعرف أن الزبائن المعهودين لا يبدؤون المجيء إلا في السادسة والنصف. وقد كانت الزبونة بالغة المحافظة والانتظام في موعدها، فلم تكد الساعة تنهي دقتها السادسة حتى دخلت امرأة، مثلما تفعل كل يوم في هذه الساعة، وجلست دون أن تقول شيئاً على المقعد الدوار المرتفع. كانت تضغط سيجارة غير مشتعلة بين شفتيها.

- أهلاً، أيتها الملكة - قال خوسيه حين رآها تجلس. ثم ذهب إلى الطرف الآخر من منضدة الكونتوار، يمسح بخرقة جافة سطح المنضدة الزجاجي. إنه الشيء نفسه الذي يقوم به خوسيه كلما دخل أحد إلى المطعم. حتى مع المرأة التي توصل معها إلى نوع من الألفة، كان صاحب المطعم البدين متورد الوجه يقدم تمثيليته اليومية كرجل نشيط. تكلم من الطرف الآخر لمنضدة الكونتوار.

- ماذا تريدين اليوم؟ - قال.

- أريد قبل كل شيء أن أعلّمك كيف تكون رجلاً شهماً - قالت المرأة. وكانت تجلس في آخر صف المقاعد الدوارة، ومرفقاها على الكونتوار، والسيجارة مطفأة بين شفتيها. وعندما تكلمت زمت فمها كي ينتبه خوسيه إلى السيجارة غير المشتعلة.

- لم أنتبه - قال خوسيه.

- أنت لم تنتبه إلى أي شيء حتى الآن - قالت المرأة.

ترك الرجل الخرقة على المنضدة، ومشى باتجاه الخزانة القاتمة

والعابقة برائحة القار والخشب المغبر، ثم رجع ومعه علبة الثقاب. انحنت المرأة لتصل إلى لهب الشعلة بين يدي الرجل الخشنتين وكثيفتي الشعر. رأى خوسيه شعر المرأة الغزير المطلي بفازلين سميك ورخيص. رأى كتفها العاري فوق حمالة صدرها المزينة برسوم أزهار. ورأى منبت الثدي الغسقي، عندما رفعت المرأة رأسها، والسيجارة مشتعلة بين شفتيها.

ـ إنك جميلة اليوم أيتها الملكة ـ قال خوسيه.

ـ دعك من البلاهة ـ قالت المرأة ـ. لا تظن أن هذا سينفعني في أن أدفع لك.

ـ ليس هذا ما عنيته أيتها الملكة ـ قال خوسيه، وأضاف ـ: أراهن أن الغداء ضايقك اليوم.

عبت المرأة أول نفس دخان كثيف، وقاطعت ذراعيها، ومرفقاها لا يزالان على حاجز الكونتوار، واستغرقت في النظر إلى الشارع من خلال زجاج المطعم العريض. كانت ملامحها كئيبة. كآبة ضجرة ومبتذلة.

ـ سأُعدّ لك شريحة لحم جيدة ـ قال خوسيه.

ـ لا نقود لدي بعد ـ قالت المرأة.

ـ منذ ثلاثة شهور وأنتِ بلا نقود، ودائماً أُعدّ لك شيئاً جيداً ـ قال خوسيه.

ـ اليوم مختلف ـ قالت المرأة بحزن، وكانت لا تزال تنظر إلى الشارع.

ـ كل الأيام متشابهة ـ قال خوسيه ـ كل يوم تدق الساعة السادسة، وعندئذ تدخلين وتقولين إنك تشعرين بجوع كلب، فأُعدُّ لك شيئاً طيباً. الفرق الوحيد هو أنك لم تقولي اليوم إنك تشعرين بجوع كلب، بل قلت إن اليوم مختلف.

ـ وهذا صحيح ـ قالت المرأة. والتفتت لتنظر إلى الرجل في الجانب الآخر من حاجز الكونتوار يفحص الثلاجة. ظلت تتأمله لثانيتين أو ثلاث ثوان. ثم نظرت إلى الساعة، فوق الخزانة. كانت

السادسة وثلاث دقائق ـ هذا صحيح يا خوسيه. اليوم مختلف ـ قالت ذلك ونفثت الدخان، وواصلت التحدث بكلمات قصيرة، مؤثرة ـ اليوم لم أحضر في السادسة، ولهذا هو مختلف يا خوسيه.

نظر الرجل إلى الساعة، وقال:

ـ سأقطع ذراعي إذا كانت هذه الساعة تتأخر دقيقة واحدة.

ـ ليست هذه هي المسألة يا خوسيه. المسألة أنني لم أجئ اليوم في السادسة ـ قالت المرأة ـ بل جئت في السادسة إلا ربعاً.

ـ لقد دقت السادسة للتو يا ملكة ـ قال خوسيه ـ عند دخولك بالضبط انتهت الدقات.

ـ أنا هنا منذ ربع ساعة ـ قالت المرأة.

توجه خوسيه إلى حيث هي جالسة. قرّب من المرأة وجهه الضخم المحتقن، بينما هو يرفع بسبابته أحد جفنيه.

ـ انفخي لي هنا ـ قال.

دفعت المرأة رأسها إلى الوراء. كانت جادة، متضايقة، متراخية؛ تجملها مسحة من الحزن والتعب.

ـ دعك من الحماقات يا خوسيه. أنت تعرف أني لم أعد أشرب منذ أكثر من ستة شهور.

ـ يمكنك قول هذا لغيري، ولكن ليس لي أنا. أراهن أنكما شربتما لتراً على الأقل أنتما الاثنين.

ـ شربت كأسين مع صديق ـ قالت المرأة.

ـ آه. لقد اتضح لي الأمر الآن ـ قال خوسيه.

ـ ليس هناك ما يستدعي التوضيح ـ قالت المرأة ـ. إنني هنا منذ ربع ساعة.

هز الرجل كتفيه:

ـ حسن، إذا كان هذا ما تريدينه، فأنت هنا منذ ربع ساعة ـ قال ـ. ففي نهاية المطاف ليس هناك من يهتم بعشر دقائق أكثر أو عشر دقائق أقل.

ـ بل هي مهمة يا خوسيه ـ قالت المرأة. ومدّت ذراعيها على الكونتوار، فوق سطحه الزجاجي، بملامح من الخذلان المتراخي، وقالت ـ: ليس لأني أريد ذلك، وإنما لأنني هنا منذ ربع ساعة ـ وأعادت النظر إلى الساعة، وصححت: أعني أنني هنا منذ عشرين دقيقة.

ـ لا بأس أيتها الملكة ـ قال الرجل ـ. أقدم إليك يوماً كاملاً مع ليلته لمجرد أن أراك سعيدة. خلال هذا الوقت كله كان خوسيه يتحرك وراء الكونتوار، يحرك أشياء، يحمل شيئاً من مكان ليضعه في مكان آخر. كان يؤدي دوره.

ـ أريد أن أراكِ سعيدة ـ كرر. وتوقف فجأة، والتفت إلى حيث المرأة ـ: هل تعرفين أنني أحبك كثيراً؟

نظرت إليه المرأة بفتور.

ـ صحيح...؟ يا لهذا الاكتشاف يا خوسيه. وهل تظن أنني أرضى البقاء معك ولو مقابل مليون بيزو؟

ـ لم يكن هذا ما عنيته أيتها الملكة ـ قال خوسيه ـ. أراهن مرة أخرى على أن الغداء قد ضايقك.

ـ ليس هذا هو السبب في ما قلته ـ قالت المرأة. وصار صوتها أقل تثاقلاً ـ. المسألة هي أنه لا توجد امرأة قادرة على تحمل ثقلٍ مثلك، ولو مقابل مليون بيزو.

احمر وجه خوسيه خجلاً. أدار ظهره للمرأة وراح ينفض الغبار عن الزجاجات التي في الخزانة. تكلم دون أن يدير وجهه.

ـ أنت لا تطاقين اليوم أيتها الملكة. أظن أن أفضل ما يمكنك عمله هو أن تأكلي شريحة اللحم وتذهبي للنوم.

ـ لستُ جائعة ـ قالت المرأة. راحت تنظر من جديد إلى الشارع، تتأمل المارة غير المرئيين بوضوح في المدينة التي يكتنفها الغروب. وللحظة، كان هناك صمت غائم في المطعم. سكون يكاد لا يقطعه سوى تقليب خوسيه في الخزانة. توقفت المرأة، فجأة، عن النظر إلى الشارع، وتكلمت بصوت منطفئ، رقيق، ومختلف.

ـ هل صحيح أنك تحبني يا بيبيّو؟
ـ صحيح ـ ردّ خوسيه بجفاء، دون أن ينظر إليها:
ـ بالرغم مما قلته لك؟ ـ قالت المرأة.
ـ وماذا قلتِ لي؟ ـ قال خوسيه دون تغيير في صوته، ودون أن ينظر إليها.
ـ ما قلتُه عن المليون بيزو ـ قالت المرأة.
ـ لقد نسيته ـ قال خوسيه.
ـ هكذا إذاً، أنت تحبني؟ ـ قالت المرأة.
ـ أجل ـ قال خوسيه.

كان هناك صمت. واصل خوسيه التحرك ووجهه يتجه نحو الخزانة، ودون أن ينظر بعد إلى المرأة. أطلقت هي دفقة جديدة من الدخان، وأسندت صدرها إلى منضدة الكونتوار، ثم عضت لسانها بحرص ومكر قبل أن تقول له، كما لو أنها تتكلم على رؤوس أصابع قدميها.

ـ حتى لو لم أنم معك؟

عندئذ فقط استدار خوسيه لينظر إليها.

ـ أنا أحبك حتى لو لم تنامي معي ـ قال. ثم مشى إلى حيث هي جالسة. وظل ينظر إليها مواجهة، وذراعاه القويتان تستندان إلى الكونتوار، في مواجهتها؛ وقال محدقاً في عينيها ـ: أحبك إلى حدّ أنني أكون مستعداً كل مساء لقتل الرجل الذي يذهب معك.

بدت المرأة مرتبكة للوهلة الأولى. ثم نظرت بعد ذلك إلى الرجل باهتمام، بملامح تتماوج بين الشفقة والسخرية. ثم عادت إلى صمت قصير، حائرة. وأطلقت بعد ذلك ضحكة مجلجلة.

ـ أنت غيور يا خوسيه. يا للروعة، أنت غيور!

عاد وجه خوسيه إلى الاحمرار بخجل صريح، خجل شبه مستهتر، مثلما يمكن أن يحدث لطفل كُشفت فجأة كل أسراره. قال:

ـ أنت لا تفهمين شيئاً هذا المساء يا ملكة. ـ ومسح عرقه بالخرقة.

- الحياة الخبيثة تجعلك مخبولة - قال.
كانت المرأة قد بدلت الآن ملامح وجهها.
- هكذا، إذاً - قالت. وعادت تنظر إلى عينيه ببريق غريب في نظرتها يجمع بين القلق والتحدي:
- أنتَ لست غيوراً إذاً.
- بلى، إنني كذلك بطريقة ما - قال خوسيه -. ولكن ليس مثلما تظنين أنت.
أرخى ياقته، وواصل تنظيف نفسه، ومسح العرق عن رقبته بالخرقة.
- ما الذي تعنيه إذاً؟ - قالت المرأة:
- المسألة هي أنني أحبك كثيراً إلى حد أنه لا يعجبني أن تفعلي هذا - قال خوسيه.
- أي شيء؟ - قالت المرأة.
- ذهابك هذا مع رجل مختلف كل يوم - قال خوسيه.
- هل صحيح أنك مستعد لقتله كي لا يذهب معي؟ قالت المرأة.
- ليس كي لا يذهب معك - قال خوسيه -، بل مستعد لقتله لأنه ذهب معك.
- إنه الشيء نفسه - قالت المرأة.
بلغ زخم المحادثة حداً مثيراً. كانت المرأة تتكلم بصوت خفيض، ناعم، فتّان. ووجهها يكاد يلتصق بالوجه المعافى والمسالم للرجل الذي يظل يقف بلا حراك، كالمسحور ببخار الكلمات.
- كل هذا صحيح - قال خوسيه.
- إذاً - قالت المرأة وهي تمد يدها لتداعب ذراع الرجل الخشن. وألقت باليد الأخرى عقب السيجارة، وتابعت تقول -:... إذاً، أنت قادر على قتل رجل؟
- من أجل ما قلته لك، أجل - قال خوسيه. وقد اتخذ صوته نبرة شبه درامية.
انفجرت المرأة ضاحكة وهي تهتز، بنية مكشوفة في السخرية.

ـ يا للفظاعة يا خوسيه، يا للفظاعة ـ قالت وهي لا تزال تضحك ـ. خوسيه يقتل رجلاً. من كان يصدق أن وراء الرجل البدين التقي الذي يُعدّ لي كل يوم شريحة لحم، دون أن يتقاضى الثمن، ويتسلى بتبادل الحديث معي إلى أن أجد رجلاً، وراء مثل هذا الرجل يوجد قاتل. يا للفظاعة يا خوسيه! إنك تخيفني!

كان خوسيه مرتبكاً. ربما أحس بقليل من السخط. ربما أحس، حين بدأت المرأة الضحك، بشيء من خيبة الأمل.

ـ إنك مخمورة أيتها البلهاء ـ قال ـ. اذهبي للنوم. حتى إنك غير راغبة في أكل أي شيء.

لكن المرأة، وقد توقفت عن الضحك، بدت الآن جادة من جديد، مفكرة، مستندة إلى منضدة الكونتوار. رأت الرجل يبتعد. رأته يفتح الثلاجة ويغلقها ثانية، دون أن يُخرج شيئاً منها. ثم رأته يتحرك إلى أقصى الطرف الآخر من الكونتوار. رأته يمسح الزجاج اللامع. عندئذ تكلمت المرأة من جديد، بالنبرة المؤثرة والناعمة التي قالت بها: «ـ هل صحيح أنك تحبني يا بيبيّو؟»

ـ خوسيه! ـ قالت.

لم ينظر الرجل إليها:

ـ خوسيه.

ـ اذهبي للنوم ـ قال خوسيه ـ... واستحمي قبل أن تنامي كي تهدأ السَّكرة.

ـ بجد يا خوسيه ـ قالت المرأة ـ أنا لست مخمورة.

ـ لقد صرت غبية إذاً ـ قال خوسيه.

ـ تعال إلى هنا، أريد أن أتحدث معك ـ قالت المرأة.

اقترب الرجل متأرجحاً بين الرضا وعدم الثقة.

ـ اقترب!

عاد الرجل للوقوف قبالة المرأة. انحنت هي إلى الأمام، أمسكته بقوة من شعره، ولكن بحركة جلية العذوبة.

ـ أعد عليَّ ما قلته في البدء ـ قالت.

ـ ماذا تعنين؟ ـ قال خوسيه. وكان يحاول النظر إليها برأسه المنحني، ممسوك الشعر.

ـ إنك مستعد لقتل رجل ينام معي ـ قالت المرأة.

ـ إنني مستعد لقتل رجل ينام معك يا ملكة. هذا صحيح ـ قال خوسيه.

أفلتته المرأة.

ـ ستدافع عني إذا ما قتلته أنا إذاً؟ ـ قالت مؤكدة وهي تدفع بفظاظة متغنجة رأس الخنزير الضخم الذي لخوسيه. لم يجب الرجل بشيء. ابتسم.

ـ أجبني يا خوسيه ـ قالت المرأة ـ. هل ستدافع عني إذا قتلته؟

ـ هذا يعتمد على الوضع ـ قال خوسيه ـ. أنت تعلمين أن الأمر ليس بالسهولة التي يقال بها.

ـ ليس هناك من تصدقه الشرطة أكثر منك ـ قالت المرأة.

ابتسم خوسيه بوقار ورضا. انحت المرأة نحوه من جديد، فوق الكونتوار، وقالت:

ـ هذا صحيح يا خوسيه. أراهن أنك لم تكذب مرة واحدة.

ـ لن تحصلي بهذا على أي شيء ـ قال خوسيه.

ـ الشرطة تعرف عنك هذا على الأقل، وتصدق أي شيء تقوله دون السؤال عنه مرتين.

بدأ خوسيه يضرب ضربات خفيفة على الكونتوار، قبالتها، دون أن يدري ما يمكنه قوله. نظرت المرأة مجدداً إلى الشارع. ثم نظرت بعد ذلك إلى الساعة وغيّرت نبرة صوتها، كما لو أن لها مصلحة في إنهاء الحوار قبل أن يصل أول الزبائن.

ـ هل أنت مستعد لأن تكذب من أجلي يا خوسيه؟ ـ قالت ـ. أتكلم بجد.

عندئذ عاد خوسيه للنظر إليها، بغتة، بعمق، كما لو أن فكرة

رهيبة قد دوّت داخل رأسه. فكرة دخلت من إحدى أذنيه، ودارت للحظة بغموضٍ واضطراب، ثم خرجت من الأذن الأخرى، مخلفة إحساساً ضئيلاً بالخوف.

- في أي مشكلة تورطت أيتها الملكة؟ - قال خوسيه. وانحنى إلى الأمام، وقد قاطع ذراعيه ثانية على الكونتوار. أحست المرأة بالبخار القوي المحمل بقليل من النشادر في أنفاسه القوية المشبعة التي تخرج بصعوبة بسبب ضغط الكونتوار على بطن الرجل.

- هذا خطير حقاً أيتها الملكة. في أي ورطة أدخلتِ نفسك؟ - قال.

أدارت المرأة رأسها إلى الجهة الأخرى.

- لا شيء - قالت -. كنت أتحدث للتسلية وحسب.

ثم عادت للنظر إليه.

- أتدري بأنك قد لا تضطر إلى قتل أحد؟

- أنا لم أفكر قط في قتل أحد - قال خوسيه مرتبكاً.

- لا يا رجل - قالت المرأة -. أعني لا أحد ممن ينامون معي.

- آه! - قال خوسيه - الآن بدأتِ تتكلمين بوضوح. لقد كنت أرى على الدوام أنك غير مضطرة للمضي في تلك الحياة. أراهنك على أنك إذا ما تخليت عن ذلك، فسوف أقدم لك أكبر شريحة لحم يومياً، ودون أن أتقاضى منك شيئاً.

- شكراً يا خوسيه - قالت المرأة -. الأمر ليس هكذا. المسألة أنني ***لم أعد أستطيع*** النوم مع أحد.

- ها أنتِ تعودين إلى تعقيد الأمور - قال خوسيه، وبدأ يبدو فاقداً الصبر.

- أنا لا أُعقّد شيئاً - قالت المرأة، واسترخت على الكرسي، ورأى خوسيه ثدييها الخامدين والحزينين تحت حمالة صدرها.

- غداً سأرحل، وأعدك بأنني لن أعود لإزعاجك أبداً. أعدك بأني لن أعود للنوم مع أحد.

- من أين جاءتك هذه الحمى؟ - قال خوسيه.

ـ لقد صممت على هذا منذ قليل ـ قالت المرأة ـ منذ لحظة فقط انتبهت إلى أن هذا كله مجرد قذارة.

تناول خوسيه خرقة القماش من جديد، وراح يفرك الزجاج قريباً منها. تكلم دون أن ينظر إليها.

ـ ما تفعلينه هو قذارة بالطبع. كان عليك أن تدركي ذلك منذ وقت طويل.

ـ كنت أعرف منذ وقت طويل ـ قالت المرأة ـ. ولكني اقتنعتُ بذلك منذ لحظة فقط. إنني أشعر بالقرف من الرجال.

ابتسم خوسيه. رفع رأسه لينظر، وهو لا يزال يبتسم، لكنه رآها ساهمة، حائرة، تتكلم وكتفاها مرفوعتان؛ متأرجحة على المقعد الدوار، وبملامح لا تعبير فيها، ووجهها مذهب بدقيق خريفي مبكر.

ـ ألا ترى أنه يتوجب عليهم عدم إزعاج امرأة تقتل رجلاً لأنها بعد أن نامت معه أحست بالقرف منه ومن كل من ناموا معها؟

ـ ليس هناك ما يدعو إلى الذهاب بعيداً على هذا النحو ـ قال خوسيه متأثراً، وفي صوته خيط من الأسى.

ـ وماذا لو أن المرأة قالت للرجل إنها تشعر بالقرف منه وهي تراه يرتدي ثيابه، لأنها تذكرت أنها كانت تتقلب معه طوال بعد الظهر وتشعر بأنه لا يمكن للصابون ولا الليفة أن يزيلا عنها رائحته؟

ـ هذا ينقضي يا ملكة ـ قال خوسيه، بشيء من عدم المبالاة الآن، وهو يمسح الكونتوار ـ: لا حاجة بك لأن تقتليه، دعيه يذهب ببساطة.

لكن المرأة واصلت الكلام، وكان صوتها ينساب رتيباً، مفلتاً، عاطفياً.

ـ وماذا لو توقف الرجل عن ارتداء ملابسه عندما قالت له المرأة إنها تشعر بالقرف، واندفع نحوها من جديد، وقبلها من جديد، و...؟

ـ هذا شيء لا يفعله رجل محترم ـ قال خوسيه.

ـ ولكن، ماذا لو فعله؟ ـ قالت المرأة بجزع حانق ـ. ماذا لو كان

الرجل غير محترم وفعل ذلك، وأحست المرأة عندئذ بالاشمئزاز وبأنه يمكن لها أن تموت، وعرفت أن الطريقة الوحيدة لوضع حد لكل ذلك هي في طعنه بسكين من أسفل؟

ـ هذا عمل فظيع ـ قال خوسيه ـ. لحسن الحظ أنه لا وجود لرجل يفعل ما تقولين.

ـ حسن ـ قالت المرأة، وهي ساخطة تماماً الآن ـ. وماذا لو فعل ذلك؟ افترض أنه فعله.

ـ الأمر لا يستدعي على أي حال الوصول إلى ذلك الحد ـ قال خوسيه. وواصل مسح الكونتوار، دون أن يغير مكانه، وقد صار الآن أقل اهتماماً بالمناقشة.

ضربت المرأة زجاج الكونتوار بمفاصل أصابعها. وتحولت نبرتها إلى التأكيد والتفخيم.

ـ أنت متوحش يا خوسيه. أنت لا تفهم شيئاً ـ وشدته من كمه بقوة ـ. هيا، قل إنه كان على المرأة أن تقتله.

ـ حسن ـ قال خوسيه بميل إلى المصالحة ـ كل شيء مثلما تقولين.

ـ أليس ذلك دفاع عن النفس؟ ـ قالت المرأة وهي تهزه من كمه.

نظر إليها خوسيه عندئذ نظرة دافئة وراضية.

ـ تقريباً، تقريباً ـ قال. وغمز لها بعينيه في إيماءة تعبر في الوقت نفسه عن تفهم ودود والتزام مخيف بالتواطؤ. لكن المرأة ظلت على جديتها. أفلتته وقالت:

ـ هل أنت مستعد لقول كذبة كي تحمي امرأة تفعل ذلك؟

ـ هذا يتوقف...

ـ يتوقف على ماذا؟ ـ قالت المرأة.

ـ يتوقف على من تكون المرأة ـ قال خوسيه.

ـ افترض أنها امرأة تحبها كثيراً ـ قالت المرأة ـ امرأة لا تنام معها، أتلاحظ؟ ولكنك تحبها كثيراً، مثلما تقول أنت.

ـ حسن. مثلما تريدين أيتها الملكة ـ قال خوسيه متراخياً، مستاء.

ابتعد مرة أخرى. نظر إلى الساعة. رأى أنها تقترب من السادسة والنصف. فكر في أن المطعم سيبدأ خلال دقيقة بالامتلاء بالناس، وربما لهذا السبب راح يفرك زجاج الكونتوار بقوة أكبر، ناظراً إلى الشارع من خلال زجاج النافذة. وكانت المرأة لا تزال على المقعد، صامتة، مركزة، ترقب حركات الرجل بمزاج حزن منحدر. تراه مثلما يرى المرء مصباحاً آخذاً بالانطفاء. فجأة، ودون تأثر، تكلمت من جديد، بصوت الوداعة المداهن.

ـ خوسيه!

نظر الرجل إليها بعذوبة زخمة وحزينة، كثور أمومي. لم ينظر إليها ليسمعها؛ بل لمجرد أن يراها، وأن يعرف أنها موجودة هناك، تنتظر منه نظرة لا تكون بالضرورة نظرة حماية أو تضامن. مجرد نظرة دمية وحسب.

ـ قلت لك إني راحلة غداً ولم تقل شيئاً ـ قالت المرأة.

ـ أجل ـ قال خوسيه ـ. ما لم تقوليه لي هو إلى أين سترحلين.

ـ أينما كان ـ قالت المرأة ـ. حيث لا وجود لرجال يريدون النوم مع إحدانا.

ابتسم خوسيه ثانية.

ـ سترحلين حقاً؟ ـ سألها، وكما لو أنه يعي الحياة، بدّل بسرعة ملامح وجهه.

ـ هذا يعتمد عليك ـ قالت المرأة ـ إذا عرفتَ أن تقول في أي ساعة جئتُ، فسوف أرحل غداً، ولن أعود إلى هذه الأمور أبداً. أيروقك ذلك؟

هز خوسيه رأسه بإيماءة مؤكدة، مبتسماً ومصمماً. انحنت المرأة إلى الاتجاه الذي هو فيه.

ـ إذا ما عدتُ إلى هنا يوماً، سأشعر بالغيرة إذا وجدتُ امرأة أخرى تتحدث إليك، في مثل هذه الساعة وعلى هذا الكرسي.

ـ إذا عدتِ إلى هنا سيكون عليك أن تحضري لي شيئاً ـ قال خوسيه.

ـ أعدك بأن أبحث في كل مكان عن الدب الصغير ذي النوابض، لأجيئك به ـ قالت المرأة.

ابتسم خوسيه، ومرّ بخرقة القماش على الهواء الذي يفصله عن المرأة، كما لو أنه يمسح زجاجاً غير مرئي. ابتسمت المرأة أيضاً، بتعبير ودود ومتغنج هذه المرة. ابتعد الرجل بعد ذلك وهو يمسح الزجاج في الطرف الآخر من الكونتوار.

ـ ماذا؟ ـ قال خوسيه دون أن ينظر إليها.

ـ هل ستقول حقاً لكل من سيسألك متى جئتُ، بأنني جئت في الساعة السادسة إلا ربعاً؟ ـ قالت المرأة.

ـ لماذا؟ ـ قال خوسيه وهو مازال لا ينظر إليها، وكما لو أنه يكاد لا يسمعها الآن.

ـ هذا ليس مهماً ـ قالت المرأة ـ المهم أن تفعل ذلك.

عندئذ رأى خوسيه أول زبون يدخل من الباب الدوار ويمشي إلى منضدة في الركن. نظر إلى الساعة. كانت السادسة والنصف تماماً.

ـ لا بأس أيتها الملكة ـ قال ساهياً ـ مثلما تريدين. أنا أفعل دوماً كل شيء مثلما تريدين.

ـ حسن ـ قالت المرأة ـ. أعدّ لي إذاً شريحة اللحم.

توجه الرجل إلى الثلاجة، أخرج طبقاً فيه لحم، ووضعه على المنضدة. ثم أشعل الموقد.

ـ سأُعد لك شريحة لحم وداع جيدة أيتها الملكة.

ـ شكراً يا بيبيّو ـ قالت المرأة.

استغرقت في التفكير كما لو أنها غاصت فجأة في عالم سفلي غريب، تملؤه أشكال غير واضحة المعالم ومجهولة. لم تسمع، في الجانب الآخر من الكونتوار، الصوت الذي أحدثه اللحم البارد حين سقط في الزيت المغلي. ولم تسمع، بعد ذلك، الفرقعة الجافة

ذات الفقاعات التي صدرت عندما قلب خوسيه الشريحة فـي المقـلاة، ولم تشم فوحان رائحة اللحم المتبل التي راحت تمـلأ جو المطعـم. ظلـت علـى تلـك الحـال، تركـز وتـستعيد التركيـز، إلى أن عـادت إلى رفـع رأسها، وهـي ترمش، كما لو أنها تعود من موت مؤقـت. وعندئـذ رأت الرجل الذي بجوار الموقد، مضاءً بالنار السعيدة المتصاعدة.

ـ بيبيتو.

ـ آه!

ـ فيم تفكـر؟ ـ قالت المرأة.

ـ كنت أفكـر إذا مـا كنـتِ ستجدين الـدب الـصغير ذا النـابض في مكان ما ـ قال خوسيه.

ـ سأجده طبعاً ـ قالت المرأة ـ. لكن ما أريد أن تخبرني به هـو إذا ما كنت ستوافق على ما أطلبه منك كهدية وداع.

نظر إليها خوسيه وهو بجوار الموقد.

ـ إلى متى سأظل أكرر لك ذلك؟ ـ قال ـ. هل تريدين شيئاً أكثر من أفضل شريحة لحم؟

ـ أجل ـ قالت المرأة.

ـ ما هو؟ ـ قال خوسيه.

ـ أريد ربع ساعة آخر.

أدار خوسيه جسده إلى الوراء كـي ينظـر إلى الـساعة. ونظـر بعـد ذلك إلى الزبون الذي مازال صامتاً، ينتظر فـي الركـن، ثم نظر أخيراً إلى قطعة اللحم الذهبية فـي المقلاة. وعندئذ فقط تكلم.

ـ أنا لا أفهم حقاً أيتها الملكة ـ قال.

ـ لا تـكن أحمق يا خوسيه ـ قالت المـرأة ـ. تـذكـر أنني هنـا منـذ الخامسة والنصف.

نابو، الزنجي الذي جعل الملائكة تنتظر

Nabo, el negro que hizo esperar a los ángeles

(1951)

كان نابو منبطحاً على العشب الميت. يشم رائحة إسطبل يعبق بالبول تحتك بجسده. كان يشعر على جلده الرمادي واللامع بلسعات دفء الجياد الأخيرة؛ لكنه لا يشعر بجلده. نابو لا يشعر بشيء. يبدو كما لو أنه قد ظل نائماً بعد رفسة الحافر الأخيرة على جبينه، وليس لديه الآن سوى هذا الإحساس وحده. إحساس مزدوج يشير له في الوقت نفسه إلى رائحة الإسطبل الرطب وطنين حشرات لا تحصى على الجرح. فتح جفنيه، وأعاد إطباقهما، وظل ساكناً. وبعد ذلك تمدد متصلباً، مثلما طيلة ما بعد الظهر، شاعراً بأنه ينمو دون زمن، إلى أن قال أحدهم وراء ظهره: «هيا يا نابو. لقد نمت ما يكفي». انقلب ولم ير الخيول، لكن الباب كان مغلقاً. لا بد أن نابو قد تخيل أن البهائم في مكان ما في الظلمة، بالرغم من أنه لم يكن يسمع رفس حوافرها الجزع على الأرض. تخيل أن من كلّمه فعل ذلك من خارج الإسطبل، لأن الباب مغلق من الداخل بالرتاج. ومرة أخرى قال الصوت وراء ظهره: «صحيح يا نابو، لقد نمت ما يكفي. إنك نائم منذ ثلاثة أيام تقريباً...» عندئذ فقط فتح نابو عينيه تماماً، وتذكر: «إنني هنا لأن حصاناً رفسني».

لم يدر في أي ساعة كان يعيش. فالأيام صارت وراءه الآن. بدا كما لو أن أحدهم قد مرّ بإسفنجة مبللة على السبوت النائية تلك التي اعتاد أن يذهب في لياليها إلى ساحة القرية. نسي القميص الأبيض. نسي أن لديه قبعة خضراء، من قش أخضر، وبنطال أسود، نسي أنه لم يكن يملك حذاء. كان نابو يذهب إلى الساحة في ليالي السبت، يجلس في أحد الأركان صامتاً، لا ليستمع إلى الموسيقى وإنما لرؤية الزنجي. كان يراه كل سبت. وكان الزنجي يضع نظارة إطارها من درع

السلاحف، مثبتة إلى أذنيه، ويعزف الساكسفون على إحدى المنصات الخلفية. كان نابو يرى الزنجي، لكن الزنجي لم يكن يرى نابو. أو لو أن أحداً، على الأقل، رأى نابو يذهب بصورة متواصلة إلى الساحة في ليالي السبت ليرى الزنجي، وسأله ـ ليس الآن، لأنه لن يستطيع تذكره ـ عما إذا كان الزنجي قد رآه ولو مرة. فإن نابو سيقول لا. وكان الشيء الوحيد الذي يفعله بعد تنظيف الخيول بالفرشاة: رؤية الزنجي.

في أحد أيام السبت، لم يكن الزنجي في مكانه ضمن الفرقة الموسيقية، ولا بد أن نابو قد فكر، أول الأمر، أنه لن يعود للعزف في الحفلات الشعبية، بالرغم من أن منصته كانت هناك. ولكن لهذا السبب تحديداً، لأن منصته موجودة هناك، فكر بعد ذلك في أن الزنجي سيعود في السبت التالي. لكن الزنجي لم يعد يوم السبت التالي، ولم تكن منصته في مكانها.

انقلب نابو على جانبه ورأى الرجل الذي يكلمه. لم يعرفه في البدء. كانت ملامحه غائمة في ظلمة الإسطبل. كان الرجل جالساً على بروز خشبي، يتكلم ويضرب ركبتيه. «لقد رفسني حصان»، أعاد نابو القول وهو يحاول التعرف على الرجل. «صحيح ـ قال الرجل ـ الخيول ليست هنا الآن، ونحن ننتظرك في الكورال.» هز نابو رأسه. لم يكن قد بدأ التفكير بعد. لكنه يظن أنه رأى الرجل في مكان ما. والرجل يقول إنهم ينتظرون نابو في الكورال. ونابو لا يفهم، لكنه لا يستغرب أيضاً أن يقول له أحد ذلك، لأنه في كل يوم، بينما هو ينظف الخيول بالفرشاة، يخترع أغنيات لتسلية الخيول. وكان يغني بعد ذلك في الصالة لتسلية الطفلة البكماء بأغنيات الخيول نفسها. لكن الطفلة كانت في عالم آخر. في عالم الصالة، جالسة، وعيناها مثبتتان على الجدار. ولو أن أحداً قال له، وهو يغني، إنه سيضمه إلى الكورال، لما فوجئ بذلك. والآن كانت مفاجأته أقل لأنه لم يفهم. كان منهوكاً، خَدِراً، مشوش الذهن. «أريد أن أعرف أين هي الخيول»، قال. فقال له الرجل: «لقد أخبرتك أن الخيول ليست هنا، وكل ما يهمنا هو اجتذاب صوت كصوتك.» وربما سمع نابو ذلك ووجهه على العشب، لكنه لم

يستطع أن يميز الألم الذي خلفه حافر الجواد على جبينه عن أحاسيس أخرى مختلطة. أعاد وجهه إلى العشب واستغرق في النوم.

واظب نابو خلال أسبوعين أو ثلاثة أسابيع أخرى على الذهاب إلى الساحة، بالرغم من أن الزنجي لم يعد في الفرقة الموسيقية. وربما كان هناك من سيخبره، لو أن نابو سأل عما حدث للزنجي. لكنه لم يسأل أحداً، بل واصل حضور الحفلات الموسيقية إلى أن جاء رجل آخر، بآلة ساكسفون أخرى، ليحتل موقع الزنجي. عندئذ اقتنع نابو بأن الزنجي لن يعود أبداً، وقرر ألا يرجع هو أيضاً إلى الساحة. عندما استيقظ ظن أنه نام لوقت قصير جداً. كانت رائحة العشب المبلل لا تزال تعبق في أنفه. والظلام لا يزال مخيماً، أمام عينيه، ومحيطاً به. ولكن الرجل مازال في الركن. والصوت الغائم والمسالم للرجل الذي يضرب ركبتيه يقول: «إننا ننتظرك يا نابو. أنت نائم منذ حوالي سنتين، ولم تشأ النهوض.» عندئذ عاد نابو إلى إغماض عينيه. ثم فتحهما بعد ذلك. ظل ينظر باتجاه الركن، ورأى الرجل مرة أخرى مضطرباً، حائراً. وعندئذ فقط عرفه.

لو أننا، نحن أهل البيت، علمنا بما يفعله نابو في الساحة أيام السبت ليلاً، لكنا ظننا أنه كف عن الذهاب لأنه صار لديه موسيقى في البيت. كان ذلك عندما أحضرنا فونوغرافاً لتسلية الطفلة. وعندما تكون هناك حاجة لشخص يدير ذراع تشغيل الجهاز طوال اليوم، بدا من الطبيعي جداً أن يكون ذلك الشخص هو نابو. بوسعه القيام بذلك عندما لا يكون عليه العناية بالخيول. كانت الطفلة تظل جالسة، تستمع إلى الأسطوانات. وفي بعض الأحيان، بينما الموسيقى تصدح، تنزل الطفلة عن مقعدها، دون أن تتوقف عن النظر إلى الجدار، مريّلة، وتجرجر نفسها حتى غرفة الطعام. فيرفع نابو إبرة الفونوغراف ويبدأ الغناء. في البداية، عندما جاء إلى البيت وسألناه عما يتقن عمله، قال نابو إنه يعرف الغناء. ولكن ذلك لا يهم أحداً. فقد كنا بحاجة إلى فتى ينظف الخيول بالفرشاة. بقي نابو في البيت، لكنه واصل الغناء كما لو أننا قبلناه من أجل أن يغني، وكما لو أن تَفريش الخيول ليس إلا

تسلية تخفف من وطأة عمله ذاك. استمرت هذه الحال أكثر من سنة، إلى أن اعتدنا نحن أهل البيت على فكرة أنه لن يكون بإمكان الطفلة المشي، ولن تتعرف على أحد، ولن تتخلى عن كونها الطفلة الميتة والوحيدة التي تستمع إلى الفونوغراف، ناظرة إلى الجدار ببرود إلى أن نحملها من مقعدها ونقتادها إلى الغرفة. عندئذ لم تعد تسبب لنا الألم؛ غير أن نابو ظل وفياً، دقيقاً، في تدوير ذراع الفونوغراف. كان ذلك في الوقت الذي لم يكن نابو يتخلف فيه عن الذهاب إلى الساحة في أيام السبت ليلاً. وذات يوم، بينما كان الفتى في الإسطبل، قال أحدهم بجوار الفونوغراف: «نابو!». كنا في الممر، غير مهتمين بما كان يمكن لأحد أن يقوله. لكننا حين سمعنا مرة ثانية: «نابو!»، رفعنا رؤوسنا وسألنا: «من هناك مع الطفلة؟» فقال أحدهم: «لم أر أحداً يدخل». قال آخر: «إنني متأكد من أني سمعت صوتاً يقول: "نابو"» ولكننا حين ذهبنا لنرى، وجدنا الطفلة وحدها على الأرض، مستندة إلى الجدار.

رجع نابو مبكراً وذهب للنوم. وفي يوم السبت التالي لم يعد إلى الساحة لأن عازفاً آخر قد حل محل الزنجي، وبعد ثلاثة أسابيع من ذلك، وكان يوم الاثنين، بدأ الفونوغراف يصدح في الوقت الذي كان فيه نابو في الإسطبل. لم يُقلق ذلك أحداً في أول الأمر. ولكن في ما بعد فقط، عندما رأينا الفتى الزنجي آتياً وهو يغني ولا يزال يقطر منه ماء غسيل الخيول، قلنا له: «من أين خرجت؟» فقال: «من الباب. لقد كنت في الإسطبل منذ الظهر». قلنا له: «الفونوغراف يصدح. ألا تسمعه؟» وقال نابو بلى. فسألناه: «من الذي ملأ نابض الجهاز؟» فهز كتفيه: «إنها الطفلة. إنها تفعل ذلك منذ زمن».

وهكذا سارت الأمور حتى اليوم الذي وجدناه فيه منبطحاً على العشب، محبوساً في الإسطبل وأثر حافر الحصان المطبوع على جبينه. عندما رفعناه من كتفيه. قال نابو: «إنني هنا لأن حصاناً رفسني». لكن أحداً لم يهتم بما يمكن أن يقوله. ما كان يهمنا هو عينيه الباردتين الميتتين وفمه الممتلئ بزبد أخضر. أمضى الليل بطوله يبكي، متأججاً بالحمى، وهاذياً، متحدثاً عن المشط الذي فقده بين قش الإسطبل،

كان ذاك هو اليوم الأول. وفي اليوم التالي، عندما فتح عينيه وقال: «إنني عطش» جئناه بماء وشربه كله جرعة واحدة وطلب المزيد مرتين. سألناه كيف يشعر. فقال: «أشعر كما لو أن حصاناً قد رفسني». وواصل الكلام طوال النهار وطوال الليل. وأخيراً استوى جالساً في الفراش، وأشار إلى أعلى، بإصبعه السبابة، وقال إن عدو الجياد لم يمكّنه من النوم طيلة الليل. ولكنه كان قد تخلص من الحمى منذ الليلة السابقة. لم يعد يهذي، لكنه واصل الكلام إلى أن دسوا منديلاً في فمه. عندئذ بدأ نابو الغناء من وراء المنديل: بدأ يقول إنه يسمع، بجانب أذنه، لهاث الخيول باحثة عن الماء من فوق الباب المغلق. وعندما نزعنا المنديل من فمه كي يأكل شيئاً، انقلب باتجاه الجدار وظننا جميعنا أنه قد نام، بل من المحتمل أن يكون قد نام قليلاً. لكنه حين استيقظ لم يكن في الفراش، كانت قدماه ويداه مربوطة إلى حلقة في الغرفة. وبدأ نابو، وهو مقيد، بالغناء.

عندما تعرف نابو عليه قال للرجل: «لقد رأيتك من قبل». وقال الرجل:«في كل يوم سبت يرونني في الساحة». وقال نابو: «صحيح، لكنني كنت أظن أني أراك وأنت لا تراني». فقال الرجل: «لم أرك قط، ولكن في ما بعد، عندما توقفتُ عن المجيء، شعرت كما لو أن أحداً قد كف عن رؤيتي في أيام السبت». وقال نابو: «أنت لم تعد قط، أما أنا فواصلت الذهاب ثلاثة أو أربعة أسابيع.» والرجل، دون أن يتحرك بعد، وهو يضرب بيديه على ركبتيه: «لم يكن باستطاعتي العودة إلى الساحة، بالرغم من أنه الشيء الوحيد الذي له معنى.» حاول نابو النهوض، هز رأسه في العشب اليابس، وواصل سماع الصوت البارد اللجوج إلى أن لم يعد لديه متسع من الوقت ولو ليعرف مرة أخرى إذا ما كان نائماً. ودائماً، منذ أن رفسه الجواد، يحدث له ذلك. ودائماً يسمع الصوت: «نحن ننتظرك يا نابو. لم تعد هناك طريقة لتقدير الوقت الذي ظللت فيه نائماً».

بعد أربعة أسابيع من عدم عودة الزنجي إلى الفرقة. كان نابو يمشط ذيل أحد الجياد. لم يفعل ذلك من قبل قط. فقد كان يُفَرِّش

الخيول ببساطة، ويغني في أثناء ذلك. لكنه كان قد ذهب يوم الأربعاء إلى السوق ورأى هناك مشطاً، فقال لنفسه: «هذا مشط لتمشيط ذيول الجياد». وكان عندئذ أن جرت واقعة رفس الحصان له وتركه مشوش الذهن مدى الحياة، منذ عشر سنوات أو خمس عشرة سنة. قال أحدهم في البيت: «كان من الأفضل لو أنه مات في ذلك اليوم ولم يبق هكذا، لا علاج له، يهذي طوال ما تبقى من حياته». لكن أحداً لم يعد لرؤيته منذ اليوم الذي حبسناه فيه. هكذا نعلم فقط أنه موجود هناك، محبوس في الغرفة، وأن الطفلة لم تعد منذئذ إلى تشغيل الفونوغراف. لكننا نحن من في البيت، نكاد لا نهتم بمعرفة ذلك. لقد حبسناه كما لو كان حصاناً، كما لو كانت الرفسة قد نقلت إليه الخراقة وطبعت على جبينه كل غباء الخيول: حالة الحيوانية. وتركناه معزولاً بين أربعة جدران، كما لو كنا قررنا أن يموت حبساً لأننا لم نمتلك برودة الأعصاب لقتله بطريقة أخرى. وهكذا انقضى أربعة عشر عاماً، إلى أن نما في أحد الأطفال وقال إنه راغب في رؤية وجهه. وفتح الباب.

عاد نابو للنظر إلى الرجل، وقال: «لقد رفسني حصان». فقال الرجل: «إنك تقول هذا منذ قرون، وفي أثناء ذلك نحن ننتظرك في الكورال». أعاد نابو هز رأسه، وأعاد وضع جبينه الجريح في العشب، وظن أنه تذكر، فجأة، كيف حدثت الأمور، قال: «كانت المرة الأولى التي أمشط فيها ذيل حصان». فقال الرجل: «نحن أردنا الأمر هكذا، كي تأتي للغناء في الكورال». وقال نابو: «ما كان ينبغي لي أن أشتري المشط». وقال الرجل: «كنت ستجده على أية حال. فقد قررنا أن تجد المشط وتمشط ذيول الخيول». وقال نابو: «لم أقف خلفها من قبل قط». والرجل، وهو لا يزال هادئاً، ولا يزال غير نافد الصبر: «لكنك وقفت ورفسك الحصان. كانت الطريقة الوحيدة لجعلك تجيء إلى الكورال». تواصل الحديث اليومي الذي لا يهدأ إلى أن قال أحدهم في البيت: «منذ خمسة عشر عاماً لم يفتح أحد هذا الباب». والطفلة ـ لم تكن تنمو. وكانت قد تجاوزت الثلاثين، وبدأت تحزن في أهدابها ـ كانت جالسة، تنظر إلى الجدار، عندما فتحوا الباب. أدارت وجهها نحو

الجانب الآخر متشممة. وعندما أغلقوا الباب، عادوا إلى القول: «نابو هادئ. لم يعد يتحرك في الداخل. وفي أحد هذه الأيام سيموت، ولن نعرف ذلك إلا من الرائحة». وقال أحدهم: «سنعرف من الطعام. فهو لم يكف عن الأكل. الأمر جيد هكذا، إنه محبوس، وليس هناك من يزعجه. ومن الجهة الخلفية يدخل إليه ضوء جيد». وظلت الأمور على هذه الحال؛ والطفلة وحدها هي التي واصلت النظر نحو الباب، متشممة الرائحة الدافئة المتسللة من خلال الشق. ظلت على تلك الحال حتى الفجر، عندما سمعنا ضجة معدنية في الغرفة، وتذكرنا أنها الضجة نفسها التي كانت تُسمع قبل خمسة عشر عاماً، حين كان نابو يملأ نابض الفونوغراف. نهضنا، أضأنا المصباح، وسمعنا أولى نغمات الأغنية المنسية؛ الأغنية الحزينة التي ماتت في الأسطوانات منذ زمن طويل. تواصل تردد الصوت بصورة تزداد قسرية، إلى أن سُمع صوت ضربة جافة في اللحظة التي وصلنا فيها إلى الغرفة، وسمعنا الأسطوانة وهي لا تزال تُصدر صوتاً، ورأينا الطفلة في الركن إلى جوار الفونوغراف، تنظر إلى الجدار وذراع التدوير مرفوعة، تتدلى من علبة الصوت. لم نتحرك. والطفلة لم تتحرك، بل ظلت هناك، ساكنة، متيبسة، تنظر إلى الجدار وذراع التدوير مرفوعة في يدها. لم نقل شيئاً، بل رجعنا إلى حجرتنا ونحن نتذكر أن أحداً قد قال لنا يوماً إن الطفلة تعرف تشغيل الفونوغراف. وبينما نحن نفكر في ذلك، ظللنا دون نوم، نستمع إلى الموسيقى المستهلكة من الأسطوانة التي تواصل الدوران بسبب إفراط في ملء نابض التشغيل المكسور.

في اليوم السابق حين فتحوا الباب، كانت تعبق في الداخل رائحة تبدد عضوي، رائحة جسد ميت. فصاح من فتح الباب: «نابو، نابو!» لكن أحداً لم يردّ من الداخل. وإلى جوار الفتحة كان الصحن الفارغ. ثلاث مرات في اليوم كان يجري إدخال الصحن من تحت الباب، وثلاث مرات بعد ذلك يخرج الصحن دون طعام. هكذا كنا نعرف أن نابو مازال حياً. ولكن دون أية وسيلة أخرى غير هذه.

لم يعد ثمة حركة من الداخل، لم يعد هناك غناء. ولابد أن نابو

قـال للرجـل بعـد إغلاقنـا البـاب: «لا يمكـنني الـذهاب إلى الكـورال.» وسـأله الرجل «لماذا؟». فقال نابو: «لأني لا أملك حذاء». فرفع الرجل قدمه وقال: «هذا غير مهم. لأن أحداً لا يستخدم أحذية هنـا». ورأى نـابو بـاطن القدمين الضاربتين إلى الصفرة والمتصلبتين اللتين يرفعهما الرجل. «إنني هنا منذ أبدية»، قال الرجل. فقال نابو: «منذ لحظة فقط رفسني الحصان. سأغسل وجهي الآن بقليل من الماء، وآخذ الخيول في جولـة». فقـال الرجل: «لم تعد الخيول بحاجة إليك. لم يعد ثمة خيول. وأنت من يتوجب عليه أن يأتي معنا». وقال نابو: «لا بد أن تكون الخيول هنا». نهض قليلاً، غرس يديه بين العشب بينما كان الرجل يقول: «منذ خمسة عشر عاماً لم تجد من يعنى بها». لكن نـابو كـان يخدش الأرض تحت القش وهـو يقـول: «لابـد أن المشط لا يـزال هنـا». «لقـد أغلقـوا الإسـطبل منـذ خمسـة عشـر عامـاً. إنـه ممتلـئ بالأنقـاض الآن». ونـابو يقـول: «لا يمكـن لأنقـاض أن تتجمع فـي أمسية واحدة. ولن أتحرك من هنا قبل أن أجد المشط».

فـي اليوم التالي، بعد أن أعادوا إحكام إغلاق الباب، عادوا لسماع الحركات الداخلية العسيرة. ولم يتحرك أحد بعد ذلك. لم يعد أحد إلى قول أي شيء عندما سُمعت أولى أصوات الصرير، وبدأ البـاب بـالتحرك تحت ضغط قوة غير عادية. كـان يُسمع فـي الـداخل صوت كأنه لهاث حيـوان حبيس. وأخيراً سُمعت فرقعة المفصلات الصدئة وهي تنكسر حين أعاد نابو هز رأسه. «لن أذهب إلى الكورال ما لم أجد المشط ـ قال ـ لا بد أنه فـي هذه الأنحاء». وراح ينبش العشب، يفتته، يخدش الأرض، إلى أن قال الرجل: «حسن يا نـابو. إذا كـان الشيء الوحيد الذي تنتظره للمجيء إلى الكـورال هـو العثور على المشط، فابحث عنه». انحنى إلى أمام، مظلماً وجهه بكبرياء صابرة. أسند يديه على الحاجز، وقال: «هيا يا نابو. سأهتم أنا بألا يتمكن أحد من إيقافك».

عندئذ انخلع الباب، وخرج الزنجي البهيمي الضخم، بوسم الندبة الفظة على جبينه ـ بالرغم من مرور خمسة عشر عاماً ـ قالباً الأثاث ومتعثراً بالأشياء، بقبضتيه المرفوعتين والمتوعدتين اللتين مازالتا تحملان الحبل الذي قيدوه به قبل خمسة عشر عاماً ـ حين كان صبياً زنجياً

يعنى بالخيول ـ، يزعق في الممرات، بعد أن دفع بكتفه الباب بقوة عاصفة، ومرّ ـ قبل أن يصل إلى الفناء ـ بمحاذاة الطفلة التي ظلت جالسة، وذراع الفونوغراف لا تزال في يدها منذ الليلة الفائتة ـ وحين رأت هي القوة الزنجية الجامحة، تذكرت شيئاً لا بد أنه كان كلمة في أحد الأوقات ـ ووصل إلى الفناء ـ قبل أن يعثر على الإسطبل ـ، بعد أن أخذ بكتفه مرآة الصالة، ولكن دون أن يرى الطفلة ـ لا بجوار الفونوغراف ولا في المرآة ـ، ووقف بمواجهة الشمس، وعيناه مغمضتان، أعمى ـ بينما لم تكن قد توقفت في الداخل بعد ضجة المرايا المهشمة ـ، وركض دون وجهة محددة، مثل جواد معصوب العينين، يبحث بالغريزة عن باب الإسطبل الذي محته من ذاكرته، ولكن ليس من غريزته، خمس عشرة سنة من الحبس ـ منذ ذلك اليوم البعيد الذي مشط فيه ذيل الحصان وظل غائباً عن الوعي مدى الحياة ـ، وخلّف وراءه الكارثة، والتحلل، والفوضى، مثل ثور معصوب العينين في غرفة ممتلئة بالمصابيح، إلى أن وصل إلى الفناء الخلفي ـ دون أن يجد الإسطبل بعد ـ، وراح يكشط الأرض بذلك الغضب العاصف الذي حطم به المرآة، وربما كان يعتقد أنه بكشط العشب ستنبعث من جديد رائحة بول الفرس، قبل أن يصل تماماً إلى أبواب الإسطبل ـ وهو الآن أقوى من قوته العاصفة ـ، ويدفعها قبل وصوله إليها ويسقط في الداخل، على وجهه، ربما محتضراً، ولكنه لا يزال مبهوراً بتلك البهيمية الشرسة التي لم تُتح له قبل نصف ثانية سماع الطفلة وهي ترفع ذراع الفونوغراف حين رأته يمر، وتذكرت مغمغمة، ولكن دون أن تتحرك عن الكرسي، ودون أن تحرك فمها، وإنما بتدوير ذراع الفونوغراف في الهواء، تذكرت الكلمة الوحيدة التي تعلمت نطقها في حياتها، وصرخت به من الصالة: «نابو، نابو!».

أحدهم كان يفسد ترتيب هذه الورود
Aluien desordena estas rosas

(1952)

بما أنه يوم أحد وهطول المطر قد توقف، فقد فكرتُ في أن آخذ باقة ورود إلى قبري. ورود حمراء وبيضاء، من تلك التي تزرعها هي لتوضع على المذبح أو لتُصنع منها الأكاليل. كان الصباح حزيناً بسبب هذا الشتاء الصامت والباعث على الانقباض، مما ذكّرني بالرابية التي يهجر فيها أهل القرية موتاهم. إنه مكان مقفر، بلا أشجار، يكاد لا يكنسه إلا فتات ضئيل من العناية الإلهية التي ترجع بعد انقضاء الرياح. الآن، وقد توقف المطر، وجففت شمس الظهيرة، دون ريب، طين السفح الزلق، سيكون بمقدوري الوصول حتى جثوة التراب التي يرقد تحتها جسدي الطفلي، وقد اختلط الآن، وتحلل بين الحلزونات والجذور.

إنها ساجدة أمام قديسيها. وقد ظلت ساهية مذ توقفتُ عن التحرك في الحجرة، بعد أن أخفقتُ في أول محاولة للوصول إلى المذبح وأخذ أشد الورود تألقاً ونضارة. ربما كان بإمكاني أن أفعل ذلك اليوم، لكن المصباح الصغير ارتعش وأفاقت هي من النشوة، فرفعت رأسها ونظرت باتجاه الركن حيث الكرسي. ولا بد أنها فكرت: «إنها الريح مرة أخرى»، لأن شيئاً طقطق بجانب المذبح وتأرجحت الحجرة هنيهة، كما لو أن اهتزازاً حدث في طبقة الذكريات الراكدة فيها منذ زمن طويل. عندئذ أدركتُ أنه يتوجب عليَّ انتظار فرصة أخرى لأخذ الورود، لأنها ظلت مستيقظة، تنظر إلى الكرسي، وكان يمكن لها أن تشعر

بحفيف يدي على مقربة من وجهها. عليَّ أن أنتظر الآن إلى أن تغادر الغرفة، بعد قليل، وتذهب إلى الحجرة المجاورة لتنام قيلولة يوم الأحد المقدرة والثابتة. من الممكن عندئذ أن أتمكن من الخروج ومعي الورود كي أرجع قبل أن تعود هي إلى هذه الغرفة وتستغرق في النظر إلى الكرسي.

يوم الأحد الماضي كان الأمر أكثر صعوبة. فقد اضطررتُ إلى الانتظار قرابة ساعتين إلى أن استغرقت في النشوة. بدت قلقة، مضطربة، كما لو كان يعذبها اليقين بأن وحدتها في البيت قد صارت، فجأة، أقل زخماً. دارت عدة مرات في الغرفة وهي تحمل باقة الورد، قبل أن تتركها على المذبح. ثم خرجت بعد ذلك إلى ممر المدخل، وانعطفت نحو الداخل وتوجهت إلى الحجرة المجاورة. كنتُ أعرف أنها تبحث عن المصباح. وبعد ذلك، حين عادت للمرور قبالة الباب ورأيتُها على ضوء ممر المدخل بمريلتها القاتمة وجوربيها الورديين، بدا لي أنها مازالت مثل الطفلة التي انحنت، منذ أربعين سنة، على سريري، في هذه الحجرة نفسها، وقالت: «الآن وقد وضعوا له عيدان القش، صارت عيناه مفتوحتين وصلبتين». إنها مثلها، وكأن الزمن لم يمض منذ عصر ذلك اليوم البعيد من شهر آب، حين جاءت بها النسوة إلى الحجرة وأرينها الجثة، وقلن لها: «ابكي، فقد كان مثل أخيكِ»، فاستندت هي إلى الجدار باكية، منصاعة، وهي لا تزال مبتلة بماء المطر.

الآن، منذ ثلاثة أو أربعة أيام آحاد وأنا أحاول الوصول إلى الورود، لكنها كانت تظل متيقظة قبالة المذبح؛ تحرس الورود بحرص فزِع لم أعرفه فيها خلال العشرين سنة التي عاشتها في البيت. ويوم الأحد الماضي، عند خروجها لإحضار المصباح، تمكنتُ من تركيب باقة من أفضل الورود. لم أكن في أي وقت أقرب إلى تحقيق رغبتي مما كنتُ عليه في تلك اللحظة. ولكنني عندما كنت أستعد للعودة إلى الكرسي، سمعت وقع الخطوات في الممر من

جديد ، فأعدت ترتيب الورود بسرعة على المذبح؛ وعندئذ رأيتها تظهر في فراغ الباب وهي ترفع المصباح عالياً.

كانت تضع المريلة القاتمة والجوربين الورديين، ولكن بدا في وجهها شيء مثل وميض كشف إلهي. لم تبد حينئذ أنها المرأة التي تزرع منذ عشرين عاماً الورود في الحديقة، وإنما الطفلة نفسها التي جاؤوا بها إلى الحجرة المجاورة، في عصر ذلك اليوم من آب، لتغير ملابسها وتعود الآن بالمصباح، بدينة وهرمة، بعد انقضاء أربعين سنة.

مازالت على حذائي قشرة الطين القاسية التي تشكلت في عصر ذلك اليوم، بالرغم من أن الحذاء ظل يُجفف طيلة عشرين عاماً بجانب الموقد المطفأ. وقد ذهبت في أحد الأيام للبحث عنه. وكان ذلك بعد أن أحكموا إقفال الأبواب، وانتزعوا عن المدخل قطعة الخبز وغصناً من عود الند، وأخذوا الأثاث. أخذوا الأثاث كله، باستثناء كرسي الركن الذي استخدمته طيلة هذا الوقت. كنتُ أعرف أن الحذاء وُضع ليجف، وأنهم لم يتذكروه عندما هجروا البيت. لهذا ذهبتُ لآخذه.

عادت هي بعد سنوات طويلة. كان قد انقضى زمن طويل، حتى إن رائحة المسك في الحجرة اختلطت برائحة الغبار، وبالرائحة الجافة والخفيفة للحشرات. كنت وحيداً في البيت، أجلس في الركن منتظراً. وكنت قد تعلمت تمييز همهمة الخشب الآخذ بالتفسخ، وحفيف الهواء الآخذ بالتقادم في حجرات النوم المغلقة. وكان أن جاءت هي عندئذ. لقد توقفت عند الباب وفي يدها حقيبة، بقبعة خضراء وبالمريلة القطنية نفسها التي لم تخلعها منذ ذلك الحين. كانت لا تزال صبية. لم تكن قد بدأت بالسمنة، ولم يكن كاحلاها قد تضخما تحت الجوربين مثلما هما الآن. وكنت أنا مغطى بالغبار ونسيج العناكب حين فتحت هي الباب، وصمتَ في أحد الأركان الجدجد الذي كان يغني طيلة عشرين عاماً. ولكن، على الرغم من ذلك، على الرغم من نسيج العنكبوت والغبار، وعلى

الرغم من ندم الجدجد المفاجئ، والعمر الجديد للقادمة حديثاً، تعرفتُ فيها على الطفلة التي رافقتني، في عصر ذلك اليوم العاصف من شهر آب، لجمع أعشاش الطيور من الإسطبل. هكذا مثلما هي، واقفة عند الباب، والحقيبة في يدها والقبعة الخضراء على رأسها، تبدو كما لو أنها ستبدأ بالصراخ فجأة، وتقول ما قالته عندما وجدوني ملقى على ظهري بين أعشاب الإسطبل، وأنا لا أزال أتشبث بحاجز سياج السلم المكسور. حين فتحت هي الباب بالكامل، أنَّت المفصلات وتهاوى الغبار من السقف فجأة، كما لو أن أحداً بدأ يضرب بمطرقة على قمة السطح، عندئذ ترددت هي في ضوء إطار الباب، ثم أدخلت نصف جسدها إلى الغرفة، وقالت بصوت من ينادي شخصاً نائماً: «أيها الصغير! أيها الصغير!» وظللتُ أنا ساكناً في الكرسي، متيبساً وقدماي ممدودتان.

ظننت أنها جاءت لترى الحجرة وحسب، ولكنها واصلت العيش في البيت. هوّت الغرفة، وكان ذلك كما لو أنها فتحت الحقيبة وخرجت منها رائحة المسك القديمة. لقد أخذ الآخرون الأثاث والملابس في الصناديق. أما هي فلم تأخذ سوى روائح الحجرة، وبعد عشرين عاماً أحضرتها ثانية، وضعتها في مكانها، وأعادت بناء المذبح الصغير، مثلما كان من قبل. كان وجودها وحده كافياً لترميم ما كان قد دمره عمل الزمن الدؤوب. ومنذئذ صارت تأكل وتنام في الحجرة المجاورة، لكنها تقضي النهار في هذه الغرفة، تتبادل الحديث بصمت مع القديسين. وفي المساء تجلس على الكرسي الهزاز، إلى جانب الباب، وترفو الملابس. وعندما يأتي أحدهم في طلب باقة ورد، تخبئ النقود في زاوية المنديل المعقود إلى حزامها، وتقول دون تغيير: «خُذ التي إلى اليمين، أما التي على اليسار فهي من أجل القديسين».

هكذا ظلت على الكرسي الهزاز، طيلة عشرين عاماً، ترفو أشياءها، تهتز، تنظر إلى الكرسي كما لو أنها الآن لا ترعى الطفل

الذي شاركها أمسيات الطفولة، وإنما الحفيد المقعد الذي يجلس هنا دائماً، في الركن، مذ كان عمر الجدة خمس سنوات.

من الممكن الآن، حين تخفض رأسها ثانية، أن أتمكن من الاقتراب من الورود. إذا استطعتُ عمل ذلك، فسوف أذهب إلى الرابية، وأضع الورود على جثوة التراب، وأعود إلى المقعد، بانتظار اليوم الذي لا تعود فيه هي إلى الغرفة، وتتوقف فيه الحركة في الحجرات المجاورة.

في ذلك اليوم سيحدث تحوّل في هذا كله، لأنه سيكون عليّ أن أخرج مرة أخرى من البيت لأخبر أحداً بأن امرأة الورود، المرأة التي تعيش وحيدة في البيت المتداعي، تحتاج إلى أربعة رجال لحملها إلى الرابية. حينئذ سأظل وحيداً بصورة نهائية في الغرفة. أما هي بالمقابل فستكون راضية. لأنها ستعرف يومئذ أنه لم تكن الرياح غير المرئية هي التي تجيء إلى مذبحها في أيام الآحاد لتفسد ترتيب الورود.

ليلة الكراوانات
La noche de los alcaravanes
(1953)

كنا جالسين، نحن الثلاثة، حول المائدة، عندما أدخل أحدهم قطعة نقد معدنية في الفتحة، وعادت ماكنة الـWurlitzer لتبدأ من جديد أسطوانة الليلة كلها. وما سوى ذلك لم يكن لدينا متسع من الوقت للتفكير فيه. فقد حدث قبل أن نتذكر أين نتواجد؛ قبل أن نستعيد حس التوجه. مدَّ أحدنا يده فوق منضدة الكونتوار، متحسساً (نحن لم نرَ اليد، بل سمعناها)، اصطدم بأحد الأكواب وهيمن عليه الصمت بعد ذلك، وظلت يداه قابعتين فوق السطح الصلب. عندئذ بحثنا نحن الثلاثة عنا في الظلمة والتقينا هناك، عند ملتقى الثلاثين إصبعاً المتراكمة فوق منضدة الكونتوار. قال أحدنا:

ـ فلنذهب.

ونهضنا واقفين كأن شيئاً لم يحدث. لم يكن لدينا بعد متسع من الوقت للارتباك.

وفي الردهة، لدى المرور، سمعنا الموسيقى القريبة، فاستدرنا. شممنا رائحة نساء حزينات، يجلسن وينتظرن. شعرنا بفراغ الردهة المتطاول أمامنا، وبينما نحن نمشي نحو الباب، قبل أن نخرج لنلتقي الرائحة الأخرى اللاذعة للمرأة الجالسة بجوار الباب. فقلنا:

ـ فلنذهب.

لم تجب المرأة بشيء. سمعنا صرير كرسي هزاز، يتحرك إلى أعلى، عندما نهضت هي واقفة. سمعنا وقع الخطى على أخشاب الأرضية المفلتة ثم عودة المرأة ثانية، عندما عادت المفصلات تصرّ وانطبق الباب وراءنا.

استدرنا. وهناك بالذات، وراءنا، كان ثمة هواء قاسٍ وقارس لفجر غير مرئي، وصوت يقول:

- ابتعدوا من هناك، سأمر ومعي هذا.

تراجعنا إلى الوراء، وعاد الصوت يقول:

- مازلتم ملتصقين بالباب.

عندئذ فقط، بعد أن تحركنا نحو كل الجهات ووجدنا الصوت في كل الجهات، قلنا:

- لا يمكننا الخروج من هنا. فالكروانات سملت عيوننا.

سمعنا بعد ذلك انفتاح عدة أبواب. أفلت أحدنا من الأيدي الأخرى وسمعناه يجرجر نفسه في الظلمة، متردداً، متعثراً بالأشياء التي تحيط بنا. تكلم من مكان في الظلمة:

- لا بد أننا صرنا قريبين - قال -. في هذه الناحية توجد رائحة صناديق متراكمة.

أحسسنا من جديد بملمس يديه. استندنا إلى الجدار، ومرَّ عندئذ صوت آخر، إنما في اتجاه معاكس.

- قد تكون توابيت - قال واحد منا.

ومن كان قد جرجر نفسه حتى الركن وصار يتنفس الآن بجانبنا، قال:

- إنها صناديق. منذ صغري تعلمت تمييز رائحة الملابس المحفوظة.

عندئذ تحركنا إلى هناك. كانت الأرض لينة وملساء، كأنها من تراب وطئ بالأقدام. مدّ أحدهم يده. أحسسنا بملمس جلد طويل وحي، لكننا لم نعد نشعر بجدار الجانب الآخر.

- هذه امرأة - قلنا.

فقال الآخر، الذي كان قد تحدث عن الصناديق:

- أظن أنها نائمة.

انتفض الجسد تحت أيدينا. ارتعش، أحسسنا به ينزلق، ليس كما لو أنه خرج من متناول أيدينا، بل كما لو أنه لم يعد موجوداً.

ومع ذلك، بعد هنيهة ظللنا خلالها هادئين، متصلبين، مستندين كتفاً إلى كتف، سمعنا صوتها.

ـ من هناك؟ ـ قالت.

ـ إننا نحن ـ أجبنا دون أن نتحرك.

سُمعت الحركة في السرير، الصرير، جرجرة الأقدام بحثاً عن الخف في الظلام. عندئذ تصورنا المرأة جالسة وهي تنظر إلينا دون أن تكون قد استيقظت تماماً.

ـ ماذا تفعلون هنا؟ ـ قالت.

فقلنا:

ـ لا ندري. الكروانات سملت عيوننا.

قال الصوت إنه سمع شيئاً عن ذلك، وإن الصحف قالت إن ثلاثة رجال كانوا يتناولون البيرة في فناء، فيه خمسة أو ستة طيور كروان. سبعة كروانات. وأخذ أحد الرجال بالغناء مع الكروان، بمحاكاته.

ـ السيئ أنه غنى معلناً ساعة متأخرة عن موعدها ـ قال. وكان أن قفزت الطيور عندئذ إلى المائدة، وفقأت عيون الرجال.

قال إن ذلك ما قالته الصحف، لكن أحداً لم يصدقها. فقلنا:

ـ لو ذهب الناس إلى هناك لرأوا الكروانات.

وقالت المرأة:

ـ لقد ذهبوا. كان الفناء ممتلئاً بالناس في اليوم التالي، لكن المرأة كانت قد أخذت الكروانات إلى مكان آخر.

عندما استدرنا، توقفت المرأة عن الكلام. وهناك كان الجدار من جديد. بمجرد أن استدرنا وجدنا الجدار. في ما حولنا، محيطاً بنا، في كل مكان هناك جدار دائماً. ومن جديد أفلت واحد أيدينا. سمعناه يزحف مرة أخرى، يشم الأرض، يقول:

ـ لا أدري أين هي الصناديق الآن. أظن أننا نسير في مكان آخر.

فقلنا:

ـ تعال إلى هنا. ثمة أحد هنا، بجانبنا.

سمعناه يقترب. شعرنا به ينهض بجوارنا، ومرة أخرى صفعت أنفاسه الفاترة وجوهنا.

ـ أمدد يدك هناك ـ قلنا له ـ. فهناك يوجد أحد يعرفنا.

لابد أنه مدَّ يده، ولابد أنه تحرك إلى حيث أشرنا إليه، لأنه رجع بعد لحظات ليقول لنا:

ـ أظن أنه صبي.

وقلنا له:

ـ حسن، سَلهُ إن كان يعرفنا.

وجه هو السؤال. سمعنا صوت الصبي يقول ببساطة ودون مبالاة:

ـ أجل أعرفكم. إنكم الرجال الثلاثة الذين سملت الكروانات عيونهم.

عندئذ تكلم صوت بالغ. صوت امرأة يبدو أنها تتكلم من وراء باب مغلق، قائلة:

ـ ها هو ذا يتحدث وحيداً.

فقال الصوت الطفولي بلامبالاة:

ـ لا. فها هم هنا مرة أخرى الرجال الذين فقأت الكروانات عيونهم.

سُمع صرير مفصلات، وبعد ذلك الصوت البالغ، أقرب من المرة الأولى.

ـ خذهم إلى بيتهم ـ قال الصوت.

وقال الصبي:

ـ لا أعرف أين يسكنون.

وقال الصوت البالغ:

ـ لا تكن سيئاً. الجميع يعرفون أين يسكنون منذ الليلة التي فقأت فيها الكروانات عيونهم.

ثم واصل التكلم بنبرة أخرى، كما لو أنه يتوجه إلينا:

ـ المسألة هي أن أحداً لم يشأ أن يصدق ذلك، وقالوا إنه خبر صحف كاذب لزيادة المبيعات. فليس هناك من رأى الكروانات.

- لكن أحداً لن يصدقني إذا ما اقتدتهم في الشارع.

نحن لم نتحرك. كنا ساكنين، نستند إلى الجدار ونسمع. وقالت المرأة:

- سيكون الأمر مختلفاً إذا ما أراد هذا أن يأخذكم. فليس هناك، في نهاية المطاف، من يولي اهتماماً لما يقوله صبي.

وتدخل الصوت الطفولي:

- إذا ما خرجت إلى الشارع معهم، وقلت إنهم الرجال الذين سملت الكروانات عيونهم، فسوف يرميني الصبية بالحجارة. فالجميع في الشارع يقولون إن ذلك غير ممكن الحدوث.

كانت هناك لحظة صمت. وبعد ذلك انغلق الباب من جديد، وعاد الصبي إلى القول:

- ثم إنني أقرأ الآن قصة ***تيري والقراصنة***.

وهمس أحدهم في آذاننا:

- سوف أقوم بإقناعه.

جرجر نفسه إلى حيث كان الصوت.

- هذا يروق لي - قال -. أخبرنا على الأقل بما حدث لتيري في حلقة هذا الأسبوع.

إنه يحاول أن يكسب ثقته، هذا ما فكرنا فيه. لكن الصبي قال:

- هذا لا يهمني. الشيء الوحيد الذي يروقني هو الألوان.

- كان تيري عالقاً في متاهة - قلنا.

وقال الصبيي:

- كان ذلك يوم الجمعة. واليوم هو الأحد وما يهمني هو الألوان - وقد قال ذلك بصوت فاتر، بلا عاطفة، ودون اكتراث.

عندما عاد الآخر، قلنا:

- مضت علينا ثلاثة أيام ونحن ضائعون ولم نسترح مرة واحدة.

فقال واحد:

- لا بأس. فلنسترح قليلاً، ولكن دون أن نفلت أيدي بعضنا البعض.

جلسنا. وبدأت شمسٌ دافئة غير مرئية تدفئ أكتافنا. ولكننا لم نكن نهتم حتى بوجود الشمس. كنا نشعر بها هناك، في أي مكان، بعد أن فقدنا الإحساس بالمسافات، والتوقيت، والاتجاهات. مرت عدة أصوات.

- الكروانات فقأت عيوننا - قلنا.

فقال أحد الأصوات:

- لقد أخذ هؤلاء على محمل الجد ما قالته الصحف.

اختفت الأصوات. وظللنا جالسين كتفاً إلى كتف، منتظرين في ذلك المرور للأصوات، وفي تلك الصور، أن تمر رائحة أو صوت معروف. استمرت الشمس بالسخونة فوق رؤوسنا. وعندئذ قال أحدهم:

- فلنذهب مرة أخرى نحو الجدار.

ظل الآخران بلا حراك، ورأساهما مرفوعان نحو الضوء غير المرئي:

- ليس بعد. فلننتظر إلى أن تبدأ الشمس بالاتقاد في وجوهنا.

مونولوج إيزابيل وهي ترى هطول المطر في ماكوندو

Monólogo de Isabel viendo llover en Macondo

(1955)

عجَّل الشتاء بالمجيء في يوم أحد لدى الخروج من القداس. كانت ليلة السبت خانقة. ولكن لم يكن هناك، حتى في صباح يوم الأحد، من يفكر في إمكانية هطول المطر. بعد القداس، وقبل أن يتاح لنا نحن النساء الوقت للعثور على مشابك مظلاتنا، هبت ريح عنيفة وقاتمة كنست بالتفافة دائرية واسعة غبار أيار وما تساقط متيبساً من أشجاره. قال أحدهم بجانبي: «إنها رياح ماء». كنت أعرف ذلك من قبل. مذ خرجنا بهو الكنيسة وشعرت بقشعريرة سببها إحساس لزج في البطن. ركض الرجال إلى البيوت المجاورة وإحدى أيديهم على قبعاتهم ويحملون منديلاً في اليد الأخرى يحتمون به من الريح والغبار. وعندئذ هطل المطر. وصارت السماء هلامية ورمادية تخفق على ارتفاع شبر فوق رؤوسنا.

خلال ما تبقى من الصباح، ظللنا أنا وزوجة أبي جالستين بجانب الدرابزين، سعيدتين لأن المطر سيبعث الحيوية في نبتات إكليل الجبل والناردين العطشى في الأصص، بعد سبعة شهور من صيف شديد وغبار حارق. عند الظهيرة توقف انعكاس حرارة الأرض، واختلطت رائحة تراب منقلب وخضرة متيقظة ومتجددة برائحة البرودة الصحية للمطر ورائحة إكليل الجبل. وعند تناول الغداء، قال أبي: «عندما يهطل المطر في أيار، يكون إشارة إلى أن أمطار الموسم ستكون جيدة». فقالت لي زوجة أبي باسمة، وقد اخترقها الخيط المضيء للفصل الجديد: «هذا ما سمعتِه في الموعظة». ابتسم أبي. وتناول الغداء بشهية،

بـل وتمتـع بعمليـة هـضم مريحـة إلى جانـب الـدرابزين، وهـو صـامت ومغمض العينين، ولكن دون أن يغفو، حتى ليُظن أنه يحلم مستيقظاً.

هطل المطر طوال مـا بعـد الظهـر بإيقـاع واحـد. وفـي ذلـك الـزخم منتظم الـوتيرة والهادئ، كـان سـقوط المـاء يُسمع كمـا لـو أن أحـدنا يسافر فـي القطار طوال ما بعـد الظهـر. ولكـن المطـر، دون أن نلحـظ ذلك، كـان يتغلغل عميقاً فـي حواسنا. وفـي فجر يـوم الاثنين، عنـدما أغلقنا البـاب لتفـادي الـريح القاطعـة والجليديـة الـتي تهب فـي الفنـاء، كـانت حواسنا قد أتخمت بالمطر. وفـي صباح الاثنين طفحت به. عدت أنا وزوجة أبي لتأمل الحديقة. كانت أرض أيار القاسية والرمادية قد تحولت خلال الليـل إلى مـادة قاتمـة وعجينيـة، تشبه الـصابون العـادي. بدأ دفق من الماء بالتسرب مـن الأصـص. «أظـن أنهـا تلقـت خـلال الليـل فائضاً من الماء»، قالت زوجة أبي. ولاحظتُ أنها كفت عن الابتسام، وأن ابتهاجها فـي اليوم الـسابق قـد تحـول إلى جدية متراخيـة وضـجرة. «هذا ما أظنه - قلت - سيكون من الأفضل أن يضعها هنود الغـواخيرو فـي الردهـة ريثمـا يتوقـف المطـر». وكـان هـذا مـا فعلـوه، بينمـا المطـر يتعاظم مثل شجرة هائلة فوق الأشجار. احتل أبـي المكـان نفسه الـذي كـان فيـه بعد ظهر يوم الأحد، لكنـه لم يتكلم عـن المطـر. قـال: «لا بد أني نمت نوماً سيئاً، لأني استيقظت بألم فـي العمود الفقري». وظل هنـاك، جالـساً إلى جانـب الـدرابزين، واضـعاً قدميـه علـى كرسـي ورأسـه متجـه ناحيـة الحديقـة الخاويـة. وعنـد الغـروب فقـط، وبعـد أن رفض تنـاول الغـداء، قـال: «يبـدو كمـا لـو أن المطـر لـن ينقطـع أبـداً.» وتـذكرتُ عندئـذ شـهور الحـر. تـذكرت شـهر آب، وتلـك القيلـولات الطويلة والذاهلة التي نستلقي بها لنموت تحت وطأة الساعة، بملابسنا الملتصقة بأجسادنا من العرق، مستمعين فـي الخارج إلى الطنين اللجوج والأصـم للـساعة الـتي لا تنقـضي. رأيـتُ الجـدران المغـسولة، ومواضـع اتصال الخشب المنتفخة بالماء. رأيت الحديقة الصغيرة، وهـي خاوية أول مرة، وشجيرة الياسمين المستندة إلى السور، وفيّة لذكرى أمي. رأيت

أبي جالساً على الكرسي الهزاز، مسنداً فقرات ظهره الموجوعة إلى وسادة، وعيناه الحزينتان شاردتان في متاهة المطر. تذكرت ليالي آب التي لا يُسمع أي شيء في صمتها العجيب سوى الصوت الألفي الذي تُصدره الأرض وهي تدور على محورها الصدئ الذي بلا زيت. وفجأة أحسست بحزن طاغ يجتاحني.

أمطرت طوال يوم الاثنين، كما في يوم الأحد. لكنها بدت كما لو أنها تمطر بطريقة أخرى، لأن شيئاً مختلفاً ومُرّاً كان يحدث في قلبي. وعند الغروب قال صوت إلى جوار مقعدي: «هذا المطر ممل». ودون أن ألتفت لأرى، تعرفتُ على صوت مارتين. كنت أعرف أنه يتكلم من المقعد المجاور، بالملامح الباردة والذاهلة نفسها التي لم تتبدل، حتى بعد ذلك الفجر القاتم من شهر كانون الأول الذي بدأ يصير فيه زوجاً لي. لقد أنقضت خمسة شهور منذ ذلك الحين. وأنا الآن في الطريق لإنجاب ابن. وقد كان مارتين هناك، إلى جانبي، يقول إن المطر يضجره. «ليس ضجراً ـ قلت ـ ما يبدو لي بالغ الحزن هي الحديقة الخاوية، وتلك الأشجار المسكينة التي لا تستطيع مغادرة الفناء.» وعندئذ التفتُ لأنظر إليه، لكن مارتين لم يعد موجوداً هناك. كان مجرد صوت يقول لي: «يبدو أن المطر لا يفكر في الانقطاع أبداً»، وعندما نظرتُ باتجاه الصوت وجدتُ الكرسي فارغاً فقط.

طلع صباح الثلاثاء على بقرة في الحديقة. كانت تبدو أشبه بكتلة طين في جمودها القاسي والمتمرد، أظلافها مغروسة في الوحل ورأسها منحن. حاول هنود الغواخيرو في الصباح إبعادها بالعصي والأحجار. لكن البقرة ظلت دون حراك في الحديقة، متصلبة، محصنة، أظلافها لا تزال مغروسة في الوحل، ورأسها الضخم يُذله المطر. ضايقها هنود الغواخيرو إلى أن جاء تسامح أبي الصبور للدفاع عنها: «اتركوها بسلام ـ قال ـ سوف تذهب مثلما جاءت».

عند غروب يوم الثلاثاء، صار الماء يضغط ويؤلم مثل كفن حول القلب. وبدأت برودة الصباح بالتحول إلى رطوبة حارة لزجة. لم تكن

الحرارة باردة ولا حارة؛ كانت حرارة قشعريرة. وكانت الأقدام تتعرق في الأحذية. ولم يكن يُعرف ما هو الأكثر إزعاجاً، أهو الجلد المكشوف أم ملامسة الملابس للجلد. وفي البيت توقفت الأنشطة كلها. جلسنا على الشرفة، ولكننا لم نعد نتأمل المطر كما في اليوم الأول. إذ لم نعد نشعر بهطوله. ولم نعد نرى سوى أطياف الأشجار في الضباب، في غروب كئيب وموحش يخلّف على الشفتين المذاق نفسه الذي يستيقظ المرء به بعد أن يكون قد حلم بشخص غير معروف. كنت أعرف أن اليوم هو الثلاثاء، وأتذكر توءم سان خيرونيمو، الطفلتين الضريرتين اللتين تأتيان كل أسبوع إلى البيت لتغنيا لنا أغنيات ساذجة، يغللها بالحزن ما في صوتيهما من مرارة وخذلان عجيبين. وأعلى من صوت المطر، كنت أسمع أغنية التوءم الضريرتين وأتخيلهما في بيتهما، تقبعان بانتظار انقطاع المطر لتخرجا وتغنيا. وكنت أفكر: توءم سان خيرونيمو لن تحضرا اليوم، ولن تجيء المتسولة إلى الشرفة بعد القيلولة طالبة، كما في كل ثلاثاء، باقة حبق التُرُنجان الأزلية.

في ذلك اليوم، فقدنا انتظام وجبات الطعام. ففي موعد القيلولة قدمت زوجة أبي طبق حساء عادي وقطعة خبز زنخة. ولكننا في الواقع لم نكن قد أكلنا شيئاً منذ غروب يوم الاثنين، وأظن أننا قد كففنا عن التفكير منذ ذلك الحين. كنا مشلولين، مخدرين بالمطر، مستسلمين لانهيار الطبيعة في موقف مسالم ومذعن. وحدها البقرة تحركت بعد الظهر. صوت عميق هز أحشاءها فجأة، وغاصت أظلافها في الوحل بقوة أكبر. وظلت بعد ذلك جامدة نصف ساعة، كما لو أنها ميتة، لكنها لا تستطيع السقوط لأن عادة كونها حية تمنعها من ذلك، عادة البقاء في الوضع نفسه تحت المطر، إلى أن صارت العادة أضعف من الجسد. عندئذ ثنت قائمتيها الأماميتين (كان كفلاها اللامعان والداكنان لا يزالان مرفوعين في جهد احتضاري أخير)، وغرست أنفها المغطى باللعاب في بركة الوحل واستسلمت أخيراً لثقل مادتها في طقس انهيار كامل صامت ومتدرج ووقور. «إلى هنا بلغت

قدرتها على التحمل»، قال أحدهم ورائي. والتفتُ لأنظر ورأيت عند العتبة متسولة الثلاثاء التي جاءت عبر العاصفة لتطلب باقة حبق التُرُنجان.

ربما كنت قد اعتدت في يوم الأربعاء على هذا الجو المفاجئ لو لم أجد عند بلوغي الصالة أن المنضدة، وقد أُلصقت بالجدار، ووُضع الأثاث مكوماً فوقها، في الجانب الآخر، على حاجز ارتجل خلال الليل، وُضعت صناديق وعلب تضم الأدوات المنزلية. أثار فيَّ المشهدُ إحساساً رهيباً بالفراغ. ثمة شيء حدث خلال الليل. كان البيت غارقاً في الفوضى، وكان هنود الغواخيرو بلا قمصان وحفاة، يرفعون سيقان سراويلهم حتى الركبة، ويحملون الأثاث إلى غرفة الطعام. في ملامح الرجال، وفي الدأب نفسه الذي ينكبون به على العمل، كانت تُلحظ قسوة التمرد المحبط، والتضاؤل الاضطراري والمهين تحت المطر. كنت أتحرك دون وجهة محددة، وبلا إرادة. أحسست كما لو أنني تحولت إلى مرج مقفر، مزروع بطحالب وأشنيات، بفطور دبقة ولينة، أخصبتها مملكة نبات الرطوبة والظلمات المقززة. كنت في الصالة أتأمل مشهد ركام الأثاث المقفر عندما سمعت صوت زوجة أبي من غرفتها تحذرني من أنني قد أصاب بنزلة صدرية. عندئذ فقط انتبهت إلى أن الماء قد وصل إلى كاحلي، وأن البيت غارق، والأرضية مغمورة بطبقة سميكة من ماء لزج وميت.

وفي ظهيرة يوم الأربعاء، لم يكن الفجر قد بزغ بعد. وقبل الثالثة بعد الظهر، كان الليل قد تقدم بقوة، مستبقاً موعده وعليلاً، بالإيقاع البطيء والرتيب وغير الرحيم نفسه الذي للمطر في الفناء. كان غسقاً مبكراً، ناعماً وكئيباً، تعاظم وسط صمت هنود الغواخيرو الذين كانوا يجلسون القرفصاء على الكراسي، بمحاذاة الجدران، مستسلمين وعاجزين حيال اضطراب الطبيعة. وكان عندئذ أن بدأت تصل أخبار من الشارع. لم يكن هناك من يجيء بها إلى البيت. كانت تصل ببساطة، دقيقة، متفردة، كما لو أنها محمولة مع الوحل السائل الذي يتدفق في الشوارع ويجرف معه أدوات منزلية، أشياء وأشياء،

بقايا كارثة نائية، نفايات وحيوانات نافقة. أحداث وقعت يوم الأحد، حين كان المطر لا يزال إعلاناً لفصل من العناية الإلهية، لم نعلم بها في البيت إلا بعد يومين. ويوم الأربعاء وصلت الأخبار، كما لو أنها مدفوعة بالديناميكية الداخلية للعاصفة نفسها. وعُرف عندئذ أن الكنيسة قد غُمرت بالماء ويُنتظر انهيارها. قال أحدهم في تلك الليلة، دون أن يكون لديه مسوغ لمعرفة ذلك: «لم يعد باستطاعة القطار عبور الجسر منذ يوم الاثنين. يبدو أن النهر قد انتزع قضبان سكة الحديد وحملها». وعرف هذا الشخص نفسه أن امرأة مريضة قد اختفت من فراشها، وعُثر عليها مساء اليوم طافية في الفناء.

جلستُ مرعوبة في مقعدي الهزاز، يسيطر عليّ الخوف والفيضان، قدماي مرفوعتان وعيناي مثبتتان على الظلمة الرطبة والمترعة بالهواجس العكرة. ظهرت زوجة أبي في فراغ الباب وهي ترفع المصباح عالياً ورأسها مرفوع. بدت شبحاً مألوفاً لا أشعر أمامه بأي مفاجأة، لأني أنا نفسي أشاطرها شرطها الخارق للطبيعة. جاءت إلى حيث أجلس. وكانت لا تزال تحتفظ برأسها عالياً والمصباح مرفوع وهي تخوض في ماء الشرفة. «الآن علينا أن نصلي»، قالت. ورأيت وجهها الجاف المتشقق، كما لو كانت غادرت للتو قبراً أو كأنها مصنوعة من مادة مختلفة عن الطينة البشرية. إنها أمامي، وفي يدها المسبحة، تقول: «الآن علينا أن نصلي. لقد حطم الماء القبور والموتى المساكين يطفون في المقبرة».

ربما أكون قد نمت قليلاً هذه الليلة، عندما استيقظت فزعة من رائحة حريفة ونفاذة، مثل رائحة الأجساد الآخذة بالتفسخ. هززت بقوة مارتين الذي كان يشخر بجانبي. «ألا تلاحظها؟»، قلت له. فقال: «ماذا؟». وقلتُ: «الرائحة. لابد أنهم الموتى الذين يطفون في الشوارع.» شعرتُ بالرعب من الفكرة، لكن مارتين انقلب جهة الحائط وقال بصوت أجش وناعس: «إنها تهيؤاتك. فالنساء الحوامل لديهن تخيلاتهن على الدوام».

فـــي فجــر يــوم الخمــيس توقفــت الــروائح، وفُقــد الإحــساس بالمسافات. وكان مفهوم الزمن قد اختل منذ اليوم السابق، واختفى تماماً. عندئذ لم يعد ثمة يوم خميس. ما كانٍ ينبغي أن يكونه هو شـيء عـضوي وهلامـي يمكــن إزاحتــه جانبــاً باليـد للنظـر إلى يـوم الجمعـة. ولم يعـد هنــاك رجـال ولا نـساء. فزوجـة أبــي وأبــي وهنـود الغواخيرو كانوا أجساداً شحمية وغير محتملة، تتحرك في موحلة الشتاء. قال لي أبي: «لا تتحركي من هنا إلى أن أقول لك ما يتوجب عمله»، وكان صوته نائياً وغير مباشر ولا يبدو أنه يُسمع بالآذان وإنما باللمس، وهي الحاسة التي ظلت فعالة.

لكن أبي لم يعد: ضاع في الزمن. وهكذا، عندما حلّ الليل ناديتُ زوجة أبي لأطلب منها أن تصطحبني إلى غرفة النوم. نمت نوماً مسالماً، هادئاً، استمر طلية الليل كله. وفي اليوم التالي كان الجو لا يزال على حاله، بلا لون، بلا رائحة، بلا درجة حرارة. وما إن استيقظتُ حتى قفزت إلى أحد المقاعد، وظللت هناك جامدة دون حراك، لأن شيئاً فيَّ كان يشير إليّ بأن هناك منطقة من وعيي لم تستيقظ تماماً بعد. عندئذ سمعت صفير القطار. الصفير المتطاول والحزين للقطار الهارب من ريح الشمال. فكرتُ: «لابد أن المطر قد توقف في مكان ما». وبدا أن صوتاً ورائي يجيب على أفكاري «أين؟...»، قال. «هناك؟»، قلتُ ناظرة إلى الخلف. ورأيت زوجة أبي بذراع طويلة ونحيلة جهة الجدار. «إنني أنا»، قالت. فقلت لها: «هل سمعتِه؟». وقالت نعم، وربما انقطع المطر في المناطق المحيطة، وتمكنوا من إصلاح خطوط سكة الحديد. وقدمت لي بعد ذلك صينية عليها وجبة فطور يتصاعد منها البخار. تعبق برائحة صلصة الثوم والزبد المغلي. إنه طبق حساء. سألت زوجة أبي بقلق كم الساعة. فقالت بهدوء، وبصوت له طعم الإذعان الواهن: «يجب أن تكون الثانية والنصف تقريباً. فالقطار لا يتأخر عن موعده بعد هذا كله». فقلت: «الثانية والنصف، كيف أمكن لي أن أنام كل هذا الوقت!».

فقالت: «لم تنامي كثيراً. وإجمالاً، لا يمكن أن تكون الساعة قد تجاوزت الثالثة». وأنا، مرتعشة، وشاعرة بأن الطبق ينزلق من بين أصابعي: «الثانية والنصف من يوم الجمعة...»، قلت. وردت هي بهدوء مخيف: «الثانية والنصف من يوم الخميس يا بنيتي، ***مازالت*** الثانية والنصف من يوم الخميس».

لا أعرف كم من الوقت بقيتُ غارقة في ذلك السير نوماً الذي فقدت فيه الحواس قيمتها. ما أعرفه فقط هو أنه بعد ساعات طويلة لا حصر لها سمعتُ صوتاً في الحجرة المجاورة، صوتاً يقول: «يمكنك الآن دفع السرير إلى هذا الجانب». كان صوتاً منهوكاً، لكنه ليس صوت مريض، وإنما صوت ناقهٍ. وسمعت بعد ذلك صخب قطع الآجر في الماء. ظللت متصلبة قبل أن أنتبه إلى أنني في وضع أفقي. عندئذ أحسستُ بخواء فسيح. أحسست بصمت البيت المرتجف والعنيف، بالجمود غير المعقول الذي يؤثر في كل الأشياء. وشعرت فجأة بأن قلبي قد تحول إلى حجر متجمد. «إنني ميتة - فكرت - رباه، إنني ميتة». قفزت في السرير. صرخت: «آدا، آدا!» وأجابني صوت مارتين الفظ من الجانب الآخر: «لا يمكنهم سماعك، لأنهم صاروا في الخارج». عندئذ فقط انتبهت إلى أن المطر قد توقف، وأن صمتاً، سكوناً، طوباوية سرية، حالة من الكمال يجب أن تكون مشابهة للموت، تمتد في ما حولنا. وسُمِع بعد ذلك وقع أقدام في الشرفة. وسُمِع صوت واضح وحي تماماً. وبعد ذلك نسيم بارد هز صفحة الباب، وجعل القفل يئن، وسقط جسد جامد وآني، مثل ثمرة ناضجة، بعمق في بركة الفناء. كان ثمة شيء في الهواء يشي بوجود شخص غير مرئي يبتسم في الظلام. «رباه - فكرتُ عندئذ، مشوشة من اختلاط الزمن - لن يدهشني الآن أن يستدعوني لحضور قداس يوم الأحد الماضي».

جنازة الأم الكبيرة

LOS FUNERALES DE LA MAMÁ GRANDE

قيلولة الثلاثاء

La siesta del martes

(1962)

خرج القطار من ممر الصخور القرمزية المهتز، وتوغل في مزارع الموز المتناظرة وغير المتناهية، وصار الهواء رطباً، وغاب الإحساس بنسمات البحر. دخلت هبَّة دخان خانقة من نافذة العربة. وعلى الطريق الضيق الموازي لسكة الحديد، كانت هناك عربات تجرها الثيران محملة بأقراط موز خضراء. وعلى الجانب الآخر من الطريق، في فجوات مفاجئة غير مزروعة، توجد مكاتب فيها مراوح كهربائية، ومعسكرات من آجر أحمر، ومساكن على شرفاتها كراسي ومناضد صغيرة بيضاء بين أشجار نخيل وشجيرات ورد معفرة بالغبار. كانت الحادية عشرة صباحاً، ولم يكن الحر قد بدأ بعد.

ـ من الأفضل أن ترفعي زجاج النافذة ـ قالت المرأة ـ. سيمتلئ شعرك بهباب الفحم.

حاولت الطفلة إغلاق النافذة. لكنها كانت متصلبة بالصدأ.

كانتا المسافرتين الوحيدتين في عربة الدرجة الثالثة الضيقة. ولأن دخان القاطرة واصل الدخول من النافذة، فقد غادرت الطفلة المكان، ووضعت محلها الأمتعة الوحيدة التي معهما: كيس من البلاستيك فيه بعض ما يؤكل، وباقة أزهار ملفوفة بورق صحف. وجلست على المقعد المقابل، بعيداً عن النافذة، في مواجهة أمها. كلتاهما ترتديان ثياب حداد صارمة وبائسة.

كانت الطفلة في الثانية عشرة، وتلك هي المرة الأولى التي تسافر فيها. وتبدو المرأة أكبر من أن تكون أمها، بسبب الأوردة الزرقاء في جفونها وضآلة جسمها المتهدل الذي بلا شكل، في

فستان كأنه مسوح كاهن. كانت تجلس وعمودها الفقري يستند بثبات إلى ظهر المقعد، وتمسك بكلتا يديها، في حضنها، حقيبة يدوية من جلد مصقول تمزقت أجزاء منه. وتتمتع بالهدوء المتحرج الذي يميز الناس المعتادين على الفقر.

في الساعة الثانية عشرة بدأ الحر يشتد. توقف القطار عشر دقائق في محطة لا وجود لقرية قربها، للتزود بالماء. وفي الخارج، في صمت المزارع الغامض، كان للظل مظهر نقي. لكن الهواء الراكد داخل العربة كان يعبق برائحة جلد غير مدبوغ. لم يعد القطار إلى سرعته السابقة. وتوقف في قريتين متشابهتين، بيوتهما من الأخشاب المطلية بألوان زاهية. أحنت المرأة رأسها وغرقت في إغفاءة. وخلعت الطفلة حذاءها. وذهبت بعد ذلك إلى دورة المياه لتبلل الأزهار الذابلة بالماء.

عندما رجعت إلى مقعدها، كانت الأم تنتظرها لتأكلا. أعطتها قطعة جبن، ونصف رغيف من دقيق الذرة، وقطعة بسكويت محلاة، وأخرجت لنفسها من الكيس البلاستيكي حصة مماثلة. وبينما هما تأكلان، عبر القطار جسراً حديدياً ببطء شديد، ومرّ دون توقف بقرية مثل السابقتين، لا تختلف عنهما إلا بوجود حشد من الناس في ساحة القرية. وكانت هناك فرقة موسيقية تعزف مقطوعة مرحة تحت الشمس القاسية. وفي الجانب الآخر من القرية، في سهل شققه الجفاف، تنتهي مزارع الموز.

توقفت المرأة عن الأكل.

- البسي حذاءك - قالت.

نظرت الطفلة إلى الخارج. لم ترَ شيئاً غير السهل المقفر حيث بدأ القطار يسرع من جديد، لكنها دست قطعة البسكويت الأخيرة في الكيس، وسارعت إلى انتعال حذائها. أعطتها المرأة المشط.

- سرِّحي شعرك - قالت.

بدأ القطار يصفر بينما الطفلة تُسرِّح شعرها. مسحت المرأة العرق عن عنقها، ونظفت دهن الوجه بأصابعها. وعندما انتهت الطفلة من

تسريح شعرها، مرَّ القطار قبالة بيوت قرية أكبر من القرى السابقة، لكنها أشدُّ كآبة منها.

ـ إذا كنتِ ترغبين في قضاء حاجة فافعلي ذلك الآن ـ قالت المرأة، ثم أضافت ـ: بعد ذلك لن تشربي ماء في أي مكان حتى لو مت من العطش. وإياك أن تبكي.

هزت الفتاة رأسها موافقة. كانت تدخل من النافذة ريح متأججة وجافة، مختلطة بصفير القاطرة وقعقعة العربات. لفّت المرأة الكيس البلاستيكي وفيه بقية الأطعمة ووضعته في حقيبة اليد. وللحظة، لمعت من خلال النافذة صورة كاملة للقرية، في ذلك الثلاثاء من آب. لفّت الطفلة الأزهار بالصحف المبللة، وابتعدت قليلاً عن النافذة، ونظرت بثبات إلى أمها. فردت عليها بنظرة مهدئة. صفر القطار وخفف من سرعته. وتوقف بعد لحظة.

لم يكن هناك أحد في المحطة. وفي الجانب الآخر من الشارع، على الرصيف المظلل بأشجار اللوز، كانت صالة البلياردو وحدها هي المفتوحة. وكانت القرية تطفو في الحر. نزلت المرأة والطفلة من القطار، واجتازتا المحطة المهجورة التي بدأ بلاطها يتشقق بضغط العشب النابت بينه، واجتازتا الشارع إلى الرصيف المظلل.

كانت الساعة تقارب الثانية. وفي هذه الساعة، المثقلة بالحر، تنام القرية قيلولتها. فالمتاجر، والمكاتب العامة، والمدرسة البلدية، تغلق جميعها منذ الحادية عشرة، ولا تعود لفتح أبوابها إلى ما قبل الرابعة بقليل، عندما يمر القطار في طريق عودته. لا يبقى مفتوحاً سوى الفندق المقابل للمحطة، وحانته وصالة البلياردو التابعة له، ومكتب التلغراف في أحد جوانب الساحة. أما البيوت، ومعظمها مبني على طراز بيوت شركة الموز، فكانت أبوابها مقفلة من الداخل، وستائرها مسدلة. وقد كان الحر شديداً في بعضها، حتى إن ساكنيها يتناولون الغداء في الفناء. ويضع آخرون كرسياً في ظل أشجار اللوز، وينامون قيلولتهم في عرض الشارع.

دخلت المرأة والفتاة إلى القرية محاولتين طوال الوقت الاحتماء بظل أشجار اللوز دون أن تعكرا القيلولة. وتوجهتا مباشرة إلى بيت كاهن الأبرشية. حكّت المرأة شبكة الباب المعدنية بأظفارها، وانتظرت لحظة ثم أعادت النداء من جديد. كانت تئز في الداخل مروحة كهربائية. لم يُسمع وقع الخطوات. وسُمع بصعوبة صرير باب خافت، وبعده مباشرة صوتٌ حذر قريب جداً من الشبكة المعدنية: «من هناك؟». حاولت المرأة أن ترى من خلال الشبكة.

- إنني بحاجة إلى الأب - قالت.

- إنه نائم الآن.

- الأمر مستعجل - ألحت المرأة.

وكان في صوتها تصميم هادئ.

فُتح الباب قليلاً، دون صرير، وظهرت امرأة ناضجة وممتلئة الجسم، ذات بشرة شديدة الشحوب، وشعر بلون الحديد. بدت عيناها صغيرتين جداً وراء زجاج النظارة السميك.

- اتبعاني - قالت ذلك وفتحت الباب.

دخلتا قاعة تعبق برائحة أزهار قديمة. اقتادتهما امرأة البيت إلى مقعد خشبي طويل، وأشارت إليهما أن تجلسا. فعلت الطفلة ذلك، لكن أمها ظلت واقفة، ساهية، تشد على حقيبتها بكلتا يديها. ولم تكن هناك ضجة سوى الصادرة عن المروحة الكهربائية.

ظهرت امرأة البيت ثانية من الباب الذي في عمق القاعة.

- يقول إنه عليكما العودة بعد الثالثة - قالت بصوت خافت جداً -. لقد نام منذ خمس دقائق فقط.

- القطار يغادر في الثالثة والنصف - قالت المرأة.

كان رداً مقتضباً ومؤكداً، لكن الصوت ظل هادئاً، يحمل تلونات كثيرة. فابتسمت امرأة البيت أول مرة.

- حسن - قالت.

وعندما أُغلق الباب الذي في العمق ثانية، جلست المرأة بجوار

ابنتها. كانت قاعة الانتظار الضيقة بائسة، مرتبة ونظيفة. وفي الجانب الآخر من حاجز خشبي يقسم الغرفة، هناك منضدة عمل بسيطة، يغطيها مفرش من قماش مشمع، وفوق المنضدة آلة كاتبة بدائية إلى جانب كأس فيها أزهار. وفي الخلف كان أرشيف الأبرشية. بدا واضحاً أنه مكتب رتبته امرأة غير متزوجة.

فُتح الباب الذي في العمق، وظهر في هذه المرة الكاهن وهو ينظف نظارته بمنديل. وعندما وضع النظارة، بدا واضحاً أنه أخو المرأة التي فتحت الباب.

- بماذا يمكنني مساعدتك؟ - سأل.

- مفاتيح المقبرة - قالت المرأة.

كانت الطفلة جالسة والأزهار في حضنها، وقدماها تتقاطعان تحت المقعد. نظر الأسقف إليها، ثم إلى المرأة، ونظر بعد ذلك، من خلال شبكة النافذة المعدنية، إلى السماء المتوهجة والخالية من الغيوم.

- في هذا الحر - قال - كان يمكن لكما الانتظار إلى أن تخف حدة الشمس.

هزت المرأة رأسها بصمت. وانتقل الأسقف إلى الجانب الآخر من الحاجز، وأخرج من الخزانة دفتراً مغلفاً بقماش مشمع، وحاملة ريشة كتابة خشبية، ودواة حبر، وجلس إلى المنضدة. الشعر الذي يفتقده على رأسه كان متوافراً بكثرة على يديه.

- أي قبر ستزوران؟ - سأل.

- قبر كارلوس ثنتينو - قالت المرأة.

- من؟

- كارلوس ثنتيتو - كررت المرأة.

ظل الأب على عدم فهمه.

- إنه اللص الذي قُتل هنا الأسبوع الماضي - قالت المرأة بالنبرة نفسها، وأضافت -: أنا أمه.

تفحصها الأسقف. ونظرت هي إليه بثبات، وبسيطرة كاملة على

نفسها، فتورد وجه الأب خجلاً. أخفض رأسه ليكتب. وبينما هو يملأ الصفحة، كان يطلب من المرأة بياناتها الشخصية، وكانت تجيب دون تردد، وبتفصيل دقيق، كما لو أنها تقرأ ما تقوله. بدأ الأب يعرق. فكت الطفلة إبزيم حذائها الأيسر، وأخرجت كعب قدمها منه، وأسندته إلى مسند المقعد. ثم فعلت الشيء نفسه بالقدم اليمنى.

كان كل شيء قد بدأ يوم الاثنين من الأسبوع الفائت، في الثالثة فجراً، وعلى بعد كوادرات قليلة من حيث هم الآن. فقد أحست السيدة ريبيكا، وهي أرملة متوحدة تعيش في بيت ممتلئ بأمتعة متداعية، أنها تسمع من خلال وقع رذاذ المطر أن هناك من يحاول خلع باب بيتها من الخارج. نهضت، وبحثت بالتلمس في الخزانة عن مسدس قديم لم يستخدمه أحد منذ أزمنة الكولونيل أوريليانو بويندیا، وذهبت إلى الصالة دون أن تشعل الأضواء. لم يكن صوت خلع القفل هو الذي يوجه خطواتها، بل الرعب المتعاظم في داخلها بفعل ثمان وعشرين سنة من الوحدة، ولم تحدد في مخيلتها موقع الباب وحسب، بل كذلك الموضع الدقيق للقفل. أمسكت السلاح بكلتا يديها، وأغمضت عينيها، وضغطت على الزناد. كانت المرة الأولى في حياتها التي تطلق فيها النار من مسدس. وبعد الدوي مباشرة لم تعد تسمع شيئاً سوى وقع رذاذ المطر على السطح الذي من توتياء. ثم سمعت بعد ذلك صوت ارتطام قوي على الرصيف الإسمنتي، وصوتاً خافتاً جداً، ووديعاً، لكنه منهوك بصورة رهيبة: «آه، يا أماه». الرجل الذي عُثر عليه ميتاً في الصباح أمام البيت، وقد تفتت أنفه مزقاً، كان يرتدي قميص فانيلا ذا خطوط ملونة، وبنطالاً عادياً مثبتاً بحبل بدل الحزام، وكان حافي القدمين. لم يتعرف عليه أحد في القرية.

ـ كان اسمه كارلوس ثينتينو إذاً ـ دمدم الأب حين انتهى من الكتابة.

ـ ثنتينو آيالا ـ قالت المرأة ـ وكان ابني الذكر الوحيد.

رجع الأسقف إلى الخزانة. كان يتدلى من مسمار، في الجهة

الداخلية من بابها، مفتاحان كبيران صدئان. وقد كانا، مثلما تخيلت الطفلة، ومثلما تخيلت أمها عندما كانت طفلة، ومثلما لا بد أن يكون الأسقف نفسه قد تخيل ذات مرة، مفتاحي القديس بطرس. انتزعهما من مكانهما ووضعهما على الدفتر المفتوح فوق الحاجز، وأشار بسبابته إلى موضع في الصفحة المكتوبة وهو ينظر إلى المرأة.

ـ وقعي هنا.

خربشت المرأة اسمها وهي تثبت الحقيبة تحت إبطها. حملت الطفلة، واتجهت نحو الحاجز وهي تجرجر حذاءها لتراقب أمها باهتمام.

تنهد الأسقف:

ـ ألم تحاولي إدخاله إلى طريق الصواب؟

فردت المرأة عندما انتهت من التوقيع:

ـ كان رجلاً طيباً جداً.

نظر الأسقف إلى المرأة والطفلة بالتناوب، وأدرك بنوع من الذهول المشفق أنهما ليستا على وشك البكاء. وتابعت المرأة دون تبدل في نبرة صوتها:

ـ كنت أقول له ألا يسرق شيئاً يحتاجه أحدهم ليأكل، وكان يطيعني. ولكنه قبل ذلك بالمقابل، عندما كان يلاكم، كان يقضي ثلاثة أيام في الفراش منهوكاً من اللكمات.

ـ وكان عليه أن يقلع أسنانه كلها ـ تدخلت الطفلة.

ـ هذا صحيح ـ أكدت المرأة ـ. كل لقمة كنت آكلها في تلك الأيام، أشعر بأن لها طعم اللكمات التي يوجهونها إلى ابني في ليلة كل يوم سبت.

ـ إرادة الله لا يُسبر لها غور ـ قال الأب.

لكنه قالها دون اقتناع كبير، لأن التجربة حولته إلى متشكك من جهة، وبسبب الحر من جهة أخرى. أوصاهما بأن تغطيا رأسيهما اتقاء من ضربة شمس. وأشار إليهما وهو يتثاءب، بل وشبه نائم تماماً، ما عليهما عمله للعثور على قبر كارلوس ثينتينو. وأنه ليس عليهما أن تطرقا الباب

عن عودتهما، وأن تكتفيا بوضع المفتاح تحت الباب، وأن تضعا هناك بالذات صدقة للكنيسة، إن كانتا تملكانها. استمعت المرأة لتوضيحاته باهتمام كبير، ولكنها قدمت له الشكر دون أن تبتسم.

وقبل أن يفتح الأب الباب الخارجي، انتبه إلى أن هناك من ينظر إلى الداخل، وأنفه ملتصق بالشبك المعدني. كانت هناك جماعة من الأطفال. وعندما انفتح الباب تفرق الأطفال. من المعهود، في مثل هذه الساعة، ألا يكون هناك أحد في الشارع. أما الآن، فلم يكن الأطفال وحدهم. بل كانت هناك جماعات من الناس تحت أشجار اللوز. تفحص الأبُ الشارعَ المشوه بالحر، وعندئذ فهم. أعاد إغلاق الباب برفق.

ـ انتظرا لحظة واحدة ـ قال دون أن ينظر إلى المرأة.

ظهرت أخته من الباب الذي في العمق، مرتدية سترة سوداء فوق قميص النوم، وشعرها مفلت على كتفيها. نظرت إلى الأب بصمت.

ـ ما الأمر؟ ـ سألها.

ـ لقد تنبه الناس ـ همهمت أخته.

ـ من الأفضل أن تخرجا من باب الفناء ـ قال الأب.

ـ الأمر سيان ـ قالت أخته ـ. الجميع على النوافذ.

لم يبد على المرأة أنها قد فهمت حتى تلك اللحظة. حاولت النظر إلى الشارع من خلال الشبكة المعدنية. وبعد ذلك أخذت باقة الأزهار من الطفلة، وبدأت تتحرك باتجاه الباب. وتبعتها الطفلة.

ـ انتظرا إلى أن تخف حدة الشمس.

ـ ستذوبان ـ قالت أخته وهي ثابتة في منتصف الصالة ـ. انتظرا وسأعيركما مظلة.

ـ شكراً ـ ردت المرأة ـ إننا على ما يرام هكذا.

أمسكت بيد الطفلة وخرجت إلى الشارع.

أحد هذه الأيام

Un día de éstos

(1962)

بزغ فجر يوم الاثنين فاتراً وبلا أمطار. وفي السادسة، كان أوريليو اسكوبار - وهو طبيب أسنان بلا شهادة علمية، ومبكر في استيقاظه - يفتح عيادته. أخرج من الخزانة الزجاجية طقم أسنان اصطناعية لا يزال على قالب الجبس، ووضع على المنضدة حفنة من الأدوات التي رتبها من الأكبر فالأصغر، كما في معرض. كان يرتدي قميصاً مخططاً، بلا ياقة، ومحكم الإغلاق عند العنق بزر مذهب، وبنطالاً مثبتاً بحمالة مطاطية. كان متصلباً، هزيلاً، له نظرة نادراً ما تتلاءم مع الحال، مثل نظرات الصُمّ.

عندما صارت الأدوات جاهزة على المنضدة، أدار المثقاب باتجاه الكرسي ذي النوابض، وجلس ليشذب طقم الأسنان الاصطناعية. بدا كمن لا يفكر في ما يفعله، لكنه كان يعمل بعناد، ضاغطاً بقدمه على دواسة المثقاب، حتى عندما لا يكون بحاجة إلى تشغيله.

توقف بعد الثامنة لينظر إلى السماء من خلال النافذة، ورأى نسري رخمة ساهمين يجففان ريشهما تحت الشمس على قمة سطح البيت المجاور. رجع إلى العمل وقد استحوذت عليه فكرة أن المطر سيعاود الهطول قبل الغداء. صوت ابنه المضطرب ذي الإحدَى عشرة سنه أخرجه من وجومه.

- بابا.

- ماذا؟

- العمدة يسأل عما إذا كنت تريد أن تقلع له ضرساً.

- قل له إنني غير موجود.

كان يشذب سناً ذهبية. أبعده عنه على امتداد ذراعه، وتفحصه بعينيه نصف المغمضتين. ومن غرفة الانتظار الصغيرة، صرخ ابنه ثانية.

ـ يقول إنك موجود لأنه يسمعك.

واصل طبيب الأسنان تفحص السن. وبعد أن وضعه على المنضدة مع أعماله الناجزة، قال:

ـ هذا أفضل.

أعاد تشغيل المثقاب. ومن علبة كرتونية صغيرة، يحتفظ فيها بالقطع التي عليه إنجازها، أخرج جسراً من عدة أسنان، وبدأ يلمع الذهب.

ـ بابا.

ـ ماذا؟

لم يكن قد طرأ أي تبدل على ملامحه.

ـ يقول إنه سيطلق عليك رصاصة إذا لم تقلع له الضرس.

ودون تعجل، بحركة هادئة إلى أقصى الحدود، توقف عن تحريك دواسة المثقاب، وأبعده عن الكرسي، وفتح درج المنضدة السفلي إلى أقصاه. وفيه كان المسدس. قال:

ـ حسن. قل له أن يأتي ويطلق الرصاصة عليّ.

أدار الكرسي إلى أن صار في مواجهة الباب، ويده مستندة إلى حافة الدرج. ظهر العمدة عند العتبة. كان قد حلق خده الأيسر، أما الخد الآخر، المتورم والموجوع، ففيه لحية لم تُحلق منذ خمسة أيام. رأى طبيب الأسنان في عينيه الذاويتين ليالي يأس عديدة. فأغلق الدرج برؤوس أصابعه، وقال بعذوبة:

ـ اجلس.

ـ صباح الخير ـ قال العمدة.

ـ صباح الخير ـ قال طبيب الأسنان.

وبينما كانت الأدوات تغلي، اسند العمدة جمجمته إلى مسند الرأس في الكرسي وأحس بتحسن. كان يتنفس رائحة جليدية.

وكانت العيادة بائسة: كرسي خشبي عتيق، والمثقاب ذو الدواسة، وخزانة زجاجية فيها أوان خزفية. وقبالة الكرسي توجد نافذة لها حاجز يصل إلى ارتفاع قامة الرجل. عندما أحس العمدة باقتراب طبيب الأسنان، شدّ كعبيه إلى الأرض وفتح فمه.

حرك دون أوريليو اسكوبار رأس العمدة باتجاه النور. وبعد أن فحص السن المنخورة، أطبق الفك بضغط محترس من أصابعه.

ـ لابد من قلعه دون تخدير.

ـ لماذا؟

ـ لأن فيه خُرّاجاً متقيحاً.

نظر العمدة إلى عينيه.

ـ لا بأس ـ قال محاولاً أن يبتسم. ولم يرد له طبيب الأسنان الابتسامة. حمل إلى المنضدة طست الأدوات التي كانت تغلي، وأخرجها من الماء بملقط بارد وهو لا يزال غير متعجل. ثم دفع المبصقة بطرف حذائه، وذهب ليغسل يديه في حوض الماء. فعل ذلك كله دون أن ينظر إلى العمدة. لكن العمدة لم يرفع بصره عنه.

كان ضرس عقلٍ سفلي. باعد طبيب الأسنان ما بين ساقيه، وأمسك السن بالكُلابة الساخنة. تشبث العمدة بذراعي الكرسي، وركز كل قوته في قدميه، وأحس بخواء جليدي في كليتيه، لكنه لم يطلق أنّة واحدة. حرك طبيب الأسنان معصمه فقط. وقال دون حقد، بل برقة مريرة:

ـ ستدفع لنا الآن ثمن قتلانا العشرين أيها الملازم.

أحس العمدة بطقطقة عظام في فكه، وامتلأت عيناه بالدموع. لكنه لم يتنهد إلى أن شعر بخروج الضرس. عندئذ رآه من خلال الدموع. بدا له غريباً جداً عن ألمه، حتى إنه لم يستطع فهم عذابه في الليالي الخمس الماضية. وبينما هو منحن فوق المبصقة، متعرقاً ولاهثاً، فك أزرار سترته وبحث بالتلمس عن المنديل في جيب بنطاله. قدم له الطبيب خرقة قماش نظيفة.

ـ امسح دموعك ـ قال له.

فعل العمدة ذلك. كان يرتجف. وبينما الطبيب يغسل يديه، رأى السقف المثقوب وشبكة عناكب معفرة بالغبار وفيها بيوض عنكبوت وحشرات ميتة. رجع الطبيب وهو يجفف يديه وقال: «استرح في الفراش، وتغرغر بماء مالح». نهض العمدة واقفاً، وودع بتحية عسكرية متهاونة، واتجه نحو الباب وهو يشد ساقيه، دون أن يزرر سترته.

ـ أرسل لي الحساب ـ قال.

ـ إليك أم إلى البلدية؟

لم ينظر إليه العمدة. أغلق الباب وقال عبر الشبكة المعدنية:

ـ إنهما اللعنة نفسها.

لا يوجد لصوص في هذه القرية

En este pueblo no hay ladrones

(1962)

رجع داماسو إلى الغرفة مع صياح أول الديكة. كانت زوجته آنا، الحامل في الشهر السادس، تنتظره جالسة على السرير، مرتدية ثيابها ومنتعلة حذاءها. وكان مصباح الزيت آخذ بالانطفاء. أدرك داماسو أن زوجته لم تتوقف عن انتظاره دقيقة واحدة طيلة الليل، ومازالت تنتظره حتى في هذه اللحظة، وهي تراه أمامها. أومأ إيماءة مطمئنة لم ترد عليها. وصوبت عينيها المذعورتين إلى صرّة القماش الحمراء التي يحملها في يده، وضغطت شفتيها وبدأت ترتجف. أمسك بها داماسو من حمالة صدرها بعنف أبكم. وكانت تنبعث من فمه رائحة حموضة فظة.

تركته آنا يرفعها في الهواء. ثم تهاوت بكل ثقلها إلى الأمام، باكية على قميص زوجها الذي من فانيلا مخطط بالأحمر، وطوقت كليتيه إلى أن تمكنت من كبح نوبة رعبها.

ـ لقد غفوت وأنا جالسة ـ قالت ـ، وفجأة فتحوا الباب ودفعوا بك إلى الغرفة، مبللاً بالدم.

أبعدها داماسو عنه دون أن يقول شيئاً. أعاد وضعها على السرير، ثم وضع الصُرّة في حضنها وخرج ليبول في الفناء. عندئذ فكت هي عقد الصرة ونظرت: إنها ثلاث كرات بلياردو، اثنتان بيضاوان وواحدة حمراء، بلا بريق، أتلفتها كثرة الضربات.

عندما رجع داماسو إلى الحجرة وجدها مستغرقة في التأمل.

ـ وما نفع هذه؟ ـ سألت آنا.

فهز كتفيه:

ـ للعب البلياردو.

أعاد ربط العقدة، وخبأ الصرة مع الخطاف المرتجل، والمصباح اليدوي، والسكين، في قعر صندوق الثياب. استلقت آنا ووجهها إلى الجدار دون أن تخلع ثيابها. وخلع داماسو بنطاله فقط. وبينما هو مستلق على السرير، يدخن في الظلام، حاول أن يتبين أثراً لمغامرته في همسات الفجر المتفرقة، إلى أن انتبه إلى أن زوجته مستيقظة.

ـ فيم تفكرين؟

ـ لا شيء ـ قالت.

صوتها الذي يتميز بوقعه المترنم، بدا أشد زخماً بسبب الغيظ. أخذ داماسو نفساً أخيراً من السيجارة وسحق عقبها على أرض الغرفة الترابية.

ـ لم يكن هناك شيء آخر ـ قال متنهداً ـ ظللتُ في الداخل قرابة الساعة.

ـ كان يمكن لهم أن يطلقوا عليك رصاصة ـ قالت.

ارتعش داماسو وقال وهو يضرب بمفاصل أصابعه إطار السرير الخشبي: «يا للعنة». وتلمس الأرض بحثاً عن السجائر والثقاب.

ـ إن لك أحشاء حمار ـ قالت آنا ـ كان عليك أن تفكر في أنني كنت هنا غير قادرة على النوم، معتقدة أنهم يأتون بك ميتاً كلما حدثت ضجة في الشارع ـ ثم أضافت وهي تطلق زفرة تحسر ـ: كل هذا لتخرج بثلاث كرات بلياردو.

ـ لم يكن في درج المنضدة سوى خمسة وعشرين سنتافو.

ـ ما كان عليك أن تأتي بأي شيء إذاً.

ـ المشكلة كانت في الدخول ـ قال داماسو ـ ولم يكن بإمكاني العودة خالي اليدين.

ـ كان بمقدورك أن تأخذ أي شيء آخر.

ـ لم يكن هناك أي شيء ـ قال داماسو.

ـ ليس هناك مكان فيه أشياء كثيرة كما في صالة بلياردو.

ـ هذا ما يعتقده أحدنا ـ قال داماسو ـ ولكن عندما يصبح المرء

هناك في الداخل، ويبدأ بتفحص الأشياء والتفتيش في كل الأنحاء، يدرك أنه ليس هناك شيء ذو نفع.

ظلت صامتة لوقت طويل. وتخيلها داماسو مفتوحة العينين، تحاول أن تجد شيئاً ذا قيمة في عتمة الذاكرة.

- ربما - قالت.

عاد داماسو إلى التدخين مجدداً. كان الكحول يغادره في موجات دائرية وحيدة المركز، وكان هو يتولى من جديد ثقل جسده، وحجمه، ومسؤولياته.

- كان هناك هر في الداخل - قال -. هر ضخم أبيض.

انقلبت آنا، أسندت بطنها المنتفخ إلى بطن زوجها، ودست ساقها بين ركبتيه. كانت تفوح منها رائحة البصل.

- أكنت خائفاً جداً؟

- أنا؟

- أنت - قالت آنا -. يقولون إن الرجال يرتعبون أيضاً.

شعر أنها تبتسم، وابتسم.

- خفتُ قليلاً - قال - لم أستطع كبح رغبتي في التبول.

تركها تقبّله دون تجاوب معها. ثم روى لها تفاصيل مغامرته وهو يعي المخاطر إنما دون ندم، كما لو أنه يستذكر رحلة قام بها.

تكلمت هي بعد صمت طويل.

- كان عملاً جنونياً.

- المسألة كلها مسألة البدء بالأمر - قال داماسو وهو يغمض عينيه - وباعتبارها أول مرة، لم يكن الأمر سيئاً.

تأخر اشتداد حرارة الشمس. وعندما استيقظ داماسو كانت زوجته قد نهضت منذ بعض الوقت. وضع رأسه تحت صنبور الفناء، وظل على تلك الحال بضع دقائق، إلى أن استيقظ تماماً. كانت الحجرة تشكل جزءاً من صف غرف متشابهة ومستقلة، مع فناء مشترك تقطعه أسلاك

لنشر الغسيل. وإلى الجدار الخلفي المفصول عن الفناء بحاجز من الصفيح، وضعت آنا موقداً صغيراً لطهي الطعام وتسخين المكواة، ومنضدة صغيرة للأكل والكي. وعندما رأت زوجها آتياً، وضعت الملابس المكوية جانباً ورفعت المكواة الحديدية عن الموقد كي تسخن القهوة. كانت أكبر منه سناً، لها بشرة شديدة الشحوب، وكانت لحركاتها تلك الفعالية الرقيقة التي للناس المعتادين على الواقع.

ومن غمامة وجع رأسه، أدرك داماسو من نظرات زوجته أنها تريد أن تقول له شيئاً. ولم يكن قد أولى اهتماماً إلى أصوات الفناء حتى تلك اللحظة.

ـ لم يتحدث أحد عن شيء آخر طوال الصباح ـ همست آنا وهي تسكب القهوة ـ وقد ذهب الرجال إلى هناك منذ بعض الوقت.

تأكد داماسو من أن الرجال والأطفال قد اختفوا من الفناء. وبينما هو يتناول القهوة، تابع بصمت حديث النساء اللواتي كن ينشرن الثياب تحت الشمس. وأخيراً أشعل سيجارة وغادر المطبخ.

ـ تيريسا ـ قال منادياً.

وردت على ندائه صبية ثيابها مبتلة وملتصقة بجسدها.

ـ كن حذراً ـ قالت آنا. واقتربت الصبية.

ـ ما الذي يجري؟ ـ سألها داماسو.

ـ هناك من دخل صالة البلياردو وسرق كل شيء ـ قالت الصبية.

بدت مطلعة على كل التفاصيل. فقد أوضحت كيف خربوا المحل، قطعة قطعة، حتى إنهم أخذوا منضدة البلياردو. كانت تتكلم باقتناع شديد لم يستطع معه داماسو الاعتقاد بعدم صحة ما تقوله.

ـ يا للخراء! ـ قال وهو يعود إلى المطبخ.

راحت آنا تغني من بين أسنانها. وأسند داماسو كرسياً إلى جدار الفناء محاولاً كبح جزعه. فقبل ثلاثة أشهر، عندما أكمل عشرين سنة من عمره، ظهر شاربه النحيل، ليس بروح تضحية سرية وحسب،

وإنما بشيء من العذوبة أيضاً، ليضفي لمسة نضج إلى وجهه المتحجر بالجدري. فشعر منذ ذلك الحين بأنه راشد. لكنه هذا الصباح، مع ذكريات الليلة الفائتة الطافية في مستنقع صداعه، لم يجد من أين يمكنه أن يبدأ العيش.

عندما فرغت آنا من الكي، وزعت الملابس النظيفة في حزمتين متساويتين واستعدت للخروج إلى الشارع.

ـ لا تتأخري ـ قال داماسو.

ـ كالعادة.

تبعها حتى الغرفة.

ـ تركتُ لك قميصك ذا المربعات ـ قالت آنا ـ خيراً من أن ترتدي قميص الفلانية من جديد ـ وواجهت عيني القط الصافيتين اللتين لزوجها:

ـ لا ندري إذا كان هناك من رآك.

مسح داماسو عرق يديه ببنطاله.

ـ لم يرني أحد.

ـ لا ندري ـ كررت آنا وهي تحمل حزمة من الثياب بكل واحد من ذراعيها ـ من الأفضل ألا تخرج أيضاً. انتظر حتى أقوم بجولة هناك كما لو أنني غير مهتمة بالأمر.

لم يكن هناك حديث في أي أمر آخر في القرية. وكان على آنا أن تستمع عدة مرات، وفي روايات مختلفة ومتناقضة، تفاصيل الحادثة نفسها. عندما انتهت من توزيع الملابس، وبدلاً من الذهاب إلى السوق مثلما تفعل كل سبت، اتجهت مباشرة إلى الساحة العامة.

لم تجد أمام صالة البلياردو أناساً كثيرين مثلما كانت تتصور. كان بعض الرجال يتبادلون الحديث في ظل أشجار اللوز. وكان السوريون قد أدخلوا بضاعتهم من الأقمشة الملونة كي يذهبوا للغداء، وبدت المتاجر ناعسة تحت مظلات الخيش. وكان هناك في صالة الفندق رجل ينام منتشراً على كرسي هزاز، مفتوح الفم والساقين

والذراعين. بدا كل شيء مشلولاً في قيظ الساعة الثانية عشرة.

مرت آنا عرضاً أمام صالة البلياردو، وعندما مرّت بالأرض الخلاء قبالة المرسى التقت بالحشد. عندئذ تذكرت شيئاً أخبرها به داماسو، ويعرفه الجميع؛ ولكن زبائن المحل وحدهم هم الذين يستطيعون تذكره: باب صالة البلياردو الخلفي يؤدي إلى قطعة الأرض الخلاء. بعد لحظات من ذلك، وهي تحمي بطنها بذراعيها، وجدت نفسها مختلطة بالحشد، وعيناها مثبتتان على الباب المنتهك. كان القفل سليماً، لكن إحدى رَزَّتيه قد انتزعت مثل ضرس. تأملت آنا لحظة أضرار ذلك العمل المتوحد والمتواضع، وفكرت في زوجها بشعور من الشفقة.

- من كان الفاعل؟

ولم تجرؤ على النظر حولها.

- لم يُعرف الفاعل - أجابوها - يقال إنه شخص غريب.

- لابد أنه كذلك - قالت امرأة خلفها - ففي هذه القرية لا يوجد لصوص. والجميع هنا يعرفون بعضهم بعضاً.

أدارت آنا رأسها.

- صحيح - قالت مبتسمة. كانت مبللة بالعرق. وكان بجوارها رجل عجوز جداً، له تجعدات عميقة في رقبته.

- وهل سرقوا كل شيء؟ - سألت.

- سرقوا مئتي بيزو وكرات البلياردو - قال العجوز. وتفحصها باهتمام في غير محله - سيكون علينا قريباً أن ننام وعيوننا مفتوحة.

أبعدت آنا نظرها جانباً.

- صحيح - قالت ثانية. ووضعت قطعة قماش على رأسها وابتعدت دون أن تتمكن من تفادي الإحساس بأن العجوز يواصل النظر إليها.

خلال ربع ساعة ظل أفراد الحشد المتجمع في قطعة الأرض الخلاء يراقبون بوقار، كما لو أن هناك ميتاً وراء الباب المنتهك. ثم اهتاجوا بعد ذلك، وداروا على أعقابهم، وتدفقوا نحو الساحة.

كان صاحب صالة البلياردو عند الباب، ومعه العمدة ورجلا شرطة. وقد بدا بقصر قامته وتكوره، وبنطاله الذي لا يثبته شيء سوى ضغط كرشه، ونظارة الأطفال التي يضعها، كما لو أنه متشح بوقار مضنٍ.

أحاط الحشد به. واستمعت آنا المستندة إلى الجدار إلى معلوماته إلى أن بدأ الحشد بالتفرق. ثم رجعت بعد ذلك إلى الغرفة محتقنة بالاختناق، وسط مظاهرة الجيران الصاخبة.

كان داماسو المستلقي على السرير قد تساءل مرات عديدة كيف استطاعت آنا أن تنتظره في الليلة الفائتة دون أن تدخن. وعندما رآها تدخل مبتسمة، وتنزع عن رأسها قطعة القماش المبتلة بالعرق، سحق السيجارة شبه الكاملة على أرض الغرفة وسط نثارة من الأعقاب، وانتظر بجزع أكبر.

- ماذا؟

جثت آنا على ركبتيها قبالة السرير.

- أنت مخادع بالإضافة إلى أنك لص - قالت.

- لماذا؟

- لأنك قلت لي إنه لم يكن هناك شيء في الدرج.

قطّب داماسو حاجبيه:

- لم يكن فيه شيء.

- كان فيه مئتا بيزو - قالت آنا.

- هذا كذب - قال داماسو وهو يرفع صوته. ثم استوى في السرير واستعاد النبرة الهامسة - لم يكن فيه سوى خمسة وعشرين سنتافو.

أقنعها.

- إنه عجوز محتال - قال داماسو وهو يضغط قبضتيه - يسعى إلى أن أحطم وجهه.

ضحكت آنا بانطلاق.

- لا تكن فظاً.

انتهى هو أيضاً من الضحك. وبينما كان يحلق ذقنه أخبرته امرأته بما تمكنت من تقصيه. فالشرطة تبحث عن شخص غريب.

- يقولون إنه جاء يوم الخميس، وأنهم رأوه يجول في الليل عند المرسى. ويقولون إنهم لم يجدوه في أي مكان.

فكر داماسو في الغريب الذي لم يره قط، وارتاب لحظة، بقناعة راسخة، في أن يكون هو الفاعل حقاً.

- يمكن له أن يكون قد غادر - قالت آنا.

وكعادته، احتاج داماسو إلى ثلاث ساعات لترتيب مظهره. بدأ أولاً بتشذيب شاربه النحيل. وبعد ذلك الاغتسال تحت دفق صنبور الفناء. وتابعت آنا عملية تسريح شعره المعقدة، خطوة خطوة، وبحماسة لم يوقفها شيء منذ الليلة التي رأته فيها أول مرة. وعندما رأته ينظر إلى نفسه في المرآة كي يخرج، وقد ارتدى قميص المربعات الحمراء، أحست أنها عجوز ومهلهلة المظهر. قام داماسو أمامها بحركة ملاكمة، بخفة محترف. فأمسكته من معصمه.

- ألديك نقود؟

- إنني غني - أجاب داماسو بمزاج طيب - لدي المئتا بيزو.

استدارت آنا باتجاه الجدار، وأخرجت من صدرها لفافة أوراق نقدية، وقدمت بيزو لزوجها قائلة:

- خذ، يا خورخي نيغريتي.

في تلك الليلة قضى داماسو الوقت في الساحة مع جماعة من أصدقائه. وكان الناس الآتون من الريف بمنتجات لبيعها في سوق الأحد يعلقون مظلات بين بسطات المقالي وموائد اليانصيب، وكان شخيرهم يُسمع منذ بداية الليل. لم يبدِ أصدقاء داماسو اهتماماً بسرقة صالة البلياردو يفوق اهتمامهم بالبث الإذاعي لبطولة البيسبول الذي لم يتمكنوا من سماعه لأن المحل ظل مغلقاً هذه الليلة. وبينما هم يتحدثون عن البيسبول دخلوا إلى السينما دون اتفاق مسبق ودون معرفة برنامج العرض.

كان يُعرض فيلم لـ *كانتينفلاس*. وقد ضحك داماسو دون أي إحساس بتأنيب الضمير وهو يجلس في الصف الأول من الصالة. كان يشعر أنه يتعافى من انفعالاته. وكانت ليلة حزيرانية طيبة، وفي لحظات الفراغ التي لم يكن يسمع فيها سوى رذاذ آلة العرض، كان صمت النجوم وحده يُثقل على السينما التي بلا سقف.

وفجأة شحبت الصور على الشاشة وحدثت جلبة في أقصى الصف. ومع الضوء المباغت، شعر داماسو أنه قد اكتُشف، وأنهم يشيرون إليه، وهمَّ بالركض. لكنه رأى على الفور جمهور الصالة مشلولاً، وشرطياً قد لف طرف حزامه على يده، يوجه ضربات غاضبة إلى رجل بإبزيم الحزام النحاسي الثقيل. كان الرجل زنجياً ضخماً. بدأت النساء بالصراخ، وراح الشرطي الذي يضرب الزنجي يصرخ بصوت أعلى من صراخ النساء: «حرامي! حرامي!» ركض الزنجي بين المقاعد المبعثرة، يتبعه شرطيان يضربانه على كليتيه إلى أن تمكنا من إمساكه من الخلف. بعد ذلك قام الشرطي الذي كان يضربه بربط معصميه وراء ظهره بالحزام، ودفعه الثلاثة باتجاه الباب. حدث ذلك بسرعة كبيرة لم يدرك داماسو معها ما جرى إلا حين مرّ الزنجي بجواره، بقميصه الممزق ووجهه المغطى بخليط من الغبار والعرق والدم، وكان ينشج: «قتلة، قتلة». وبعد ذلك أُطفئت الأنوار، وأكملوا عرض الفيلم.

لم يعد داماسو إلى الضحك. رأى نُتفاً من قصة غير مترابطة وهو يدخن دون توقف، إلى أن أُضيء النور وتبادل المشاهدون النظرات كما لو أنهم خائفون من الواقع. «فيلم جيد» هتف أحدهم بجانبه. لكن داماسو لم ينظر إليه.

- *كانتينفلاس* جيد جداً - قال.

حمله التيار حتى الباب. وكانت بائعات الأطعمة يرجعن إلى بيوتهن محملات بالأمتعة. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، ولكن أناساً كثيرين كانوا في الشارع ينتظرون خروجهم من السينما ليستفسروا منهم عن إلقاء القبض على الزنجي.

دخل داماسو تلك الليلة إلى الغرفة بحذر، وكان قد بدأ تدخين سيجارته الثانية عندما لمحته آنا، وسط نعاسها، مستلقياً على السرير.

ـ الطعام على الموقد ـ قالت.

ـ لست جائعاً ـ قال داماسو.

زفرت آنا.

ـ حلمتُ أن نورا تصنع دمى من الزبدة ـ قالت دون أن تكون قد استيقظت تماماً. وانتبهت فجأة إلى أنها قد نامت دون أن ترغب في ذلك، فالتفتت إلى داماسو مبهورة، وهي تفرك عينيها.

ـ لقد أمسكوا الغريب ـ قالت.

تأخر داماسو في الكلام.

ـ من قال ذلك؟

ـ أمسكوا به في السينما ـ قالت آنا ـ الجميع التموا هناك.

وروت له رواية مشوهة عن عملية الاعتقال. ولم يصححها لها داماسو.

ـ يا للرجل المسكين ـ تنهدت آنا.

ـ ولماذا هو مسكين ـ اعترض داماسو مندفعاً ـ أتريدين إذاً أن أكون أنا في السجن؟

لم تجب لأنها تعرفه جيداً. أحست به يدخن ويتنفس كمصاب بالربو إلى أن صاحت أول الديكة. ثم أحست به بعد ذلك ينهض، ويتنقل في الغرفة بحركة مبهمة تعتمد كما يبدو على اللمس أكثر من البصر. ثم أحست به يكشط الأرض تحت السرير خلال أكثرَ من ربع ساعة، وأحست به بعد ذلك يخلع ثيابه في الظلام، محاولاً ألا يُحدث ضجة، دون أن يدري أنها لم تتوقف لحظة واحدة عن مساعدته بجعله يعتقد أنها نائمة. تحرك شيء ما في أشد غرائزها بدائية. وعرفت آنا حينئذ أن داماسو كان في السينما، وأدركت أنه انتهى للتو من دفن كرات البلياردو تحت السرير.

فتحت صالة البلياردو يوم الاثنين واجتاحها حشد من الزبائن المتحمسين. كانت مائدة البلياردو مغطاة بقطعة قماش بنفسجية

طبعت المحل بمظهر مأتمي. وكانت قد عُلقت على الجدار لوحة تقول: «الخدمة غير متوفرة، لأنه لا يوجد لدينا كرات». وكان الناس يدخلون لقراءة اللوحة كما لو أنها حدث جديد. ويتوقف بعضهم يتوقفون أمامها طويلاً، يعيدون قراءتها بورع لا يمكن تفسيره.

كان داماسو بين أول الزبائن. فقد أمضى شطراً من حياته على المقاعد الطويلة المخصصة لمشاهدي البليادرو، وهناك كان منذ أن أعادوا فتح أبواب المحل. بدا الأمر صعباً جداً لكنه آني مثل تعزية. ربت على كتف المالك من فوق منضدة الكونتوار، وقال له:

ـ يا لهذا الأمر، يا دون روكي.

هز المالك رأسه بابتسامة أسى، وتنهد: «هاأنت ترى». وواصل خدمة الزبائن، بينما استقر داماسو على أحد كراسي الكونتوار التي بلا مسند، وراح يتأمل المائدة الشبحية تحت غطائها النفسجي.

ـ يا للغرابة ـ قال.

ـ معك حق ـ أكد رجل يجلس على كرسي مجاور ـ نبدو كأننا في أسبوع الآلام المقدس.

عندما ذهب معظم الزبائن لتناول الغداء، أدخل داماسو قطعة نقد معدنية في الغراموفون الآلي واختار أغنية مكسيكية يعرف ترتيبها عن ظهر قلب. وكان دون روكي ينقل مناضد وكراسي إلى عمق الصالة.

ـ ماذا تفعل؟ سأله داماسو.

ـ أرتب الموائد لألعاب الورق ـ ردّ دون روكي، وأضاف: ـ لابد لي من عمل شيء ريثما تصل الكرات.

كان يبدو أشبه بمن ترمل للتو وهو يتحرك كمن يتلمس طريقه، حاملاً كرسياً في كل يد من يديه.

ـ ومتى ستصل؟ ـ سأله داماسو.

ـ خلال أقل من شهر، كما آمل.

ـ في أثناء ذلك ستكون قد ظهرت الكرات الأخرى.

تأمل دون روكي صف الموائد الصغيرة راضياً.

ـ لن تظهر ـ قال وهو يمسح جبهته بكمّه ـ إنهم يستبقون الزنجي

دون طعام منذ يوم السبت، ولم يشأ أن يقول أين هي ـ وتأمل داماسو من خلال عدستي نظارته المبللتين بالعرق.

ـ أنا واثق من أنه رماها في النهر.

عض داماسو شفتيه.

ـ وماذا عن المئتي بيزو؟

ـ لن تظهر أيضاً ـ قال دون روكي ـ لم يعثروا معه إلا على ثلاثين.

نظر كل منهما في عيني الآخر. ولم يستطع داماسو أن يفسر انطباعه بأن النظرة أقرت علاقة تواطؤ بينه وبين دون روكي. وبعد الظهر، رأته آنا من وراء حوض الغسيل، يصل وهو يقوم بقفزات ملاكم. فتبعته إلى الغرفة.

ـ انتهى الأمر ـ قال داماسو ـ العجوز مستسلم إلى حدّ أنه أوصى على كرات جديدة. والمسألة هي الآن في انتظار أن ينسى الجميع القضية.

ـ والزنجي؟

ـ لا شيء ـ قال داماسو وهو يهز كتفيه ـ سيكون عليهم إخلاء سبيله إذا لم يجدوا الكرات معه.

بعد تناول الطعام جلسا عند الباب الأمامي، وتبادلا الحديث مع الجيران إلى أن أُطفئ مكبر الصوت في السينما. وعندما حان موعد النوم كان داماسو متحمساً.

ـ لقد خطرت لي أفضل صفقة في العالم ـ قال.

وأدركت آنا أنه كان يطحن الفكرة نفسها منذ الغروب.

ـ سأنتقل من قرية إلى قرية ـ تابع داماسو ـ فأسرق كرات البلياردو من إحداها وأبيعها في الأخرى. فهناك في كل قرية صالة بلياردو.

ـ إلى أن يطلقوا عليك رصاصة.

ـ عن أي رصاص تتكلمين؟ هذا يُرى في الأفلام فقط ـ وكان يختنق بحماسته وهو واقف في منتصف الغرفة. بدأت آنا بخلع ثيابها، مبدية عدم المبالاة، لكنها كانت تصغي إليه في الواقع بانتباه مشفق.

ـ سأشتري صفاً من الثياب ـ قال داماسو، وأشار بإصبعه السبابة إلى خزانة ملابس متخيلة على امتداد الجدار ـ من هنا إلى هناك. وسأشتري خمسين زوجاً من الأحذية أيضاً.

ـ فليسمع الله منك ـ قالت آنا.

صوب إليها داماسو نظرة جادة.

ـ أنتِ لا تهتمين بأموري ـ قال.

ـ إنها بعيدة عني ـ قالت آنا. ثم أطفأت المصباح، واستلقت ووجهها إلى الجدار، وأضافت بمرارة مؤكدة: ـ عندما تبلغ الثلاثين، سأكون في السابعة والأربعين.

ـ دعكِ من البلاهة ـ قال داماسو.

تلمس جيوبه بحثاً عن الثقاب.

ـ وأنتِ يجب ألا تُنهكي نفسك أيضاً بغسل مزيد من الثياب ـ قال بقليل من الارتباك. قدمت له آنا ناراً لإشعال السيجارة. وظلت تنظر إلى اللهب حتى احترق عود الثقاب كله، فألقت الرماد إلى الأرض. واصل داماسو الكلام وهو مستلق على السرير.

ـ أتعرفين مم يصنعون كرات البلياردو؟

لم تجب آنا. وتابع هو:

ـ من أنياب الفيلة. والحصول عليها صعب إلى حدّ أن مجيئها يتطلب شهراً. أتلاحظين ذلك؟

ـ نم الآن ـ قاطعته آنا ـ عليّ أن أستيقظ في الخامسة.

كان داماسو قد عاد إلى حاله الطبيعية. يقضي فترة الصباح وهو يدخن في السرير، ويبدأ بعد القيلولة بتهيئة نفسه للخروج. وفي الليل يستمع في صالة البلياردو إلى بث إذاعي لبطولة البيسبول. وكان يتمتع بميزة نسيان مشروعاته بالحماسة نفسها التي يتطلبها تصوره لها.

ـ ألديكِ بعض المال؟ ـ سأل زوجته يوم السبت.

ـ أحد عشر بيزو ـ أجابت، وأضافت بعذوبة ـ لدفع إيجار الغرفة.

ـ سأعرض عليك صفقة.

ـ ما هي؟
ـ أقرضيني النقود.
ـ علينا دفع أجرة الغرفة.
ـ سندفعها في ما بعد.

هزت آنا رأسها. فأمسك داماسو بمعصمها ومنعها من النهوض عن المائدة، حيث تناولا الفطور للتو.

ـ أريد المبلغ لأيام قليلة فقط ـ قال مداعباً ذراعها برقة ساهية ـ عندما أبيع الكرات سيكون لدينا ما يكفي من المال لكل شيء.

لم تستسلم آنا. وفي تلك الليلة، في السينما، لم يرفع داماسو يده عن كتفها حتى وهو يتحدث مع أصدقائه في الاستراحة. شاهدا الفيلم بصورة متقطعة. وأخيراً نفد صبر داماسو.

ـ سيكون عليّ أن أسرق المال إذاً.

هزت آنا كتفيها.

ـ سأوجه ضربة هراوة إلى أول شخص ألتقيه في طريقي ـ قال داماسو وهو يدفعها وسط الحشد الذي يغادر السينما ـ وهكذا يقتادونني إلى السجن بجريمة قتل

ابتسمت آنا في أعماقها. ولكنها ظلت ثابتة لا تلين. وفي صباح اليوم التالي، بعد ليلة عاصفة، ارتدى داماسو ثيابه بسرعة استعراضية متوعدة. ومرّ بمحاذاة زوجته وزمجر:

ـ لن أعود إلى الأبد.
ـ رحلة موفقة ـ صاحت.

بعد أن صفق الباب، بدأ لداماسو يوم أحد خاوٍ وبلا نهاية. الخزفيات اللامعة في السوق العامة، والنساء بملابسهن براقة الألوان وهنّ يخرجن مع أطفالهن من قداس الساعة الثامنة، أضفت على الساحة لمسات من السعادة، لكن الهواء بدأ يتصلب من الحر.

أمضى النهار في صالة البلياردو. لعبت جماعة من الرجال الورق في الصباح، وقبل الغداء حدث تدفق زبائن آني. ولكن بدا واضحاً أن

المحل فقد جاذبيته. وفي الليل فقط، عندما بدء بث مباريات البيسبول، كان المكان يستعيد شيئاً من حيويته السابقة.

بعد أن أغلقوا الصالة، وجد داماسو نفسه بلا وجهة محددة في الساحة العامة التي بدت نازفة. نزل في الشارع الموازي للمرسى، متتبعاً أثر صوت موسيقى مرحة ونائية. وفي نهاية الشارع، كانت هناك صالة رقص هائلة وشبه خاوية، مزينة بأكاليل أزهار ورقية حائلة الألوان، وفي عمق الصالة فرقة موسيقية على منصة خشبية. وكانت تطفو في الجو رائحة أحمر شفاه.

جلس داماسو إلى منضدة الكونتوار. وعندما انتهت المقطوعة الموسيقية، جمع الفتى الذي كان يضرب الصنجين في الفرقة قطعاً نقدية من الرجال الذين رقصوا. وتركت فتاة رفيقها في الرقص وسط الصالة واقتربت من داماسو.

- ماذا تفعل هنا يا خورخي نيغريتي؟

أجلسها داماسو إلى جانبه. وسأله الساقي المعفر الذي يضع قرنفلة على أذنه:

- ماذا ستشربان؟

التفتت الفتاة إلى داماسو.

- ماذا سنشرب؟

- لا شيء.

- أنا سأدفع.

- ليست هذه هي المسألة - قال داماسو - إنني جائع.

- مؤسف - تنهد الساقي - وأنت بهاتين العينين.

انتقلا إلى قاعة الطعام في عمق الصالة. وبدا من تقاطيع جسد الفتاة أنها فتية جداً، غير أن طبقة المساحيق والأصباغ وأحمر الشفاه تحول دون معرفة حقيقة عمرها. بعد أن تناولا الطعام، تبعها داماسو إلى الغرفة، في عمق فناء معتم تُسمع فيه أنفاس الحيوانات النائمة. كان يشغل السرير طفل ملفوف بخرق ملونة. وضعت الفتاة الخرق في

صندوق خشبي، وأنامت الطفل فيه، ثم وضعت الصندوق على الأرض.

ـ ستأكله الفئران ـ قال داماسو.

ـ لن تأكله ـ قالت.

بدّلت الثوب الأحمر بآخر فتحة عنقه أكثر اتساعاً ومزين بأزهار كبيرة صفراء.

ـ من هو أبوه؟ ـ سألها داماسو.

ـ ليست لدي أدنى فكرة ـ قالت. ثم أضافت وهي عند الباب ـ: سأعود فوراً.

سمعها تقفل الباب. دخن عدة سجائر وهو مستلق على ظهره وبكامل ملابسه. كانت نوابض السرير تهتز على إيقاع موسيقى المامبو. ولم يدرِ في أي لحظة غلبه النعاس. وعندما استيقظ، بدت الغرفة أكثر اتساعاً بغياب الموسيقى.

كانت الفتاة تتعرى بجانب السرير.

ـ كم الساعة؟

ـ حوالي الرابعة ـ قالت ـ ألم يبكِ الطفل؟

ـ لا أظن ذلك ـ قال داماسو.

استلقت الفتاة قريباً منه، وراحت تتفحصه بعينين فيهما انحراف خفيف بينما هي تفك أزرار قميصه. أدرك داماسو أنها شربت كثيراً. وحاول أن يطفئ المصباح.

ـ دعه هكذا ـ قالت ـ. يفتنني النظر إلى عينيك.

امتلأت الحجرة بضجيج ريفي منذ الفجر. بكى الطفل، فحملته الفتاة إلى السرير وراحت ترضعه وهي تدندن أغنية من ثلاث نغمات، إلى أن ناموا جميعهم. ولم يلاحظ داماسو أن الفتاة استيقظت في حوالي السابعة، وغادرت الغرفة، وعادت من دون الطفل.

ـ الجميع يذهبون إلى المرسى ـ قالت.

راود داماسو إحساس بأنه لم ينم أكثر من ساعة طول الليل.

ـ لماذا؟

ـ ليروا الزنجي الذي سرق الكرات ـ قالت ـ سيأخذونه اليوم.

أشعل داماسو سيجارة.

ـ يا للرجل المسكين ـ تنهدت الفتاة.

ـ ولماذا هو مسكين ـ قال داماسو ـ لم يجبره أحد على السرقة.

فكرت الفتاة لحظة ورأسها مستند إلى صدره. ثم قالت بصوت خافت جداً.

ـ لم يكن هو.

ـ من قال ذلك؟

ـ أنا أعرف ـ قالت ـ. في ليلة اقتحام صالة البلياردو كان الزنجي مع غلوريا، وأمضى اليوم التالي كله في غرفتها حتى الليل. ثم جاؤوا ليقولوا إنهم أمسكوا به في السينما.

ـ يمكن لغلوريا أن تخبر الشرطة.

ـ أخبرهم الزنجي بذلك ـ قالت ـ وحضر العمدة إلى حيث غلوريا، وقلب الحجرة رأساً على عقب، وقال إنه سيقتادها إلى السجن كمتواطئة. وأخيراً سُوي الأمر بعشرين بيزو.

نهض داماسو قبل الثامنة.

ـ ابق هنا ـ قالت له الفتاة ـ سأذبح دجاجة للغداء.

نفض داماسو المشط على راحة يده قبل أن يضعه في جيب بنطاله الخلفي.

ـ لا أستطيع ـ قال وهو يجذب الفتاة من معصميها. كانت قد غسلت وجهها، وبدت فتية جداً بالفعل، بعينين واسعتين وسوداوين تمنحانها هيئة مخذولة. طوقت خصره.

ـ ابق هنا ـ ألحت.

ـ إلى الأبد؟

احمر وجهها قليلاً، وأبعدته عنها.

ـ محتال ـ قالت.

كانت آنا تشعر بالإنهاك في ذلك الصباح. لكنها أُصيبت بعدوى هياج القرية. جمعت بأسرع من المعتاد الملابس التي ستغسلها هذا الأسبوع، وذهبت إلى المرسى لتشهد ترحيل الزنجي. كان هناك حشد متلهف ينتظر عند المراكب الجاهزة للانطلاق. وهناك كان داماسو.

وخزته آنا بسبابتيها في كليتيه.

ـ ماذا تفعلين هنا؟ ـ سألها داماسو جافلاً.

ـ جئت لأودعك ـ قالت آنا.

ضرب داماسو بمفاصل أصابعه عمود النور العام، وقال:

ـ عليك اللعنة.

أشعل سيجارة وألقى العلبة الفارغة في النهر. أخرجت آنا علبة أخرى من صدارها ودستها في جيب قميصه. ابتسم داماسو أول مرة.

ـ أنت حمارة ـ قال.

ـ ها، ها ـ تصنعت آنا.

بعد قليل من ذلك صعدوا بالزنجي إلى المركب. كانوا قد جاؤوا به من وسط الساحة ومعصماه مقيدان وراء ظهره بحبل يمسك به شرطي. وكان شرطيان آخران مسلحان ببندقيتين يسيران بجانبه. كان بلا قميص، شفته السفلى مشقوقة وأحد حاجبيه متورماً، كأنه ملاكم. تحاشى نظرات الحشد بوقار سلبي. وعند باب صالة البلياردو، حيث تجمع أكبر عدد من الجمهور على جانبي المشهد، رآه صاحب الصالة يمر وهو يهز رأسه بصمت. وراقبه بقية الجمع بنوع من الحماسة.

انطلق المركب في الحال. كان الزنجي على السطح، مربوط القدمين واليدين إلى برميل نفط. وعندما استدار المركب في منتصف النهر وأطلق الصفير الأخير، لمع ظهر الزنجي.

يا للرجل المسكين ـ دمدمت آنا.

ـ إنهم مجرمون ـ قال أحدهم على مقربة منها ـ لا يمكن لإنسان أن يتحمل كل هذه الشمس.

وحدد داماسو الصوت من امرأة بدينة بصورة غير عادية، وبدأ التحرك باتجاه الساحة.

- إنك تكثرين الكلام - همس في أذن آنا - لم يبق عليك إلا أن تصرخي معلنة القصة.

رافقته حتى باب صالة البلياردو. ثم قالت وهي تفارقه:

- تعال لتبديل ثيابك على الأقل، فأنت تبدو مثل شحاذ.

قاد الحدث إلى الصالة جمهوراً هائجاً. وفي محاولة منه لخدمة الجميع، كان دون روكي يلبي طلبات عدة موائد في الوقت نفسه. وانتظر داماسو إلى أن مرّ بجواره.

- أتريدني أن أساعدك؟

وضع دون روكي أمامه نصف دزينة من زجاجات البيرة مع كؤوس مقلوبة على أعناق الزجاجات.

- شكراً يا بني

حمل داماسو الزجاجات إلى المائدة. تلقى عدة طلبات، وواصل إحضار الزجاجات وأخذها إلى أن ذهب الزبائن للغداء. وعند الفجر، حين عاد إلى الغرفة أدركت آنا أنه كان يشرب. أمسكت يده ووضعتها على بطنها.

- تلمس هنا - قالت له - ألا تشعر به؟

لم يُبدِ داماسو أي نوع من الحماسة.

- إنه حي - قالت آنا - لقد أمضى الليل وهو يرفسني من الداخل.

لكنه لم يبد أي رد فعل. وبتركيز على نفسه، خرج في اليوم التالي باكراً جداً ولم يعد حتى منتصف الليل. ومضى الأسبوع كله على هذا النحو. وخلال الفترات القصيرة التي يمضيها في البيت وهو يدخن مستلقياً، كان يتجنب الحوار. وقد كبحت آنا تطلبها. ففي إحدى المرات، في بداية حياتهما المشتركة، تصرف داماسو بهذه الطريقة نفسها، ولم تكن في ذلك الحين تعرفه جيداً بحيث تمتنع عن التدخل. وبينما هو يمتطيها على السرير، ضربها داماسو إلى أن أدماها.

في هذه المرة انتظرت. وكانت تضع علبة السجائر في الليل إلى جانب المصباح، عارفة أنه قادر على تحمل الجوع والعطش، ولكنه لا يستطيع كبح حاجته إلى التدخين. وأخيراً، في منتصف تموز، عاد داماسو إلى الغرفة عند الغروب. شعرت آنا بالقلق، مفكرة في أنه لابد أن يكون مشوشاً جداً حين يأتي إليها في مثل هذا الوقت. تناولا الطعام دون أن يتكلما. ولكن داماسو كان مبهوراً وليناً قبل أن ينام.

- أريد الرحيل - قال بعفوية.

- إلى أين؟

- إلى أي مكان.

تفحصت آنا الغرفة. أغلفة المجلات التي قصتها هي نفسها وألصقتها على الجدران التي غدت مغطاة تماماً بصور ممثلي السينما، كانت قد بهتت وفقدت ألوانها. وكانت هي قد نسيت عدد الرجال الذين راحوا يغادرون على التوالي، لكثرة ما كانت تنظر إليهم من السرير، حاملين معهم تلك الألوان.

- لقد مللت مني - قالت.

- ليست هذه هي المسألة - قال داماسو - إنها هذه القرية.

- إنها قرية مثل غيرها من القرى.

- ليس بالإمكان بيع الكرات - قال داماسو.

- انس هذه الكرات - قالت آنا - ما دام الله يمنحني القوة على غسل الملابس، لن يكون عليك المجازفة. - ثم أضافت بعذوبة بعد توقف قصير -: لا أدري كيف خطر لك التورط في ذلك.

أنهى داماسو السيجارة قبل أن يتكلم.

- كان الأمر سهلاً جداً إلى حدّ لا أستطيع معه أن أفهم كيف لم يخطر ببال أحد سواي - قال.

- من أجل النقود - وافقته آنا - ولكن ما كان لأحد أن يكون غبياً إلى حد أخذ الكرات.

- فعلتُ ذلك دون تفكير - قال داماسو - خطرت لي الفكرة

عندما رأيتها وراء منضدة الكونتوار، في علبتها الصغيرة، وفكرت في أنني بذلت جهداً كبيراً ويجب ألا أعود خالي اليدين.

ـ ساعة النحس ـ قالت آنا.

أحس داماسو بالراحة.

ـ والكرات الجديدة لم تصل ـ قال ـ بعثوا يقولون إنها الآن أغلى ثمناً، ودون روكي يقول إن الأمر لم يعد مربحاً. ـ أشعل سيجارة أخرى، وبينما هو يتكلم أحس أن قلبه يتخلص من مادة قاتمة.

أخبرها أن صاحب الصالة قرر بيع منضدة البليardo. وهي لا تساوي مبلغاً كبيراً. فقماشها الممزق بسبب تهور اللاعبين المبتدئين، رُقع بمربعات مختلفة الألوان، ولابد من استبداله بالكامل. وفي هذه الأثناء، لم يعد لدى زبائن الصالة الذين هرموا حول منضدة البلياردو من تسلية أخرى سوى مباريات بطولة البيسبول.

ـ وباختصار ـ أنهى داماسو كلامه ـ دون أن نريد، ألحقنا الضرر بالقرية كلها.

ـ دون أي فائدة ـ قالت آنا.

ـ وفي الأسبوع القادم تنتهي بطولة البيسبول ـ قال داماسو.

ـ وليس هذا هو الأسوأ. فالأسوأ هو ما جرى للزنجي.

وبينما هي مستندة إلى كتفه، كما في الأزمنة الأولى، كانت تعرف فيم يفكر زوجها. انتظرت إلى أن أنهى السيجارة. ثم قالت بصوت حذر:

ـ داماسو.

ـ ماذا؟

ـ أعدها.

أشعل سيجارة أخرى.

ـ هذا ما أفكر فيه منذ أيام ـ قال ـ ولكن المشكلة في أنني لا أعرف كيف أفعل ذلك.

وهكذا قررا ترك الكرات في مكان عام. ثم فكرت آنا في

أن ذلك سيحل مشكلة صالة البلياردو، لكنه يُبقي مشكلة الزنجي معلقة. إذ يمكن للشرطة أن تفسر مسألة العثور بطرق عدة، دون أن تبرئه. ولم تستبعد كذلك إمكانية المجازفة بأن يعثر على الكرات شخص لا يعيدها وإنما يحتفظ بها للمساومة عليها. وانتهت إلى القول:

ـ بما أننا سنقوم بالعمل، فمن الأفضل القيام به على أحسن وجه.

نبشا عن الكرات. ولفتها آنا بأوراق صحف، وحرصت ألا تكشف اللفافة شكل محتوياتها، وخبأتها في صندوق الثياب.

ـ علينا انتظار فرصة مناسبة.

ولكن أسبوعين انقضيا في انتظار الفرصة المناسبة. وفي ليلة العشرين من آب ـ بعد شهرين من السرقة ـ وجد داماسو دون روكي جالساً خلف منضدة الكونتوار يهش البعوض بمروحة سعف يدوية. وكانت وحدته تبدو أشد زخماً مع المذياع المطفأ.

ـ لقد قلت لك من قبل ـ هتف دون روكي بشيء من البهجة لتحقق النبوءة ـ هذا المحل ذهب إلى الجحيم.

وضع داماسو قطعة نقدية في جهاز الفونوغراف الأوتوماتيكي. وبدا له أن صوت الموسيقى ونظام ألوان الجهاز دليل صارخ على وفائه. ولكنه أحس أن دون روكي لم يلاحظ ذلك. فقرّب كرسياً وحاول مواساته بحجج غائمة كان المالك يدحضها دون تأثر على إيقاع مروحته المتهاون. فهو يقول:

ـ ليس هناك ما يمكن عمله. فبطولة البيسبول لن تدوم مدى الحياة.

ـ ولكن الكرات قد تظهر.

ـ لن تظهر.

ـ لا يمكن أن يكون الزنجي قد أكلها.

ـ الشرطة بحثت في كل مكان ـ قال دون روكي بيقين يائس ـ لقد ألقى بها إلى النهر.

ـ قد تحدث معجزة.

ـ دعك من الأوهام يا بني ـ أجابه دون روكي ـ فالنكبات مثل الحلزون. هل تؤمن بالمعجزات؟

ـ أحياناً ـ قال داماسو.

حين غادر المحل لم يكن جمهور السينما قد خرج بعد. كانت الحوارات الطويلة والمتقطعة تدوي من مكبر الصوت في القرية المنطفئة. وفي البيوت التي ما زالت مفتوحة كان هناك شيء مؤقت. تسكع داماسو قليلاً في محيط السينما. ثم ذهب إلى صالة الرقص.

كانت الفرقة الموسيقية تعزف لزبون واحد يرقص مع امرأتين في الوقت نفسه. وكانت النساء الأخريات يجلسن باتزان بمحاذاة الجدار، كما لو أنهن ينتظرن رسالة. احتل داماسو إحدى الموائد، وأومأ إلى الساقي ليقدم له بيرة، وقد شربها من الزجاجة مباشرة مع توقفات قصيرة للتنفس وهو يراقب، كما من خلال زجاج، الرجل الذي يرقص مع المرأتين. وقد كان أقصر قامة منهما.

عند منتصف الليل جاءت النساء اللواتي كن في السينما، تتبعهن جماعة من الرجال. وصديقة داماسو التي كانت ضمن الجماعة انفصلت عن الآخرين وجلست إلى مائدته.

لم ينظر داماسو إليها. كان قد شرب نصف دزينة من زجاجات البيرة وهو لا يزال يركز بصره على الرجل الذي صار يرقص الآن مع ثلاث نساء، ولكن دون أن يوليهن اهتمامه، مستمتعاً بحركة قدميه البارعة. كان يبدو سعيداً، وبدا واضحاً أنه سيكون أكثر سعادة لو كان له ذيل إضافة إلى الساقين والذراعين.

ـ لا يروقني هذا الشخص ـ قال داماسو.

ـ لا تنظر إليه إذاً ـ قالت الفتاة.

طلبت شراباً من النادل. بدأت حلبة الرقص تمتلئ بأزواج الراقصين، ولكن رجل النساء الثلاث واصل الرقص كمن يشعر أنه وحيد في الصالة. وفي إحدى حركاته الدائرة واجه نظرة داماسو، فأبدى ديناميكية أكبر في رقصه، وكشف له في ابتسامته عن

أسنانه الأرنبية. احتفظ داماسو بنظرته دون أن يرمش إلى أن اتخذ الرجل مظهر الجد وأدار ظهره.

- يظن نفسه سعيداً جداً - قال داماسو.

- إنه سعيد جداً - قالت الفتاة - كلما جاء إلى القرية يحتكر الموسيقى لنفسه، مثل كل وكلاء المبيعات الرحالين.

أدار داماسو عينيه المنحرفتين باتجاهها.

- اذهبي معه إذاً، فحيث يأكل ثلاثة يمكن لأربعة أن يأكلوا.

ودون أن تجيب، أدارت وجهها نحو حلبة الرقص وهي تتناول شرابها في رشفات بطيئة. وكان ثوبها الأصفر الشاحب يزيد من إبراز خجلها.

رقصا المعزوفات التالية. وأخيراً، كان داماسو ممتلئاً بالغيظ.

- إنني أموت جوعاً - قالت الفتاة وهي تقوده من ذراعه باتجاه منضدة الكونتوار - وأنت أيضاً يجب أن تأكل. - وكان الرجل المرح آتياً من الاتجاه المعاكس مع النساء الثلاث.

- اسمع - قال له داماسو.

ابتسم له الرجل دون أن يتوقف. فأفلت داماسو نفسه من ذراع رفيقته واعترض سبيله.

- أسنانك لا تروقني.

شحب لون الرجل، لكنه واصل الابتسام.

- وأنا أيضاً - قال.

وقبل أن تتمكن الفتاة من منعه، وجه داماسو لكمة إلى وجه الرجل أوقعته جالساً في منتصف حلبة الرقص. لم يتدخل أي من الزبائن. وطوقت النساء الثلاث داماسو من خصره وهن يصرخن، بينما دفعته رفيقته إلى عمق الصالة. نهض الرجل بوجه مشوه من الضربة. وقفز مثل قرد في وسط الحلبة وصاح:

- فلتستمر الموسيقى.

في حوالي الثانية صارت الصالة شبه خالية، وبدأت النساء اللواتي لا زبائن لديهن تناول الطعام. كان الحر شديداً. أحضرت الفتاة إلى

المنضدة طبق رز مع فاصوليا ولحم مقلي، وأكلت كل ذلك بالملعقة. كان داماسو ينظر إليها بنوع من الخدر. قدمت إليه ملعقة من الرز.

ـ افتح فمك.

أسند داماسو ذقنه إلى صدره وهزّ رأسه.

ـ هذا للنساء ـ نحن الذكور لا نأكل.

كان عليه أن يسند يديه إلى المنضدة كي ينهض. وحين استعاد توازنه كان النادل يقف أمامه متقاطع الذراعين.

ـ الحساب تسعة بيزوات وثمانون سنتافو ـ قال ـ هذه الحفلة ليست للحكومة.

أزاحه داماسو جانباً.

ـ لا أحب المخنثين.

جذبه النادل من كمّه، لكنه بإشارة من الفتاة تركه يمر قائلاً له:

ـ أنت لا تعرف إذاً ما الذي تخسره.

خرج داماسو متعثراً. بريق النهر الملتبس تحت ضوء القمر فتح شرخ صحو في ذهنه. ولكنه انغلق فوراً. وحين رأى باب غرفته، في الجانب الآخر من القرية، أيقن أنه نام وهو يمشي. هزّ رأسه. وأدرك بصورة مشوشة، إنما مستعجلة، أن عليه منذ هذه اللحظة أن يراقب كل حركة من حركاته. دفع الباب بحذر ليحول دون صرير المفصلات.

أحست به آنا يفتش في صندوق الثياب. انقلبت باتجاه الجدار لتتجنب نور المصباح، لكنها انتبهت فوراً إلى أن زوجها لم يخلع ملابسه. وجعلتها ضربة صفاء ذهن مفاجئة تنهض جالسة في السرير. كان داماسو إلى جانب الصندوق، وبين يديه لفافة الكرات والمصباح اليدوي.

وضع سبابته على شفتيه.

قفزت آنا من السرير. «أنت مجنون» همست وهي تركض نحو الباب. وبحركة سريعة أغلقت الرتاج. وضع داماسو المصباح اليدوي في جيب بنطاله، إلى جانب السكين والمبرد الحاد، وتقدم منها وهو يشد على اللفافة تحت إبطه. أسندت آنا ظهرها إلى الباب.

ـ لن تخرج من هنا ما دمتُ حية ـ دمدمت.

حاول داماسو إزاحتها جانباً.

ـ ابتعدي ـ قال.

تشبثت آنا بإطار الباب بكلتا يديها. ونظر كل منهما في عيني الآخر دون أن يرمشا.

ـ أنت حمار ـ دمدمت آنا ـ ما منحك الله إياه في عينيك انتزعه من دماغك.

شدها داماسو من شعرها، ولوى معصمها، وأجبرها على أن تخفض رأسها، وقال وهو يكز على أسنانه:

ـ قلت لك ابتعدي.

نظرت إليه آنا مجانبة بعين مائلة مثل عين ثور تحت النير. أحست لحظة أنها عصية على الألم، وأنها أقوى من زوجها، لكنه واصل شد شعرها إلى أن خنقتها الدموع.

ـ ستقتل الصغير في بطني ـ قالت.

دفعها داماسو شبه محمولة إلى السرير. وعندما أحست أنها صارت طليقة، قفزت على ظهره وقيدته بساقيها وذراعيها، فسقطا معاً على السرير. كانا قد بدأا بفقدان قواهما من حبس أنفاسهما.

ـ سأصرخ ـ همست آنا في أذنه ـ إذا ما تحركت سأبدأ بالصراخ.

زفر داماسو غيظاً أصم وهو يضرب ركبتيها بلفافة الكرات. أطلقت آنا أنّة ألم وأرخت ساقيها، لكنها عادت تتشبث بخصره لتمنعه من الوصول إلى الباب. وعندئذ بدأت التوسل.

ـ أعدك أن آخذها غداً بنفسي ـ قالت ـ سأضعها دون أن ينتبه أحد.

كان داماسو يقترب أكثر فأكثر من الباب وهو يضربها على يديها بالكرات. فكانت تفلته للحظات ريثما يذهب الألم. ثم تمسك به بعد ذلك من جديد وتواصل التوسل.

ـ أستطيع القول إنني من فعلت ذلك ـ كانت تقول ـ وهم لن يزجوا بي في السجن وأنا في هذا الوضع.

تخلص داماسو منها.

ـ القرية بأسرها ستراك ـ قالت آنا ـ أنت غبي إلى حد لا تدرك معه أن القمر مضيء ـ وعادت تتشبث به قبل أن ينتهي من فتح الرتاج. عندئذ، وبعينين مغمضتين، ضربته على عنقه ووجهه وهي تصرخ تقريباً: «بهيمة، بهيمة». حاول داماسو تفادي الضربات، فتشبثت هي بالرتاج وانتزعته من يديه. سددت ضربة إلى رأسه. تفاداها داماسو، ودوى صوت الرتاج على عظم كتفه كصوت تحطم زجاج.

ـ عاهرة ـ صرخ.

لم يعد يعبأ في تلك اللحظة بعدم إحداث ضجة. ضربها على أذنها بظاهر قبضته، وسمعَ الأنة العميقة والارتطام الشديد لجسدها بالجدار، لكنه لم ينظر إليها. وخرج من الغرفة دون أن يغلق الباب.

ظلت آنا على الأرض، وقد شوشها الألم، وانتظرت حدوث شيء في بطنها. نودي عليها من الجانب الآخر للجدار بصوت بدا كأنه لشخص مدفون. عضت شفتيها كي لا تبكي. ثم نهضت وارتدت ثوبها. لم تفكر ـ مثلما لم تفكر في المرة الأولى ـ في أن داماسو مازال أمام الغرفة، يقول لها إن الخطة قد أخفقت، وينتظر أن تخرج مطلقة الصرخات. لكن آنا ارتكبت الخطأ نفسه للمرة الثانية: فبدلاً من أن تلحق بزوجها، راحت تلبس حذاءها، ثم أحكمت إغلاق الباب، وجلست على السرير تنتظر.

وعندما أغلقت الباب فقط، أدرك داماسو أنه لم يعد بمقدوره التراجع. لحقت به جلبة كلاب حتى نهاية الشارع، غير أن صمتاً شبحياً خيم بعد ذلك. تجنب الأرصفة محاولاً الهروب من وقع خطواته التي تدوي قوية وغريبة عنه في القرية الهاجعة. ولم يتخذ أي احتياط حذر قبل أن يصل إلى الأرض الخلاء قبالة الباب الخلفي لصالة البلياردو.

لم يكن بحاجة، هذه المرة، إلى استخدام المصباح اليدوي. كان الباب معززاً فقط في موضع الرَّزّة المنتهكة. كانوا قد انتزعوا قطعة من الخشب لها حجم آجرة وشكلها، واستبدلوها بقطعة خشب

جديدة، وأعادوا الـرّزة نفسها. وما سوى ذلك بقي على حاله. شدّ داماسو القفل بيده اليسرى وأدخل رأس المبرد في جذر الرَّزرة التي لم تُقوّى، ثم حرك المبرد عدة مرات كذراع تبديل سرعة السيارة، بقوة ولكن دون عنف، إلى أن استجاب الخشب بأنين فرقعة تفتت شظايا متعفنة. وقبل أن يدفع الباب، رفع قليلاً درفته غير المستوية ليخفف من احتكاكها ببلاط الأرضية. فتحه مواربة. وأخيراً خلع حذاءه، ووضعه بخفة في الداخل مع لفافة الكرات، ودخل وهو يرسم إشارة الصليب إلى الصالة المفعمة بضوء القمر.

كان هناك في البعد الأول ممر مظلم ومترع بزجاجات وصناديق فارغة. وإلى الأمام، تحت دفقة من ضوء القمر تدخل من كوة السقف الزجاجية، كانت منضدة البلياردو، ثم ظهر الخزائن، وأخيراً الموائد الصغيرة والكراسي الموضوعة خلف باب المدخل الرئيسي. كل شيء كان كما في المرة الأولى، باستثناء دفقة ضوء القمر وصفاء الصمت. وداماسو الذي استطاع حتى الآن تجاوز توتر الأعصاب، أحس بافتتان غريب.

لم يبالِ هذه المرة بقطع الآجر المفلتة. أسند الباب بحذائه، وبعد أن اجتاز دفقة ضوء القمر أشعل المصباح اليدوي ليبحث عن صندوق الكرات وراء منضدة الكونتوار. كان يتصرف دون حذر. وبينما هو يحرك المصباح من اليسار إلى اليمين، رأى كومة من الأواني الزجاجية المغطاة بالغبار، وركابين مع مهمازين لكل منهما، وقميصاً ملفوفاً ومتسخاً بزيت المحركات، ثم صندوق الكرات الصغير في المكان نفسه الذي تركه فيه. لكنه لم يوقف حزمة ضوء المصباح حتى نهاية منضدة الكونتوار. وهناك كان الهر.

نظر إليه الحيوان دون التباس من خلال حزمة النور. واصل داماسو توجيه بؤرة الضوء إليه إلى أن تذكر بارتعاشة خفيفة أنه لم يره في الصالة قط خلال النهار. حرك المصباح إلى الأمام قائلاً: «هش»، لكن الحيوان ظل في مكانه دون مبالاة. عندئذ كان هناك

نوع من الدوي الصامت في رأسه، وتلاشى الهر تماماً من ذاكرته. وعندما أدرك ما الذي يحدث، كان قد أفلت المصباح اليدوي، وكان يشد لفافة الكرات إلى صدره. وكانت الصالة قد أضيئت.

ـ إيبا!

تعرف إلى صوت دون روكي. انتصب ببطء وهو يشعر بإنهاك رهيب في كُليته. تقدم دون روكي من عمق الصالة، بسروال داخلي وفي يده قضيب حديدي، وهو لا يزال منبهراً من الضوء. كانت هناك أرجوحة نوم معلقة خلف الزجاجات والصناديق الفارغة، قريباً جداً من المكان الذي مرّ منه داماسو عند دخوله. وكان هذا مختلفاً أيضاً عن المرة الأولى.

وعندما صار على بعد أقل من عشرة أمتار، قفز دون روكي متخذاً وضعية التأهب. خبأ داماسو يده التي تحمل اللفافة. فرك دون روكي أنفه وهو يقرّب رأسه ليتعرف إليه من دون النظارة.

ـ يا فتى! ـ هتف.

أحس داماسو كما لو أن شيئاً لا نهائياً قد انتهى أخيراً. أخفض دون روكي القضيب الحديدي واقترب فاغر الفم. بدا كأنه امرأة وهو بلا نظارته وأسنانه الاصطناعية.

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ لا شيء ـ قال داماسو.

غيّر وضعه بحركة تكاد لا تُلحظ من جسمه.

ـ ما الذي تحمله؟ ـ سأله دون روكي.

تراجع داماسو.

ـ لا شيء ـ قال.

احمر وجه دون روكي وبدأ يرتجف.

ـ ما الذي تحمله معك ـ صرخ متقدماً خطوة وهو يرفع القضيب الحديدي. أعطاه داماسو اللفافة. تناولها دون روكي بيده اليسرى دون أن يهمل تأهبه، وتفحصها بأصابعه. وعندئذ فقط فهم الأمر.

ـ غير ممكن ـ قال.

كان حائراً إلى حد أنه وضع القضيب الحديدي على منضدة الكونتوار، وبدا كما لو أنه نسي داماسو وهو يفتح اللفافة. تأمل الكرات بصمت.

ـ جئت لأعيدها إلى مكانها ـ قال داماسو.

ـ طبعاً ـ قال دون روكي.

كان داماسو شاحباً. وكانت سكرة الكحول قد فارقته تماماً، ولم يبق منها سوى ترسبات ترابية على لسانه وإحساس مشوش بالوحدة.

ـ هذه هي المعجزة إذاً ـ قال دون روكي وهو يغلق اللفافة، وأضاف ـ: لا أستطيع أن أصدق أنك غبي إلى هذا الحد. ـ وعندما رفع رأسه كانت ملامحه قد تبدلت.

ـ والمئتا بيزو؟

ـ لم يكن هنا شيء في الدرج ـ قال داماسو.

نظر إليه دون روكي ساهماً، وهو يمضغ الفراغ، ثم ابتسم.

ـ لم يكن هناك شيء ـ وكررها عدة مرات ـ هكذا إذاً، لم يكن هناك شيء. ـ وأمسك القضيب الحديدي من جديد قائلاً:

ـ سنذهب الآن فوراً لنروي هذه القصة للعمدة.

مسح داماسو ببنطاله عرق يديه.

ـ أنت تعرف أنه لم يكن هناك شيء.

واصل دون روكي الابتسام.

ـ كان هناك مئتا بيزو ـ قال ـ وهم سينتزعونها الآن من جلدك، ليس لأنك لص وإنما لأنك غبي.

أمسية بالتازار العجيبة

La prodigiosa tarde de Baltazar

(1962)

كان صنع القفص ناجزاً. وعلقه بالتازار، بحكم العادة، على الإفريز، وعندما انتهى من تناول الغداء، كان الجميع قد بدؤوا يقولون في كل مكان إنه أجمل قفص في العالم. توافد أناس كثيرون لرؤيته، حتى اجتمع حشد صاخب قبالة البيت، فاضطر بالتازار إلى إنزال القفص وإغلاق مشغل النجارة.

ـ عليك أن تحلق ذقنك – قالت له زوجته أورسولا – فأنت تبدو مثل راهب كَبُّوشي.

ـ من السيئ الحلاقة بعد الغداء ـ قال بالتازار.

كانت له لحية لم تُحلق منذ أسبوعين، شعر قصير، قاسٍ ومنتصب كعُرف بغل، ومظهر عام كمظهر صبي خائف. إلا أنه كان ملمحاً زائفاً. فقد بلغ الثلاثين في شهر شباط، وهو يعيش مع أورسولا منذ حوالي أربع سنوات، دون زواج ودون إنجاب أبناء، وقد منحته الحياة أسباباً كثيرة ليكون متيقظاً، ولكنها لم تقدم له سبباً واحداً ليكون خائفاً. بل إنه لم يكن يعلم أن القفص الذي انتهى من صنعه لتوه، هو في نظر البعض أجمل قفص في العالم. أما هو الذي اعتاد على صنع الأقفاص مذ كان طفلاً، فلم يتعدَّ صنع ذلك القفص أن يكون عملاً أكثر مشقّة من الأقفاص الأخرى.

ـ استرح قليلاً إذاً – قالت المرأة – فبهذه اللحية لا يمكنك الذهاب إلى أي مكان.

وبينما هو يستريح، اضطر إلى مغادرة أرجوحة النوم عدة مرات ليعرض القفص على جيرانه. ولم تكن أورسولا قد أعارت القفص

اهتماماً حتى ذلك الحين. فقد كانت متضايقة لأن زوجها أهمل عمله في ورشة النجارة لينهمك تماماً في صنع القفص. وكان نومه سيئاً طوال أسبوعين، يتقلب خلاله ويغمغم ببلاهات، ولم يعد يفكر في حلاقة ذقنه. لكن استياءها تبدد أمام القفص الناجز. وعندما استيقظ بالتازار من قيلولته، كانت قد كوت بنطاله وقميصه، ووضعتهما على مقعد بجانب أرجوحة النوم، وحملت القفص إلى منضدة غرفة الطعام. نظرت إليه بصمت.

ـ كم ستطلب ثمناً له؟ – سألته.

ـ لستُ أدري – أجاب بالتازار – سأطلب ثلاثين بيزو لأرى إذا ما كانوا يعطونني عشرين.

ـ اطلب خمسين – قالت أورسولا – فقد سهرتَ كثيراً خلال هذه الأيام الخمسة عشر. أضف إلى ذلك أنه كبير جداً. أظن أنه أكبر قفص رأيته في حياتي.

بدأ بالتازار حلاقة ذقنه.

ـ أتعتقدين أنهم سيعطونني الخمسين بيزو؟

ـ هذا مبلغ تافه عند دون تشبي مونتييل، والقفص يستحقه ـ قالت أورسولا ـ. عليك أن تطلب ستين.

كان البيت يهجع في الظل الخانق. فقد كان ذلك هو الأسبوع الأول من نيسان، وبدا الحر أقل احتمالاً بسبب صرير الزيزان. عندما فرغ بالتازار من ارتداء ثيابه، فتح باب الفناء لتبريد البيت، فدخل جمع من الأطفال إلى غرفة الطعام.

كان الخبر قد انتشر. وكان الدكتور أوكتابيو خيرالدو، وهو طبيب عجوز، سعيد بحياته ولكنه ضجر من مهنته، يفكر في قفص بالتازار بينما هو يتناول الغداء مع زوجته المقعدة. وكانت هناك على الشرفة الداخلية، حيث يضعان المائدة في أيام الحر، أصص أزهار كثيرة وقفصان فيهما طيور كناري.

كانت زوجته تحب الطيور، وتحبها إلى حدٍ تكره معه الهررة

لأنها لا تتورع عن أكلها. وبينما هو يفكر فيها، ذهب الدكتور خيرالدو في ذلك المساء لعيادة أحد مرضاه، ولدى عودته مرّ بمنزل بالتازار لرؤية القفص.

كان هناك أناس كثيرون في غرفة الطعام. وعلى المائدة كانت تُعرض قبة الأسلاك الضخمة، ذات الطبقات الداخلية الثلاث، المزودة بممرات وأقسام مخصصة للأكل والنوم مع عوارض في الحيز المخصص لاستراحة الطيور، فكان القفص يبدو أشبه بنموذج مصغر لمصنع جليد هائل. تفحصه الطبيب باهتمام، دون أن يلمسه، مفكراً في أن القفص يفوق بالفعل شهرته، وأنه أجمل بكثير مما كان يحلم به لزوجته.

ـ هذا القفص هو إحدى مغامرات المخيلة – قال ذلك وهو يبحث عن بالتازار بين الجمع، ثم أضاف وهو يثبت عليه عينيه الأموميتين:ـ كان يمكن لك أن تكون مهندساً استثنائياً.

احمر وجه بالتازار خجلاً، وقال:

ـ شكراً.

ـ إنها الحقيقة – قال الطبيب. وهو ذو بدانة ملساء ولينة مثل امرأة كانت جميلة في شبابها، ويدين حساستين. وبدا صوته أشبه بصوت قس يتكلم – لن تكون ثمة حاجة إلى وضع الطيور فيه – قال ذلك وهو يدّور القفص أمام أعين الجمهور، كأنه يعرضه للبيع – يكفي تعليقه بين الأشجار حتى يغرد وحده – ثم أعاده إلى المنضدة، وفكر هنيهة، وهو ينظر إلى القفص، وقال:

ـ حسن، سآخذه.

ـ إنه مبيع ـ قالت أورسولا.

ـ إنه لابن السيد تشبي مونتييل ـ قال بالتازار ـ لقد أوصى على صنعه.

فاتخذ الطبيب موقفاً وقوراً.

ـ هل قدم لك التصميم؟

ـ لا. ـ قال بالتازار ـ ولكنه قال إنه يريد قفصاً كبيراً، مثل هذا، من أجل زوج من الببغاوات الصفراء.

فنظر الطبيب إلى القفص:

ـ ولكن هذا القفص ليس للببغاوات الصفراء.

ـ بل هو كذلك بالطبع يا دكتور - قال بالتازار وهو يقترب من المنضدة. وأحاط به الأطفال. ثم قال مشيراً بإصبعه السبابة إلى مختلف الأجزاء: ـ المقاييس محسوبة جيداً - وضرب بمفاصل أصابعه، فامتلأ القفص بأنغام عميقة، وقال:

ـ إنه أمتن سلك يمكن العثور عليه، وكل اتصال فيه ملحوم من الداخل والخارج.

ـ إنه ينفع حتى لببغاء عادية ـ تدخل أحد الأطفال.

ـ وهو كذلك. - قال بالتازار.

هز الطبيب رأسه، وقال:

ـ حسن، ولكنه لم يعطك النموذج. لم يوصِك على أي شيء محدد، اللهم إلا أنه يريد قفصاً كبيراً لببغاوات صفراء. أليس كذلك؟

ـ أجل - قال بالتازار.

ـ ليست هناك مشكلة إذاً - قال الطبيب - فقفص كبير للببغاوات الصفراء هو شيء، وهذا القفص تحديداً شيء آخر. ليس هناك أدلة على أنهم أوصوك على صنع هذا القفص بالذات.

ـ بل هو هذا القفص بالذات - قال بالتازار مبهوراً - ولهذا السبب صنعته.

فأومأ الطبيب إيماءة نفاد صبر.

ـ يمكنك أن تصنع قفصاً آخر - قالت أورسولا ذلك وهي تنظر إلى زوجها. ثم وهي تنظر إلى الطبيب بعد ذلك: ـ وحضرتك لستَ على عجل.

ـ وعدتُ زوجتي به هذا المساء ـ قال الطبيب.

ـ متأسف جداً يا دكتور - قال بالتازار - فمن غير الممكن بيع شيء مبيع.

هز الطبيب كتفيه. وتأمل القفص صامتاً وهو يمسح العرق عن عنقه بمنديله، دون أن يحوّل نظرته عن نقطة غير محددة، كمن ينظر إلى سفينة تمضي.

- كم دفعوا لك مقابله؟

بحث بالتازار عن عيني أورسولا دون أن يجيب.

- ستون بيزو - قالت.

واصل الطبيب النظر إلى القفص. وتنهد:

- إنه جميل جداً، جميل إلى أقصى حد.

ثم تحرك بعد ذلك باتجاه الباب، وأخذ يروِّح بمروحة يدوية بنشاط، مبتسماً، وتلاشت ذكرى تلك الحادثة من ذاكرته إلى الأبد.

- مونتييل غني جداً - قال.

لم يكن خوسيه مونتييل غنياً في الحقيقة مثلما يبدو، ولكنه ما كان يتورع عن عمل أي شيء ليتوصل إلى ذلك. فعلى بعد عدة كوادرات من هناك، في بيت مترع بسروج الخيل، حيث لم تُشم قط رائحة شيء لا يمكن أن يباع، بقي غير مكترث بأخبار القفص. وكانت زوجته، المعذبة بهواجس الموت، قد أغلقت الأبواب والنوافذ بعد الغداء، واضطجعت ساعتين وعيناها مفتوحتان على عتمة الغرفة، بينما كان خوسيه مونتييل ينام القيلولة. وهكذا فاجأتها جلبة أصوات كثيرة. عندئذ فتحت باب الصالة ورأت حشداً أمام البيت، ورأت بالتازار ومعه القفص وسط الحشد، مرتدياً ثياباً بيضاء وبذقن حُلقت للتو، وتبدو عليه ملامح البراءة الوقورة التي يأتي بها الفقراء إلى بيوت الأغنياء.

- يا له من عمل بديع! - هتفت زوجة خوسيه مونتييل بملامح مشرقة وهي تقود بالتازار إلى الداخل - لم أرَ في حياتي شيئاً مماثلاً - قالت ذلك، ثم أضافت متضايقة من الحشد المجتمع عند الباب: - أدخله إلى الداخل وإلا فإنهم سيحولون الصالون إلى ميدان صراع ديكة.

لم يكن بالتازار غريباً في منزل خوسيه مونتييل. فقد استدعي في مناسبات مختلفة، لكفاءته وحسن أدائه، من أجل القيام ببعض

أعمال النجارة الصغيرة. ولكنه لم يشعر قط بأنه على ما يرام وهو بين الأغنياء. فقد اعتاد على التفكير فيهم، وفي زوجاتهم القبيحات المحبات للاختلاف، وفي عملياتهم الجراحية الفظيعة، فيخالطه على الدوام شعور بالإشفاق عليهم. وعندما يدخل بيوتهم، لا يستطيع أن يتحرك دون جرجرة قدميه.

ـ هل بيبي موجود؟ – سألها.

وكان قد وضع القفص على منضدة غرفة الطعام.

ـ إنه في المدرسة ـ قالت زوجة خوسيه مونتييل – ولكنه لن يتأخر في المجيء – ثم أضافت:ـ ومونتييل يستحم.

الحقيقة أن خوسيه مونتييل لم يجد الوقت الكافي للاستحمام. فكان يمسح جسده بالكحول الممزوج بالكافور لكي يخرج ويرى ما الذي يحدث. فهو رجل شديد الحذر إلى حدّ ينام معه دون مروحة كهربائية، ليتمكن وهو نائم من رصد الهمسات في بيته.

ـ تعال وانظر هذا الشيء البديع – صاحت امرأته.

أطل خوسيه مونتييل – ضخماً وكث الشعر، يعلق منشفة على عنقه – من نافذة غرفة النوم.

ـ ما هذا؟

ـ إنه قفص بيبي ـ قال بالتازار.

نظرت إليه المرأة مرتبكة:

ـ قفص من؟

ـ قفص بيبي ـ أكد بالتازار. ثم قال متوجهاً إلى خوسيه مونتييل:

ـ لقد أوصاني بيبي على صنعه.

لم يحدث أي شيء في تلك اللحظة، لكن بالتازار أحس كما لو أنهم فتحوا عليه باب الحمام. خرج خوسيه مونتييل من غرفة النوم بالسروال الداخلي. وصرخ:

ـ بيبي!

ـ لم يأت بعد ـ همست زوجته وهي جامدة.

ظهر بيبي في فراغ الباب. كان في حوالي الثانية عشرة وله الرموش المقوسة والهدوء المؤثر الذي لأمه.

ـ تعال هنا – قال له خوسيه مونتييل – هل أوصيت على صنع هذا القفص؟

أخفض الطفل رأسه. فأمسكه خوسيه مونتييل من شعره، وأرغمه على النظر إلى عينيه.

ـ أجب.

عض الطفل شفتيه دون أن يجيب.

ـ مونتييل ـ همست زوجته.

أفلت خوسيه مونتييل الطفل والتفت إلى بالتازار بملامح هائجة، وقال له:

ـ آسف جداً يا بالتازار. ولكن، كان عليك أن تستشيرني قبل أن تتصرف. أنت وحدك من يخطر له الاتفاق مع قاصر. ـ وكلما تكلم كان وجهه يستعيد الهدوء. ثم رفع القفص دون أن ينظر إليه وأعطاه لبالتازار قائلاً: ـ خذه فوراً وحاول أن تبيعه لمن تستطيع. وأرجوك قبل كل شيء ألا تجادلني ـ ثم ربت على ظهره، وأوضح: ـ لقد منعني الطبيب من الغضب.

ظل الطفل في أثناء ذلك جامداً دون حراك، ودون أن يرمش، إلى أن نظر إليه بالتازار حائراً والقفص في يده. عندئذ أصدر الطفل صوتاً حلقياً كأنه همهمة كلب، وألقى بنفسه على الأرض مطلقاً الصراخ.

نظر إليه خوسيه مونتييل دون تأثر، بينما حاولت الأم تهدئته.

ـ لا تُنهضيه. ـ قال لها ـ دعيه يشج رأسه على الأرض ثم ضعي له عليه ملحاً وليموناً لكي يغضب على هواه.

كان الطفل يصرخ دون دموع، بينما أمه تمسكه من معصميه.

ـ اتركيه ـ ألح عليها خوسيه مونتييل.

راقب بالتازار الطفل كما لو كان يراقب احتضار حيوان مُعدٍ. وكانت الساعة قرابة الرابعة.

في تلك الساعة كانت أورسولا، في بيته، تغني أغنية قديمة جداً بينما هي تقطع شرائح من البصل.

- بيبي - قال بالتازار.

واقترب من الطفل باسماً، وقدّم له القفص. نهض الطفل قافزاً، احتضن القفص الذي كان كبيراً بمثل حجم الطفل تقريباً، وظل ينظر إلى بالتازار من خلال نسيج الأسلاك المعدنية، دون أن يدري ما عليه أن يقوله. لم يكن قد ذرف دمعة واحدة.

قال خوسيه مونتييل بنعومة:

- لقد طلبت منك أن تأخذه يا بالتازار.

- أعده إليه - أمرت المرأة الطفل.

- احتفظ به - قال بالتازار. ثم توجه إلى خوسيه مونتييل - من أجل هذا صنعته في نهاية المطاف.

تابعه خوسيه مونتييل حتى الصالة.

- لا تكن أحمق يا بالتازار - قال معترضاً سبيله - خذ قفصك إلى بيتك ولا تقم بمزيد من الحماقات. فأنا لا أفكر في أن أدفع لك سنتيماً واحداً.

- ليس مهماً - قال بالتازار - لقد صنعته لكي أهديه إلى بيبي تحديداً. ولم أكن أفكر في تقاضي أي شيء.

عندما شق بالتازار طريقه عبر الفضوليين الذين يسدّون الباب، كان خوسيه مونتييل يطلق الصرخات في منتصف الصالون. كان شاحباً جداً وقد بدأت عيناه بالاحمرار.

- أحمق - راح يصرخ - خذ غرضك هذا. ما كان ينقصني هو أن يأتي شخص تافه ليصدر الأوامر في بيتي. يا للعنة!

استقبلوا بالتازار في صالة البلياردو بالتهليل. كان يفكر حتى تلك اللحظة في أنه صنع قفصاً أفضل من أي قفص آخر، وأنه كان عليه أن يهديه إلى ابن خوسيه مونتييل كيلا يواصل البكاء، وأنه ليس في كل ذلك أي شيء استثنائي.

لكنه انتبه بعد قليل إلى أن ذلك كله له بعض الأهمية في نظر أناس كثيرين، فأحس بشيء من الانفعال.

ـ لقد أعطوك إذاً خمسين بيزو مقابل القفص.

ـ بل ستين ـ قال بالتازار.

ـ يجب رسم علامة في السماء ـ قال أحدهم ـ. فأنت الوحيد الذي تمكن من الحصول على مثل هذا المبلغ الكبير من المال من دون تشيبي مونتييل. يجب الاحتفال بذلك.

قدموا إليه زجاجة بيرة، وردّ بالتازار بجولة شراب للجميع. ولأنها المرة الأولى التي يشرب فيها، فقد سكر تماماً عند الغروب، وراح يتكلم عن مشروع خرافي لصنع ألف قفص كل واحد منها بستين بيزو، ثم عن صنع مليون قفص ليجني منها ستين مليون بيزو.

ـ يجب صنع أشياء كثيرة لبيعها إلى الأغنياء قبل أن يموتوا ـ قال وقد أعماه السكر ـ. فجميعهم مرضى وسيموتون. وبما انهم معتلون فإنهم عاجزون حتى عن الغضب.

وعلى امتداد ساعتين ظل جهاز الموسيقى يدور دون توقف على حسابه. الجميع شربوا نخب بالتازار، ونخب حظه السعيد وثروته، ونخب موت الأغنياء، ولكنهم تركوه وحيداً عندما حان موعد العشاء.

انتظرته أورسولا حتى الساعة الثامنة، وقد أعدت له طبقاً من اللحم المقلي المغطى بشرائح البصل. قال لها أحدهم إن زوجها في صالة البيلياردو، مجنون من السعادة، يقدم البيرة إلى الجميع، ولكنها لم تصدقه لأن بالتازار لم يسكر قط. وعندما استلقت للنوم عند منتصف الليل تقريباً، كان بالتازار في صالة مضاءة، حيث توجد موائد صغيرة، حول كل واحدة منها أربعة كراسٍ، وكانت هناك حلبة رقص في الهواء الطلق، تجول فيها طيور الكروان. كان وجهه ملطخاً بأحمر الشفاه، ولأنه لم يكن قادراً على أن يخطو خطوة أخرى، فقد راح يفكر في أنه يريد النوم مع امرأتين في سرير

واحد. كان قد أنفق كثيراً حتى اضطر إلى رهن ساعته، مع الوعد بالدفع في اليوم التالي. وبعد قليل من ذلك، بينما هو فاقد الوعي في الشارع، انتبه إلى أن هناك من ينتزع منه حذاءه، ولكنه لم يشأ أن يغادر أسعد حلم في حياته. أما النساء اللواتي مررن في طريقهن إلى قداس الساعة الخامسة، فلم يجرؤن على النظر إليه، ظناً منهن أنه ميت.

أرملة مونتييل

La viuda de Montiel

(1962)

حين مات خوسيه مونتييل، أحس الجميع بأنهم قد ثأروا لأنفسهم، باستثناء أرملته؛ غير أن الأمر تطلب عدة ساعات كي يصدق الجميع أنه مات حقاً. وظل الشك يخامر كثيرين بعد رؤية الجثة المسجاة، محشورة بين وسائد وملاءات كتانية في تابوت أصفر مدبب الطرفين كأنه ثمرة شمام. كانت ذقنه حليقة تماماً، وكان يرتدي بدلة بيضاء، وينتعل جزمة من جلد لامع، وكان وجهه في حالة جيدة لم يبدُ معها أنه كان أكثر حياة في أي وقت مما هو عليه في تلك اللحظة. إنه دون تشيبي مونتييل أيام الآحاد نفسه، عندما كان يستمع إلى قداس الثامنة، باستثناء أنه كان يمسك بيديه صليباً بدل مقرعة الحصان. وكان لا بد من تثبيت غطاء التابوت بالبراغي، وإدخاله في كوة في المدفن العائلي الفاخر، كي تقتنع القرية بأسرها أنه لم يكن يتظاهر بالموت.

وبعد الدفن، كان الشيء الوحيد الذي بدا غير قابل للتصديق في نظر الجميع، باستثناء أرملته، هو أن خوسيه مونتييل قد مات ميتة طبيعية. فبينما كان الجميع ينتظرون أن تُطلق عليه النار من الخلف في كمين مدبر، كانت أرملته واثقة من أنها ستراه يموت عجوزاً في سريره، بعد اعتراف هادئ ودون احتضار، مثل قديس حديث. وقد أخطأت في بعض التفاصيل فقط. إذ مات خوسيه مونتييل في أرجوحة نومه، وليس في السرير، وحدث ذلك في يوم أربعاء، الساعة الثانية بعد الظهر، نتيجة الغضب الذي كان الطبيب قد حظره عليه. لكن زوجته كانت تنتظر أيضاً أن تحضر القرية كلها الجنازة، وأن البيت

لن يتسع للأزهار الكثيرة. ومع ذلك، لم يحضر سوى محازبيه وممثلي الجمعيات الدينية، ولم تصل أكاليل زهور سوى تلك المقدمة من الإدارة المحلية. أما ابنه ـ من منصبه القنصلي في ألمانيا ـ وابنتاه من باريس، فأرسلوا برقيات من ثلاث صفحات. وكان واضحاً أنهم كتبوها وهم واقفون، بالحبر الدنيوي المتوافر في مكاتب البريد، وأنهم مزقوا الكثير من استمارات البرقيات قبل أن يجدوا كلمات بعشرين دولاراً. ولم يَعِد أيٌ منهم بأنه سيعود. وبينما كانت أرملة مونتييل، وهي في الثانية والستين، تبكي في تلك الليلة، ووجهها على الوسادة التي كان يستند إليها رأس الرجل الذي جعلها سعيدة، عرفت أول مرة طعم الضغينة. «سأظل حبيسة المنزل إلى الأبد ـ فكرت ـ فالأمر بالنسبة لي كما لو أنهم وضعوني في الصندوق نفسه الذي وُضع فيه خوسيه مونتييل. لا أريد أن أعرف أي شيء عن هذا العالم.

تلك المرأة الهشة، المعذبة بالتطير، والتي تزوجت في العشرين، بمشيئة أبويها، من طالب يدها الوحيد الذي سمحوا لها أن تراه عن بُعد أقل من عشرة أمتار، لم تكن في أي يوم على صلة مباشرة بالواقع. وبعد ثلاثة أيام من إخراجهم جثة زوجها من البيت، أدركت من خلال الدموع أنه لا بد لها من عمل شيء، لكنها لم تستطع العثور على وجهة لحياتها الجديدة. كان لا بد لها من أن تبدأ من البداية.

من الأسرار غير المحدودة التي حملها خوسيه مونتييل معه إلى القبر، كانت هناك الأرقام السرية لصندوق الخزنة. وقد تولى العمدة حلّ هذه المشكلة. أمر بنقل صندوق الخزنة إلى الفناء، وإسناده إلى الجدار، وبدأ رجلا شرطة إطلاق نيران بندقيتيهما على القفل. وطوال الصباح، سمعت الأرملة من غرفة نومها دوي الرصاص المكتوم وصرخات الأوامر المتوالية يصدرها العمدة. «هذا آخر ما كان ينقصني ــ فكرت ــ خمس سنوات وأنا أتوسل إلى الرب أن ينتهي إطلاق الرصاص، وعليّ الآن أن أكون ممتنة لأنهم يطلقون النار في بيتي». بذلت في ذلك اليوم جهداً في التركيز، مستدعية الموت، ولكن أحداً

لم يستجب لها. وكانت قد بدأت تغفو عندما هزّ انفجار هائل أسس البيت. فقد اضطروا إلى تفجير صندوق الخزانة بالديناميت.

أطلقت أرملة مونتييل تهيدة. كان تشرين الأول قد صار سرمدياً بأمطاره المستنقعية، وكانت تشعر بالضياع، وبأنها تبحر دون وجهة محددة في أملاك خوسيه مونتييل الخرافية والمختلطة. كان السيد كارميتشيل، العامل القديم والدؤوب في خدمة الأسرة، قد تولى إدارة الممتلكات. وعندما واجهت أخيراً الواقع الملموس بأن زوجها قد مات، خرجت أرملة مونتييل من غرفة نومها لتتولى شؤون البيت. جردته من كل زينة، وأمرت بتغليف الأثاث بألوان الحداد، ووضعت أشرطة مأتمية على صور الميت المعلقة على الجدران. وكانت خلال شهرين من حبس نفسها قد اكتسبت عادة قضم أظفارها. وفي أحد الأيام - وعيناها محمرتان ومنتفختان من كثرة البكاء - انتبهت إلى أن السيد كارميتشيل يدخل إلى البيت ومظلته مفتوحة.

- أغلق هذه المظلة يا سيد كارميتشيل - قالت له -. بعد كل النعم التي لدينا، لم يعد ينقصنا إلا أن تدخل البيت ومظلتك مفتوحة.

وضع السيد كارميتشيل المظلة في الركن. كان زنجياً عجوزاً ذا بشرة لامعة، يرتدي الأبيض، مع شقوق صغيرة في الحذاء أحدثها بسكين ليخفف من الضغط على ثآليل قدميه.

- إنني أبقيها مفتوحة ريثما تجف فقط.

فتحت الأرملة النافذة أول مرة منذ وفاة زوجها.

- نكبات كثيرة، وفوقها يأتي هذا الشتاء - دمدمت وهي تقضم أظفارها -. يبدو أن المطر لن ينقطع أبداً.

- لن يتوقف هطول المطر اليوم ولا غداً - قال المشرف على إدارة الممتلكات - الليلة الماضية لم تمكنني آلام الثآليل من النوم.

كانت تثق بالتنبوءات الجوية لثآليل قدمي السيد كارميتشيل. تأملت الساحة العامة الصغيرة المقفرة، والبيوت الصامتة التي لم تتفتح أبوابها لرؤية جنازة خوسيه مونتييل، وأحست عندئذ باليأس من

أظفارها، ومن أراضيها غير المحدودة، ومن التزامات لا حصر لها ورثتها عن زوجها ولن تتوصل أبداً إلى فهمها.

ـ العالم سيء التكوين ـ قالت منتحبة.

من زاروها في تلك الأيام توافرت لهم مسوغات للاعتقاد بأنها قد فقدت عقلها. لكنها لم تكن أكثر صفاء ذهن مما كانت عليه آنذاك. فمنذ ما قبل بدء المجزرة السياسية، كانت تُمضي صباحات تشرين الكئيبة أمام نافذة غرفتها، محزونة على الموتى ومفكرة في أن الرب لو لم يسترح يوم الأحد لكان لديه الوقت لاستكمال العالم.

ـ كان عليه أن يستغل ذلك اليوم كي لا تبقى أشياء كثيرة سيئة التكوين ــ اعتادت أن تقول ــ. وكانت ستبقى لديه، في نهاية المطاف، الأبدية كلها ليستريح.

والاختلاف الوحيد بعد موت زوجها هو أنه صار لديها حينذاك سبب محدد لتصور أفكار قاتمة.

وهكذا، بينما أرملة مونتييل تُستنفد في اليأس، كان السيد كارميتشيل يحاول الحيلولة دون الغرق. لم تكن الأمور تمضي على ما يرام. وبالتحرر من تهديد خوسيه مونتييل الذي كان يحتكر التجارة المحلية بالإرهاب، بدأت القرية بممارسة عقوبات انتقامية. فبانتظار زبائن لا يأتون، صار الحليب يفسد في الدنان المصفوفة في الفناء، وتخمر العسل في زقاقه، وتزايدت سمنة الديدان في الجبن المخزون في خزائن مستودع المظلمة. وكان خوسيه مونتييل في ضريحه المزين بمصابيح كهربائية وبملائكة مقلدة من الرخام يدفع ثمن ست سنوات من الاغتيالات وأعمال العنف الوحشية. لم يكن هناك في تاريخ البلاد من أثرى في مثل ذلك الوقت القصير. فعندما وصل إلى المدينة أول عمدة أرسلته الديكتاتورية، كان خوسيه مونتييل نصيراً متكتماً لكل الأنظمة، أمضى نصف حياته جالساً بسرواله الداخلي عند بوابة مقشرة الأرز. وكان قد تمتع في أحد الأوقات بشيء من سمعة أنه شخص محظوظ ومؤمن طيب، لأنه وعد بصوت عالٍ أن يهدي إلى الكنيسة

تمثالاً للقديس يوسف بالحجم الطبيعي إذا ما كسب اليانصيب، وبعد أسبوعين من ذلك كسب ست قسائم ونفذ ما وعد به. وكانت أول مرة شوهد فيها يستعمل حذاء هي عند مجيء العمدة الجديد، وهو رقيب شرطة، أعسر ومتوحش الطباع، ولديه أوامر محددة بتصفية المعارضة. بدأ خوسيه مونتييل بأن صار مخبره السري. وقد عمد ذلك التاجر المتواضع الذي لم يكن مزاجه الهادئ كرجل بدين يثير أي نوع من القلق، إلى تقسيم خصومه السياسيين إلى أغنياء وفقراء. الفقراء قامت الشرطة بإطلاق النار عليهم في الساحة العامة. أما الأغنياء فمُنحوا مهلة أربع وعشرين ساعة لمغادرة القرية. ومن أجل التخطيط للمجزرة، كان خوسيه مونتييل يختلي بالعمدة أياماً كاملة في مكتبه الخانق، بينما كانت زوجته تحزن على الموتى. وعندما يغادر العمدة المكتب، تعترض طريق زوجها.

- هذا الرجل مجرم - تقول له - استخدم نفوذك في الحكومة لإبعاد هذا الوحش الذي لن يُبقي على إنسان حياً في القرية.

لكن خوسيه مونتييل المشغول بأمور كثيرة في تلك الأيام، كان يزيحها جانباً ويقول دون أن ينظر إليها: «دعكِ من البلاهة». والحقيقة أن تجارته لم تكن قتل الفقراء بل طرد الأغنياء. فبعد أن يخردق العمدة أبواب بيوتهم بالرصاص، ويمنحهم مهلة لمغادرة القرية، يشتري منهم خوسيه مونتييل أراضيهم وماشيتهم بثمن يتولى هو نفسه تحديده.

- لا تكن أحمق - كانت زوجته تقول له - ستنتهي إلى الإفلاس وأنت تساعدهم كي لا يموتوا من الجوع في مكان آخر، ولن يشكروك على ذلك أبداً.

لم يكن لدى خوسيه مونتييل آنذاك متسع من الوقت للابتسام، فكان يُبعدها من طريقه قائلاً:

- اذهبي إلى مطبخك ولا تزعجيني أكثر.

وبهذا الإيقاع، تمت تصفية المعارضة في أقل من سنة، وصار خوسيه مونتييل أثرى رجال القرية وأوسعهم نفوذاً. أرسل ابنتيه إلى

باريس، وحصل لابنه على منصب قنصلي في ألمانيا، وانهمك في تعزيز إمبراطوريته. لكنه لم يستطع الاستمتاع ست سنوات بثروته الهائلة.

بعد الذكرى السنوية الأولى لوفاته، لم تسمع الأرملة صرير الدرجات إلا تحت وطأة أخبار سيئة. فهناك دوماً من يأتي عند الغروب ليقول: «اللصوص مرة أخرى. لقد سرقوا يوم أمس خمسين عجلاً.» وتظل أرملة مونتييل ثابتة دون حراك في كرسيها الهزاز، تقضم أظافرها، ولا تتغذى إلا على الضغينة.

ـ لقد أخبرتك يا خوسيه مونتييل ـ كانت تحدث نفسها ـ هذه قرية جاحدة. فأنت ما زلت دافئاً في قبرك، وها قد أدار لنا الجميع ظهورهم.

لم يعد أحد إلى البيت. والإنسان الوحيد الذي رأته في تلك الشهور الطويلة التي لم يتوقف فيها هطول المطر هو السيد كارميتشيل المواظب الذي لم يدخل البيت قط ومظلته مغلقة. لم تكن الأمور تسير على نحو أفضل. وكان السيد كارميتشيل قد كتب عدة رسائل إلى ابن خوسيه مونتييل. واقترح عليه أنه سيكون من الملائم أن يأتي ليتولى أمور الأعمال، بل سمح لنفسه بتقديم بعض التقديرات الشخصية حول حالة الأرملة الصحية. وكان يتلقى على الدوام إجابات متهربة. وأخيراً، أجاب ابن خوسيه مونتييل بصراحة أنه لا يجرؤ على العودة خوفاً من أن يُطلقوا عليه رصاصة. عندئذ صعد السيد كارميتشيل إلى غرفة نوم الأرملة ووجد نفسه مضطراً إلى الاعتراف لها بأنها قد بلغت حد الإفلاس.

ـ هذا أفضل ـ قالت ـ فقد ضقت ذرعاً بالجبن والذباب. خذ إذا أردت ما تحتاج إليه ودعني أمت في سلام.

كانت صلتها الوحيدة بالعالم، منذ ذلك الحين، هي الرسائل التي تكتبها إلى ابنتيها في نهاية كل شهر. «هذه قرية ملعونة ـ كانت تقول لهما ـ. عليكما البقاء هناك إلى الأبد، ولا تقلقا بشأني. إنني سعيدة وأنا أعلم أنكما سعيدتان». كانت ابنتاها تتناوبان الرد عليها. وكانت رسائلهما سعيدة على الدوام، يتبدى بوضوح أنها كُتبت في أمكنة

دافئة وجيدة الإنارة، وأن الفتاتين تريان نفسيهما متكررتين في مرايا عديدة عندما تتوقفان لتفكرا. لم تكونا هما نفسيهما تريدان العودة أيضاً. «هذه هي الحضارة - تقولان ـ أما هناك بالمقابل، فالوسط غير مناسب لنا. من المستحيل العيش في بلد متوحش يُقتل فيه الناس لأسباب سياسية». وبقراءة الرسائل كانت الأرملة مونتييل تشعر بالتحسن، وتؤيد كل جملة فيها بإيماءة من رأسها.

وفي إحدى المناسبات، حدثتها ابنتاها عن أسواق اللحم في باريس. قلن لها إنهم يذبحون هناك خنازير وردية، ويعلقونها كاملة عند المداخل مزينة بأكاليل أزهار. وفي نهاية الرسالة، أضاف خط مختلف عن خط ابنتيها: «تصوري، إنهم يضعون القرنفلة الأكبر والأجمل في مؤخرة الخنزير». عند قراءة تلك الجملة، ابتسمت أرملة مونتييل أول مرة منذ سنتين. صعدت إلى غرفة نومها دون أن تطفئ أنوار البيت، وقبل أن تضجع أدارت المروحة الكهربائية باتجاه الجدار. ثم أخرجت بعد ذلك من درج الكوميدينو مقصاً، ولصاقة طبية، والمسبحة، وضمدت ظفر إبهامها الأيمن الملتهب من قضمها له. وبدأت بعد ذلك تصلي، ولكنها بعد الصلاة الثانية نقلت المسبحة إلى يدها اليسرى، لأنها لم تكن تشعر بحبات المسبحة من خلال الضماد. وسمعت للحظة دوي الرعد البعيد، ثم غلبها النعاس ورأسها منحن على صدرها. وهوت اليد التي تحمل المسبحة إلى جانبها، وعندئذ رأت الأم الكبيرة في الفناء وفي حضنها ملاءة بيضاء ومشط، وكانت تسحق القمل بإبهاميها. فسألتها:

- متى سأموت؟

رفعت الأم الكبيرة رأسها:

- عندما يدب التعب في ذراعك.

يومٌ بعد السبت

Un día después del sábado

(1962)

بدأ القلق في شهر تموز، حين اكتشفت السيدة ريبيكا، وهي أرملة نزقة تعيش في بيت فسيح ذي ردهتين وتسع غرف نوم، أن شبك النوافذ المعدني ممزق كأنه رُجم بالحجارة من الشارع. كان اكتشافها الأول في غرفة نومها، وفكرت في أنه لا بد من التحدث في الأمر مع أرخينديا، خادمتها وحافظة أسرارها منذ موت زوجها. بعد ذلك، وبينما هي تقلّب أمتعتها (لأن السيدة ريبيكا لا تفعل شيئاً منذ زمن سوى تقليب الأمتعة)، لاحظت أن ليس شَبك غرفة نومها وحده هو الممزق، وإنما شبك نوافذ البيت كلها. كان لدى الأرملة إحساس أكاديمي بالسلطة، ربما ورثته عن جد أبيها، وهو كريولي قاتل في حرب الاستقلال إلى جانب الملكيين، وقام بعد ذلك برحلة شاقة إلى إسبانيا بهدف وحيد هو زيارة القصر الذي شيده كارلوس الثالث في سان إيلديفونسو. وهكذا حين اكتشفت حالة شبك النوافذ الأخرى، لم تعد تفكر في التحدث إلى أرخينديا، بل اعتمرت قبعتها المصنوعة من القش والمزينة بأزهار دقيقة جداً من المخمل، وتوجهت إلى البلدية لتقدم إخباراً عن الاعتداء. لكنها حين وصلت إلى هناك، رأت العمدة نفسه بلا قميص، بشعره الكثيف ومتانة جسده التي بدت لها بهيمية، منهمكاً في إصلاح شِباك مكتب البلدية الممزقة مثل شِباك بيتها.

دخلت السيدة ريبيكا إلى المكتب المتسخ والغارق في الفوضى، وكان أول ما رأته هو كومة الطيور الميتة على منضدة المكتب. لكنها كانت مختنقة الأنفاس، بسبب الحر من جهة، وبسبب السخط الذي

تشعر به من تخريب الشباك المعدنية. ولهذا لم تجد متسعاً من الوقت لترتعش أمام مشهد الطيور الميتة غير المألوف على منضدة المكتب. بل إنها لم تستنكر رؤية السلطة فوق السلم مجردة من رتبتها وهي تصلح شبك النافذة المعدني بلفافة من الشبك ومَفك. إذ لم تكن تفكر، في تلك اللحظة، في كرامة أحد سوى كرامتها التي تعرضت للاستهزاء بتخريب شِباك نوافذها، حتى إن اختناقها ذاك حال دون أن تربط بين نوافذ بيتها ونوافذ مكتب البلدية. وقفت بوقار متكتم على بعد خطوتين من الباب، داخل المكتب، وقالت وهي تستند إلى ذراع مظلتها المزخرف:

- أريد التقدم بشكوى.

ومن أعلى السلّم، أدار العمدة وجهه المحتقن بفعل الحر. لم يبدِ أي انفعال حيال حضور الأرملة الغريب إلى مكتبه. وواصل بفتور مكدر فك الشبكة المعدنية الخربة، وسأل من فوق:

- ما هي المشكلة؟

- صبية الجوار مزقوا شِباك نوافذي.

عندئذ عاد العمدة للنظر إليها. تفحصها بتمعن، من الأزهار المخملية الصغيرة على القبعة حتى الحذاء الذي بلون الفضة العتيقة، وبدا كما لو أنه يراها أول مرة في حياته. نزل بتمهل، دون أن يتوقف عن النظر إليها، وعندما وطئ الأرض أسند إحدى يديه إلى خصره وحرك المِفك باتجاه منضدة المكتب. وقال:

- ليس صبية الجيران يا سيدتي. إنها الطيور.

عندئذ فقط ربطت بين الطيور الميتة على المكتب والرَّجل الذي كان يرتقي السلم، وشِباك نوافذ غرف نومها الممزقة. أحست بقشعريرة حين تخيلت أن غرف نوم بيتها كلها ممتلئة بطيور ميتة.

- الطيور! - هتفت.

- الطيور - أكد لها العمدة - من الغريب أنك لم تلاحظي ذلك، مع أننا منذ ثلاثة أيام في هذه المشكلة مع الطيور التي تحطم النوافذ لتموت داخل البيوت.

حين غادرت مكتب البلدية، شعرت السيدة ريبيكا بالخجل. وكانت مستاءة من آرخينديا التي تحمل إلى بيتها كل شائعات القرية، ولم تحدثها مع ذلك عن الطيور. فتحت المظلة مبهورة بوميض آب الوشيك، وبينما هي تسير في الشارع الملتهب والمقفر، راودها إحساس بأن غرف النوم في البيوت كلها تعبق برائحة الطيور الميتة النفّاذة.

كان ذلك في الأيام الأخيرة من شهر تموز، ولم يحدث أن عرفت القرية قط مثل ذلك الحر. غير أن سكانها انتبهوا إلى الأمر لانبهارهم بموت الطيور. ومع أن الظاهرة الغريبة لم تؤثر جدياً على نشاطات القرية، إلا أن معظمهم كان ينتظر الحر في بداية آب. ولم يكن بين تلك الأكثرية الأب المبجل أنطونيو إيسابيل دِل سانتيسيمو ساكرامينتو دِل ألتار دي كاستانيدا آي مونتيرو، كاهن الأبرشية الوديع الذي يؤكد، وهو في الرابعة والتسعين، أنه رأى الشيطان في ثلاث مناسبات، وأنه لم يرَ مع ذلك سوى طيرين ميتين دون أن يوليهما أدنى اهتمام. وجد الأول في حجرة المقدسات، في يوم ثلاثاء بعد القداس، وفكر في أن هراً من الجوار جرجره إلى ذلك المكان. ووجد الثاني يوم الأربعاء في ردهة بيته الملحق بالكنيسة، ودفعه بطرف حذائه حتى الشارع مفكراً: ***ما كان يجب للهرره أن توجد***.

ولكنه في يوم الجمعة، حين وصل إلى محطة القطار، وجد طيراً ثالثاً ميتاً على المقعد الذي اختاره للجلوس عليه. أحس بوميض برق في داخله عندما أمسك الجثة من قائمتيها الصغيرتين، ورفعها إلى مستوى عينيه، قلّبها، تفحصها، وفكر مذعوراً: ***يا للعنة، إنه الثالث الذي أجده هذا الأسبوع***. ومنذ تلك اللحظة بدأ ينتبه إلى ما كان يحدث في القرية، ولكن بطريقة غير واضحة، لأن الأب أنطونيو إيسابيل، بسبب تقدمه في العمر من جهة، ولأنه أكد أيضاً من جهة أخرى أنه رأى الشيطان في ثلاث مناسبات (وهو أمر بدا للقرية غير معقول)، كان أفراد رعيته يعتبرونه رجلاً طيباً، مسالماً وخدوماً، ولكنه يهيم عادة في الضباب. عندئذ لاحظ أن شيئاً ما يحدث للطيور، لكنه لم يعتقد

أنه يمكن أن تكون للأمر أهمية تستحق خصه بموعظة. كان هو أول من شمَّ الرائحة. شمّها في ليلة الجمعة، عندما استيقظ مذعوراً، وقاطعاً نومه الخفيف بفعل رائحة نتنة تثير الغثيان، لكنه لم يعرف إذا ما كان عليه أن يعزوها إلى كابوس أم إلى وسيلة شيطانية جديدة وأصيلة لتعكير نومه. تشمم في ما حوله، وانقلب في الفراش، مفكراً في أنه يمكن لتلك التجربة أن تفيده في الموعظة. وفكر، قد تكون موعظة دراماتيكية حول براعة الشيطان في التسلل إلى القلب الإنساني عبر أية حاسة من الحواس الخمس.

وعندما كان يتمشى في الرواق، في اليوم التالي، قبل القداس، سمع من يتحدث أول مرة عن الطيور الميتة. كان يفكر في الموعظة، في الشيطان وفي الخطايا التي قد تُقترف من خلال حاسة الشم، عندما سمع من يقول إن الرائحة الليلية الكريهة هي من الطيور التي جُمعت خلال الأسبوع؛ فتشكل في ذهنه خليط من التحذيرات الإنجيلية، والروائح الكريهة، والطيور الميتة. وهكذا كان عليه، في يوم الأحد، أن يرتجل مقطعاً طويلاً عن الإحسان، لم يفهمه هو نفسه بوضوح، ونسي إلى الأبد العلاقات التي تربط بين الشيطان والحواس الخمس.

ومع ذلك، لا بد أن تكون التجارب قد ظلت كامنة في مكان عميق جداً من تفكيره. هذا ما كان يحدث له دائماً، ليس في مدرسة اللاهوت قبل أكثر من سبعين عاماً وحسب، وإنما بصورة خاصة جداً بعد تجاوزه التسعين. ففي مدرسة اللاهوت، بعد ظهر يوم صاف هطل فيه وابل قوي من المطر دون عاصفة، كان يقرأ مقطعاً من سوفوكليس بلغته الأصلية. وعندما توقف المطر، نظر من النافذة إلى الحقل المنهوك، إلى الأصيل المغتسل والجديد، ونسي تماماً المسرح الإغريقي والكتّاب الكلاسيكين الذين لا يفرق بينهم وإنما يسميهم بصورة عامة «المسنين الصغار القدماء». وبعد ظهر يوم بلا أمطار، ربما بعد ثلاثين أو أربعين سنة من ذلك، بينما هو يجتاز ساحة مرصوفة في قرية ذهب لزيارتها، راح يتلو، دون قصد، مقطعاً شعرياً من أعمال سوفوكليس كان يقرؤه

فـي المدرسـة الدينيـة. وفـي الأسـبوع نفسـه، تحـدث مطـولاً حـول «المسنين الصغار القدماء» مع القاصد الرسولي، وهـو عجـوز ثرثـار وسـريع التـأثر، مولع بنوع من الأحجيات المعقدة للمتعلمين لا بـد أن يكـون هـو نفسـه مـن ابتكرها، وقد شاعت بعد سنوات باسم الكلمات المتقاطعة.

أتـاح لـه ذلـك اللقـاء أن يسـتعيد فجـأة كـل حبـه القـديم والحمـيم للكلاسيكيين الإغريق. وفـي عيد الميلاد من تلك السنة تلقـى رسـالة. ولولا أنه كان قد اكتسب فـي ذلك الحين سمعة راسخة بأنه صاحب مخيلة مفرطة، وجريء في التفسير، ويهذر فـي مواعظه، لجعلوا منـه فـي تلك المناسبة مطراناً.

ولكنه كان قد دفن نفسه فـي القرية قبل زمن طويل مـن حـرب 85. وفـي الفترة التي بدأت فيها الطيور تموت فـي غرف النوم، كانوا يطالبون منـذ سـنوات باسـتبداله بكـاهن أصـغر سـناً، لاسـيما عنـدما قال إنه رأى الشيطان. ومنذ ذلك الحين بدؤوا بعدم إعارته أي اهتمام، وهو أمر لم يلحظه بصورة واضحة بالرغم من أنه كـان لا يـزال قـادراً على قراءة حروف كتاب صلواته الدقيقة دون أن يحتاج إلى نظارة.

لقد كان على الدوام رجل عادات معتدلة. وكـان قصـير القامـة، ضئيلاً، بارز العظام وصلب العود، حركاته مطمئنـة، وصـوته مهـدئ فـي الحوار، لكنه أكثر تهدئـة فـي الـوعظ على المنبر. وكـان يظـل حتى موعد الغداء مسـتغرقاً فـي الـتفكير فـي غرفـة نومـه، مسـتلقياً دون همّ علـى مقعـد مـن قمـاش سميـك، دون أيـة مـلابس سـوى سـروال قطني طويل يربط نهايتي ساقيه بكاحليه.

لم يكـن يفعـل شـيئاً سـوى طقـوس القـداس. وكـان يجلـس مـرتين كـل أسـبوع فـي حجـرة الاعـتراف، لكـن أحـداً لم يكـن يعـترف منـذ سـنوات. فكـان يظـن ببسـاطة أن رعيتـه آخـذة بفقـدان الإيمـان بـسبب العـادات الحديثـة، وقـدّر أن رؤيتـه الـشيطان ثـلاث مـرات كانـت حـدثاً مناسباً، وإن عرف أن الناس لا يولون اهتماماً لكلماته رغم إدراكـه أنـه لا يكون مقنعاً جداً عندما يتحدث عن تلك التجارب. وما كـان ليبـدو لـه

مفاجئاً أن يكتشف أنه ميت، ليس على امتداد السنوات الخمس الأخيرة وحسب، بل كذلك في اللحظات الاستثنائية التي وجد فيها الطائرين الأولين. ولكنه عندما وجد الثالث، أطل قليلاً على الحياة، بحيث صار يفكر بتواتر ملحوظ في الطائر الميت على مقعد محطة القطار.

كان يسكن على بُعد خطوات من المعبد، في بيت صغير، بلا شِباك معدنية على نوافذه، فيه ردهة تطل على الشارع وغرفتان إحداهما مكتب والأخرى للنوم. وكان يُقدِّر، ربما في أقل لحظاته تبصراً، أنه من الممكن التوصل إلى السعادة على الأرض عندما لا يكون الحر شديداً، وكانت هذه الفكرة تسبب له بعض البلبلة. وكان يروقه أن يهيم بأفكاره في متاهات الماورائية. وهذا ما يفعله حين يجلس في الردهة صباح كل يوم، والباب موارب، وعيناه مغمضتان، وعضلاته مشدودة. ومع ذلك، فإنه لم ينتبه هو نفسه إلى أنه صار مرهفاً في تفكيره، وأنه منذ ثلاث سنوات على الأقل لم يفكر في شيء خلال لحظات تأمله.

في الساعة الثانية عشرة تماماً، اجتاز صبي الردهة حاملاً حافظة مأكولات من أربع طبقات، تحتوي أشياء كل يوم المعهودة نفسها: حساء عظام مع قطعة يُكة، أرز أبيض، لحم مطبوخ دون بصل، موزة مقلية أو رغيف من دقيق الذرة، وقليل من العدس الذي لم يكن الأب أنطونيو إيسابيل دِل سانتيسيمو ساكرامينتو دِل ألتار يذوقه أبداً.

وكان الصبي يضع حافظة الطعام إلى جانب الكرسي الذي يجلس عليه الكاهن، لكن هذا لم يكن يفتح عينيه ما لم يسمع وقع الخطوات مرة أخرى في الردهة. ولهذا كانوا يظنون في القرية أن الأب ينام القيلولة قبل تناول الغداء (وهو أمر يبدو غير عقلاني أيضاً)، بينما الحقيقة أنه لم يكن ينام نوماً طبيعياً حتى في الليل.

كانت عاداته في تلك الفترة قد صارت أقل تعقيداً إلى درجة البدائية. فهو يتناول الغداء دون أن يتحرك عن كرسيّه الذي من قماش سميك، ودون أن يُخرج الطعام من حافظة المأكولات، ودون أن

يستخدم أطباقاً أو شوكة أو سكيناً، بل يكاد يكتفي باستخدام ملعقة تناول الحساء. ثم ينهض بعد ذلك، فيسكب قليلاً من الماء على رأسه، ويرتدي رداءه الكهنوتي الأبيض الموشى برقع كبيرة مربعة، ويتوجه إلى محطة السكة الحديد، في الوقت نفسه الذي يستلقي فيه أهل القرية لنوم القيلولة. منذ شهور وهو يجتاز هذا الطريق، متمتماً بالصلاة التي ابتكرها هو نفسه في آخر مرة ظهر له فيها الشيطان.

وذات سبت ـ بعد تسعة أيام من بدء تساقط الطيور الميتة ـ كان الأب أنطونيو إيسابيل يتوجه إلى المحطة عندما سقط طائر يحتضر عند قدميه، أمام منزل السيدة ريبيكا بالتحديد. فسطع في ذهنه وميض تبصر، ولاحظ أن ذلك الطائر، خلافاً للطيور الأخرى، يمكن إنقاذه من الموت. حمله بيديه وطرق باب السيدة ريبيكا في اللحظة التي كانت تفك فيها صدارها كي تنام القيلولة.

سمعت الأرملة الطرق على الباب وهي في غرفة نومها، فمالت بنظرها غريزياً نحو شبك النافذة المعدني. لم يكن أي طائر قد دخل تلك الغرفة منذ يومين. إلا أن الشبكة ما زالت ممزقة. فقد قدرت أن إصلاحها سيكون إنفاقاً بلا جدوى طالما لم يتوقف غزو تلك الطيور التي تُبقي أعصابها متوترة. وأعلى من أزيز المروحة الكهربائية، سمعت الطرق على الباب، وتذكرت بجزع أن آرخينديا تنام قيلولتها في حجرة النوم الأخيرة في الرواق. ولم يخطر لها أن تتساءل من الذي يمكن له أن يضايقها في مثل تلك الساعة. أعادت تزرير الصدار، واجتازت الباب الشبكي، وسارت متأثرة وبخط مستقيم على طول الرواق، واجتازت الصالون المكتظ بالأثاث والزينات، وقبل أن تفتح الباب رأت من خلال الشبكة المعدنية أن من هناك هو الأب أنطونيو إيسابيل، يقف مطرقاً، بعينين منطفئتين وفي يده طائر، ويقول لها (قبل أن تفتح الباب): «إذا ما رششنا عليه قليلاً من الماء، ثم وضعناه تحت قرعة مجوفة، فإنني متأكد من أنه سيتحسن». وعندما فتحت السيدة ريبيكا الباب أحست أنها ستنهار من الرعب.

لم يبق هناك أكثر من خمس دقائق. وظنت السيدة ريبيكا أنها هي من اختصرت اللقاء. ولكن من فعل ذلك في الواقع هو الأب. ولو أن الأرملة ريبيكا فكرت في تلك اللحظة لأدركت أن الكاهن، خلال الثلاثين سنة التي عاشها في القرية، لم يمكث في بيتها قط أكثر من خمس دقائق. بدا له أن اختلاط الأثاث والزينات المبالغ به في الصالون يكشف بوضوح عن روح ربة البيت الشهوانية، بالرغم من قرابتها للمطران، وهي قرابة بعيدة جداً، لكنها معروفة للجميع. وكانت هناك فوق ذلك أسطورة (أو قصة) عن أسرة السيدة ريبيكا هي بكل تأكيد، باعتقاد الأب، لم تصل إلى قصر المطرانية، على الرغم من أن الكولونيل أوريليانو بوينديا، وهو ابن عم للأرملة التي تعتبره قليل الحنان، قد أكد ذات يوم أن المطران لم يزر القرية بمناسبة بدء القرن الجديد كي يتفادى زيارة قريبته. على أية حال، وبغض النظر عن تلك القصة أو الأسطورة، فالحقيقة هي أن الأب أنطونيو إيسابيل دِل سانتيسيمو ساكرامينتو دل ألتار لم يكن يشعر بأنه على ما يرام في هذا البيت الذي لم تُبد ساكنته الوحيدة هيئة الورع، ولا تعترف سوى مرة واحدة في السنة، وترد بإجابات متملصة كلما حاول مطالبتها بشيء محدد حول موت زوجها الغامض. وإذا كان الآن في بيتها، ينتظر أن تأتيه بكأس ماء يبلل به الطائر المحتضر، فإن وجوده هناك نتيجة ظرف خاص لم يتسبب به هو على الإطلاق.

بينما الكاهن ينتظر عودة الأرملة، جالساً على كرسي هزاز فخم من خشب منقوش، أحس برطوبة هذا البيت الغريبة التي لم يشعر بها منذ دوت طلقة مسدّس، منذ أكثر من أربعين عاماً، وسقط خوسيه أركاديو بوينديا، شقيق الكولونيل، على وجهه وسط قعقعة الأبازيم والمهاميز فوق طماقيه اللذين كان قد خلعهما للتو.

حين دخلت السيدة ريبيكا إلى الصالون من جديد، رأت الأب أنطونيو إيسابيل جالساً على الكرسي الهزاز بذلك المزاج الضبابي الذي يثير فيها الرعب.

ـ حياة أي حيوان عزيزة على ربنا مثل حياة إنسان ـ قال الأب.

ولدى قوله ذلك، لم يعد يذكر خوسيه أركاديو بوينديا. ولم تتذكره الأرملة أيضاً. لكنها كانت قد اعتادت على ألا تعير اهتماماً لكلمات الأب منذ أن تحدث من منبر الوعظ عن المرات الثلاث التي ظهر له فيها الشيطان. ودون أن توليه اهتماماً، تناولت الطائر بيديها وغطسته في الكأس، ثم هزته بعد ذلك. ولاحظ الأب أنه لا وجود للكفر ولا الإهمال في طريقة تصرفها، وإنما عدم اعتبار مطلق لحياة الحيوان.

ـ أنت لا تحبين الطيور ـ قال برقة، ولكن بنبرة مؤكدة.

فرفعت الأرملة جفنيها بحركة نفاد صبر وعداء.

ـ مع أن الطيور لم ترق لي يوماً ـ قالت ـ إلا أنني الآن أمقتها لأنها تأتي لتموت في البيوت.

ـ مات الكثير منها ـ قال متمادياً. وكان يمكن الاعتقاد أن هناك الكثير من المكر في نبرة صوته الهادئة.

ـ جميعها ـ قالت الأرملة. ثم أضافت وهي تضغط الحيوان باشمئزاز وتضعه تحت قرعة مجوفة ـ: وما كنت لأهتم بذلك لو أنها لم تمزق شِباك نوافذي.

بدا له أنه لم يعرف قسوة قلب كهذه قط. وبعد لحظة، حين أمسك الطائر بيده، لاحظ الكاهن أن ذلك الجسد الصغير والأعزل قد توقف عن النبض. عندئذ نسي كل شيء: نسي رطوبة البيت، والشهوانية الجنسية، ورائحة البارود التي لا تطاق في جثة خوسيه أركاديو بوينديا، وأدرك الحقيقة العجيبة التي تحيط به منذ بداية الأسبوع. وهناك بالذات، بينما الأرملة تراه يغادر المنزل بملامح متوعدة والطائر الميت بين يديه، شهد الإلهام المدهش بأن مطراً من الطيور الميتة يهطل على القرية، وأنه هو، وكيل الرب المتميز الذي عرف السعادة عندما لم يكن هناك حَر، قد نسي سفر الرؤيا تماماً.

ذهب في ذلك اليوم إلى المحطة كعادته، لكنه لم يكن يدرك تصرفاته بالكامل. كان يعرف بصورة مبهمة أن شيئاً ما يحدث في

العالم، لكنه يشعر أنه مخدر، أبله، غير جدير باللحظة. وبينما هو جالس على مقعد المحطة، حاول أن يتذكر إذا ما كان هناك مطر طيور ميتة في سفر الرؤيا، لكنه نسي الأمر تماماً. وفكر فجأة أن تأخره في منزل السيدة ريبيكا جعله يتخلف عن القطار، ومدّ رأسه من فوق الزجاج المغبر والمكسور، ورأى في ساعة الإدارة أنه ما زالت هناك اثنتا عشرة دقيقة لتصل إلى الواحدة. وحين رجع إلى المقعد، أحس أنه يختنق. وتذكر في تلك اللحظة أن اليوم هو السبت. حرّك مروحته المجدولة من السعف، تائهاً في ظلمة ضبابه الداخلي. وأحس بعد ذلك بالضيق من أزرار مسوحه الكهنوتي، وجزمته، وسرواله الصوفي الطويل المحكم، ولاحظ مذعوراً أنه لم يشعر في حياته بمثل شدة هذا الحر.

ودون أن يتحرك عن المقعد، فك زر ياقة مسوحه، وأخرج منديلاً من كمه، ومسح وجهه المحتقن، مفكراً في لحظة إشراق مؤثر أنه ربما كان يشهد تأهب زلزال. لقد قرأ عن ذلك في مكان ما. ومع ذلك، كانت السماء صافية؛ سماء شفافة وزرقاء اختفت منها الطيور بصورة غامضة. انتبه إلى اللون والشفافية، لكنه نسي على الفور الطيور الميتة. إنه يفكر الآن في شيء آخر، في احتمال أن تنفلت عاصفة. لكن السماء كانت شفافة وهادئة، كما لو أنها سماء قرية أخرى بعيدة ومختلفة، حيث لم يُشعر بالحر قط، وكما لو أن العنينين اللتين تنظران إليها ليستا عينيه وإنما عينان أخريان. نظر بعد ذلك إلى **الشمال**، من فوق أسطح السعف والتوتياء الصدئ، ورأى بقعة نسور الرخمة المتوازنة، البطيئة والصامته، فوق المزبلة.

ولسبب غامض، أحس بأنه يستعيد في تلك اللحظة الانفعالات التي أحس بها ذات يوم أحد في مدرسة اللاهوت، قبل قليل من تلقيه المراتب الدنيا. كان المدير قد سمح له باستخدام مكتبته الخاصة، فصار يبقى فيها ساعات وساعات (خاصة أيام الآحاد) مستغرقاً في قراءة كتب مصفرة لها رائحة خشب قديم، وعليها ملاحظات باللاتينية مخربشة

بخط المدير الإبري المنمنم. وفي يومٍ أحد، بعد أن قرأ طوال النهار، دخل المدير إلى الحجرة وسارع مذعوراً إلى التقاط بطاقة من المؤكد أنها سقطت من بين صفحات الكتاب الذي كان يقرأ فيه. رصد انبهار رئيسة بعدم مبالاة متكتمة، لكنه تمكن من قراءة البطاقة. كانت عليها جملة واحدة فقط، مكتوبة بحبر بنفسجي وبخط واضح وسوي: *Madame Ivette est morte cette nuit* [مدام إيفيت ماتت هذه الليلة]. وبعد أكثر من نصف قرن، وبينما هو يرى بقعة طيور الرخمة فوق قرية منسية، تذكر ملامح المدير الصامتة، وهو جالس قبالته، خبازي اللون على خلفية الغسق، وبأنفاس متقطعة بصورة غير محسوسة.

ومتأثراً بذلك التوافق، لم يعد يشعر بالحر، بل العكس تماماً، أحس بلسعة ثلج عند ملتقى فخذيه وفي باطن قدميه. شعر بخوف، دون أن يدري السبب الدقيق للخوف، وأحس أنه عالق في شبكة أفكار مشوشة، من المستحيل عليه أن يميز فيها بين الإحساس بالغثيان، وحافر الشيطان الغائص في الوحل، وحشد طيور ميتة تتساقط على العالم، بينما ظل هو، أنطونيو إيسابيل دل سانتيسمو ساكرامنتو دل ألتار، غير مبال بذلك الحدث. عندئذ انتصب واقفاً، رفع يداً ذاهلة كمن يبدأ حركة تحية ضاعت في الفراغ، وهتف مرعوباً: «اليهودي التائه.»

في تلك اللحظة صفر القطار. ولأول مرة منذ سنين طويلة لم يسمعه. رآه يدخل إلى المحطة، محاطاً بغمامة كثيفة من الدخان، وسمع ارتطام وابل من فتات الفحم على صفائح التوتياء الصدئة. ولكن ذلك كله بدا أشبه بحلم بعيد، وغير قابل للتفسير، لم يصحُ منه بالكامل حتى ما بعد الظهر، بعد الساعة الرابعة بقليل، عندما وضع اللمسات الأخيرة على الموعظة المهيبة التي سيلقيها يوم الأحد. وبعد ثماني ساعات جاؤوا في طلبه ليقدم المسحة الأخيرة لإحدى النساء.

وهكذا لم يعرف الأب من جاء بعد ظهر ذلك اليوم في القطار. إنه يرى، منذ زمن طويل، مرور العربات الأربع المتداعية وذاوية الألوان، ولا يتذكر أن أحداً، في السنوات الأخيرة على الأقل، نزل منها ليبقى. أما

من قبل فكان الأمر مختلفاً، حين كان يظل طيلة بعد الظهر يرى مرور قطار محمل بالموز. مئة وأربعون عربة محملة بالثمار كانت تمر دون انقطاعٍ حتى تقدم الليل، حيث تمر العربة الأخيرة وفيها رجل يحمل فانوساً أخضر. وعندئذ كان يرى القرية في الجانب الآخر من سكة الحديد - وتكون الأنوار قد أضيئت - ويهيأ له أنه بمجرد رؤية القطار يمر، يحمله القطار إلى قرية أخرى. وربما من هنا جاءته عادة الحضور عصر كل يوم إلى المحطة، حتى بعد إطلاق نار الرشاشات على العمال، وانتهاء زراعة الموز ومعها قطارات المئة والأربعين عربة، ولم يبق سوى هذا القطار الأصفر المغبّر الذي لا يجيء ولا يمضي بأحد.

لكن أحدهم جاء في ذلك السبت. فعندما ابتعد الأب أنطونيو إيسابيل دل سانتيسمو ساكرامنتو دل ألتار عن المحطة، كان هناك فتى وديع، لا شيء يميزه سوى الجوع، رأى الأب من نافذة العربة الأخيرة في اللحظة نفسها التي تذكر فيها أنه لم يأكل منذ اليوم السابق. وفكر، ***إذا كان هناك كاهن فلابد من وجود فندق.*** فنزل من القطار واجتاز الشارع المتأجج بشمس آب المعدنية ودخل في برودة ظل بناء قبالة المحطة، حيث تصدح في الغراموفون اسطوانة مستهلكة. وأنبأته حاسة شمّه التي أرهفها جوع يومين أن ذلك البناء هو الفندق. دخل دون أن يرى اللوحة: «فندق ماكوندو»؛ وهي لوحة ما كان له أن يقرأها في حياته.

كانت صاحبة الفندق حبلى منذ أكثر من خمسة أشهر. وكان لها لون الخردل ومظهر مطابق لما كانت عليه أمها وهي حبلى بها. طلب «غداء بأسرع ما يمكن»، ودون أن تحاول المرأة الإسراع، قدمت له طبق حساء فيه عظم معروق، وقطع موز أخضر. وفي تلك اللحظة صفر القطار. وبينما هو محاط ببخار الحساء الساخن والصحي، قدّر المسافة التي تفصله عن المحطة، وداهمه بعد هنيهة إحساس بذلك الشعور بالذعر المرتبك الذي يسببه للمرء إضاعة القطار.

حاول أن يركض. ووصل إلى الباب مكروباً، لكنه لم يكن قد خطا خطوة واحدة خارج العتبة حين أدرك أنه لم يعد لديه وقت

للحاق بالقطار. وعندما رجع إلى المنضدة، كان قد نسي جوعه. رأى، إلى جانب الغراموفون، فتاة تنظر إلية دون شفقة، بملامح رهيبة لكلب يهز ذيله. وللمرة الأولى طوال ذلك النهار، خلع عندئذ القبعة التي أهدتها إليه أمه قبل شهرين، وحشرها بين ركبتيه إلى أن انتهى من الأكل. وعندما نهض من المائدة، لم يبدُ قلقاً من فقدان القطار، ولا من رؤية أنه سيُمضي نهاية الأسبوع في قرية لن يهتم بمعرفة اسمها. جلس في أحد أركان القاعة، مسنداً عظام ظهره إلى مسند كرسي قاس ومستقيم، وظل هناك لوقت طويل، دون أن يسمع الاسطوانات إلى أن قالت له الفتاة التي تختارها:

- هناك برودة أكثر على الشرفة.

أحس بالضيق. كان يتكلف في البدء مشقة التحدث إلى غرباء. ويضايقه النظر في وجوه الناس، وعندما لا يجد مفراً من الكلام، تخرج منه كلمات مختلفة عما فكر فيه. «أجل»، أجابها. وأحس بقشعريرة خفيفة. حاول الاهتزاز، ناسياً أنه لا يجلس على كرسي هزاز.

- من يعيشون هنا يسحبون كرسياً إلى الشرفة لأنها أبرد - قالت الفتاة. وبينما هو يسمعها، أدرك مغموماً أنها راغبة في تبادل الحديث. جازف بالنظر إليها في اللحظة التي كانت تملأ فيها نابض الغراموفون. بدت كأنها جالسة هناك منذ شهور، وربما سنوات، وليس لديها أدنى اهتمام بالتحرك من ذلك المكان. كانت تملأ نابض الغراموفون، لكن حياتها كانت مركّزة عليه. وكانت تبتسم.

- شكراً - قال وهو يحاول النهوض، ومنح حركاته الطلاقة والعفوية. لم تكفّ الفتاة عن النظر إليه. وقالت: - وهم يتركون قبعاتهم كذلك على المشجب.

أحس هذه المرة بجمرة في أذنيه. واختلج وهو يفكر في تلك الطريقة في اقتراح الأمور. أحس أنه متضايق، محتجز، وشعر مرة أخرى بذعر فقدانه القطار. ولكن صاحبة الفندق دخلت في تلك اللحظة إلى القاعة.

ـ ماذا يفعل؟ ـ سألت.
ـ إنه يسحب كرسياً إلى الشرفة، مثلما يفعل الجميع ـ قالت الفتاة.
وظن أنه لمس نبرة سخرية في كلماتها.
ـ لا تقلق ـ قالت صاحبة الفندق ـ سآتيك بكرسي بلا مسند ظهر.
ضحكت الفتاة، وأحس هو بالارتباك. كان الجو حاراً. حرارة جافة ومستوية، وكان يتعرق. سحبت صاحبة الفندق إلى الشرفة كرسياً خشبياً بلا مسند ومقعده مكسو بالجلد. وكان على وشك أن يتبعها عندما عادت الفتاة إلى الكلام.
ـ السيئ في الأمر أن الطيور سترعبه ـ قالت.
وتمكن من رؤية النظرة القاسية عندما التفتت صاحبة الفندق بعينيها إلى الفتاة. كانت نظرة سريعة، ولكنها حادة.
ـ ما عليكِ عمله هو الصمت ـ قالت ذلك، ثم التفتت إليه مبتسمة.
أحس عندئذ أنه أقل توحداً وراودته رغبة في الكلام.
ـ ما الذي قالته؟ ـ سأل.
ـ في هذه الساعة تسقط الطيور الميتة على الشرفة ـ قالت الفتاة.
ـ مجرد كلام تقوله ـ قالت صاحبة الفندق. وانحنت لترتب وضع باقة أزهار اصطناعية على منضدة المنتصف الصغيرة. وكانت هناك ارتعاشة عصبية في أصابعها.
ـ ليس كلاماً أقوله ـ قالت الفتاة ـ، لا. أنتِ نفسك كنست اثنين منها أول أمس.
نظرت إليها صاحبة الفندق حانقة. وبدا على وجهها تعبير مشفق ورغبة جلية في توضيح كل شيء، بحيث لا يبقى أدنى أثر للشك.
ـ ما حدث، يا سيدي، هو أن بعض الصبية تركوا أول أمس طائرين ميتين على الشرفة لمضايقتها، وقالوا لها بعد ذلك إن طيوراً ميتة تسقط من السماء. إنها تصدق كل ما يقال لها.
ابتسم. وبدا له ذلك التفسير مسلياً جداً. فرك يديه، وأعاد النظر إلى الفتاة التي كانت تتأمله مغمومة. كان صوت الغراموفون قد

توقف. انسحبت صاحبة الفندق إلى الغرفة الأخرى، وحين بدأ هو التوجه نحو الشرفة، أصرت الفتاة بصوت خافت:

ـ أنا رأيتها تسقط. صدقني. وقد رآها الجميع.

ظن عندئذ أنه فهم تعلقها بالغراموفون، واستياء صاحبة الفندق.

ـ أجل ـ قال بإشفاق. ثم اتجه إلى الشرفة ـ : وأنا أيضاً رأيتها.

كان الحر أقل وطأة في الخارج، في ظل أشجار اللوز. أسند الكرسي الذي بلا مسند إلى إطار الباب، ودفع رأسه إلى الخلف وفكر في أمه؛ أمه خائرة القوى على الكرسي الهزاز، تُبعد الدجاج بعصا مكنسة طويلة، وهي تشعر أول مرة أنه ليس في البيت.

كان قد توصل في الأسبوع الفائت إلى التفكير في أن حياته هي خيط أملس ومستقيم، يمتد من فجر اليوم الماطر في الحرب الأهلية الأخيرة الذي جاء فيه إلى الدنيا، بين أربعة جدران من الطين والقصب في مدرسة ريفية، حتى صباح ذلك اليوم من حزيران الذي أكمل فيه اثنتين وعشرين سنة من عمره، وجاءت أمه إلى جانب أرجوحته الشبكية لتهدي إليه قبعة مع بطاقة تقول: «إلى ابني الحبيب، في يوم ميلاده». كان ينفض عنه في بعض الأحيان صدأ الكسل ويشعر بالحنين إلى المدرسة، إلى السبورة وخريطة بلاد مكتظة بخراء الذباب، وإلى صفّ طويل من أباريق معلقة على الجدار تحت أسماء التلاميذ. لم يكن الجو حاراً هناك. إنها قرية خضراء ووادعة، حيث تجتاز دجاجات لها قوائم رمادية طويلة قاعة الدرس لتضع بيضها تحت المغسلة. كانت أمه آنذاك امرأة كئيبة ومتكتمة. تجلس عند الغروب لتتلقى هواء صُفّي لتوه عبر مزارع البن، وتقول: «ماناوري هي أجمل قرية في العالم»؛ ثم تلتفت إليه وهي تراه يكبر خفية في الأرجوحة الشبكية لتقول: «عندما تصير كبيراً سوف تلحظ ذلك». لكنه لم يكن يلحظ شيئاً. لم يلحظ وهو في الخامسة عشرة، وكان طويلاً جداً بالنسبة إلى عمره، ويطفح بتلك العافية المتغطرسة والطائشة التي يوفرها الكسل. وحتى بلوغه العشرين لم يختلف شيء في حياته

باستثناء بعض تبدلات وضعه على الأرجوحة الشبكية. ولكن أمه اضطرت في ذلك الوقت، بسبب اشتداد الروماتيزم، إلى ترك المدرسة التي عملت فيها طوال ثمانية عشر عاماً، وذهبا على إثر ذلك للعيش في بيت من غرفتين وفناء فسيح، حيث بدأا بتربية دجاجات ذات قوائم رمادية مثل تلك التي كانت تجتاز قاعة الدرس.

وكانت تربية الدجاج هي أول صلة له بالواقع. وظلت الصلة الوحيدة حتى شهر تموز، عندما فكرت أمه في التقاعد وقدّرت أنه صار لديه ما يكفي من الدراية لإنجاز الإجراءات. وقد تعاون بصورة فعالة في تهيئة الوثائق، بل كانت لديه اللياقة اللازمة لإقناع الكاهن بأن يبدل ست سنوات في شهادة معمودية أمه التي لم تكن قد بلغت بعد سن التقاعد. وفي يوم الخميس تلقى آخر التعليمات التفصيلية الدقيقة لتجربة أمه التربوية، وبدأ الرحلة إلى المدينة ومعه اثنا عشر بيزو، وغيار ملابس، وحزمة الوثائق، وفكرة أولية غامضة عن كلمة «تقاعد» التي فسّرها بفجاجة على أنها مبلغ معين من المال تقدمه الحكومة إليه ليبدأ مشروعاً لتربية الخنازير.

وفي إغفاءته على شرفة الفندق، وتشوشه من شدة الحر، لم يتوقف للتفكير في خطورة وضعه. افترض أن سوء الطالع سينتهي في اليوم التالي بعودة القطار، ولحسن الحظ أن قلقه الآن يقتصر على انتظار يوم الأحد ليستأنف الرحلة، ولينسى إلى الأبد هذه القرية التي يسودها حرّ لا يطاق. وقبل الساعة الرابعة بقليل، استغرق في نوم غير مريح ودبق، وكان يفكر متأسفاً، وهو نائم، في أنه لم يُحضر معه أرجوحته الشبكية. وكان أن تذكر عندئذ أنه قد نسي في القطار صُرّة الملابس ووثائق التقاعد. فاستيقظ مذعوراً فجأة، وهو يفكر في أمه وقد حاصره الرعب ثانية.

وعندما سحب المقعد إلى الصالة، كانت أنوار البلدة قد أُضيئت. لم يكن يعرف ضوء الكهرباء، فأحس بدهشة كبيرة حين رأى مصابيح الفندق البائسة والملوثة. ثم تذكر أن أمه حدثته عن ذلك،

وواصل جرّ المقعد إلى الصالة، محاولاً تفادي الذبابات الكبيرة التي تصطدم كالقذائف بالمرايا. تناول الطعام دون شهية، مختنقاً بالانجلاء الواضح لوضعه، وبالحر الشديد، وبتلك الوحدة التي يعاني منها أول مرة من حياته. وبعد الساعة التاسعة، اقتيد إلى أقصى الدار، إلى حجرة خشبية جدرانها مكسوة بورق صحف المجلات. وعند منتصف الليل كان غارقاً في نوم مكدر ومحموم، بينما كان الأب أنطونيو إيسابيل دل سانتيسيمو ساكرامينتو دل الألتار، على بعد خمس كواردرات منه، يتمدد على ظهره في سريره، مفكراً في أن تجارب هذه الليلة تدعم الموعظة التي أعدها ليلقيها في السابعة صباحاً. كان الأب يستريح ببنطاله الداخلي الطويل والمشدود، وسط طنين البعوض الكثيف. فقد اجتاز القرية، قبل الساعة الثانية عشرة بقليل، ليقدم المسحة الأخيرة لإحدى النساء، وكان يشعر بالهياج والعصبية، حتى إنه وضع أدوات طقوسه إلى جانب السرير الضيق واستلقى ليراجع الموعظه. ظل على تلك الحال بضع ساعات، مستلقياً على ظهره فوق السرير، إلى أن سمع نداء كروان بعيد عند الفجر. عندئذ حاول النهوض، انتصب بمشقة وداس على الجرس الصغير، فسقط على وجهه على أرض الحجرة الخشنة والصلبة.

ما كاد يستعيد وعيه حتى أحس بوخزة ألم تصعد من خاصرته. وتوصل في تلك اللحظة إلى إدراك ثقله الكامل: ثقل جسده، وخطاياه، وسنه معاً. أحس في وجنته بصلابة أرض الغرفة الحجرية التي أعانته في أحيان كثيرة، خلال إعداد مواعظه، على تكوين فكرة دقيقة عن الطريق المؤدية إلى الجحيم. «يا يسوع»، دمدم مذعوراً، وهو يفكر: «لن أتمكن بكل تأكيد من النهوض أبداً».

لم يدر كم من الوقت مضى عليه وهو مطروح على الأرض، دون أن يكون قادراً على التفكير في أي شيء، بل دون القدرة على توسل ميتة لائقة. وبدا للحظة كما لو أنه قد مات فعلاً. ولكنه حين استعاد وعيه لم يعد يشعر بالألم ولا بالخوف. رأى الشعاع الشاحب من تحت

الباب؛ وسمع صياح الديكة النائي والكئيب، وأدرك أنه حي وأنه يتذكر جيداً كلمات الموعظة.

عندما سحب رتاج الباب كان الفجر آخذاً بالانبلاج. وكان قد توقف عن الشعور بالألم، بل بدا له أن الصدمة قد خلصته من شيخوخته. وتغلغل إلى قلبه كل ما في القرية من طيبة وضلال ومعاناة مع ابتلاعه أول دفقة من ذلك الهواء الذي هو رطوبة زرقاء ممتلئة بالديوك. نظر بعد ذلك في ما حوله، كأنه يتصالح مع الوحدة، ورأى في غبش الفجر الهادئ واحداً، اثنين، ثلاثة طيور ميتة على الشرفة.

تأمل الجثث الثلاث خلال تسع دقائق، مفكراً، وفق الموعظة المنتظرة، في أن ذلك الموت الجماعي للطيور بحاجة إلى كفارة. ومشى بعد ذلك حتى الطرف الآخر من الشرفة، والتقط الطيور الثلاثة الميتة وعاد إلى الجرة، فرفع غطاءها وألقى الطيور واحداً بعد الآخر في الماء الأخضر الراكد دون أن يدري بالضبط ما هو الهدف من ذلك التصرف. ***ثلاثة وثلاثة يشكلون نصف دزينة في أسبوع واحد***، فكر، وأوحى له ومض بصيرة عجيب أنه بدأ يعيش أعظم يوم في حياته.

في الساعة السابعة كان الحر قد بدأ. وكان النزيل الوحيد في الفندق ينتظر طعام الفطور. ولم تكن فتاة الغراموفون قد نهضت بعد. اقتربت صاحبة الفندق، وبدا في تلك اللحظة كما لو أن دقات الساعة السبع ترن في بطنها المنتفخ.

ـ لقد خلّفك القطار إذاً ـ قالت بنبرة مواساة متأخرة. ثم جاءت بعد ذلك بالفطور: قهوة بالحليب، وبيض مقلي، وشرائح موز أخضر.

حاول أن يأكل، لكنه لم يكن جائعاً. كان متضايقاً لأن الحر قد بدأ. وكان يتعرق بغزارة. ويشعر بالاختناق. لقد نام نوماً سيئاً ودون أن يخلع ثيابه، وهو يشعر الآن بقليل من الحمى. أحس مرة أخرى بالذعر وتذكر أمه في اللحظة التي اقتربت فيها صاحبة الفندق لتأخذ الأطباق، وكانت تتأجج في ثوبها الجديد ذي الأزهار الكبيرة الخضراء. وقد ذكّره ثوب صاحبة الفندق بأن اليوم هو الأحد.

ـ أهناك قداس؟ ـ سألها.

ـ أجل ـ قالت المرأة ـ. ولكن، كما لو أنه غير موجود، لأنه لا أحد تقريباً يذهب إليه. المسألة أنهم لا يريدون إرسال كاهن جديد.

ـ وماذا جرى للكاهن الحالي؟

ـ عمره حوالي المئة، وهو نصف مخبول ـ قالت المرأة، وظلت دون حراك، مستغرقة في التفكير، والأطباق كلها في يدها.

وقالت بعد ذلك:

ـ لقد أقسم ذات يوم وهو على المنبر إنه رأى الشيطان، ومنذ ذلك الحين لم يعد كثيرون للذهاب إلى القداس.

وهكذا ذهب إلى الكنيسة، بدافع اليأس من جهة، وبدافع الفضول لرؤية شخص عمره مائة سنة من جهة أخرى. انتبه إلى أنها بلدة ميتة، بشوارع لا نهائية ومغبرة، وبيوت خشبية كالحة، أسطحها من التوتياء، تبدو غير مأهولة. هكذا كانت البلدة يوم الأحد: شوارع بلا أعشاب، وبيوت تغطي نوافذها شِباك معدنية، وسماء عميقة رائعة فوق حرّ خانق. فكر في أنه ليس هناك أية إشارة تميز يوم الأحد عن أي يوم آخر، وبينما هو يمشي في الشارع المقفر تذكر أمه: «الشوارع كلها في جميع القرى تؤدي حتماً إلى الكنيسة أو المقبرة». وفي تلك اللحظة دخل ساحة صغيرة مرصوفة بالحجارة وفيها مبنى مبيض بالكلس له برج في قمته ديك خشبي وساعة متوقفة على الرابعة وعشر دقائق.

اجتاز الساحة دون إسراع، وصعد درجات الردهة الثلاث، وشم على الفور رائحة عرق بشري هرم مختلطة برائحة البخور، ودخل إلى الظل الدافئ في الكنيسة شبه الخالية.

كان الأب أنطونيو إيسابيل دل سانتيسيمو ساكرامينتو دل ألتار قد صعد المنبر لتوه. وكان على وشك البدء بالموعظة حين رأى دخول فتى وقبعته على رأسه. رآه يتفحص المعبد شبه الخالي بعينيه الكبيرتين الهادئتين والشفافتين. ورآه يجلس في المقعد الأخير، برأس مائل ويديه في ركبتيه. وانتبه إلى أنه غريب. فهو يقيم في القرية منذ عشرين

سنة، ويمكن له التعرف على أي واحد من سكانها حتى من رائحته. ولهذا عرف أن الفتى الذي دخل للتو غريب. ولاحظ بنظرة قصيرة وحادة أنه شخص هادئ، وحزين بعض الشيء، وأن ثيابه متسخة ومتجعدة. ***يبدو كمن أمضى وقتاً طويلاً ينام في ثيابه***، فكر بإحساس هو مزيج من الاشمئزاز والشفقة. ولكنه حين رآه، بعد ذلك، جالساً على المقعد، أحس أن روحه تطفح بالامتنان، وتأهب لأن يلقي عليه أعظم موعظة في حياته. ***أرجو من يسوع*** - فكر في أثناء ذلك - ***أن يسمح له بتذكر قبعته كي لا أضطر إلى طرده من المعبد***. وبدأ بإلقاء الموعظة.

تكلم في البدء دون أن ينتبه إلى كلماته. بل إنه لم يكن يسمع نفسه. كان لا يكاد يسمع سوى اللحن المحدد والمنفلت الذي ينساب من ينبوع هاجع في روحه منذ بدء العالم. كان لديه اليقين المشوش بأن كلماته تخرج دقيقة، مناسبة، ومضبوطة، وبالترتيب والفرصة المتوقعين. كان يشعر بأن بخاراً ساخناً يضغط على أحشائه. ولكنه كان يعرف كذلك أن روحه نظيفة من الغرور، وأن الشعور بالرضا الذي فاجأ حواسه لم يكن تكبراً، ولا تمرداً، ولا زهواً، وإنما هو ابتهاج خالص من أعماق روحه بربنا.

وفي حجرة نومها، كانت ريبيكا تشعر بالإغماء، مدركة أن الحر سيصبح غير محتمل بعد قليل. ولو لم تكن تشعر أنها متجذرة في القرية بسبب خوف من التجديد لوضعت أمتعتها في صندوق مع نفتالين ومضت تجوب العالم، مثلما فعلت جدة أمها، كما قيل لها. ولكنها كانت تعلم في دخيلتها أنه مقدر لها أن تموت في القرية، بين تلك الأروقة غير المتناهية وغرف النوم التسع، التي ستستبدل شِباكها المعدنية، فكرت، بزجاجٍ محجر عندما يتوقف الحر. أي أنها ستبقى هناك، قررت (وكان قراراً تتخذه كلما رتبت ملابسها في الخزانة)، وقررت كذلك أن تكتب إلى «ابن عميِ السامي» كي يبعث إليهم كاهناً شاباً وتتمكن من الذهاب مجدداً إلى الكنيسة بقبعتها ذات الأزهار المخملية الصغيرة، وأن تسمع من جديد قداساً مرتباً

ومواعظ عاقلة وبنَّاءة. غداً هو الاثنين، فكرت، وبدأت تفكر دفعة واحدة في الاستهلال الذي ستكتبه في رسالتها للمطران (وهو استهلال كان يمكن للكولونيل بويندیا أن يعتبره مبتذلاً وينم عن قلة احترام)، عندئذ فتحت آرخنيديا فجأة الباب ذا الشبك المعدني، وهتفت:

ـ سيدتي، يقولون إن الأب قد جُنَّ وهو على المنبر.

التفتت الأرملة إلى الباب بوجه خريفي ومرير، هو وجهها بالكامل.

ـ إنه مجنون منذ خمس سنوات على الأقل ـ قالت. وواصلت ترتيب ثيابها وهي تضيف ـ : لا بد أنه رأى الشيطان من جديد.

ـ لم يكن ما رآه هذه المرة هو الشيطان ـ قالت آرخنيديا.

ـ ما الذي رآه إذاً؟ ـ سألت السيدة ريبيكا، معتدة بنفسها، ودون مبالاة.

ـ يقول الآن إنه رأى اليهودي التائه.

أحست الأرملة أن جلدها يقشعر. حشد أفكار مختلط لم تستطع أن تميز فيها شِباك نوافذها الممزقة، والحر، والطيور الميتة، والرائحة الكريهة، مرت كلها في رأسها حين سمعت الكلمتين اللتين لا تتذكر أنها سمعتهما منذ أماسي طفولتها البعيدة: «اليهودي التائه». عندئذ بدأت تتحرك، شاحبة، جليدية، إلى حيث كانت آرخنيديا تتأملها فاغرة الفم.

ـ صحيح ـ قالت بصوت خرج من أعماقها ـ الآن بدأت أفهم سبب موت الطيور.

ومدفوعة بالرعب، اتشحت بشال أسود مطرز، واجتازت بنفس واحد الممر الطويل والصالة المترعة بأشياء تزينية والباب الخارجي، والكوادرتين اللتين تفصلانها عن الكنيسة، حيث كان الأب أنطونيو إيسابيل دل سانتيسيمو ساكرامينتو دل ألتار متجلياً، ويقول: «... أقسم لكم أنني رأيته. أقسم لكم أنه اعترض سبيلي هذا الصباح وأنا عائد من تقديم المسحة المقدسة الأخيرة لامرأة خوناس النجار.

أقسم لكم أن وجهه كان مطلياً بلعنة الرب، وأنه يُخلّف لدى مروره أثراً من الرماد المتقد».

انقطعت الكلمة، وظلت طافية في الهواء. انتبه إلى أنه غير قادر على كبح ارتعاش يديه، وأن جسده كله يرتعش، وأن خيطاً من العرق الجليدي ينحدر ببطء على عموده الفقري. كان يشعر بالتوعك، يشعر بالارتعاش، يشعر بالظمأ، وبتلوٍ شديد في أحشائه، وبدويٍّ رنّ كنغمة أرغن عميقة في أحشائه. وعندئذ أدرك الحقيقة.

رأى أن هناك أناساً في الكنيسة، وأن السيدة ريبيكا تتقدم في الممر الأوسط بمظهر مؤثر، مشهدي، وبذراعين مفتوحين، ووجه تغطيه المرارة والبرودة يتوجه نحو الأعالي. فهم بصورة مشوشة ما كان يحدث، بل كانت لديه البصيرة الكافية ليدرك أنه من الغرور الاعتقاد أنه يرعى حدوث معجزة. أسند يديه المرتجفتين بتذلل إلى الحافة الخشبية، واستأنف خطبته.

ـ عندئذ تقدم باتجاهي ـ قال. وفي هذه المرة سمع صوته مقنعاً ومؤثراً ــ. تقدم باتجاهي وكانت عيناه من زمرد، وشعره خشن، ورائحته رائحة تيس فحل. فرفعتُ يدي لأواجهه باسمِ ربنا، وقلت له: «توقف. لم يكن يوم الأحد صالحاً قط للتضحية بحَمَل».

وعندما انتهى كان الحر قد بدأ. ذلك الحر الزخم، الراسخ والحارق في شهر آب ذاك الذي لا يُنسى. ولكن الأب أنطونيو إيسابيل لم يكن ينتبه إلى الحر. كان يعرف أن هناك، وراء ظهره، تنتصب القرية الموهنة، المأخوذة بالموعظة، لكن ذلك لم يكن يبعث فيه السعادة. ولم يكن يسعده كذلك الانتظار الوشيك للنبيذ الذي سيريح حنجرته المتأذية. كان يشعر بعدم الراحة، وبأنه غير متكيف. كان يشعر بالتشوش، ولم يستطع التركيز على لحظة القربان السامية. لقد كان يحدث له ذلك منذ بعض الوقت، ولكنه الآن شرود مختلف، لأن تفكيره مترع بقلق محدد. إنه يتعرف أول مرة في حياته على الزهو. ومثلما تخيله وحدده في مواعظه، أحس

أن الزهو مُلِحٌ مثل الظمأ. أغلق ستارة المصلى بحماسة، وقال:

- فيثاغورث.

اقترب القندلفت من المذبح، وهو صبي ذو رأس حليق ولامع، وابن بالعماد للأب أنطونيو إيسابيل الذي أطلق عليه اسمه.

- اجمع الصدقات - قال الكاهن.

رمش الصبي بعينيه، واستدار دورة كاملة، ثم قال بصوت لا يكاد يُسمع:

- لا أعرف أين هو الطبق.

وكان ما قاله صحيحاً. فالصدقات لم تُجمع منذ شهور.

- ابحث إذاً عن كيس كبير في حجرة المقدسات واجمع أقصى ما تستطيع - قال الأب.

- وماذا أقول؟ - سأل الصبي.

تأمل الأب جمجمته الحليقة والزرقاء، وخطوط التحام العظام البارزة، وهو مستغرق في التفكير. وكان هو الذي رمش الآن:

- قل إنها لإبعاد اليهودي التائه - قال ذلك وشعر أنه يتحمل ثقلاً كبيراً في قلبه. لكنه لم يسمع للحظة سوى هسيس احتراق الشموع في المعبد الصامت، وتنفسه الهائج والشاق. ووضع بعد ذلك يده على كتف القندلفت الذي كان ينظر إليه مذعوراً بعينيه المدورتين، وقال:

- خذ بعد ذلك النقود وأعطها للفتى الذي كان وحده في البداية، وقل له إن الأب يرسلها إليه كي يشتري قبعة جديدة.

ورود اصطناعية
Rosas artificiales

(1962)

بينما هي تتحرك بالتلمس في عتمة الفجر، ارتدت مينا ثوبها الذي بلا كمين، والذي علقته في الليلة الفائتة بجوار السرير، وقلّبت صندوق الملابس بحثاً عن الكمَّين المنفصلين. ثم بحثت عنهما على مسامير الجدران وخلف الأبواب، محاولة عدم إحداث ضجة كي لا توقظ جدتها العمياء التي تنام في الحجرة نفسها. ولكنها عندما اعتادت على الظلمة، انتبهت إلى أن الجدة كانت قد استيقظت، فذهبت إلى المطبخ لتسألها عن الكمَّين.

- إنهما في الحمّام - قالت الجدة -، لقد غسلتهما مساء أمس.

كانا هناك، معلقين على سلك معدني بملقطين خشبيين. وكانا لا يزالان رطبين. عادت مينا إلى المطبخ وفردت الكمّين على أحجار الموقد. وكانت العمياء أمامها تحرك القهوة، وبؤبؤا عينيها الميتين مصوبين إلى حافة الشرفة المبنية بالآجر، حيث يوجد صف أصص أعشاب طبية.

ـ لا تعودي إلى أخذ أشيائي ـ قالت مينا ـ ففي هذه الأيام لا يمكن الاعتماد على الشمس.

أدارت العمياء وجهها باتجاه الصوت.

- نسيت أنه أول يوم جمعة - قالت.

وبعد أن أدركت، باستنشاقها نفساً عميقاً، أن القهوة صارت جاهزة، رفعت الإناء عن الموقد.

- ضعي ورقاً تحت الكمّين، لأن هذه الأحجار متسخة - قالت.

مرت مينا بسبابتها على أحجار الموقد. كانت وسخة بقشرة من الهباب المتيبس الذي لا يوسخ الكمين ما لم يُفركا بالأحجار.

ـ إذا اتسخا ستكونين أنت المسؤولة ـ قالت.

كانت العمياء قد سكبت فنجان قهوة.

ـ إنك غاضبة ـ قالت وهي تدفع كرسياً نحو الشرفة ـ: تناول المرء خبز القربان وهو غاضب فيه انتهاك للمقدسات ـ وجلست لتشرب القهوة أمام ورود الفناء. وعندما دوت دقة الناقوس الثالثة من أجل القداس، تناولت مينا الكمين عن الموقد، وكانا ما يزالان رطبين. ولكنها ارتدتهما. فالأب آنخل لن يقدم لها خبز القربان وهي في فستان يكشف عن الكتفين. لم تغسل وجهها. أزالت آثار حمرة الشفاه بالمنشفة، وتناولت من الغرفة كتاب الصلوات وشالها، وخرجت إلى الشارع. وبعد ربع ساعة عادت.

ـ ستصلين بعد صلاة التبشير ـ قالت العمياء وهي تجلس قبالة ورود الفناء.

دخلت مينا مباشرة إلى المرحاض

ـ لا يمكنني الذهاب إلى القداس ـ قالت ـ. فالكمان مبللان، وملابسي كلها غير مكوية. ـ أحست بأن نظرة بصيرة تتابعها.

ـ إنه أول يوم جمعة، ولن تذهبي إلى القداس ـ قالت العمياء.

لدى عودتها من المرحاض، سكبت مينا لنفسها فنجان قهوة وجلست مستندة إلى حافة الباب المطلية بالكلس بجانب العمياء. لكنها لم تستطع شرب القهوة.

ـ أنت السبب ـ دمدمت بحقد أصم، وهي تشعر أنها تغرق في الدموع.

ـ إنك تبكين ـ هتفت العمياء.

وضعت مرشة السقاية بجانب أصص الأوريغانو وخرجت إلى الفناء مكررة:

ـ إنك تبكين.

وضعت مينا الفنجان على الأرض قبل أن تنهض.

ـ إنني أبكي من الغضب ـ قالت. ثم أضافت وهي تمر بمحاذاة

الجدة ـ عليك أن تذهبي للاعتراف لأنك تسببت في إضاعتي تناول خبز قربان أول يوم جمعة.

ظلت العمياء ثابتة دون حراك بانتظار أن تغلق مينا باب غرفة النوم. ثم مشت بعد ذلك إلى أقصى الشرفة. وانحنت متلمسة إلى أن وجدت على الأرض الفنجان الذي لم يُمَس. وبينما هي تسكب القهوة في الإناء الخزفي، واصلت القول:

ـ الرب يعلم أنني مطمئنة الضمير.

خرجت أم مينا من غرفة النوم.

ـ مع من تتحدثين؟ ـ سألت.

ـ لا أحد ـ قالت العمياء ـ لقد أخبرتك من قبل أنني صرت مجنونة.

فكّت مينا أزرار صدارها وهي تُغلق على نفسها باب غرفتها، وأخرجت ثلاثة مفاتيح صغيرة تحملها معلقة بدبوس. وبأحد تلك المفاتيح فتحت درج الخزانة السفلي، وأخرجت صندوقاً خشبياً صغيراً. فتحته بمفتاح آخر. وكانت فيه رزمة رسائل على ورق ملون، مربوطة بشريط مطاطي. خبأتها في صدارها، ووضعت الصندوق الصغير في مكانه، وأعادت إقفال الدرج بالمفتاح. ثم ذهبت إلى المرحاض ورمت فيه الرسائل.

ـ كنت أظنك في القداس ـ قالت لها أمها.

ـ لم تستطع الذهاب ـ تدخلت العمياء ـ فقد نسيت أنه يوم الجمعة الأول وغسلت الكمّين مساء أمس.

ـ ومازالا رطبين ـ دمدمت مينا.

ـ كان عليها أن تعمل كثيراً في هذه الأيام ـ قالت العمياء.

ـ إنها مئة وخمسون دزينة ورود كان عليّ تسليمها في عيد الفصح ـ قالت مينا.

كانت الشمس تبعث الحر باكراً. وقبل السابعة أقامت مينا ورشة ورودها الاصطناعية في الصالة: سلة ممتلئة بالبتلات والأسلاك، وصندوق من ورق مطاطي، ومقصين، وبكرة خيوط،

وعلبة صمغ. بعد قليل جاءت ترينيداد حاملة تحت إبطها علبة كرتون، لتسألها عن سبب عدم ذهابها إلى القداس.

ـ ليس لدي أكمام ـ قالت مينا.

ـ كان يمكن لأي شخص أن يعيرك كمين ـ قالت ترينيداد.

ودفعت كرسياً لتجلس بجانب سلة البتلات.

ـ كان الوقت قد تأخر ـ قالت مينا.

أنهت وردة. ثم قربت السلة وجعدت البتلات بالمقص. ووضعت ترينيداد علبة الكرتون على الأرض وتدخلت في العمل.

تأملت مينا العلبة.

ـ هل اشتريت حذاء؟ سألتها.

ـ إنها فئران ميتة ـ قالت ترينيداد.

ولأن ترينيداد خبيرة في تجعيد البتلات، انهمكت مينا في صنع السوق من أسلاك مغلفة بورق أخضر. عملتا بصمت دون أن تنتبها إلى الشمس التي تتقدم في الصالة المزينة بلوحات ريفية حالمة وصور عائلية. وعندما أنهت مينا سوق الورود التفتت إلى ترينيداد بوجه بدا مفضياً إلى شيء غير مادي. كانت ترينيداد تُجعد البتلات بدقة تثير الإعجاب، وهي تكاد لا تحرك رؤوس أصابعها، وساقاها ملتصقتان تماماً. لاحظت مينا حذاءها الذكوري. وتفادت ترينيداد النظرة، دون أن ترفع رأسها، بسحب قدميها قليلاً إلى الوراء، وتوقفت عن العمل.

ـ ماذا هناك؟ ـ قالت.

انحنت مينا نحوها. وقالت:

ـ لقد رحل.

أفلتت ترينيداد المقص في حضنها.

ـ لا.

ـ لقد رحل ـ كررت مينا.

نظرت إليها ترينيداد دون أن ترمش. وقسمت تجعيدة عمودية حاجبيها المقطبين المتصلين.

- والآن؟ - سألت.

فردت مينا دون ارتعاش في صوتها:

- الآن، لا شيء.

ودّعتها ترينديداد قبل الساعة العاشرة.

وبتحررها من وطأة مودتها، أوقفتها مينا لحظة كي تلقي الفئران الميتة في المرحاض. وكانت العمياء تشذب شجيرة الورد.

- أراهن أنك لا تعرفين ما أحمله في هذه العلبة - قالت لها مينا لدى مرورها.

وهزت الفئران في العلبة. وأصغت العمياء بانتباه.

- هزّي مرة أخرى - قالت.

كررت مينا الحركة، لكن العمياء لم تستطع تحديد ما في العلبة بعد المرة الثالثة وهي تسند صوان أذنها بإصبعها السبابة.

- إنها الفئران التي وقعت الليلة الفائتة في مصايد الكنيسة - قالت مينا.

وعند عودتها مرت بجانب العمياء دون أن تتكلم. لكن العمياء تبعتها. وعندما وصلت إلى الصالة، كانت مينا وحدها عند النافذة المغلقة، تنهي الورود الاصطناعية.

- مينا - قالت العمياء - إذا أردت أن تكوني سعيدة، عليك ألا تثقي بالغرباء.

نظرت إليها مينا دون أن تتكلم. واحتلت العمياء الكُرسي المقابل وحاولت التدخل في العمل. لكن مينا منعتها.

- إنك عصبية - قالت العمياء.

- بسببك - قالت مينا.

- لماذا لم تذهبي إلى القداس؟ - سألت العمياء.

- أنت تعرفين السبب أفضل من أي شخص.

- لو أن الكمّين هما السبب لما كنتِ غادرتِ المنزل. هناك من كان ينتظرك في الطريق وسبب لك إزعاجاً.

مرت مينا بيديها أمام عيني جدتها، كأنها تنظف لوح زجاج.

- أنت متنبئة - قالت.

- لقد ذهبتِ مرتين إلى المرحاض هذا الصباح - قالت العمياء - وأنت لا تذهبين إليه عادة سوى مرة واحدة.

واصلت مينا صنع الورود.

- هل تجرئين على أن تكشفي لي ما تخبئينه في درج الخزانة؟ - سألت العمياء.

ودون أن تتعجل، غرست مينا الوردة في إطار النافذة، وأخرجت المفاتيح الصغيرة الثلاثة من صدارها، ووضعتها في يد العمياء. وأطبقت لها هي نفسها أصابعها.

- اذهبي وانظري بعينيك - قالت.

تلمست العمياء المفاتيح الصغيرة برؤوس أصابعها.

- عيناي لا تستطيعان رؤية ما في قاع المرحاض.

رفعت مينا رأسها وشعرت عندئذ بإحساس مختلف: شعرت أن العمياء تعرف أنها تنظر إليها.

- ألقي بنفسك إلى حفرة المرحاض إذا كانت أموري تهمك إلى هذا الحد.

تجاهلت العمياء الاعتراض.

- إنك تكتبين دوماً في السرير حتى الفجر - قالت.

- أنت نفسك تطفئين النور - قالت مينا.

- وعلى الفور تشعلين أنت المصباح اليدوي - قالت العمياء - ومن أنفاسك أستطيع أن أخبرك عندئذ بما تكتبينه.

بذلت مينا جهدها كي لا تتوتر.

- حسن - قالت دون أن ترفع رأسها - فلنفترض أن الأمر كذلك؛ ما الغريب في هذا؟

- لا شيء - أجابت العمياء - سوى أنه جعلك تتخلفين عن تناول خبز قربان أول يوم جمعة.

جمعت مينا بكلتا يديها لفافة الأسلاك، والمقص، وحفنة من السوق والورود غير المنتهية. ووضعت كل ذلك في السلة، وواجهت العمياء.

ـ أنت تريدين إذاً أن أخبرك بما ذهبت أفعله في المرحاض؟ ـ سألتها. وظلتا صامتتين إلى أن أجابت مينا نفسها عن سؤالها بالقول ـ: ذهبت لأتبرز.

ألقت العمياء المفاتيح الصغيرة الثلاثة في السلة.

ـ سيكون عذراً جيداً ـ دمدمت وهي تتجه نحو المطبخ ـ وكان يمكن لك أن تقنعيني لو لم تكن المرة الأولى في حياتك التي أسمعك فيها تتلفظين بكلمة مبتذلة.

وكانت أم مينا آتية من الردهة في اتجاه معاكس، محملة بباقات أزهار شوكية.

ـ ما الذي يجري؟ ـ سألت.

ـ ما جرى أنني مجنونة ـ قالت العمياء ـ ولكن يبدو أنهم لا يفكرون في إرسالي إلى مستشفى المجانين ما دمت لم أبدأ برمي الحجارة.

جنازة الأم العظيمة

Los funerals de la Mamá Grande

(1962)

هذه هي، أيها الجاحدون في العالم بأسره، القصة الحقيقية للأم الكبيرة، العاهلة المطلقة لمملكة ماكوندو، التي عاشت وهي تمارس سلطاتها طوال اثنتين وتسعين سنة، وماتت وسط جو من القداسة في يوم ثلاثاء من شهر أيلول الماضي، وجاء الحبر الأعظم لحضور جنازتها.

الآن وقد استعادت توازنها الأمةُ التي اهتزت من الأعماق. الآن وقد علق زمارو سان خاثنتو، ومهربو غواخيرا، وزرّاع الرز في سينوا، ومومسات غواكامايال، وسحرة سيّربي، ومزارعو الموز في أركاتاكا مظلاتهم ليستردوا قواهم بعد السهر المضني، وعاد رئيس الجمهورية ووزراؤه وكل أولئك الذين مثّلوا السلطة العامة والقوى الغيبية الخارقة في أروع مناسبة جنائزية سجلتها الحوليات التاريخية، لممارسة مهام مناصبهم؛ الآن وقد صعد الحبر الأعظم إلى السماء جسداً وروحاً، وصار من المستحيل التجول في ماكوندو بسبب الزجاجات الفارغة، وأعقاب السجائر، والعظام المقروضة، والعبوات المعدنية والخرق وفضلات الغائط وما خلّفته الحشود التي جاءت إلى الجنازة، الآن حان الوقت لوضع كرسي أمام الباب الخارجي والبدء برواية أدق تفاصيل هذا الهياج الوطني من البداية، قبل أن يتاح الوقت للمؤرخين بالمجيء.

قبل أربعة عشر أسبوعاً، بعد ليال لا حصر لها من الكمادات ولبخات الخردل والمحاجم، وبعد أن هدّها هذيان الاحتضار، أمرت الأم الكبيرة أن يُجلسوها على كرسيها الهزاز القديم المصنوع من الخيزران كي تُفصح عن مشيئتها الأخيرة. كان هذا هو مطلبها الأخير الذي تحتاج إليه كي تموت. في ذلك الصباح، وبمساعدة الأب أنطونيو

إيسابيل، رتبت شؤون تجارتها الروحية، ولم يبق عليها سوى ترتيب أمر صناديقها مع أبناء أشقائها التسعة، وهم ورثتها الكونيون الذين يسهرون حول سريرها. والكاهن الذي يوشك أن يكمل مئة سنة، ظل في الغرفة يكلم نفسه. كانوا قد احتاجوا إلى عشرة رجال كي يصعدوا به إلى مخدع الأم الكبيرة. وقد قرر البقاء هناك كيلا يضطروا إلى إنزاله ثم العودة للصعود به مرة أخرى في الدقيقة الأخيرة.

أما نيكانور، أكبر أبناء أخوتها، وهو مارد وفظ، يرتدي الخاكي، وينتعل جزمة بمهماز، ويثبت تحت قميصه مسدساً من عيار 38، طويل السبطانة، فقد مضى بحثاً عن الكاتب بالعدل. وكان المنزل الكبير المؤلف من طابقين، والعابق برائحة الدبس والأوريغانو، بحجراته المترعة بصناديق كبيرة وترهات أربعة أجيال ممن تحولوا إلى غبار، قد أصيب بالشلل منذ الأسبوع الذي سبق انتظار تلك اللحظة. وفي الممر المركزي العميق، حيث تظهر على الجدران خطافات كانت تُعلق عليها في أزمنة مضت الخنازير المسلوخة، وتنزف الغزلان دمها في أيام آحاد شهر آب الناعسة، كان العمال ينامون متكومين على أكياس الملح ومعدات الفلاحة، منتظرين صدور الأمر بإسراج البغال ليقوموا بنشر الخبر المشؤوم في أنحاء الإقطاعية غير المحدودة. وكان بقية أفراد الأسرة في الصالة. النساء الشاحبات والمستنزفات من بحث مسألة الميراث والسهر، حافظن على حداد صارم هو خلاصة تراكم حدادات لا حصر لها. وكانت صرامة الأم الكبيرة قد ضربت سياجاً من القداسة حول أملاكها ولقبها، وضمن ذلك السياج كان الأعمام يتزوجون من بنات أخوتهم، وأبناء العمومة من خالتهم، والأبناء من أخوات الزوجات، إلى أن شكلوا تشابك قرابة معقد حوّل السلالة إلى حلقة فجور مفرغة. والوحيدة التي استطاعت الإفلات من تلك الدائرة هي مجدلينا، أصغر بنات الأخوة. فقد روعتها الهذيانات وتطهرت على يد الأب أنطونيو إيسابيل، فحلقت شعر رأسها وتخلت عن أمجاد الدنيا وزهوها الباطل

لتلتحقَ بنظام الراهبات المستجدات في الأبرشية الرسولية. وعلى هامش العائلة الرسمية، ومن خلال ممارسة حق وضع القدم[1]، كان الذكور قد ملؤوا أكواخاً ودروباً وقرى بسلالة من أبناء الزنا المنتشرين بين الخدم من دون ألقاب أو كنى، تحت تسمية أبناء بالمعمودية، أو أتباع محظيين، أو محميين في كنف الأم الكبيرة.

أثار الموتُ الوشيك ترقباً مضنياً. ولم تكن رنة صوت المحتضرة المعتادة على التكريم والطاعة أعلى من صوت أرغن خفيض في الحجرة المغلقة. لكن صداه تردد في أقصى أرجاء الإقطاعية. لم يكن هناك من ينظر دون مبالاة إلى تلك الميتة. فطوال القرن الحالي كانت الأم الكبيرة مركز الجاذبية في ماكوندو، مثلما كان أخوتها وآباؤها وآباء آبائها في الماضي، في هيمنة امتدت قرنين من الزمان. فقد تأسست القرية حول كنيتهم. وليس هناك من يعرف منشأ تلك الثروة أو حدودها أو قيمتها الحقيقية، ولكن الجميع اعتادوا على الإيمان بأن الأم الكبيرة هي سيدة المياه الجارية والراكدة، والمياه التي هطلت مطراً وتلك التي ستهطل، والدروب المجاورة، وأعمدة التلغراف، والسنوات الكبيسة، والحر، وأن لها الحق الموروث كذلك على الحياة والأملاك. وعندما كانت تجلس لتستمتع ببرودة المساء على شرفة منزلها، بكل ثقل أحشائها وسلطتها المضغوطة على كرسيها الهزاز القديم الذي من الخيزران، كانت تبدو حقاً ثرية وقوية بصورة غير متناهية، وأنها أغنى سيدة في العالم والأوسع سلطة.

ولم يخطر ببال أحد أن الأم الكبيرة هي بشر فان، باستثناء أفراد عشيرتها، وباستثنائها هي نفسها، إذ كانت تنخسها هواجس شيخوخة الأب انطونيو إيسابيل. ولكنها كانت واثقة من أنها ستعيش أكثر من مئة عام، مثل جدتها لأمها التي تصدت في حرب 1875

---

[1] حق كان يخول السيد الإقطاعي في العصور الوسطى وضع قدمه على فراش الفلاحين ليلة زفافهم، ومضاجعة العروس قبل أن يقربها عريسها كنوع من تأكيد الهيمنة والسطوة.

لفصيلة من رجال الكولونيل أوريليانو بويندا تمركزت في مطبخ المزرعة. وفي شهر نيسان من هذا العام فقط، أدركت الأم الكبيرة أن الله لن يمنحها امتياز أن تصفي شخصياً، في مواجهة مفتوحة، شرذمة من الماسونيين الفيدراليين.

خلال أسبوع آلامها الأول ألهاها طبيب الأسرة بلزقات خردل وجوارب صوفية. كان طبيباً بالوراثة، تخرج بالتشريف من مونبلييه، وكان معادياً، لقناعات فلسفية، لكل ما حققته علوم مهنته من تقدم. وقد منحته الأم الكبيرة امتيازاً حصرياً بحظر استقرار أطباء آخرين في ماكوندو. وكان في زمن مضى يجوب القرية على صهوة جواد ليعود مرضى الغروب المتعبين، فمنحته الطبيعة امتياز أن يكون أباً للعديد من الأبناء الغرباء. ولكن التهاب المفاصل طرحه متيبساً في أرجوحته، وانتهى إلى معاينة مرضاه دون زيارتهم، عن طريق التخمينات والرسائل ووصف أحوالهم الذي يُنقل إليه. وعندما استدعته الأم الكبيرة، اجتاز الساحة بالبيجاما مستنداً إلى عكازين، واستقر في مخدع المريضة. وعندما أدرك أن الأم الكبيرة تحتضر، طلب إحضار صندوق كبير فيه مجموعة مرطبانات خزفية عليها كتابات باللاتينية، وقام خلال ثلاثة أسابيع بدهن المحتضرة من الداخل والخارج بكل أنواع المراهم الأكاديمية، والجُلاب العظيم، والحقن الشرجية المتقنة. ثم عالجها بعد ذلك بالضفادع المدخنة في موضع الألم، وبالعلق على الكليتين، واستمر بذلك حتى صباح اليوم الذي كان عليه فيه أن يواجه أحد خيارين؛ إما أن يأتي الحلاق لفصد دمها، أو يحضر الأب أنطونيو إيسابيل لطرد الشياطين منها.

بعث نيكانور في طلب الكاهن. وقام أقوى عشرة من رجاله بحمله من دار الأبرشية حتى حجرة نوم الأم الكبيرة، وهو جالس على كرسي هزاز من الصفصاف، يصرّ تحت مظلة المناسبات الكبرى الصدئة. وكان ناقوس الزاد الأخير الذي دوى في ذلك الفجر الأيلولي الدافئ هو أول إشعار لأهالي ماكوندو. وعندما بزغت الشمس،

كانت الساحة الصغيرة أمام دار الأم الكبيرة أشبه بمهرجان ريفي.

كان ما يحدث أشبه بذكرى أزمنة أخرى. فإلى أن بلغت الأم الكبيرة سن السبعين، كانت تحتفل بعيد ميلادها في أطول مهرجان حفظته الذاكرة وأشده صخباً. كانت دمجانات الخمر توضع في متناول يد القرية، وتُذبح الماشية في الساحة العامة، وتقف فرقة موسيقية على منضدة لتعزف ثلاثة أيام دون توقف. وتحت أشجار اللوز المغبرة، حيث عسكرت في الأسبوع الأول من هذا القرن قوات الكولونيل أوريليانو بويندیا، كانت تُنصب أكشاك بيع حلوى الماساتو، والخبز الفرنسي، والسجق، وشحم الخنزير المقلي، وفطائر اللحم، وعجة الجبن والدقيق، وعجة اليكة، والخبز المحلى، وثمار البونيويلو المقلية، وعجة الذرة بالسمن، وحلوى الأوخلدري، والنقانق، وأحشاء الماشية المطبوخة، وحلوى جوز الهند، وعصير قصب السكر، وكل أصناف اللقيمات اللذيذة، والحلي الرخيصة، والأواني، ومصارعات الديكة، وألعاب الحظ واليانصيب. ووسط صخب الحشود الهائجة، كانت تباع قلائد وتعاويذ كتفية تحمل صورة الأم الكبيرة.

وكانت الاحتفالات تبدأ قبل يومين من يوم ميلادها وتنتهي في يوم عيدها بدوي ألعاب نارية وحفلة رقص عائلية في منزل الأم الكبيرة. وكانت تُقدم للضيوف المختارين وأفراد الأسرة الشرعيين خدمة سخية يقوم بها أبناء الزنا. وكانوا يرقصون على أنغام البيانو الأوتوماتيكي العتيق المزود بأسطوانات حديثة. وكانت الأم الكبيرة تترأس الحفلة من مكانها في صدر القاعة، وهي جالسة على متكأ وثير وحولها وسائد من الكتان، تشير بتعليمات خفية بيدها اليمنى المزينة بخواتم في أصابعها كلها. وقد اعتادت في تلك الليلة، بالاشتراك مع أعزائها أحياناً، أو بمشورة إلهامها وحده في أغلب الأحيان، إعلان الزيجات التي ستتم في السنة التالية. ولإنهاء الأفراح، كانت الأم العظيمة تخرج إلى الشرفة المزدانة بالأكاليل والقناديل الورقية، وتلقي قطعاً نقدية على الحشود.

لقد توقف ذلك التقليد بسبب حداد الأسرة المتتالي من جهة، وبسبب التقلبات السياسية في السنوات الأخيرة من جهة أخرى. ولم تشهد الأجيال الجديدة مظاهر ذلك التألق إلا بالسماع فقط. ولم يتوصلوا إلى رؤية الأم الكبيرة في القداس، يُهوِّي لها أحد أعضاء السلطة المدنية، وتتمتع بامتياز عدم السجود حتى في لحظة الصعود الإلهي، لئلا تفسد فستان الكشاكش الهولندية وتنورتها المنشاة. وكان المسنون يتذكرون، كأضغاث أحلام شبابية، مئتي متر السجاد التي فُرشت من المنزل النبيل حتى مذبح الكنيسة الأكبر، بعد الظهر اليوم الذي حضرت فيه ماريا دل روساريو كاستانيدا أي مونتيرو مأتم أبيها، وعادت من الشارع المفروش بالسجاد وقد تولت مكانتها الجديدة والوقورة بتحولها إلى الأم الكبيرة، وهي في الثانية والعشرين من عمرها. لم تكن تلك الرؤية القروسطية تنتمي إلى ماضي الأسرة وحسب، بل إلى ماضي الأمة بأسرها. وكانت الأم الكبيرة تختفي في أسطورتها، وتزداد غموضاً وتنائياً، وتكاد لا تُرى على شرفتها المختنقة آنذاك بأزهار الجيرانيوم في أمسيات الحر. وكانت سلطتها تُمارس من خلال نيكانور. وكان هناك عهد مضمر، صاغه العرف، وهو أنه في اليوم الذي تختم فيه الأم الكبيرة وصيتها، يعلن ورثتها ثلاث ليال من اللهو العام. ولكن، كان يُعرف أيضاً أنها قررت عدم النطق برغبتها الأخيرة إلا قبل ساعات قليلة من موتها، ولم يكن هناك من يفكر جدياً في أن تكون الأم العظيمة فانية. وفي فجر هذا اليوم فقط، عندما استيقظ أهالي ماكوندو على جلبة قربان الاحتضار، توصلوا إلى القناعة بأن الأم الكبيرة ليست فانية وحسب، وإنما هي وشك الموت كذلك.

لقد حانت ساعتها. ففي فراشها الكتاني، ومطلية بعصارة الصبر، تحت ظلّة السرير الحريرية المموجة والمغبرة، تكاد لا تُلمح أي حياة في التنفس الخفيف لثدييها الأموميين. والأم الكبيرة التي صدت حتى سن الخمسين أشد المتقدمين لطلب يدها عاطفة، والتي زودتها الطبيعة بثديين يكفيان لأن تُرضع هي وحدها كل أبناء جنسها، كانت

تحتضر عذراء وبلا أبناء. وفي لحظة المسحة الأخيرة، كان على الأب أنطونيو إيسابيل أن يطلب المساعدة ليتمكن من وضع الزيت على راحتي يديها، لأن قبضتي الأم الكبيرة كانتا مطبقتين منذ بداية احتضارها. ولم تُجدِ نفعاً محاولات بنات أخوتها. وفي تلك المقاومة، ولأول مرة منذ الأسبوع، ضغطت المحتضرة إلى صدرها اليد المرصعة بأحجار كريمة، وصوبت نظرتها التي بلا لون إلى بنات أخوتها قائلة: «يا قاطعات الطريق». ثم رأت الأب أنطونيو إيسابيل بثوبه الكهنوتي وإلى جانبه القندلفت يحمل الأدوات المقدسة، فتمتمت بيقين وادع: «إنني أموت». وعندئذ نزعت الخاتم ذا الجوهرة الكبيرة وقدمته إلى مجدلينا، الراهبة المستجدة، فهو من حقها لأنها أصغر الورثة سناً. وكانت تلك هي نهاية ذلك التقليد: فقد تخلت مجدلينا عن الميراث لمصلحة الكنيسة.

وعند الفجر، طلبت الأم الكبيرة أن يتركوها على انفراد مع نيكانور لتفضي له بالتعليمات الأخيرة. وخلال نصف ساعة، سيطرت في أثنائها على قواها تماماً، استعلمت عن سير الأعمال. وأعطته تعليمات خاصة حول مصير جثتها، وأولت اهتمامها أخيراً لطقوس السهر على جثمانها. «عليك أن تبقي عينيك مفتوحتين ــ قالت ــ. واحتفظ بكل ما له قيمة وراء قفل، فكثير من الناس لا يأتون للسهر على الميت وإنما ليسرقوا». وبعد قليل من ذلك، قدمت وهي على انفراد مع الكاهن اعترافاً مطولاً، صريحاً ومفصلاً، ثم تلقت المناولة الأخيرة بحضور أبناء أخوتها. وعندئذ طلبت أن يجلسوها على كرسي الخزيران الهزاز لتعرب من مشيئتها الأخيرة.

كان نيكانور قد أعدّ، في أربع وعشرين صفحة مكتوبة بخط واضح جداً، قائمةً دقيقة بأملاكها. وبينما الأم العظيمة تتنفس بهدوء، بحضور الطبيب والأب أنطونيو إيسابيل كشاهدين، أملت على الكاتب بالعدل قائمة ممتلكاتها، المصدر السامي والوحيد لعظمتها وسلطتها. وكانت ثروتها المادية، باختزالها إلى أبعادها الحقيقية، تتمثل في ثلاث إقطاعيات مُنحت بمرسوم ملكي سامٍ خلال الحكم الاستعماري، ومع

مـرور الـزمن، وبفـضل زيجـات مـصلحة معقـدة، تجمعـت كلـها تحـت سيطرة الأم الكبيرة. وفي تلك الأراضي البور غير المحددة بدقة، وتشمل خمس بلدات، ولم تُزرع فيها قط حبة واحدة لحساب المالكين، كانت تعيش ثلاثمئة واثنتان وخمسون أسرة باسم مستأجرين. وفـي كل سنة، عشية عيد قديسها الشفيع، كانت الأم الكبيرة تمارس فعل التملك الوحيد الذي حال دون عودة تلك الأراضي إلى الدولة: جباية الإيجار. فكانت تجلس في شرفة منزلها الداخلية، وتتلقى هي شخصياً أجور حق السكن في أراضيها، مثلما كان يتلقاها أسلافها منذ أكثر من قرن من أسلاف المستأجرين. ومع انقضاء أيام الجباية الثلاثة، يكون الفناء قد امتلأ بالخنازير، والديوك الرومية والدجاج، وبأعشار وبواكير ثمار الأرض التي توضع هناك على أنها هدايا. وكان ذلك في الواقع هو المحصول الوحيد الذي لم تحصده الأسرة قط من أراض ميتة منذ نشوئها، وتُقدر للوهلة الأولى بمئة ألف هكتار. ولكن الظروف التاريخية اقتضت أن تنمو ضمن حدود تلك الأراضي وتزدهر التجمعات السكنية الست في مقاطعة ماكوندو، بما في ذلك مركز البلدية، وهكذا لم يكن لكل من يسكن بيتاً سوى حق ملكية المواد، لأن الأرض ملك الأم الكبيرة، ولها يُدفع الإيجار، مثلما يتوجب على الحكومة أن تدفعه مقابل استخدام المواطنين للشوارع.

وفي ما حول الدساكر، كانت تهيم على وجوهها أعداد لم تحصر قط، ولا يعنى بها أحد، من الماشية الموسومة على أردافها بوسم له شكل القفل. وقد أصبح هذا الوسم المتوارث مألوفاً، بسبب الفوضى وليس لحصر الأعداد، في مديريات بعيدة تصلها المواشي المفلتة في الصيف شبه ميتة من الظمأ، وكان من أمتن دعائم الأسطورة. ولأسباب لم يهتم أحد بتفسيرها، راحت إسطبلات البيت الواسعة تفرغ باطراد منذ الحرب الأهلية الأخيرة، وأقيمت فيها مؤخراً معاصر قصب السكر، ومواضع لحلب البقر، ومقشرة للرز.

وفضلاً عما جرى تعداده، أشارت الوصية إلى وجود جرار مملوءة

بأونصات ذهبية دُفنت في مكان من البيت خلال حرب الاستقلال، ولم يُعثر عليها في الحفريات الدورية والدقيقة. وإلى جانب الحق في مواصلة استغلال الأرض المؤجرة، وجباية الأعشار وبواكير المحاصيل وكل أنواع الهبات الاستثنائية، تسلّم الأقرباء خريطة جرى تناقلها من جيل إلى جيل، وأدخل كل جيل إضافات إليها، لتسهيل أمر العثور على الكنز الدفين.

وقد احتاجت الأم الكبيرة إلى ثلاث ساعات لتعدد أملاكها الأرضية. وبدا صوت المحتضرة، في جو المخدع الخانق، كما لو أنه يبجّل كل شيء يذكر في مكانه. وعندما ختمت توقيعها المرتجف، وتحته خَتَم الشهود توقيعهم، هزت رعشة سرية قلوب الحشود التي بدأت تتجمع أمام البيت، في ظل أشجار اللوز المغبَّرة.

ولم يكن ينقص عندئذ سوى التعداد الدقيق لمتلكاتها المعنوية. وقد بذلت الأم الكبيرة جهداً هائلاً ـ وهو الجهد نفسه الذي بذله أسلافها قبل أن يموتوا ليؤكدوا هيمنة نسبهم ـ لتستوي على ردفيها الضخمين، وأملت على الكاتب بالعدل، بصوت مسيطر وواضح، مستسلمة لذاكرتها، قائمة ممتلكاتها غير المرئية:

ثروات باطن الأرض، والمياه الإقليمية، وألوان العلم الوطني، والسيادة الوطنية، والأحزاب التقليدية، وحقوق الإنسان، والحريات المدنية، والزعامة العليا، وحق الالتماس الثاني، والمرافعة الثالثة، ورسائل التوصية، والاستمرارية التاريخية، والانتخابات الحرة، وملكات الجمال، وخطابات المناسبات الخطرة، والتظاهرات الحاشدة، والآنسات المتميزات، والسادة الأسوياء، والعسكريون المترفعون، وسيادته السامية، ومحكمة العدل العليا، والمواد المحظور استيرادها، والسيدات المتحررات، ومسألة اللحوم، ونقاء اللغة، ومضرب المثل للعالم، والنظام القضائي، والصحافة الحرة.. إنما المسؤولة، وأثينا أمريكا الجنوبية، والرأي العام، والدروس الديمقراطية، والأخلاق المسيحية، وندرة العملة الصعبة، وحق اللجوء، والخطر الشيوعي، ومركب الدولة، وغلاء المعيشة، والتقاليد الجمهورية، والطبقات المحرومة، ورسائل التأييد.

ولم تتمكن من الإكمال. فقد قطع التعداد المجهد آخر أنفاسها. فالأم الكبيرة الغارقة في البحر العظيم لتلك الصيغ المجردة التي شكلت خلال قرنين من الزمان المسوغ الأخلاقي لسلطة العائلة، تجشأت تَجشُّؤاً مدوياً، وماتت.

ورأى سكان العاصمة البعيدة والكئيبة بعد ظهر ذلك اليوم صورة امرأة في العشرين من عمرها على الصفحة الأولى من طبعات الصحف الاستثنائية، وظنوا أنها ملكة جمال جديدة. كانت الأم الكبيرة تعيش ثانية الشباب العابر لصورتها المكبرة على أربعة أعمدة بلمسات رتوش مستعجلة، حيث شعرها الغزير مجموع في أعلى جمجمتها بمشط من العاج، وإكليل مزركش على القلادة التي تغطي نحرها. إنها الصورة التي التقطها لها مصور جوال مرّ بماكوندو في بداية هذا القرن، وأرشفتها الصحف لسنوات طويلة في قسم الشخصيات المجهولة، وكان مقدراً لها أن تبقى في ذاكرة الأجيال الآتية. وفي الحافلات الهرمة، ومصاعد الوزارات، وصالونات الشاي الكئيبة المبطنة بستائر مزركشة وباهتة الألوان، كان الهمس يدور بتوقير واحترام حول السلطة الميتة في منطقتها، منطقة الحر والملاريا، وذُكر اسمها الذي كان مجهولاً إلى ما قبل ساعات قليلة في بقية أنحاء البلاد، قبل أن تكرسه الكلمة المطبوعة. رذاذ خفيف كان يلف المارة بالريبة وخضرة العفونة. ونواقيس جميع الكنائس كانت تُقرع في دقات جنائزية. ورئيس الجمهورية الذي فوجئ بالخبر وهو يرعى حفل تخريج دفعة ضباط جديدة، أوعز إلى وزير الحربية، بملاحظة كتبها بخط يده على ظهر البرقية، أن ينهي خطابه بدقيقة صمت تكريماً للأم الكبيرة.

لقد أحدثت الوفاة اضطراباً في النظام الاجتماعي. ورئيس الجمهورية نفسه، الذي كانت تصله المشاعر المدينية عبر مصفاة تنقية، استطاع وهو في سيارته أن يلمس برؤية سريعة، لكنها قاسية إلى حد ما، تفجع المدينة الصامت. إذ لم تفتح أبوابها سوى بعض المقاهي الرخيصة، وكانت كاتدرائية العاصمة مستعدة لتسعة أيام من

التكريم الجنائزي. وفي مبنى الكابيتول الوطني، حيث ينام المتسولون ملتحفين بالأوراق في كنف الأعمدة الدّورية والتماثيل الصامتة للرؤساء الراحلين، كانت أنوار المجلس مضاءة. وعندما دخل الرئيس مكتبه، متأثراً برؤية العاصمة في حداد، كان وزراؤه ينتظرونه واقفين وهم يرتدون الزي المأتمي، وأكثر مهابة وشحوباً من المألوف.

إن أحداث تلك الليلة والليالي التالية ستُنشر في ما بعد كدرس تاريخي. ليس بسبب الروح المسيحية التي أوحت بها لأعلى شخصيات السلطة العامة مقاماً فقط، وإنما كذلك بسبب نكران الذات الذي جرى به التوفيق بين مصالح متباينة ووجهات نظر متناقضة، بشأن الهدف المشترك في دفن جثة سامية. فخلال سنوات طويلة، كانت الأم العظيمة قد وفرت لإمبراطوريتها السلام الاجتماعي والوئام السياسي بفضل ثلاثة صناديق وثائق اقتراع مزورة كانت تشكل جزءاً من إرثها السري. فقد كان الذكور من خدمها، ومن هم في حمايتها، ومستأجرو أراضيها، كباراً وقاصرين، لا يقتصرون على ممارسة حقهم في الاقتراع وحسب، بل حق الناخبين الميتين منذ قرن كذلك. وكانت هي نفسها تمثل أفضلية السلطة التقليدية على السلطة المتداولة، وسيطرة الطبقة على العامة، وتفوق الحكمة الإلهية على ارتجال البشر الفانين. وفي أزمنة السلم، كانت مشيئتها المهيمنة توافق أو ترفض الترقيات الكنسية، والتعيينات في المناصب المربحة، وفي المناصب الشكلية التي لا يقوم أصحابها بعمل، وتسهر على رخاء المتعاونين معها حتى لو تطلب منها ذلك اللجوء لدسائس أو تزوير الانتخابات. وفي الأزمنة العاصفة، ساهمت الأم الكبيرة سراً في تسليح أنصارها، وقدمت المعونة علناً لضحاياها. وقد أهلتها تلك الغيرة الوطنية لنيل أعلى التشريفات.

ولم يكن رئيس الجمهورية بحاجة لأن يلجأ إلى مستشاريه ليقدر عبء مسؤوليته. فبين قاعة الاستقبال في القصر والفِناء الصغير المرصوف الذي استُخدم موقفاً لعربات نواب الملك، كانت هناك

حديقة داخلية فيها أشجار سرو قاتمة حيث شنق راهب برتغالي نفسه بدافع الحب في آخر أيام المستعمرة. وعلى الرغم من جهاز حمايته الصاخب من الضباط ذوي الأوسمة، لم يكن بإمكان الرئيس كبح رعشة عدم يقين خفيفة كلما مرّ بذلك المكان بعد الغسق. ولكن الرعشة في تلك الليلة كانت لها قوة النذير. عندئذ اكتسب وعياً كاملاً لقدره التاريخي، وأصدر قرار الحداد الوطني تسعة أيام، وتكريم الأم الكبيرة بمرتبة بطلة ماتت في ميدان معركة في سبيل الوطن. ومثلما عبّر في خطبته الدراماتيكية القصيرة التي وجهها فجر ذلك اليوم إلى مواطنيه عبر الشبكة الوطنية للإذاعة والتلفزيون، كان رئيس الأمة واثقاً من أن جنازة الأم الكبيرة ستكون أمثولة أخرى جديدة للعالم بأسره.

ومع ذلك، كان لابد لتلك النوايا السامية من أن تصطدم ببعض العوائق الخطيرة. فهيكل البلاد القضائي الذي وضعه أسلاف الأم الكبيرة القدماء، لم يكن مهيأ لأحداث مثل تلك التي بدأت تحدث. فدكاترة القانون الحكماء، وخيميائيو الحقوق المجربون تعمقوا في تفسير النصوص وفي القياس عليها، بحثاً عن الصيغة التي تسمح لرئيس الجمهورية حضور الجنازة. ومرت أيام اضطراب على الأوساط السياسية العليا، ورجال الإكليروس، والأوساط المالية. وفي مدرج الكونغرس نصف الدائري الواسع، والمخلخل بقرن من التشريع المجرد، وبين لوحات زيتية تمثل الشخصيات الوطنية المرموقة، وتماثيل نصفية لمفكرين إغريق، بلغ استحضار الأم الكبيرة أبعاداً لا يمكن الشك فيها، بينما كانت جثتها تمتلئ بالفقاعات في أيلول ماكوندو القاسي. ودار الحديث عنها وتصورها أول مرة من دون كرسيها الهزاز الذي من البامبو، ودون سباتها في الساعة الثانية بعد الظهر، ودون كمادات الخردل، ورُئيت نقية وبلا سن محددة، وقد قطرتها الأسطورة.

ساعات غير متناهية امتلأت بكلمات، كلمات، كلمات يتردد

صداها في أجواء الجمهورية، مكتسبة المهابة في مكبرات صوت الحروف المطبوعة. إلى أن ظهر شخص لديه حس واقعي في ذلك المنتدى لمستشاري القانون الطاهرين، فقاطع كلام الهذر التاريخي ليذكرهم بأن جثة الأم الكبيرة تنتظر قرارهم حيث تصل الحرارة إلى 40 درجة في الظل. لم يتأثر أحد حيال ذلك الاندفاع المفاجئ للحس السليم في أجواء القانون المكتوب النقية. وصدرت الأوامر بتحنيط الجثة، بينما كان يُعثر على صيغ، أو توافق آراء، أو تُجرى تعديلات دستورية تتيح لرئيس الجمهورية حضور الجنازة.

قيل كلام كثير، حتى إن المداولات تجاوزت الحدود، وعبرت المحيط، وتسربت مثل هاجس إلى الحجرات البابوية في قصر غاندولفو. وبعد عودته الحديثة من سبات آب الحديدي، كان الحبر الأعظم عند النافذة، يرى الغواصين يغطسون في البحيرة بحثاً عن رأس الآنسة التي قُطع رأسها. فخلال الأسابيع الأخيرة لم يكن يشغل صحف المساء أي أمر آخر، ولا يمكن للحبر الأعظم أن يبدي عدم المبالاة حيال لغز مطروح على تلك المسافة القريبة من مقر إقامته الصيفي. غير أن الصحف في ذلك المساء، وبتبدل مفاجئ، استبدلت صور الضحايا المحتملة، بصورة امرأة وحيدة في العشرين من عمرها، مع شريط حداد على زاويتها. «الأم الكبيرة»، هتف الحبر الأعظم وقد تعرف فوراً على صورة الديغريتيب الممحوة التي كانت قد قدمت إليه قبل سنوات طويلة بمناسبة اعتلائه كرسي القديس بطرس. وهتف أعضاء هيئة الكرادلة من حجراتهم الخاصة في كورال «الأم العظيمة»، وكانت هناك للمرة الثالثة، خلال عشرين قرناً، ساعة فوضى، وكدر، وارتباك في إمبراطورية المسيحية غير المحدودة، حتى أُجلس الحبر الأعظم في عربة جندوله السوداء الطويلة، وتوجه إلى الجنازة الخيالية البعيدة للأم العظيمة.

خلَّف وراءه مزارع الخوخ المشرقة، وفيا آبيا أنتيكا مع من فيها من ممثلات السينما الدافئات اللواتي يكتسبن اللون الذهبي على الشرفات

دون أن يعلمن بعد بأخبار الهزة، ثم الكتلة الجبلية القاتمة لقصر سانت أنجلو على ضفة التايبر. وعند الغسق، كان قرع نواقيس كاتدرائية القديس بطرس الرنانة يختلط بدوي برونز نواقيس ماكوندو. ومن خيمته الخانقة، عبر حقول القصب المتشابكة والمستنقعات الراكدة التي تحدد حدود الإمبراطورية الرومانية ومزارع الأم الكبيرة، سمع الحبر الأعظم طوال الليل صخب القرود التي هيجها مرور الحشود. وفي رحلته الليلية راح الزورق البابوي يمتلئ بأكياس اليكة، وقطوف الموز الأخضر، وأقفاص الدجاج، وبرجال ونساء هجروا أعمالهم المعهودة سعياً لتحقيق ثروة من أشياء يبيعونها في جنازة الأم الكبيرة. وقد عانى قداسته في تلك الليلة، أول مرة في تاريخ الكنيسة، حمى الأرق وعذاب البعوض. لكن الفجر العجيب الذي بزغ على أملاك العجوز العظيمة، والمشهد البدائي لمملكة البليسان والإغوانا، محت من ذاكرته عذابات الرحلة وعوضته عن التضحية.

أُيقظ نيكانور بثلاث طرقات على الباب تعلن عن وصول قداسته الوشيك. كان الموت قد هيمن على البيت. وبإيحاء من خطب رئاسية قصيرة، متوالية وملحة، ومن مناظرات البرلمانيين الذين بُحت أصواتهم وواصلوا التفاهم بإشارات اصطلاحية، تخلى رجال وجمعيات دينية من كافة أنحاء العالم عن شؤونهم وملؤوا بحضورهم الردهات المظلمة، والممرات المزدحمة، والعِليات الخانقة، ومن وصلوا متأخرين ارتقوا أبراج المراقبة، والأسيجة، ومواقع الرصد، والأبراج الخشبية، وشرفات رمي الحجارة، واستقروا عليها بأفضل طريقة ممكنة. وفي القاعة الرئيسية، كانت جثة الأم الكبيرة المحنطة مسجاة بانتظار القرارات الكبرى، تحت جبل مزعزع من البرقيات. وكان تسعة أبناء الأخوة الذين استنفدهم البكاء، يسهرون على الجثمان في وجوم الحراسة المتناوبة.

وكان لا يزال على الكون بأسره أن يطيل الترقب لأيام كثيرة أخرى. وفي قاعة المجلس البلدي التي جُهزت أربع مقاعد جلدية، وجرة ماء مصفى، وأرجوحة نوم من ألياف الأرقطيون، عانى الحبر الأعظم

أرقاً متعرقاً، وشغل نفسه في الليالي المديدة الخانقة بقراءة مذكرات وأوامر إدارية. وكان يوزع في النهار سكاكر إيطالية على الأطفال الذين يقتربون ليروه من النافذة، ويتناول الغداء تحت عريشة الاستروميليا مع الأب أنطونيو إيسابيل، وفي بعض الأحيان مع نيكانور. وعاش على هذه الحال أسابيع لانهائية وأشهر أطالها الانتظار والحر، إلى أن ظهر باستور باسترانا في وسط الساحة وقرأ بيان القرار. أُعلن عن اضطراب الأمن العام، تاراتابلام، وأن رئيس الجمهورية، تاراتابلام، يتمتع بالصلاحيات الاستثنائية، تاراتابلام، التي تتيح له حضور جنازة الأم الكبيرة، تاراتابلام، تابلام، بلام، بلام.

حلّ اليوم العظيم. وقام جنودٌ رماة بإخلاء الطريق للسلطة في الشوارع المكتظة بألعاب الروليت وموائد اليانصيب، وبرجال يحملون أفاعي ملتفة حول رقابهم ويعلنون عن البلسم النهائي الشافي لالتهابات الجلد وضمان الحياة الأبدية؛ وفي الساحة الصغيرة المزركشة، حيث علقت الحشود مظلاتها وبسطت حصائرها، كان ينتظر هناك لحظة الذروة، غسالات سان خورخي. وصيادو لؤلؤ كابو دي بيلا، ورماة شباك صيد السمك في ثيناغا، وصيادو القريدس في تاساخيرا، وسحرة موخانا، وجامعو ملح مانورة، وعازفو الأكورديونات من بايّدوبار، ومروضو الخيول من أيابيل، وزارعو البابايا من سان بيلانو، ومدربو الديكة من لاكويبا، ومرتجلو ساباناس دي بوليفار، ومتأنقو ريبولو، ومجدفو نهر مجدلينا، ومحامو مومبوس الفاشلون، فضلاً عن أولئك الذين ورد ذكرهم في بداية هذه الأخبار، وكثيرين غيرهم. حتى إن قدماء محاربي الكولونيل أوريليانو بوينديا ـ وعلى رأسهم دوق مارلبورو بزينته من فراء النمور ومخالبها وأنيابها ـ ضربوا صفحاً عن حقدهم المئوي على الأم الكبيرة وسلالتها، وجاؤوا إلى الجنازة ليطلبوا من رئيس الجمهورية دفع رواتب تقاعدهم الحربية التي ينتظرونها منذ ستين سنة.

وقبل الساعة الحادية عشرة بقليل، انفلت الحشد الهاذي المختنق

تحت الشمس، والذي تكبحه نخبة من المحاربين ذوي السترات المزخرفة والخوذات العالية الرغوية، وأطلق زمجرة ابتهاج مدوية. وظهر من ناصية مكتب التلغراف، بمهابة ووقار، وبسترات وقبعات التشريفات، رئيس الجمهورية ووزراؤه، ولجان البرلمان، ومحكمة العدل العليا، ومجلس الدولة، والأحزاب التقليدية ورجال الدين، وممثلو البنوك والتجارة والصناعة. وكان رئيس الجمهورية الأصلع المترهل، والعجوز العليل، يمر أمام عيون الحشود الذاهلة التي قلدته السلطة دون أن تعرفه، والتي صار بإمكانها الآن فقط أن تقدم شهادة صادقة عن وجوده. وبين رؤساء الأساقفة المستفدين بخطورة مراتبهم، والقادة العسكريين ذوي الصدور القوية المندفعة، والمدرعة بالأوسمة، كان رئيس الأمة يعبق بأنفاس السلطة التي لا يمكن الخطأ فيها.

وفي البعد الثاني، في تقدم هادئ لحرائر حزن مموجة، مرت ملكات جمال كل ما هو كائن وما سيكون الوطنيات. وكنّ مجردات لأول مرة من البهاء الدنيوي، يسرن وفي مقدمتهن ملكة جمال الكون، وملكة جمال المانجا، وملكة الهويامل الخضراء، وملكة جمال التفاحيات، وملكة دقيق اليكة، وملكة الجوافة، وملكة جوز الهند المائي، وملكة الفاصولياء سوداء الرأس، وملكة 426 كيلومتراً من حبال بيوض الإغوانة، وجميع الملكات الأخريات اللواتي أُغفلن كي لا يصير هذا الخبر بلا نهاية.

وفي تابوتها المبطن بطيات أرجوانية، منفصلة عن الواقع بثماني أحزمة نحاسية ضاغطة، كانت الأم الكبيرة قد تشربت حينئذ بفورمول أبديتها للفت الانتباه إلى حجم عظمتها. فكل البهاء الذي حلمت به خلال أرق الحر على شرفة منزلها، تحقق في تلك الساعات الثماني والأربعين المجيدة التي حضر خلالها رموز العصر كلهم التكريم لذكراها. والحبر الأعظم نفسه، الذي تخيلته في هذياناتها معلقاً في عربة متلألئة فاخرة فوق حدائق الفاتيكان، تغلب على الحر بمروحة من سعف النخل المجدول، وشرّف بمكانته السامية أعظم جنازة في العالم.

أما جمهور العامة المبهور بمشهد السلطة، فلم يميز خفق الجشع الذي دار في أعلى سقف المنزل عندما فُرض الاتفاق في نزاع الشخصيات السامية، وأُخرج النعش إلى الشارع على أكتاف أكثرهم سمواً. ولم يرَ أحد ظلال نسور الرخمة اليقظة التي تابعت الموكب عبر أزقة ماكوندو اللاهبة، ولم ينتبه أحد إلى أنه لدى مرور الشخصيات السامية، كانت تلك الشوارع تُغمر بخط من النفايات النتنة. ولم يلحظ أحد أن أبناء الأخوة، والأبناء بالمعمودية، والخدم، ومحميي الأم الكبيرة قد أغلقوا الأبواب فور إخراج الجثة، ثم اقتلعوا الأبواب، وفككوا الألواح الخشبية، وحفروا الأساسات لاقتسام المنزل. وكان الشيء الوحيد الذي لم يفت أحد الانتباه إليه وسط هياج تلك الجنازة هو زفرة الراحة المدوية التي أطلقتها الحشود عندما اكتملت أيام الصلوات والتمجيد والمديح الأربعة عشر، وجرى إغلاق القبر بمصطبة من الرصاص. وكان لدى بعض الحاضرين هناك ما يكفي من بُعد النظر ليدركوا أنهم يشهدون ميلاد عهد جديد. فبإمكان الحبر الأعظم الآن أن يصعد إلى السماء جسداً وروحاً وقد أنجز مهمته على الأرض، ويمكن لرئيس الجمهورية أن يجلس ليحكم وفق رأيه السديد، ويمكن لملكات جمال كل ما هو كائن وما سيكون أن يتزوجن ويكن سعيدات ويحبلن ويلدن أبناء كثيرين، ويمكن لحشود العامة أن تنصب خيامها وفق طريقتها في المعرفة والفهم في أملاك الأم الكبيرة الشاسعة وغير المحدودة، لأن الوحيدة التي كان بمقدورها معارضة ذلك، وكانت لديها القدرة الكافية لعمل ذلك قد بدأت تتعفن تحت مصطبة ثقيلة من الرصاص. ولم يبق عندئذ إلا أن يسند أحدهم كرسياً أمام الباب ليروي هذه القصة، لتكون درساً وعبرة للأجيال الآتية، وكي لا يبقى أحد من الجاحدين في العالم دون أن يعرف خبر الأم الكبيرة، لأن الكناسين سيأتون غداً الأربعاء ليكنسوا قمامة جنازتها، إلى أبد الآبدين.

القصة العجيبة والحزينة لإريندير
الساذجة وجدتها القاسية

LA INCREÍBLE Y TRISTE HISTORIA DE LA
CÁNDIDA ERÉNDIRA Y DE SU ABUELA
DESALMAD

سيد عجوز عجوز بأجنحة هائلة

Un señor muy viejo con unas alas enormes

(1968)

في اليوم الثالث للأمطار كانوا قد قتلوا في البيت الكثير من السرطانات، مما اضطر بيلايو إلى اجتياز الفناء الغارق ليلقي بها في البحر، لأن الطفل حديث الولادة أمضى الليل محموماً، وظنوا أن النتانة هي السبب. كانت الدنيا كئيبة منذ يوم الثلاثاء. فالسماء والبحر كانا الشيء الرمادي نفسه، ورمال الشاطئ التي تلمع في آذار مثل غبار ضوئي، تحولت إلى حساء وحل ومحار متعفن. كان الضوء شديد الخفوت في منتصف النهار، حتى إن بيلايو، وهو عائد إلى البيت بعد أن رمى السرطانات، تكلف مشقة في رؤية ما هو ذلك الشيء الذي يتحرك ويتأوه في آخر الفناء. وكان عليه أن يقترب كثيراً ليكتشف أنه رجل عجوز، مطروح على بطنه في بركة الوحل، وأنه غير قادر على النهوض بالرغم من جهوده الكبيرة، لأن جناحيه الضخمين كانا يحولان دون نهوضه.

هرع بيلايو، وقد أفزعه ذلك الكابوس، بحثاً عن زوجته إليسيندا التي كانت تضع كمادات للطفل المريض، وقادها إلى أقصى الفناء. وراقبا كلاهما الجسد الملقى بذهول صامت. كان ما يلبسه أشبه بثياب جامع خرق. ولم يكد يبقى على جمجمته الجرداء سوى بعض الشعر الباهت، وقليل من الأسنان في فمه، وكانت حالته المؤثرة كجدٍ مبلل بالماء قد جردته من أية عظمة. جناحاه اللذان كجناحي نسر رخمة ضخمين، كانا متسخين ونصف ريشهما منتوف، وقد انغرسا في بركة الوحل إلى الأبد. تفحصه بيلايو وإليسيندا طويلاً، وبتمعن شديد، إلى أن تجاوزا فجأة حالة الذهول،

وانتهيا إلى الإحساس بالتآلف معه. عندئذ تجرأا على التحدث إليه، فأجابهما بلهجة غير مفهومة، إنما بصوت بحار طيب. وكان هذا ما جعلهما يتغاضيان عن وجود الجناحين، ويستنتجان بحس سليم أنه ناج وحيد من غرق سفينة أجنبية ضربتها العاصفة. ومع ذلك، فقد استدعيا لرؤيته جارة لهما تعرف كل شؤون الحياة والموت. وكانت نظرة واحدة منها كافية لإخراجهما من الخطأ الذي وقعا فيه.

- إنه ملاك - قالت لهما -. ومن المؤكد أنه آت من أجل الطفل، لكن المسكين عجوز جداً، وقد طرحته الأمطار أرضاً.

في اليوم التالي كان الجميع يعرفون أن هناك في بيت بيلايو ملاكاً أسيراً من لحم وعظم. وخلافاً لرأي الجارة العارفة التي ترى أن ملائكة هذا الزمان ليسوا سوى أولئك الذين ظلوا أحياء ونجوا من مؤامرة سماوية، فإنهم لم يجدوا الشجاعة الكافية لقتله ضرباً بالعصي. وظل بيلايو يرقبه طوال فترة بعد الظهر من المطبخ، وكان مسلحاً بهراوته كحارس بلدي، وقبل أن يذهب إلى النوم أخرجه جرجرة من الوحل وحبسه مع الدجاج في الحظيرة الشبكية. وعند منتصف الليل، حين توقف المطر، كان بيلايو وإليسيندا يواصلان قتل السرطانات. وبعد قليل استيقظ الطفل وقد غادرته الحمى وبه رغبة في تناول الطعام. عندئذ تملكتهما النخوة وقررا وضع الملاك على طوف، مع ماء عذب ومؤونة ثلاثة أيام، وتركه لمصيره في أعالي البحر. لكنهما عندما خرجا إلى الفناء مع أول أضواء النهار، وجدا الجيران كلهم أمام حظيرة الدجاج، يمرحون بالملاك دون أي إحساس بالورع، ويلقون إليه أطعمة من فتحات شبكة الأسلاك، كما لو أنه ليس مخلوقاً خارقاً وإنما حيوان سيرك.

وصل الأب غونثاغا قبل الساعة السابعة مذعوراً من سعة انتشار الخبر. وكان قد حضر في تلك الساعة فضوليون أقل طيشاً من أولئك الذين حضروا في الفجر، وأعربوا عن كل أنواع التخمينات حول مستقبل الأسير. ففكر أكثرهم بساطة في أنه سيُعين عمدة للعالم.

وافترض آخرون، من ذوي الأرواح الأكثر فظاظة، أنه سيُرقى إلى رتبة جنرال بخمس نجوم ليكسب جميع الحروب. وتوقع بعض المتبصرين أن يُحافظ عليه كفحل تلقيح لإنجاب سلالة جديدة على الأرض من البشر المجنحين والحكماء ليتولوا مسؤولية الكون. ولكن الأب غونثاغا الذي كان حطاباً قبل أن يصبح كاهناً، تطلع من خلال السياج الشبكي، وراجع في لحظة كتاب أصول الدين، بل إنه طلب بعد ذلك أن يفتحوا له الباب ليتفحص عن قرب ذلك الذكر المحزن الذي يبدو أشبه بدجاجة ضخمة هرمة بين الدجاجات الأخرى الذاهلة. كان مطروحاً في أحد الأركان، يجفف تحت الشمس جناحيه المفتوحين، وسط قشور الفاكهة وفضلات وجبات الفطور التي ألقى بها إليه من جاؤوا باكراً. كان غائباً عن سفاهة العالم، ولم يكد يرفع عينيه المغرقتين في القدم ويهمهم شيئاً بلهجته حتى دخل الأب غونثاغا الحظيرة وألقى عليه تحية الصباح باللاتينية. وقد خامرت الكاهن أول الشكوك بزيفه عندما تبين له أنه لا يعرف لغة الرب، ولا يعرف كيف يحيي كهنته. ثم لاحظ بعد ذلك أنه يبدو عند رؤيته عن قرب على شبه كبير بالإنسان: له رائحة رداءة طقس لا تطاق، وباطن جناحيه مزروع بطحالب طفيلية، ورياشهما الكبيرة تالفة بسبب رياح أرضية، ولا شيء من طبيعته البائسة يتفق مع وقار الملائكة الجليل. عندئذ غادر الحظيرة، وبخطبة مقتضبة حذر الفضوليين من مخاطر السذاجة. ذكرهم بأن من عادات الشيطان الخبيثة اللجوء إلى أساليب التنكر الكرنفالي ليخدع عديمي الحذر. وتعلل بأنه إذا كانت الأجنحة لا تشكل العامل الحاسم في تحديد الفرق بين الباشق والطائرة، فمن الأحرى ألا تكون الوسيلة للتعرف على الملائكة. وقد وعد، مع ذلك، بكتابة رسالة إلى مطرانه، ليكتب هذا بدوره رسالة أخرى لرئيسه، كي يكتب هذا أيضاً رسالة أخرى إلى الحبر الأعظم، بحيث يأتي الحكم النهائي من أعلى السلطات.

وقع حذره على قلوب مجدبة. فقد انتشر خبر الملاك الأسير

بسرعة، وخلال ساعات قليلة كان هناك في الفناء صخب سوق، وكان لا بد من إحضار قوات مع حراب بنادقها لإبعاد الحشود التي أوشكت أن تقوض البيت. عندئذ خطرت لإليسيندا التي هدّت ظهرها كثرة كنس قمامة ذلك المهرجان، الفكرة الطيبة بإقامة حاجز حول الفناء وتقاضي خمسة سنتات مقابل الدخول لرؤية الملاك.

جاء فضوليون حتى من جزر المارتينيك. وجاء مهرجان متجول ومعه لاعب أكروبات طائر، مرّ محلقاً عدة مرات وهو يُصدر أزيزاً فوق الحشود، ولكن أحداً لم يعره اهتماماً لأن أجنحته لم تكن أجنحة ملاك وإنما أجنحة خفاش فلكي. وجاء أشد مرضى الكاريبي تعاسة طلباً لاستعادة الصحة: امرأة بائسة كانت تعدّ منذ طفولتها نبضات قلبها إلى أن استنفدت الأرقام، وجاميكي لا يستطيع النوم لأن ضجة النجوم تقلقه. ومصاب بداء السير وهو نائم، يستيقظ في الليل ليخرب ما كان قد أنجزه وهو مستيقظ، وآخرون كثيرون حالاتهم أقل خطورة. ووسط فوضى الغرق تلك التي تزلزل الأرض، كان بيلايو وإليسيندا سعيدين بالتعب، لأنهما توصلا، خلال أقل من أسبوع، إلى ملء الغرف بالمال، ومازال طابور الحجيج الذين ينتظرون دورهم للدخول يصل إلى الجانب الآخر من الأفق.

كان الملاك هو الوحيد الذي لا يشارك في الحدث الذي هو حدثه. وكان وقته يمضي في البحث عن وضع مريح في عشه المستعار، مشوشاً من الحر الجهنمي الذي تنشره قناديل الزيت وشموع النذور التي يعلقونها على شبك السياج. لقد حاولوا في البدء أن يطعموه بلورات الكافور، لأنه الغذاء الخاص بالملائكة حسب معارف الجارة الحكيمة. ولكنه ازدراها، مثلما ازدرى بقايا الوجبات البابوية التي يأتيه بها التائبون، دون أن يتذوقها. وعندما انتهى به الأمر إلى الاقتصار على أكل الباذنجان المهروس وحده، لم يُعرف قط إذا ما كان السبب هو كونه ملاكاً أم لأنه عجوز. وبدا أن فضيلته الوحيدة الخارقة للطبيعة هي الصبر. وخاصة في الفترة الأولى، عندما

كانت الدجاجات تنقره بحثاً عن الطفيليات الكوكبية التي تتكاثر على جناحيه، وكان المقعدون ينتزعون من ريشه ليلمسوا به عاهاتهم، بل إن أشد الناس رحمة كانوا يرمونه بالحجارة في محاولة دفعه إلى الوقوف ليروا جسده كاملاً. وكانت المرة الوحيدة التي تمكنوا فيها من استثارته هي عندما أحرقوا خاصرته بحديد وسم العجول، لأنه كان قد أمضى ساعات طويلة دون حراك حتى ظنوه ميتاً. استيقظ فزعاً، وراح يهذر بلغة غير مفهومة وبعينين دامعتين، وحرك جناحيه حركتين تسببتا في زوبعة من روث الحظيرة والغبار السديمي، وعاصفة رعب لا تبدو من هذا العالم. ومع أن كثيرين اعتقدوا أن سبب ردّ فعله لم يكن الغضب وإنما الألم، فإنهم حرصوا منذ ذلك الحين على عدم إزعاجه، لأن أكثرهم أدركوا أن سلبيته ليست سلبية بطل في عزلته، وإنما هي سلبية كارثة طبيعية ساكنة.

واجه الأب غونثاغا طيش الحشود بصيغ إلهام بيتية، ريثما يصله الحكم القاطع حول طبيعة الأسير. ولكن بريد روما كان قد فقد مفهوم السرعة. وراحوا يضيعون الوقت هناك في تقصي إذا ما كان للمتهم سرة، أو إذا ما كان للهجته أية علاقة بالآرامية، أو إذا ما كان بإمكانه الجلوس مرات كثيرة على رأس دبوس، أو إذا لم يكن بكل بساطة مجرد نرويجي بأجنحة. وكان يمكن لرسائل الاعتدال تلك أن تواصل الذهاب والإياب حتى نهاية العصور، لو لم يضع حدث صادر عن العناية الإلهية حداً لمحن الكاهن.

فقد حدث في تلك الأيام، وبين وسائل الجذب الكثيرة التي تأتي بها مهرجانات الكاريبي الجوالة، أن أحضروا إلى القرية الاستعراض الحزين للمرأة التي تحولت إلى عنكبوت لأنها عصت أبويها. ولم يكن رسم الدخول لرؤيتها أقل من رسم الدخول لرؤية الملاك وحسب، بل إنهم كانوا يسمحون بأن تُوجه إليها كل الأسئلة حول وضعها العبثي، وتفحصها ظهراً وبطناً، بحيث لا يستطيع أحد الشك في حقيقتها الرهيبة. كانت رتيلاء مرعبة لها حجم خروف ورأس

آنسة حزينة. ولكن ما يمزق نياط القلب لم تكن هيئتها غير المعقولة، وإنما الغم الصريح الذي تروي به أدق تفاصيل محنتها: فحين كانت لا تزال طفلة تقريباً، هربت من بيت أبويها لتذهب إلى حفلة رقص، وبينما هي عائدة عبر الغابة، بعد أن رقصت طوال الليل دون إذن، شق رعد مرعب السماء إلى نصفين، وخرج من ذلك الشق برق كبريتي حولها إلى عنكبوت. كان غذاؤها الوحيد كرات اللحم المفروم التي تلقيها الأرواح المحسنة في فمها. مثل هذا الاستعراض المشحون بكثير من الحقيقة الإنسانية وبعبرة مخيفة، كان لابد له من أن يهزم، دون نية مسبقة، استعراض الملاك المزدري الذي يكاد لا يتكلف النظر إلى البشر الفانين. إضافة إلى أن المعجزات القليلة التي تُنسب إلى الملاك تكشف عن شيء من التشوش الذهني، مثل الأعمى الذي لم يسترد البصر، ولكن ظهرت له ثلاث أسنان جديدة، والمشلول الذي لم يتمكن من المشي ولكنه كاد يكسب اليانصيب، والمجذوم الذي نبتت زهور عباد شمس في جروحه. معجزات المواساة تلك التي بدت أقرب إلى تسالي السخرية، كانت قد كسرت سمعة الملاك حين جاءت المرأة المتحولة إلى عنكبوت لتجهز على سمعته. وهكذا شفي الأب غونثاغا من أرقه إلى الأبد، وعاد فناء بيت بيلايو مقفراً كما في الزمن الذي هطل فيه المطر ثلاثة أيام، وكانت السرطانات تجول في غرف النوم.

لم يكن هناك ما يمكن لأصحاب البيت أن يتحسروا عليه. فقد بنوا بما جمعوه من أموال داراً من طابقين، لها شرفات وحدائق، وعتبات مرتفعة جداً كيلا تدخل سرطانات الشتاء، وبقضبان حديدية على نوافذها كيلا يدخل منها الملائكة. وأقام بيلايو كذلك مزرعة لتربية الأرانب على مقربة من القرية، وتخلى إلى الأبد عن عمله السابق كحارس بلدي، واشترت إليسيندا حذاء مخملياً عالي الكعب، والكثير من الفساتين الحريرية البراقة، من تلك التي كانت ترتديها في أيام الآحاد السيدات المرغوبات في تلك الأزمنة.

وكانت الحظيرة هي المكان الوحيد الذي لم يحظ بأي اهتمام. وإذا كانا قد غسلا داخلها بماء الكلور أحياناً وأحرقا فيها البخور، فإنهما لم يفعلا ذلك تكريماً للملاك، وإنما للتخلص من نتانة المزبلة التي كانت تنتشر كشبح في كل مكان، وتُحوّل البيت الجديد إلى قديم. وعندما تعلم الطفل المشي، حرصا في أول الأمر على ألا يقترب من الحظيرة. ولكنهما راحا ينسيان بعد ذلك الخوف والاعتياد على الرائحة الكريهة، وقبل أن يبدل الطفل أسنانه كان قد دخل للعب في الحظيرة، وكانت شباكها المتعفنة تتساقط مفتتة. لم يكن الملاك أقل فتوراً معه مما هو مع الفانين الآخرين، ولكنه كان يتحمل الإساءات الساذجة بوداعة كلب بلا أوهام. أصيب كلاهما بعدوى الحصبة في الوقت نفسه. ولم يستطع الطبيب الذي عالج الطفل مقاومة إغراء فحص الملاك، فوجد انتفاخات كثيرة في قلبه، ودوياً عظيماً في كليتيه، حتى بدا له أنه من غير الممكن أن يكون حياً. وكان أشد ما أدهشه مع ذلك هو منطقية جناحيه. فقد بدوا طبيعيين جداً في ذلك الجسد بالكامل، ولم يفهم لماذا لا يمتلك مثلهما البشر الآخرون.

عندما ذهب الطفل إلى المدرسة، كانت الحظيرة قد خربت منذ زمن بعيد بفعل الشمس والمطر. وكان الملاك يتنقل زاحفاً من هنا إلى هناك كمحتضر لا صاحب له. وكانوا يخرجونه من غرفة النوم ضرباً بالمكانس، وبعد دقيقة من ذلك يجدونه في المطبخ. وقد بدا كما لو أنه يتواجد في أماكن كثيرة في الوقت نفسه، حتى بلغ بهم الظن أنه ينشطر ويكرر نفسه في كل أنحاء البيت، وكانت إليسيندا الحانقة تصرخ خارجة عن طورها بأن العيش في ذلك الجحيم المترع بالملائكة هو كارثة. كان الملاك يكاد لا يأكل، وكانت عيناه اللتان كعيني تاجر عاديات قد زاغتا حتى صار يتعثر بالأدوات الزراعية، ولم يبق له سوى جناحيه المجردين من آخر ريشهما. غطاه بيلايو ببطانية وأحسن إليه بتركه ينام في الجزء

المسقوف، وعندئذ فقط انتبها إلى أنه يقضي الليل محموماً يهذي بلسان متعثر لنرويجي عجوز. وكانت تلك واحدة من المرات القليلة التي شعرا فيها بالذعر، لأنهما ظنا أنه سيموت، ولم تستطع حتى الجارة الحكيمة أن تخبرهما بما يفعلونه بالملائكة الميتة.

ومع ذلك، لم يتجاوز أسوأ شتاء مرّ عليه وحسب، بل بدا في حالة أفضل مع أول الأيام المشمسة. ظل دون حراك لأيام طويلة في أقصى ركن في الفناء، حيث لا يراه أحد، ومع بدايات شهر كانون الأول بدأ ينبت على جناحيه بعض الرياش الكبيرة والقاسية، رياش طائر ضخم عجوز، بدت أقرب إلى عارض جديد من أعراض الشيخوخة. أما هو فكان يعرف دون شك سبب تلك التغيرات، لأنه كان يحرص تماماً على ألا يلحظها أحد، وألا يسمع أحد أغاني البحارة التي يغنيها أحياناً تحت النجوم. وذات صباح، بينما كانت إليسنيدا تقطع حلقات بصل من أجل الغداء، دخلت المطبخ ريح بدا أنها آتية من أعالي البحار. عندئذ أطلت من النافذة، وفاجأت الملاك في محاولاته الأولى للطيران. كانت محاولات شديدة الخراقة، حتى إنه شق بأظافره ثلم محراث بين الخضروات وأوشك أن يقوض الحيز المسقوف بتلك الحركات النزقة من جناحيه اللذين ينزلقان في الضوء ولا يجدان سنداً في الهواء. ولكنه تمكن من التحليق. أطلقت إليسنيدا زفرة ارتياح، من أجلها ومن أجله، عندما رأته يمر فوق آخر البيوت، متحاملاً على نفسه كيفما اتفق بضربات أجنحة نسر رخمة عجوز. وظلت تراه إلى أن انتهت من تقطيع البصل، وظلت تراه إلى أن لم تعد رؤيته ممكنة، لأنه لم يعد حينئذ عبئاً على حياتها، وإنما نقطة متخيلة في الأفق البحري.

بحر الزمن الضائع

El mar del tiempo perdido

(1961)

قبيل نهاية شهر كانون الثاني، هاج البحر وبدأ يُفرغ على القرية قاذورات كثيفة. وبعد أسابيع قليلة كان كل شيء قد تلوث بنزق البحر الذي لا يطاق. من ذلك الحين لم يعد العالم يستحق العناء، حتى كانون الأول القادم على الأقل،ولم يعد هناك من يسهر إلى ما بعد الساعة الثامنة. أما في السنة التي جاء فيها السيد هربرت، فلم يثر البحر حتى في شهر شباط. بل على العكس، صار أكثر رقة وألقاً، وفاح منه في ليالي آذار عبق ورد.

شم توبياس الرائحة. ولأن دمه حلو يجتذب السرطانات، كان يقضي الشطر الأكبر من الليل وهو يبعدها عن فراشه، إلى أن يتحول اتجاه النسيم ويتمكن من النوم. وقد تعلم في سهاده الطويل تمييز كل تبدل في الهواء. وهكذا، عندما شمّ رائحة الورد لم يكن بحاجة إلى فتح الباب كي يعرف أنها رائحة من البحر.

استيقظ متأخراً. كانت كلوتيلدي توقد النار في فناء البيت. وكان النسيم منعشاً وجميع النجوم في مواضعها، لكن عدّها حتى الأفق كان يكلف جهداً بسبب اختلاطها بأضواء البحر. وبعد أن تناول القهوة، أحس توبياس ببقية من مذاق الليل في حلقه.

ـ لقد حدث شيء غريب في الليل ـ قال متذكراً.

لم تشعر كلوتيلدي طبعاً بأي شيء. فقد نامت نوماً ثقيلاً حتى إنها لم تعد تذكر أحلامها.

ـ كانت رائحة ورد ـ قال توبياس ـ وأنا متأكد أنها أتت من البحر.

ـ لست أدري كيف هي رائحة الورد ـ قالت كلوتيلدي.

ربما كانت على حق. فالقرية قاحلة، وأرضها قاسية مشققة من ملح البارود. وبين الحين والحين فقط، كان يأتي أحدهم بباقة أزهار من مكان آخر ليلقي بها في البحر في الموضع الذي يلقون فيه الموتى.

ـ إنها الرائحة نفسها التي كانت تنبعث من الغريق في جواكاميال ـ قال توبياس.

فابتسمت كلوتيلدي:

ـ حسناً، إذا كانت رائحة زكية، فيمكنك أن تثق بأنها ليست آتية من هذا البحر.

كان بحراً فظاً بالفعل. فبينما لا تسحب الشباك معها سوى قاذورات عديمة الجدوى في بعض الفترات، تكون شوارع القرية مغطاة بالسمك الميت بعد انحسار الأمواج الهائجة. ولا يُخرج الديناميت إلى سطح الماء سوى بقايا من حطام سفن غارقة.

والنساء القليلات اللاتي بقين في القرية مثل كلوتيلدي، كن يتأجحن بالحقد. كزوجة جاكوب العجوز التي استيقظت مبكرة أكثر من عادتها هذا الصباح، وبعد أن رتبت البيت، جاءت لتناول الفطور وعلى وجهها أمارات الضيق.

ـ رغبتي الأخيرة ـ قالت لزوجها ـ أن أُدفن حية.

نطقت ذلك كأنها ترقد في فراش الاحتضار، لكنها كانت تجلس على طرف المائدة في غرفة الطعام ذات النوافذ الواسعة، حيث يتدفق ضوء آذار وينتشر في جميع أرجاء البيت. وفي مواجهتها جلس العجوز جاكوب مثيراً جوعه الساكن. كان قد أحبها كثيراً منذ زمن بعيد، ولم يكن يتصور أي ألم لا تكون امرأته مصدراً له.

ـ أريد أن أموت وأنا متأكدة من أنهم سيضعونني تحت التراب، مثل الناس المحترمين ـ واصلت الكلام ـ. والطريقة الوحيدة لمعرفة ذلك هي في ذهابي إلى مكان آخر لأطلب أن يتصدقوا عليّ بدفني وأنا حية.

ـ لا حاجة بك لأن تتوسلي إلى أحد ـ قال جاكوب العجوز بهدوء ـ عليّ أن آخذك أنا نفسي.

- هلم بنا إذاً - قالت -، لأني سأموت قريباً.
تفحصها جاكوب العجوز باهتمام. كانت عيناها فقط شابتين، أما مفاصل عظامها فأصبحت عقداً، ولها مظهر الأرض الخربة، إنه أولاً وأخيراً، مظهرها الذي كان لها دائماً.
- إنك أحسن حالاً من أي وقت مضى - قال لها.
فتنهدت قائلة.
- لقد شممت هذه الليلة رائحة ورود.
- لا تقلقي - طمأنها العجوز جاكوب -، إنها أمور تحدث لنا نحن الفقراء.
- لا شيء من هذا - قالت - لقد تضرعت دوماً أن أُمنح إشارة إلى موتي قبل وقت مناسب، لأموت بعيداً عن هذا البحر. ورائحة الورد، في هذه القرية، لا يمكن أن تكون سوى إشعار من الرب.
لم يخطر ببال جاكوب العجوز سوى أن يطلب منها إمهاله بعض الوقت ليرتب الأمور. فقد سمع أن الناس لا يموتون عندما يجب أن يموتوا، وإنما عندما يريدون ذلك، ولهذا أصابته تنبؤات زوجته بقلق حقيقي. حتى إنه سأل نفسه إن كانت ستواتيه الشجاعة لدفنها حية عندما تحين اللحظة.
في الساعة التاسعة، فتح المحل الذي كان في السابق دكاناً. وضع كرسيين ومنضدة صغيرة عليها رقعة دومينو أمام الباب، ولعب طيلة فترة الصبح مع خصوم مروا من هناك مصادفة. ورأى القرية من موقعه أطلالاً، والبيوت المشققة المغطاة ببقايا أصباغ قديمة حورتها الشمس، وجزءاً من البحر في نهاية الشارع.
وكالعادة، لعب قبل الغداء، مع دون مكسيمو غوميث. لم يتصور جاكوب العجوز خصماً أكثر إنسانية من هذا الرجل الذي خاض حربين أهليتين، وفقد في الثالثة عيناً واحدة فقط. فكان جاكوب العجوز، بعد أن يخسر دور دومينو، متعمداً، يصر عليه أن يبقى ليلعب دوراً آخر.

ـ قل لي يا دون مكسيمو ـ سأله عندئذ ـ، هل أنت قادر على دفن زوجتك وهي حية؟

ـ بالتأكيد ـ قال دون مكسيمو ـ. وصدقني أن يدي لن ترتجف.

صمت جاكوب العجوز مذهولاً. وبعد ذلك، عندما كان قد خسر أفضل حجارته، تنهد قائلاً:

ـ يبدو أن بيترا ستموت.

لم يتأثر دون مكسيمو، وقال: «في هذه الحالة، لن تحتاج إلى دفنها وهي حية». أكل حجرين، وأدخل دامة بأحد أحجاره، ثم صوب إلى خصمه عيناً ضمختها دمعة حزينة.

ـ ماذا أصابها؟

ـ لقد شمت رائحة ورود هذه الليلة ـ أوضح جاكوب العجوز.

ـ سيموت نصف أهل القرية إذاً ـ قال دون مكسيمو غوميث ـ، فلم يُسمع صباح هذا اليوم سوى الحديث عن تلك الرائحة.

كان على جاكوب العجوز أن يبذل جهداً مضنياً كي يخسر مرة أخرى دون أن يغضبه. أدخل المنضدة والكرسيين وأغلق الدكان، ثم راح يتجول في كل الأنحاء بحثاً عمن شمّ الرائحة. وأخيراً لم يجد أحداً متأكداً من نفسه سوى توبياس. وهكذا رجاه أن يمر على بيته، جاعلاً الأمر وكأنه مصادفة، ويخبر زوجته بكل شيء.

وفى توبياس بوعده، وفي الساعة الرابعة، ظهر في مدخل البيت مرتباً كما لو كان يقوم بزيارة، حيث كانت العجوز قد أمضت فترة ما بعد الظهر وهي تهيئ ملابس الترمل لجاكوب العجوز.

تقدم نحو الداخل بهدوء جعل المرأة تنتفض مذعورة.

ـ أيها الرب المقدس ـ صرخت ـ، ظننت أنك الملاك عزرائيل.

ـ انتبهي إذاً إلى أنني لست هو ـ قال توبياس ـ، بل أنا، وقد جئت لأخبرك شيئاً.

أصلحت من وضع نظارتها وعادت إلى عملها قائلة:

ـ أعرف ما الذي ستقوله.

ـ أراهن أنك لا تعرفين ـ قال توبياس.

ـ ستقول إنك شممت هذه الليلة رائحة الورد.

ـ وكيف عرفت ذلك؟ ـ سألها توبياس بكدر.

ـ في مثل عمري ـ قالت المرأة ـ، يكون لدى المرء وقت كافٍ للتفكير، حتى إنه ينتهي ليصبح متنبئاً.

كان جاكوب العجوز في الغرفة المجاورة، يسترق السمع ملصقاً أذنه بالحاجز الخشبي، فانتصب خجلاً، وصرخ من وراء الجدار:

ـ ما رأيك، يا امرأة؟ ـ ثم دار وظهره إلى المدخل: ـ لم يكن الأمر كما فكرتِ أنت إذاً؟

فقالت دون أن ترفع رأسها:

ـ إنها كذبة اخترعها هذا الفتى. فهو لم يشم شيئاً.

ـ حدث ذلك حوالي الساعة الحادية عشرة ـ قال توبياس ـ. وكنت أُبْعِدُ السرطانات.

انتهت العجوز من رفو إحدى الياقات، وقالت بإصرار:

ـ أكاذيب. الجميع يعرفون أنك مخادع ـ ثم قطعت الخيط بأسنانها ونظرت إلى توبياس من فوق نظارتها وتابعت: ـ ما لا أفهمه هو لماذا كلفت نفسك مشقة طلي شعرك بالفازلين، وتلميع حذائك، لتأتي إلى هنا وتسيء الاحترام فقط.

منذ ذلك الحين بدأ توبياس بمراقبة البحر. علق شبكة نومه في مدخل فناء بيته، وصار يقضي الليل منتظراً، ومذهولاً من الأمور التي تحدث في الدنيا بينما الناس نيام. فقد سمع خلال ليال عديدة زحف السرطانات اليائسة وهي تحاول تسلق الحبال، وانقضت عدة ليال قبل أن تتعب وتكف عن محاولتها. وعرف كيف تنام كلوتيلدي. واكتشف كيف أن شخيرها الذي له صوت ناي يصبح أكثر حدة كلما اشتد الحر، حتى يتحول إلى وتيرة واحدة ضعيفة في سكون تموز.

راقب توبياس البحر في البداية كما يراقبه أولئك الذين يعرفونه

جيداً، بتوجيه نظرة ثاقبة إلى نقطة واحدة في الأفق، فرآه يبدل ألوانه، ورآه ينطفئ ويصبح مزبداً وقذراً، ويقذف تجشُّؤَه المحمل بالنفايات حين تعكر الأمطار الشديدة هضمه العاصف. وراح يتعلم، شيئاً فشيئاً، مراقبته كما يفعل من يعرفونه بشكل أفضل: دون النظر إليه تقريباً، ولكن دون القدرة على نسيانه حتى أثناء النوم.

في شهر آب، ماتت زوجة جاكوب العجوز. وجدت ميتة في فراشها في الصباح. وكان عليهم إلقاؤها في بحر بلا أزهار كما يفعلون بالجميع. وواصل توبياس الانتظار. انتظر طويلاً حتى صار الانتظار أسلوب حياته. وذات ليلة، بينما هو يحاول النوم في الشبكة المعلقة، أحس بأن شيئاً قد تبدل في الهواء. كانت رائحة متقطعة، كتلك التي انتشرت يوم أغرقت سفينة شحن يابانية حمولة بصل متعفن عند مدخل الميناء، ثم تماسكت الرائحة ولم تعد تتحرك حتى الفجر. وعندما شعر توبياس أنه يستطيع إمساكها بيده ليريها للآخرين. قفز من شبكة النوم ودخل إلى غرفة كلوتيلدي، وهزها عدة مرات قائلاً:

ـ ها هي هنا.

كان على كلوتيلدي أن تزيح الرائحة بأصابعها كأنها شبكة عنكبوت كي تنهض. ثم تهاوت ثانية على غطاء الفراش الدافئ.

ـ يا للعنة ـ قالت.

بلغ توبياس الباب بقفزة واحدة، وخرج إلى الشارع، وراح يصرخ. صرخ بكل قواه. أخذ نفساً عميقاً وعاد يصرخ، ثم صمت وأخذ نفساً أعمق، والرائحة لا تزال في البحر. لكن أحداً لم يرد عليه. فمضى يقرع الأبواب بعنف، باباً بعد آخر، بما في ذلك البيوت المهجورة التي لا يسكنها أحد، إلى أن اختلط صخبه بصخب الكلاب، وأيقظ الجميع.

كثيرون لم يشموا الرائحة. لكن آخرين، وخاصة الشيوخ، نزلوا إلى الشاطئ ليتلذذوا بها. كانت رائحة زخمة متماسكة لا تترك مجالاً لأي رائحة من روائح الماضي. وعاد بعضهم، وقد تعبوا من

الشم، إلى بيوتهم. بينما بقيت الغالبية لتتم نومها على الشاطئ. وفي الصباح، كانت الرائحة نقية جداً يثير استنشاقها الأسف.

نام توبياس طيلة النهار تقريباً. ولحقت به كلوتيلدي أثناء القيلولة، وأمضيا ما بعد الظهر في مداعبات في الفراش دون أن يغلقا باب الفناء. فعلا في البدء كالديدان، ثم كالأرانب، وأخيراً كالسلاحف، إلى أن عادت الدنيا حزينة ومظلمة من جديد. وكانت بقايا رائحة ورد لا تزال في الهواء. وتصل إلى الحجرة بين حين وآخر موجة موسيقى.

ـ إنها تأتي من ناحية كاتارينو ـ قالت كلوتيلدي ـ لا بد أن أحدهم قد جاء.

كان ثلاثة رجال قد جاؤوا. وفكر كاتارينو في أن آخرين قد يأتون في ما بعد، وحاول إصلاح الفونوغراف. وعندما لم يستطع، توجه إلى بانشو أباريثيدو الذي كان يفعل كل شيء لأنه ليس لديه ما يفعله. وكان يملك أيضاً صندوق عدة ويدين ماهرتين.

كان دكان كاتارينو بيتاً خشبياً منعزلاً قبالة البحر، مؤلفاً من صالة كبيرة فيها كراسٍ وموائد صغيرة، وعدة حجرات أخرى في الخلف. وبينما الرجال الثلاثة والمرأة يراقبون بانتشو أباؤيثيدو وهو يعمل، كانوا يشربون بصمت وهم يجلسون إلى الكونتوار، ويتثاءبون بالتناوب.

بدأ الفونوغراف يعمل بانتظام بعد عدة تجارب. وما إن سمع الناس الموسيقى، نائية ولكنها واضحة، حتى كفوا عن الحديث، ونظر بعضهم إلى بعض ولم يجدوا خلال لحظة ما يقولونه، لأنهم تبينوا حينئذ فقط كم هرموا مذ سمعوا الموسيقى آخر مرة.

وجد توبياس الجميع مستيقظين بعد الساعة التاسعة. كانوا يجلسون أمام الباب، منصتين إلى أسطوانات كاتارينو القديمة بالاستسلام الصبياني نفسه لمن يراقب كسوف الشمس. كانت كل أسطوانة تذكرهم بأحد من ماتوا، وبمذاق الأطعمة بعد مرض طويل، وبشيء كان عليهم، قبل سنوات عديدة، أن يفعلوه في اليوم التالي، ولم يفعلوه بسبب النسيان.

انتهت الموسيقى قرابة الساعة الحادية عشرة. ومضى كثيرون منهم إلى النوم، موقنين أن المطر سيهطل، لوجود غيمة داكنة فوق البحر. لكن الغيمة انخفضت، وطفت هنيهة فوق السطح، ثم غاصت في الماء. وظلت النجوم وحدها في الأعلى. وبعد قليل، مضت نسمات من القرية حتى منتصف البحر، وعادت محملة بشذى الورد.

ـ لقد قلت لك يا جاكوب ـ هتف دون مكسيمو غوميث ـ ها هي الرائحة مرة أخرى. إنني على يقين بأننا سنشمها كل ليلة منذ اليوم.

ـ لا شاء الله ذلك ـ قال جاكوب العجوز ـ. فهذه الرائحة هي الشيء الوحيد في الحياة الذي جاء متأخراً بالنسبة إلي.

لعبا الدومينو في الدكان الخالية دون اهتمام بموسيقى الأسطوانات. فذكرياتهما قديمة جداً، حتى إنه لم يكن ثمة أسطوانات قديمة لبعث عواطفهما.

ـ أنا من جانبي ـ قال دون مكسيمو غوميث ـ لا أؤمن كثيراً بهذه الأمور. فبعد هذه السنوات الطويلة وأنا آكل التراب، ومع العديد من النساء اللواتي يرغبن في فناء صغير يزرعن فيه زهورهن، لم يعد مستغرباً أن يشم المرء هذه الأشياء، بل وأن يؤمن أنها صحيحة.

ـ ولكننا نشمها بأنوفنا بالذات ـ قال جاكوب العجوز.

ـ ليس مهماً ـ قال دون مكسيمو غوميث ـ. فخلال الحرب، بعد أن انهزمت الثورة، كانت رغبتنا شديدة في جنرال، فظهر لنا دوق مارلبورو، بلحمه وعظمه. وقد رأيته بعيني هاتين يا جاكوب.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة. وعندما بقي جاكوب العجوز وحيداً أغلق الدكان، وحمل المصباح إلى حجرة النوم. ومن خلال النافذة، رأى الصخرة التي يرمون الموتى من فوقها وقد برزت واضحة أمام بريق البحر.

ـ بيترا ـ نادى بصوت خافت.

لم تستطع سماعه. فقد كانت تبحر في تلك اللحظة على سطح الماء تقريباً، في ظهيرة ساطعة، في خليج البنغال. رفعت رأسها لتنظر من

خلال الماء، كما لو أنها تنظر من نافذة مضاءة، في عابرة محيطات ضخمة. ولم تستطع رؤية زوجها، الذي بدأ يسمع من جديد، في هذه اللحظة، صوت حاكي كاتارينو، في الطرف الآخر من العالم.

- لاحظي هذا - قال جاكوب العجوز -، منذ أقل من ستة شهور اعتبروك مجنونة، وها هم الآن يحتفلون بالرائحة التي سببت لك الموت.

أطفأ النور ودس نفسه في الفراش. بكى ببطء ودون ظُرف، كبكاء العجائز، لكنه غرق في النوم فجأة.

- لو استطعت لغادرت هذه القرية - انتحب في أحلامه -. إني مستعد للذهاب إلى الجحيم لو كان لديّ عشرون بيزو.

منذ تلك الليلة، وطوال عدة أسابيع، ظلت الرائحة في البحر. ضمخت خشب البيوت، والأطعمة وماء الشرب، ولم يبق مكان لا يشمها المرء فيه. وقد ذعر كثيرون عندما وجدوها في بخار برازهم. الرجال والمرأة الذين جاؤوا إلى دكان كاتارينو، رحلوا يوم الجمعة، ولكنهم عادوا يوم السبت ومعهم حشد كبير. وفي يوم الأحد حضر آخرون. كانوا يتكاثرون كالنمل في كل الأماكن، يبحثون عن طعام وعن أمكنة للنوم، حتى لم يعد المسير في الشارع ممكناً.

أتى آخرون أيضاً. والنساء اللاتي تركن القرية حين ماتت، رجعن إلى دكان كاتارينو. كن أكثر سمنة وتبرجاً، وجلبن معهن أسطوانات حديثة لم تذكّر أحداً بأي شيء. وجاء بعض أهل القرية القدماء. والذين كانوا قد ذهبوا ليجمعوا الأموال في أماكن أخرى، عادوا وهم يتحدثون عن ثرواتهم، وإن كانوا يرتدون الملابس نفسها التي رحلوا بها. وجاءت فرق موسيقية وتومبولة، وموائد يانصيب، وبصارات ورماة مسدسات، ورجال يلفون الثعابين حول أعناقهم ويبيعون إكسير الحياة السرمدية. واستمروا بالتوافد أسابيع عديدة، وحتى بعد أن هطلت الأمطار الأولى وصار البحر عكراً واختفت الرائحة.

ومع آخر الوافدين، جاء راهب. راح يتنقل في جميع الأماكن، وهو يأكل الخبز بعد غمسه في فنجان قهوة بالحليب، وراح يحرم، شيئاً

فشيئاً، كل ما جاء قبله: ألعاب اليانصيب، الموسيقى الجديدة، وطريقة الرقص على أنغامها، وحتى عادة النوم الجديدة على الشاطئ. وفي إحدى الأمسيات، ألقى موعظة في منزل ميلتشور حول رائحة البحر.

ـ احمدوا السماء يا أبنائي ـ قال ـ، فهذه الرائحة هي رائحة الرب.

فقاطعه أحدهم:

ـ وكيف استطعت معرفة ذلك يا أبتاه، إذا كنت لم تشمها.

ـ الكتابات القدسية واضحة بشأن هذه الرائحة. نحن هنا في قرية مختارة.

كان توبياس يتنقل من مكان إلى آخر، وسط المهرجان، كمن أصيب بداء بالسير وهو نائم. أخذ معه كلوتيلدي لتتعرف على النقود. وتخيلا أنهما يلعبان بمبالغ طائلة على الروليت، ثم أجريا حساباتهما، فشعرا أنهما أصبحا ثريين ثراءً فاحشاً بالمال الذي يمكن لهما أن يكسباه. ورأيا في إحدى الليالي، ليس وحدهما فقط، بل وكل الحشود التي ملأت القرية، كميات مجتمعة من النقود أكبر بكثير مما كانت تستطيع مخيلتهم تصوره.

كانت تلك هي الليلة التي جاء فيها السيد هربرت. ظهر فجأة، ووضع منضدة في وسط الشارع، وعلى المنضدة صندوقين كبيرين ممتلئين حتى الحافة بأوراق نقدية. كانت النقود كثيرة لدرجة أن أحداً لم ينتبه إليها في البداية، لأنه لم يكن ثمة من يصدق أن ذلك صحيحاً. ولكن، ما إن بدأ السيد هربرت بقرع جرس صغير، حتى اقتنع الناس أخيراً، واقتربوا منه ليستمعوا إليه.

ـ أنا أغنى رجل في العالم ـ قال ـ. أملك نقوداً كثيرة، لم أعد أجد مكاناً أضعها فيه، وبما أني أملك إضافة إليها قلباً كبيراً، لم يعد صدري يتسع له، فقد قررت أن أجول في العالم لأحل مشاكل الجنس البشري.

كان ضخماً، لونه أحمر قان، يتكلم بصوت عال ودون انقطاع، ويحرك في الوقت نفسه يدين دافئتين ناعمتين تبدوان

متعبتين دائماً من الحلاقة. تكلم طيلة ربع ساعة، ثم استراح. بعد ذلك قرع الجرس مرة أخرى وراح يتحدث من جديد، وبينما هو في منتصف خطبته، لوّح أحدهم بقبعته بين الجمهور وقاطعه:

- حسناً يا مستر، لا تتكلم كثيراً، ولتبدأ بتوزيع النقود.

- ليس هكذا - ردّ السيد هربرت -. فتوزيع النقود دون حساب، هو أسلوب لا جدوى منه، إضافة إلى أنه غير عادل.

حدد بنظره موضع الذي قاطعه، وأومأ إليه أن يقترب. فأفسح الحشد له الطريق. وتابع السيد هربرت:

- وبالمقابل، سيسمح لنا الآن هذا الصديق فارغ الصبر، أن نشرح النظام الأمثل لتوزيع الثروة.

مد يده وساعده على الصعود.

- ما اسمك؟

- باتريثيو.

- حسن جداً يا باتريثيو - قال السيد هربرت -. إن لك منذ زمن، مثل الجميع، مشكلة لا تستطيع حلها.

نزع باتريثيو قبعته وأشار برأسه موافقاً.

- ما هي؟

- مشكلتي - قال باتريثيو -: أني لا أملك نقوداً.

- وكم تحتاج؟

- ثمانية وأربعين بيزو.

أطلق السيد هربرت صرخة انتصار وكرر: «ثمانية وأربعين بيزو» ورافقه الحشد بالتصفيق.

تابع السيد هربرت:

- حسن جداً يا باتريثيو. قل لي الآن: ما الذي تعرفه بمهارة؟

- أشياء كثيرة.

- اختر شيئاً واحداً منها - قال السيد هربرت - أفضل ما تتقنه.

- حسناً - قال باتريثيو -. أستطيع محاكاة الطيور.

واتجه السيد هربرت إلى الحشد الذي راح يصفق من جديد:

- أيها السيدات والسادة، صديقنا باتريثيو الذي يحاكي الطيور بشكل رائع، سيقلد لنا أصوات ثمانية وأربعين طيراً مختلفاً، وسيحل بهذه الطريقة مشكلة حياته الكبرى.

بدأ باتريثيو بتقليد الطيور وسط صمت الحشد الذاهل. قلد جميع الطيور المعروفة بالصفير حيناً وبصوت حلقي حيناً آخر، وأكمل العدد بأصوات طيور لم يعرفها أحد. وفي النهاية طلب السيد هربرت من الحشد أن يصفق، وقدم له ثمانية وأربعين بيزو. ثم قال:

- والآن، تقدموا واحداً بعد الآخر. سأبقى هنا إلى مثل هذا الوقت غداً، لأحلّ المشاكل.

كان جاكوب العجوز قد علم بالحدث من تعليقات الناس المارين أمام منزله. وكلما سمع بخبر جديد كان قلبه يتضخم، ويتضخم أكثر فأكثر، حتى أحس به ينفجر.

- ما رأيك بهذا الغرينغو؟ - سأل.

فهز دون مكسيمو غوميث كتفيه:

- لا بد أنه يحب الناس.

- لو كنت أعرف شيئاً - قال جاكوب العجوز - لاستطعت حلّ مشكلتي الآن. إنها مشكلة ضئيلة الأهمية: عشرون بيزو فقط.

- أنت تلعب الدومينو بصورة جيدة - قال دون مكسيكو غوميث.

لم يبد جاكوب العجوز اهتماماً لما قاله. لكنه ما إن بقي وحده، حتى لف رقعة الدومينو وعلبة الأحجار في جريدة، ومضى ليتحدى السيد هربرت. انتظر دوره حتى منتصف الليل. وأخيراً، حمل السيد هربرت الصندوقين، وودع الجميع حتى الصباح التالي.

لم يذهب إلى النوم، بل ظهر في دكان كاتارينو مع الرجال الذين يحملون الصندوقين، وتبعته جموع الناس ومشاكلهم إلى هناك أيضاً. ومضى يحلها شيئاً فشيئاً. لقد حل الكثير من المشاكل حتى لم يبق أخيراً في الدكان سوى النساء، وبعض الرجال الذين حلت

مشاكلهم. وبقيت أيضاً في آخر الصالة، امرأة متوحدة تهوي ببطء بورقة كرتونية عليها إعلان دعائي.

- وأنتِ - صرخ بها السيد هربرت -، ما هي مشكلتك؟

فتوقفت المرأة عن التهوية، وصرخت عبر القاعة:

- لا تحشرني في حفلتك يا مستر. ليست لدي مشكلة من أي نوع، أنا قحبة لأني أريد ذلك.

هز السيد هربرت كتفيه، وتابع شرب البيرة المثلجة إلى جانب الصندوقين المفتوحين، منتظراً مشاكل جديدة. كان يتصبب عرقاً. بعد قليل، خرجت امرأة من بين جماعة كانت ترافقها على إحدى الموائد وتحدثت إليه بصوت خافت. كانت مشكلتها هي الحصول على خمسمئة بيزو.

- ما هي تسعيرتك؟ - سألها السيد هربرت.

- خمسة.

- تصوري - قال السيد هربرت -. سيكونون مئة رجل.

ــ ليس مهماً ــ قالت ــ. إذا ما حصلتُ على المبلغ مجتمعاً، فسيكونون آخر مئة رجل في حياتي.

تأملها. كانت فتية جداً، وذات عظام هشة، ولكن عينيها أظهرتا إصراراً صريحاً.

ــ حسناً ــ قال السيد هربرت ــ. اذهبي إلى الغرفة، وسأرسلهم إليك هناك، ومع كل واحد منهم خمسة بيزوات.

ثم خرج إلى الباب وهز الجرس. وجد توبياس دكان كاتارينو مفتوحاً في الساعة السابعة صباحاً. كل شيء كان مطفأً. والسيد هربرت يشرف على دخول الرجال إلى حجرة الفتاة وهو نصف نائم، ومنتفخ بالبيرة.

ودخل توبياس أيضاً. كانت الفتاة تعرفه، وقد فوجئت حين رأته في حجرتها.

- أنت أيضاً؟

- طلبوا مني الدخول - قال لها توبياس -. أعطوني خمسة بيزوات وقالوا لي لا تتباطأ.

سحبت الملاءة المبللة عن الفراش، وطلبت من توبياس الإمساك بأحد طرفيها. كانت ثقيلة مثل قماش لوحة رسم. عصراها بشدة من طرفيها، إلى أن استعادت وزنها الطبيعي. ثم قلبا الفراش فسال العرق من الجانب الآخر. قضى توبياس وطره كيفما اتفق. ووضع قبل أن يخرج البيزوات الخمسة فوق كومة الأوراق النقدية المتنامية بجانب السرير.

- أرسل إلي ما يمكنك من الرجال - أوصاه السيد هربرت -، لأرى إذا كنا سننتهي من هذا الأمر قبل الظهر.

فتحت الفتاة باب حجرتها قليلاً وطلبت بيرة مثلجة. كان هناك عدد من الرجال ينتظرون.

- كم بقي؟ - سألت.

- ثلاثة وستون - أجابها السيد هربرت.

أمضى جاكوب العجوز النهار كله بملاحقته حاملاً رقعة الدومينو. وأتى دوره في المساء، فطرح مشكلته، وقبل بها السيد هربرت. وضعا كرسيين وطاولة صغيرة فوق المنضدة الكبيرة في عرض الشارع، وافتتح جاكوب العجوز اللعبة. وكان أن فكر بآخر حركة. وخسر.

- أربعون بيزو- قال السيد هربرت -. وسأمنحك حجرين مسبقاً.

كسب مرة أخرى. كانت يداه تمسان الأحجار برقة. لعب وهو معصوب العينين، بحدس مواقع الخصم وكسب دائماً. تعب الحشد من مشاهدتهما. وعندما قرر جاكوب العجوز الاستسلام، كان قد أصبح مديناً بخمسة آلاف وسبعمائة واثنين وأربعين بيزو وثلاثة وعشرين سنتافو.

لم يفقد أعصابه. دوّن الرقم على ورقة وحفظها في جيبه. ثم طوى رقعة الدومينو، ووضع الأحجار في العلبة، ولفها كلها في الجريدة.

- افعل بي ما تشاء - قال -، ولكن اترك لي هذه الأشياء. وأعدك بأني سألعب بقية حياتي حتى أجمع هذه النقود.

نظر السيد هربرت إلى الساعة، وقال:

ـ أنا آسف من أعماق روحي. فالمهلة تنتهي بعد عشرين دقيقة.

وانتظر حتى تأكد من أن خصمه لن يجد أي حل وقال له:

ـ أليس لديك شيء آخر؟

ـ الشرف.

فقال السيد هربرت شارحاً:

ـ أعني شيئاً يتغير لونه إذا مرّت عليه فرشاة نقاش ملطخة.

قال جاكوب العجوز وكأنه يحل أحجية:

ـ البيت.. إنه لا يساوي شيئاً، ولكنه بيت على أية حال.

وهكذا حصل السيد هربرت على بيت جاكوب العجوز. واستولى أيضاً على بيوت وممتلكات آخرين، لم يستطيعوا الوفاء بديونهم، لكنه أمر بتنظيم أسبوع موسيقى وألعاب نارية ورقص، وأشرف بنفسه على المهرجان.

كان أسبوعاً لا يُنسى. تكلم فيه السيد هربرت عن المصير الرائع الذي ينتظر القرية، بل إنه رسم مخططاً لمدينة المستقبل ذات الأبنية الزجاجية الضخمة وحلبات الرقص على السطوح المستوية الفسيحة. وعرض المخطط على الحشود. نظروا متعجبين، وحاولوا العثور على أنفسهم بين السائرين الذين رسمهم السيد هربرت بالألوان، لكن هؤلاء كانوا يرتدون ملابس أنيقة لدرجة أنه تعذر عليهم التعرف على أنفسهم. لقد آلمتهم قلوبهم لكثرة ما استخدموها. وضحكوا ساخرين في ضباب الأمل، إلى أن قرع السيد هربرت الجرس، وأعلن انتهاء المهرجان. وعندئذ فقط ذهب ليستريح.

ـ ستموت بسبب هذه الحياة التي تعيشها ـ قال له جاكوب العجوز.

فقال السيد هربرت:

ـ لدي نقود كثيرة، إلى حد أنه ليس ثمة ما يميتني.

رمى نفسه على السرير. ونام أياماً وأياماً، وهو يشخر كأسد، ومضت أيام كثيرة، حتى تعب الناس من انتظاره، وكان عليهم أن يلتقطوا سرطانات لتأمين طعامهم. وغدت أسطوانات كاتارينو

الجديدة قديمة جداً، حتى إن أحداً لم يعد يستطيع سماعها دون دموع، فاضطر إلى إغلاق دكانه.

بعد فترة طويلة من بدء السيد هربرت بالنوم، طرق الكاهن بيت جاكوب العجوز. كان البيت مغلقاً من الداخل. وكان تنفس النائم يستنفد الهواء شيئاً فشيئاً، ما جعل الأشياء تفقد وزنها، وبدأ بعضها يسبح في الفراغ.

- أريد التحدث معه - قال الأب.

- يجب الانتظار - قال جاكوب العجوز.

- ليس لدي كثير من الوقت.

فقال جاكوب العجوز بإصرار:

ـ اجلس وانتظر يا أبتاه. وفي هذه الأثناء تقدم لي معروفاً بالتحدث معي. فمنذ فترة طويلة لا أعرف شيئاً مما يجري في العالم.

ـ إن الناس يهربون ـ قال الأب ـ، وعما قريب ستصبح القرية مقفرة كما كانت في الماضي. هذا هو الخبر الجديد الوحيد.

- سيعودون ثانية. عندما تفوح من البحر رائحة الورد من جديد.

- ولكن حتى ذلك الحين علينا أن ندعم بشيء أوهام من سيظلون هنا - قال الأب ـ. فبناء المعبد أصبح أمراً ملحاً.

قال جاكوب العجوز:

- ولهذا السبب أتيت تبحث عن السيد هربرت.

- أجل - قال الأب ـ. فالأمريكيون يتصدقون كثيراً.

- انتظر إذاً يا أبتاه، فربما استيقظ - قال جاكوب العجوز.

لعبا الدومينو. كانت مباراة طويلة وصعبة، استغرقت عدة أيام، ولكن السيد هربرت لم يستيقظ.

استولى الاضطراب على الكاهن بسبب القلق. فمضى في جميع الأنحاء، وهو يحمل صحناً نحاسياً، ويطلب الصدقات لبناء المعبد. لكن ما جمعه كان قليلاً جداً. ولكثرة الترجي صارت توسلاته أكثر شفافية، وبدأت عظامه تمتلئ بالأصوات. ولكن أحداً لم ينتبه

إلى ذلك. عندئذ وضع ملابسه في حقيبة، ووضع النقود التي جمعها في حقيبة أخرى، وودعهم إلى الأبد.

- لن تعود الرائحة مرة أخرى - قال للذين حاولا ثنيه عن عزمه -. علينا أن نواجه الحقيقة بأن هذه القرية قد وقعت في خطيئة مميتة.

عندما استيقظ السيد هربرت، كانت القرية قد عادت إلى سابق عهدها. فقد خمّر المطر النفايات التي تركتها الجموع في الشوارع، وأصبحت الأرض من جديد مشققة وصلبة كالآجر.

- لقد نمتُ طويلاً - تثاءب السيد هربرت.

- قروناً - قال جاكوب العجوز.

- إنني أموت جوعاً.

- الجميع هكذا - قال جاكوب العجوز -. ليس هناك حل آخر سوى أن تذهب إلى الشاطئ وتنقب عن السرطانات.

وجده توبياس وهو ينقب في الرمال، وفمه مملوء بالزبد، وذهل لأن الأغنياء في جوعهم يشبهون الفقراء. لم يعثر السيد هربرت على كفايته من السرطانات. وفي المساء، دعا توبياس ليبحث معه عن شيء يؤكل في قاع البحر.

- اسمع - حذره توبياس -. إن الموتى وحدهم هم الذين يعرفون ما يوجد في القاع.

- العلماء يعرفون أيضاً - قال السيد هربرت -، فإضافة إلى بحر حطام السفن، توجد سلاحف ذات لحم لذيذ. اخلع ملابسك وهلّم بنا.

ذهبا. سبحا في البداية باتجاه مستقيم، نحو الأسفل، عميقاً جداً، إلى حيث انتهى ضوء الشمس، ثم ضوء البحر، وأصبحت الأشياء مرئية بضوئها الذاتي وحسب. مرّا قبالة قرية غارقة، فيها رجال ونساء على صهوات الجياد، يدورون حول كشك موسيقى. كان يوماً رائعاً، وكانت هناك أزهار حية على الشرفات.

- غرقت هذه القرية في يوم أحد، حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً - قال السيد هربرت -. لا بد أن ذلك حدث بفعل زلزال.

انحرف توبياس باتجاه القرية، لكن السيد هربرت أشار إليه أن يتبعه نحو القاع.

- توجد أزهار هناك - قال توبياس -. وأريد أن تتعرف كلوتيلدي عليها.

- يمكنك العودة إلى هناك بهدوء في يوم آخر. أما الآن فإنني أموت جوعاً.

كان ينحدر منزلقاً كإخطبوط، بضربات طويلة ورشيقة من ذراعيه. وفكر توبياس الذي كان يحاول البقاء قريباً منه، في أنه لابد أن تكون هذه الطريقة في السباحة هي طريقة الأغنياء. وخرجا شيئاً فشيئاً من بحر الكوارث العادية ودخلا في بحر الموتى.

كانت هناك أعداد كبيرة، حتى إن توبياس لم يصدق أنه رأى مثل هذا العدد من الناس في العالم. كانوا يطفون على ظهورهم، بلا حراك، وعلى مستويات عدة من الارتفاع، وكانت لهم جميعاً ملامح الكائنات المنسية.

- إنهم موتى قديمون جداً - قال السيد هربرت -. لقد احتاجوا إلى قرون ليصلوا إلى هذه الحالة من الراحة.

وفي مياه أعمق قليلاً، مياه الموتى المحدثين، توقف السيد هربرت ولحق به توبياس في ذات اللحظة التي مرت أمامهما امرأة شابة. كانت تطفو على جانبها، مفتوحة العينين، ويتبعها سيل من الأزهار.

وضع السيد هربرت سبابته على فمه، وبقي على هذه الحال إلى أن مرت آخر الأزهار. ثم قال:

- إنها أجمل امرأة رأيتها في حياتي.

- إنها زوجة جاكوب العجوز - قال توبياس -. تبدو أكثر شباباً بخمسين عاماً من عمرها، ولكنها هي. إنني متأكد.

- لقد جابت مناطق كثيرة - قال السيد هربرت -. فهي تجر خلفها أزهار كل بحار العالم.

وصلا إلى القاع. دار السيد هربرت عدة مرات فوق أرض تشبه

الاردواز المحروث. ولحق به توبياس. وحين اعتادا على عتمة الأعماق فقط، اكتشفا وجود السلاحف. هنا كانت توجد آلاف منها، ملتصقة بالقاع، وثابتة تماماً حتى لتبدو كأنها متحجرة.

- إنها حية - قال السيد هربرت -، لكنها نائمة منذ ملايين السنين.

قلب إحداها، ودفعها برفق إلى الأعلى، فأفلت الحيوان النائم من بين يديه وتابع صعوده نحو الأعلى. أبتعد توبياس من أمامه. ثم تطلع إلى السطح، ورأى البحر كله مقلوباً، فقال:

- إنه كالحلم.

- لمصلحتك الخاصة - قال له السيد هربرت -، لا تخبر أحداً. تصور الفوضى التي ستحدث في العالم إذا ما اطلع الناس على هذه الأمور.

عندما رجعا إلى القرية، كان الوقت قد قارب منتصف الليل. أيقظا كلوتيلدي لتسخن ماءً. وذبح السيد هربرت السلحفاة. وكان على ثلاثتهم، عندما شقوها، أن يلاحقوا القلب الذي خرج من صدرها وراح يقفز في فناء البيت، ليقتلوه مرة أخرى.

أكلوا حتى ما عاد بإمكانهم التنفس. وعندئذ قال السيد هربرت:

- حسناً يا توبياس، علينا أن نواجه الواقع.

- بالطبع.

فتابع السيد هربرت:

- والواقع هو أن هذه الرائحة لن تعود أبداً.

- ستعود.

- لن تعود - تدخلت كلوتيدي -، وأحد الأسباب هو أنها لم تأت أبداً. فأنت الذي خدعت الجميع.

- لقد شممتِ الرائحة بنفسك - قال توبياس.

- كنت نصف مخبولة في تلك الليلة - قالت كلوتيلدي -. أما الآن فلست مؤمنة بأي شيء له علاقة بهذا البحر.

- سأرحل على كل حال - قال لهما السيد هربرت، ثم أضاف موجهاً كلامه إلى الاثنين:

ـ عليكما أن ترحلا أيضاً. هناك أمور كثيرة يمكن القيام بها في هذا العالم، فلماذا البقاء تحت وطأة الجوع في هذه القرية.

رحل. وبقي توبياس في الفناء، يعدّ النجوم حتى الأفق، واكتشف أن عدد النجوم قد ازداد ثلاث نجوم منذ كانون الأول الماضي. نادته كلوتيلدي إلى الحجرة. لكنه لم يلتفت إليها.

ـ تعال إلى هنا أيها الجلف ـ قالت بإصرار ـ. فمنذ قرون لم نفعل مثل الأرانب.

انتظر توبياس فترة طويلة. وعندما دخل أخيراً، كانت قد نامت. أيقظها نصف إيقاظ، ولكنه كان مرهقاً، حتى إنهما خلطا بين الأشياء ولم يستطيعا في النهاية أن يفعلا إلا مثل الديدان.

ـ إنك سارح الأفكار ـ قالت كلوتيدي باستياء ـ حاول التفكير في شيء آخر.

ـ إني أفكر في شيء آخر.

أرادت أن تعرف ما هو الشيء، وقرر أن يخبرها شريطة أن لا تخبر به أحداً. فعاهدته كلوتيلدي على ذلك.

ـ في قاع البحر ـ قال توبياس ـ توجد قرية بيوتها بيضاء، وعلى شرفاتها ملايين الأزهار.

رفعت كلوتيلدي يديها إلى رأسها، وصرخت:

ـ آه يا توبياس. آه يا توبياس، لا تبدأ الآن بحق حب الرب بإثارة هذه الأمور مرة أخرى.

لم يكمل توبياس حديثه. انقلب إلى الطرف الآخر من الفراش، وحاول النوم. لكنه لم يستطع ذلك حتى الفجر، عندما تبدل اتجاه الريح، وتركته السرطانات ينام بهدوء.

أجمل غريق في العالم

El ahogado más hermoso del mundo

(1968)

أول الأطفال الذين رأوا الرابية الداكنة السرية تقترب من البحر، منوا أنفسهم بأن تكون سفينة معادية. بعد ذلك لاحظوا أنها لا ترفع أعلاماً وليس لها صوار، ففكروا في أنها قد تكون حوتاً. ولكنها عندما توقفت على الشاطئ، نزعوا عنها أجمة الطحالب، وفتائل قناديل البحر، وبقايا السمك والغرق التي تغطيها، وعندئذ فقط اكتشفوا أنه غريق.

لعبوا به طوال المساء، كانوا يدفنونه في الرمل ثم يخرجونه، عندما رآهم أحدهم مصادفة، وأطلق صرخة الإنذار في القرية. الرجال الذين حملوه إلى أقرب بيت لاحظوا أنه أثقل من جميع الموتى المعروفين، يكاد يكون بوزن حصان، وقالوا ربما ظلت تتقاذفه الأمواج وقتاً طويلاً، فتغلغل الماء في عظامه. وعندما مددوه على الأرض وجدوا أنه أكبر حجماً من جميع الرجال، حتى كاد البيت لا يتسع له؛ لكنهم فكروا في احتمال أن تكون القدرة على مواصلة النمو بعد الموت هي من طبيعة بعض الغرقى. كانت تنبعث منه رائحة البحر، والهيئة وحدها تسمح بافتراض أنها جثة كائن بشري، لأن بشرته كانت مغطاة بقشرة من الطحالب والطين.

لم يكن عليهم أن ينظفوا وجهه ليعرفوا أنه ميت غريب. فالقرية تكاد لا تضم أكثر من عشرين بيتاً خشبياً، لها باحات حجرية بلا أزهار، مبعثرة على طرف رأس بحري قاحل. وكانت الأرض ضيقة إلى حدّ تشعر النساء معه بالخوف على الدوام من أن تحمل الريح أطفالهن. والموتى القليلون الذين ماتوا بالهرم ومرور السنين كان يُلقى

بهم في وهاد الساحل. لكن البحر وديع وسخي، ورجال القرية كلهم تتسع لهم سبعة زوارق. ولهذا، عندما وجدوا الغريق، اكتفوا بالنظر بعضهم إلى بعض ليتأكدوا من أنهم كاملو العدد.

لم يخرجوا في تلك الليلة إلى العمل في البحر. فبينما ذهب الرجال ليتحققوا إذا ما كان قد اختفى أحد من القرى المجاورة، ظلت النساء يعتنين بالغريق. أزلن عنه الوحل بقطع من الحلفاء، وحللن عن شعره الأعشاب البحرية، وكشطن ما التصق به بأدوات نزع حراشف الأسماك. وبينما هن يفعلن ذلك، تنبهن إلى أن النباتات التي تغطيه هي من محيطات أخرى ومن مياه عميقة، وأن ملابسه مهترئة، كما لو أنه أبحر في متاهات مرجانية. ولاحظن كذلك أنه يحمل الموت بكبرياء، فمظهره ليس متوحداً مثلما هي ملامح غرقى البحار الآخرين، وليس له كذلك قبح القذارة البائسة التي للغرقى النهريين. ولكنهن ما إن انتهين من تنظيفه حتى أدركن أي نوع من الرجال هو، وعندئذ حبسن أنفاسهن. فهو ليس أطول من عرفن من الرجال قامة، وأقواهم، وأكثرهم رجولة، وأفضلهم تسليحاً وحسب، بل إن خيالهن لم يكن يتسع له وهن ينظرن إليه.

لم يجدن في القرية سريراً كبيراً بما يكفي ليسجينه عليه، ولا منضدة متينة بما يكفي لأن تتحمله من أجل السهر عليه. ولم تناسب مقاسه سراويل الأعياد التي لدى أطول الرجال قامة، ولا قمصان أيام الآحاد لدى أضخمهم، ولا أحذية أشدهم رسوخاً. ولافتتانهن بلا محدودية ضخامته ووسامته، قررت النسوة عندئذ أن يصنعن سروالاً بقطعة كبيرة من قماش الأشرعة، وقميصاً من فستان زفاف عروس، كي يتمكن من مواصلة موته بوقار. وبينما هن جالسات يُخطن في دائرة، كن يتأملن الجثة بين غرزة وأخرى، ويبدو لهن أن الريح لم تعصف من قبل قط بمثل ذلك الإصرار، ولم يكن الكاريبي قط بمثل جزعه في تلك الليلة، ويفترضن أن لهذه المتغيرات علاقة بالميت. ويفكرن في لو أن ذلك الرجل العظيم قد عاش في القرية، لكان

لبيته أوسع الأبواب، وأعلى السقوف، وأشد الأرضيات رسوخاً، ولكان هيكل سريره مصنوعاً من دعامات متينة مع براغ وصمولات حديدية، ولكانت زوجته أسعد النساء. وكن يفكرن في أنه سيكون الأشد سطوة، بحيث يستطيع إخراج الأسماك من البحر بمجرد مناداتها بأسمائها، وأنه سينكب على العمل بهمة تمكنه من جعل الينابيع تنشق من أشد الصخور قحولة، ولاستطاع زرع أزهار في الجروف البحرية. وقارنَّه سراً برجالهن، وهن يفكرن بأنهم غير قادرين أن يحققوا مدى حياة كاملة ما يستطيع عمله هو في ليلة واحدة، وانتهى بهنَّ الأمر إلى مقتهم في أعماق قلوبهن باعتبارهم أضعف الكائنات وأكثرها مسكنة على الأرض. كن تائهات في متاهات التخيل تلك عندما تنهدت أكبرهن سناً، ولأنها أكبرهن سناً فقد تأملت الغريق بنظرة فيها من العاطفة أقل مما فيها من الشفقة، وقالت:

ـ له وجهه من يمكن تسميته إستيبان.

كان ذلك صحيحاً. فقد اكتفى معظمهن بالنظر إليه مرة أخرى ليدركن أنه لا يمكن أن يكون له اسم آخر. أما أكثرهن عناداً، وهن أكثرهن شباباً، فقد احتفظن بوهم إمكان تسميته لاوتارو بعد إلباسه الثياب، وتسجيته بين الأزهار، وإنعاله جزمة. ولكنه كان وهماً بلا طائل. فقد كان القماش قليلاً، وكان البنطال سيئ التفصيل والخياطة، وضيقاً عليه، وأطاحت قوى قلبه الخفية بأزرار القميص وجعلتها تتطاير. بعد انتصاف الليل خفت صفير الرياح، وهدأ البحر مستكيناً في سبات الأربعاء. وقوض الصمت آخر الشكوك: إنه إستيبان. والنساء اللواتي ألبسنه الثياب، واللواتي سرحن شعره، واللواتي قلمن أظافره وشذبن لحيته، لم يستطعن كبح هزة إشفاق عندما اضطررن إلى الاستسلام لتركه ملقى على الأرض. وكان أن أدركن عندئذ مقدار التعاسة التي كان عليها وهو بذلك الجسد الضخم الذي مازال يزعجه بعد موته. رأينه محكوماً في حياته

بالمرور مجانبة عبر الأبواب، وشج رأسه بالعوارض العلوية، والبقاء واقفاً عند ذهابه في زيارة، دون أن يدري ما يفعله بيديه اللينتين والورديتين كيدي ثور بحر، بينما ربة البيت تبحث عن أمتن كرسي لديها وترجوه وهي تكاد تموت من الخوف، اجلس هنا يا إستيبان، أرجوك. ويستند هو إلى الجدار، مبتسماً، لا تقلقي يا سيدتي، إنني على ما يرام هكذا، لمجرد ألا يعاني من حرج كسر الكرسي، وربما دون أن يدري أبداً أن من يقولون له: لا تذهب يا استيبان، انتظر ريثما تغلي القهوة على الأقل، هم أنفسهم من يهمسون بعد انصرافه: ها قد ذهب الأبله الضخم، يا لحسن الحظ، لقد ذهب الأحمق البديع. هذا ما فكرت فيه النساء أمام الجثة قبل الفجر بقليل. وفي ما بعد، عندما غطين وجهه بمنديل كي لا يزعجه الضوء، رأينه ميتاً تماماً إلى الأبد، وأعزل تماماً، وشديد الشبه برجالهن، فانفتحت أول شروخ الدمع في القلوب. كانت إحدى أكثرهن شباباً هي من بدأت البكاء. وتشجعت الأخريات فيما بينهن، وتحولن من الزفرات إلى الحسرات، وكلما انتحبن أكثر شعرن برغبة أكبر في البكاء، لأن الغريق راح يتحول أكثر فأكثر إلى استيبان في نظرهن، بكينه كثيراً حتى صار أكثر الرجال حرماناً على الأرض، وأكثرهم وداعة، وأكثرهم أفضالاً هو المسكين استيبان. وهكذا، عندما عاد الرجال بخبر أن الغريق ليس من أبناء القرى المجاورة أيضاً، شعرن بفسحة سعادة وسط دموعهن، وتنهدن:

ـ فليتبارك الرب... إنه لنا!

ظن الرجال أن تلك المبالغة بالإعجاب ليست سوى تفاهات نساء. ولأنهم كانوا منهوكين من تقصيهم الليلي الشاق، فإن الشيء الوحيد الذي كانوا يريدونه هو أن يزيحوا عن كاهلهم دفعة واحدة إزعاج هذا الدخيل قبل أن تشتد حرارة شمس ذلك اليوم القائظ الذي بلا ريح. ارتجلوا حمّالة من بقايا أشرعة المراكب وعوارض الصواري، وثبتوها إلى بعضها البعض بعوارض متينة لتتحمل ثقل الجسد حتى

الوصول به إلى وهدة الساحل. أرادوا ربط كاحليه بمرساة سفينة تجارية كي يغطس دون عوائق إلى أعماق البحار حيث الأسماك عمياء، وحيث يموت الغواصون حنيناً، وكي لا تعيده التيارات الخبيثة إلى الشاطئ من جديد، كما حدث سابقاً لأجساد أخرى. ولكنهم كلما استعجلوا أكثر، كان يخطر للنساء مزيد من الأمور لإضاعة الوقت. كنّ يتنقلن مثل دجاجات مذعورة وهن يلتقطن تمائم بحرية من صناديقهن، وبعضهن يعرقلن العمل هنا لأنهن يرغبن في أن يُلبسن الغريق كتفية الريح الحميدة، وأخريات يضايقن هناك وهن يضعن في معصمه سوار التوجه البحري، وبعد كثير من قول ابتعدي من هنا يا امرأة، واذهبي حيث لا تعرقلين، وانتبهي، إنك توشكين أن تلقي بي فوق الميت، صعدت زفرات الرجال حتى أكبادهم، وبدؤوا يدمدمون متأففين عن سبب جلب كل تلك القلائد التي تنفع لمذبح كبير في كنيسة وتقديمها لميت غريب، وإذا ما كانت أسماك القرش ستتمكن من مضغه وهو محمل بكل تلك الحدائد والتمائم. ولكن النساء واصلن إحضار تمائمهن الرخيصة، وكن يذهبن ويجئن، ويصطدمن، ويُخرجن بالزفرات ما لم يخرج منهن بالدموع، وهكذا انتهى الأمر بالرجال إلى الهذر بعصبية عن متى حدث هنا مثل هذا الهياج على ميت حملته الأمواج، غريق لا ينتمي إلى أحد، مجرد جثة براز. عندئذ أقدمت امرأة عذبتها كل تلك البلادة بنزع المنديل عن وجه الجثة، ففقد الرجال أيضاً أنفاسهم.

إنه استيبان. ولم يكن عليهم أن يكرروا ذلك للتعرف إليه. ولو قيل لهم إنه السير وولتر راليي، فلربما كانوا سيُذهلون هم أنفسهم لنبرته الغرينغية، والببغاء التي على كتفه، وبندقيته التي يقتل بها آكلة لحوم البشر، ولكن استيبان لا يمكن إلا أن يكون واحداً في العالم، وهو مطروح هناك مثل سمكة شابل، بلا حذاء، وبسروال كسروال خديج، وتلك الأظفار الحجرية التي لا يمكن تقليمها إلا بسكين. وكان يكفي إزاحة المنديل عن وجهه كي يلحظوا أنه

يشعر بالخجل، وأنه غير مذنب لكونه على تلك الضخامة، وذلك الثقل، وتلك الوسامة، ولو أنه كان يعرف أن ذلك سوف يحدث لبحث عن مكان أكثر عزلة ليغرق فيه، أجل، كنت أنا نفسي ربطتُ مرساة سفينة غاليون في عنقي وألقيت بنفسي عند الجروف البحرية كي لا أسبب الإزعاج الآن بميت الأربعاء هذا، مثلما تقولون، كي لا أُزعج أحداً بهذه الجثة التي لا علاقة لي بها. كان هناك الكثير من الحقيقة في طريقة سكونه، حتى إن أشد الرجال تشككاً، أولئك الذين يشعرون بمرارة ليالي الدأب في البحر ويخشون أن تتعب نساؤهم من الحلم بهم كي يحلمن بالغرقى، حتى هؤلاء الرجال، وآخرون أشد منهم قسوة، اهتزوا حتى النخاع من صدق استيبان.

وكان أن أعدوا له أروع مأتم يمكن تصوره لغريق لقيط. بعض النساء اللواتي ذهبن بحثاً عن أزهار في القرى المجاورة، رجعن ومعهن نساء أخريات لم يصدقن ما يحكينه لهن، وذهب هؤلاء النسوة بدورهن بحثاً عن مزيد من الأزهار عندما رأين الميت، وأحضرن أخريات وأخريات، حتى اجتمع هناك من الأزهار ومن الناس ما جعل المسير صعباً. وقد آلمهم في اللحظة الأخيرة أن يعيدوه يتيماً إلى الماء؛ فاختاروا له أباً وأماً من أفضل الموجودين، وجعل آخرون من أنفسهم أخوة له، وأعماماً وأبناء عمومة، هكذا صار جميع أهل القرية، من خلاله، أقرباء فيما بينهم. بعض البحارة الذين سمعوا البكاء عن بعد فقدوا القدرة على التوجه، وعُلم أن أحدهم طلب شد وثاقه إلى الصاري الكبير في سفينته، متذكراً بذلك حكايات قديمة عن حوريات بحر. وبينما هم يتنازعون على امتياز حمله على أكتافهم حتى الوهدة القريبة من الشاطئ، أحس الرجال والنساء، أول مرة، بكآبة شوارعهم، وقحولة أفنية بيوتهم، وضيق أحلامهم، أمام روعة وجمال غريقهم. ألقوا به إلى البحر دون مرساة، كي يعود إليهم إذا ما رغب، وعندما يرغب في ذلك، وحبسوا جميعهم أنفاسهم خلال هنيهة من

القرون التي استغرقها سقوط الجسد حتى الهوة. ما كانوا بحاجة للنظر إلى بعضهم البعض ليتأكدوا من أنهم ليسوا كاملين، وأنهم لن يعودوا كاملين أبداً. ولكنهم كانوا يعرفون كذلك أن كل شيء سيكون مختلفاً منذ ذلك اليوم، وأنه ستكون لبيوتهم أبواب أكثر اتساعاً، وأن السقوف ستكون أكثر ارتفاعاً، والأرضيات أشد صلابة، كي تتمكن ذكرى استيبان من التجول في جميع الأنحاء دون أن تصطدم بعوارض الأبواب العلوية، ولن يجرؤ أحد على الهمس في المستقبل: لقد مات الأحمق الضخم، يا للأسف، لقد مات الأبله الوسيم، لأنهم سيطلون واجهات بيوتهم بألوان بهيجة لتخليد ذكرى استيبان، وسيكسرون ظهورهم ليحفروا ينابيع في الصخر وليزرعوا زهوراً عند جروف الشاطئ، كي يستيقظ المسافرون في السفن الضخمة في أصباح السنوات السعيدة وقد خنقت أنفاسهم رائحة حدائق عرض البحر، ويكون على القبطان أن ينزل إليهم من مقصورته مرتدياً بزة المراسم، حاملاً اسطرلابه وبوصلته، وصفوف نياشينه الحربية، ويشير إلى رابية الأزهار التي في أفق الكاريبي ويقول لهم بأربع عشرة لغة: انظروا هناك، حيث الرياح الآن وديعة تنام تحت الأسرة، هناك، حيث تتوهج الشمس بشدة بحيث لا تعرف أزهار دوار الشمس إلى أي اتجاه تدور، أجل، تلك هي قرية استيبان.

موت مؤكد فيما وراء الحب
Muerte constante más allá del amor

(1970)

لم يكن أمام السيناتور أنسيمو سانتشث سوى ستة شهور وأحد عشر يوماً في الحياة عندما وجد امرأة حياته. تعرف إليها في روسال دل فيري، وهي قرية صغيرة خيالية تتحول في الليل إلى ترسانة حصينة لمراكب المهربين، وعلى العكس من ذلك، كانت تبدو في النهار كأنها أقل أركان الصحراء قيمة، قبالة بحر قاحل دون خطوط بحرية، ومعزولة تماماً عن كل شيء حتى إنه لا يمكن الشك بأن أحداً ممن يحيا هناك قادر على تغيير مصير أحد. وحتى اسمها كان يبدو سخرية، فالوردة الوحيدة التي شوهدت في تلك القرية هي التي حملها السيناتور أنسيمو سانتشث معه في المساء نفسه الذي تعرف فيه إلى لاورا فارين.

إنها محطة لا بد منها في الحملة الانتخابية كل أربع سنوات. كانت قد وصلت في الصباح عربات الشحن التي تحمل الفرقة الجوالة. وبعد ذلك وصلت الشاحنات وفيها الهنود المستأجرون الذين يأخذونهم إلى القرى لاستكمال الحشود في المهرجانات العامة. وقبل الحادية عشرة بقليل، وصلت بين أصوات الموسيقى والألعاب النارية وموكب الموالين الريفيين السيارة الوزارية التي لها لون مرطب الفريز. كان السيناتور انسيمو سانتشث هادئاً ودون إحساس بالزمن في السيارة المكيفة. ولكنه ما إن فتح الباب، حتى اختلج بلفحة من نار وتبلل قميصه الذي من حرير طبيعي بسائل لزج أزرق ضارب إلى السواد، وأحس أنه هرم سنوات طويلة وأنه وحيد كما لم يكن من قبل. لقد أتم في الحياة الواقعية 43 سنة، ونال إجازة بدرجة الشرف في الهندسة التعدينية في غوتينغا، وكان خطيباً مفوهاً، وإن لم

يكن محظوظاً مثل الكلاسيكيين اللاتينيين الذين تُرجموا بصورة سيئة. كان متزوجاً من ألمانية مشعة وله منها خمسة أولاد، جميعهم سعداء في بيتهم، وكان هو أسعدهم حتى اليوم الذي أخبروه فيه، منذ ثلاثة شهور، بأنه سيموت في عيد الميلاد القادم.

وبينما كانوا يقومون بالترتيبات الأخيرة للمهرجان العام، تمكن السيناتور من الانفراد بنفسه ساعة في البيت الذي حجزوه ليستريح فيه. وقبل أن يضطجع وضع في ماء الشرب وردة طبيعية حافظ عليها حية عبر الصحراء، تغدى من حبوب الريجيم التي يحملها معه ليتجنب مقالي الماعز المتكررة التي تنتظره بقية اليوم، وتناول عدة أقراص مسكنة للآلام قبل موعدها المحدد، فهكذا يأتيه التخفيف قبل الآلام. ووضع بعد ذلك المروحة الكهربائية قريباً من الأرجوحة، واستلقى عارياً خلال خمس عشرة دقيقة في ظلمة الوردة، وهو يقوم بجهد كبير لتشتيت ذهنه حتى لا يفكر بالموت وهو يحاول النوم. باستثناء الأطباء، لم يكن أحد يعرف أنه محكوم بنهاية محتومة معلومة، فقد قرر أن يكابد وحيداً سره، دون أي تغيير في حياته، ليس ذلك تكبراً وإنما حياء.

شعر بسيطرة تامة على مشيئته عندما عاد للظهور أمام الجمهور في الثالثة مساء، مستريحاً ونظيفاً، ومرتدياً سروالاً أبيض من كتان خام وقميصاً عليه رسوم أزهار، وروحه سالية بأقراص تسكين الألم. ومع ذلك، كان تآكل الموت أكثر غدراً مما افترض، فعندما صعد إلى المنبر، أحس باحتقار غريب نحو من تنازعوا للظفر بمصافحته، ولم يُظهر إشفاقه، كما كان يفعل سابقاً، على قوافل الهنود الحفاة الذين يجهدون لتحمل جمرات الأرض الكلسية في الساحة القاحلة. أسكت التصفيق بأمر من يده وهو غاضب تقريباً، وبدأ يتكلم دون حركات من يديه، وعيناه ثابتتان على البحر الذي يزفر حراً لاهباً. كان لصوته المتقطع العميق نوعية الماء الساكن، ولكن الخطبة المحفوظة عن ظهر قلب لكثرة مضغها لم تخطر له لقول الحقيقة وإنما لمعارضة عبارة رهيبة وردت في الكتاب الرابع من مذكرات ماركو أوريليو.

بدأ قوله، مناقضاً كل قناعاته:

- إننا هنا لنهزم الطبيعة. ولن نكون بعد اليوم لقطاء الوطن، ولا أيتام الرب في مملكة العطش والقسوة، ولا المنفيين في أرضنا. سنكون آخرين، أيها السيدات والسادة، سنكون عظماء وسعداء.

إنها معادلات سيركه. وبينما هو يتحدث، كان مساعدوه يلقون في الفضاء حفنات عصافير ورقية، وتكتسب هذه الحيوانات المزيفة حياة، وتحوم حول المنصة الخشبية، ثم تمضي نحو البحر. وفي الوقت نفسه، كان آخرون يُخرجون من الشاحنات أشجاراً مسرحية أوراقها من اللبد ويغرسونها وراء الجمهور في أرض ملح البارود. وفي النهاية نصبوا مجسمات كرتونية لبيوت من قرميد أحمر ونوافذ زجاجية، أخفوا وراءها بيوت الحياة الواقعية البائسة.

أطال السيناتور خطبته، بفقرتين باللاتينية، ليتيح الوقت لانجاز المهزلة. ثم وعد جمهوره بآلات المطر، ومداجن نقالة تنتج دواجن المائدة، وزيت سعادة يجعل الخضار تنمو في أراضي ملح البارود والورود تتفتح في الشرفات. وعندما رأى عالمه الوهمي منجزاً، أشار إليه بإصبعه، وصرخ:

- هكذا سنكون أيها السيدات والسادة. انظروا. هكذا سنكون.

التفت الجمهور. ورأى الجميع عابرة محيطات ورقية ملونة تمر وراء البيوت، كانت أكثر ارتفاعاً من أعلى بيوت المدينة الاصطناعية. ولاحظ السيناتور وحده أن القرية الكرتونية المنصوبة، لكثرة تركيبها وفكها، ونقلها من مكان إلى آخر، كانت متآكلة بفعل عوامل الطبيعة، وبائسة ومعفرة مثل روسال دل فيري تقريباً.

لم يذهب نيلسون فارين لمصافحة السيناتور لأول مرة منذ اثني عشر عاماً. سمع الخطبة وهو في أرجوحته، وسط قيلولته المتقطعة، تحت عريشة باردة في بيت من أخشاب خام، شيده بيدي العطار ذاتهما اللتين قطّع بهما امرأته الأولى. وقد فرّ من سجن كابينا ليظهر في روسال دل فيري، في سفينة مملوءة ببغاوات بريئة، وبرفقته زنجية رائعة الجمال

وكافرة التقى بها في باراماريبو، ومنها أنجب ابنة واحدة. وقد ماتت المرأة ميتة طبيعية بعد زمن قصير، ولم يكن مصيرها كالأولى التي غذَّت أشلاء جسدها حديقتها المزروعة بالقنبيط، وإنما دُفنت بكامل جسدها في المقبرة المحلية ووضع اسمها الهولندي على القبر. وورثت الابنة عن أمها لون بشرتها وحجمها، وورثت العينين الصفراوين الذاهلتين عن أبيها، وقد كان محقاً في اعتقاده بأنه يربي أجمل امرأة في العالم.

منذ تعرف إلى السيناتور أونسيمو سانتشث في الحملة الانتخابية الأولى، رجاه نيلسون فارينا أن يساعده للحصول على وثيقة إثبات شخصية مزيفة تنقذه من مطاردة العدالة. وقد رفض السيناتور، بلطف ولكن بإصرار، منحه الوثيقة. ولم يستسلم نيلسون فارينا طوال سنوات عديدة. وكلما وجد فرصة، أعاد طرح طلبه بطريقة مختلفة. ولكنه كان يتلقى دائماً الجواب نفسه. وهكذا بقي هذه المرة في أرجوحته، محكوماً بالتعفن حياً في وكر القراصنة ذاك. وعندما سمع التصفيق الأخير، رفع رأسه ورأى من فوق أخشاب الحظيرة قفا هيكل القرية المهزلة: دعائم الأبنية، وهياكل الأشجار، والمشعوذين المختبئين وهم يدفعون عابرة المحيطات. فبصق غضبه، وقال:

ـ اللعنة، إنه بلاكامان السياسة.

وبعد الخطبة قام السيناتور، كالعادة، بجولة في شوارع القرية، وسط الموسيقى والألعاب النارية، ومحاطاً بأهل القرية الذين يقصون عليه أحزانهم. والسيناتور يستمع إليهم بطريقة حسنة، ويجد دائماً وسيلة لمواساة الجميع دون أن يقدم إليهم خدمات صعبة. ولكن امرأة وقفت على سطح أحد البيوت بين أولادها الستة الصغار، وتمكنت من رفع صوتها أعلى من الضجيج، ومن فرقعة البارود.

ـ أنا لا أطلب الكثير ـ قالت ـ، لا أريد سوى حمار لجلب الماء من نبع بوثو دل أوركادو.

نظر السيناتور إلى الأطفال الستة الضامرين، وسألها:

ـ ما الذي فعله زوجك؟

ـ ذهب بحثاً عن مصيره في جزيرة آروبا ـ ردت المرأة بمزاج طيب ـ، وكان أن وجد هناك متشردة من اللواتي يضعن ماساً في أسنانهن.

أثارت الإجابة موجة من القهقهات الصاخبة.

ـ حسن ـ قال السيناتور ـ، ستحصلين على الحمار.

بعد قليل، أحضر أحد مساعديه حماراً إلى بيت المرأة، وقد كتبوا على ظهره شعاراً انتخابياً بألوان أبدية، كي لا ينسى أحد أنه هدية من السيناتور.

وفي جولته القصيرة في الشارع قام بمكارم أخرى أقل قيمة، كما أعطى ملعقة دواء لمريض طلب أن يخرجوه إلى باب البيت ليرى مرور السيناتور. وفي الزاوية الأخيرة، رأى من خلال أعمدة الفناء نيلسون فارين في أرجوحته، وبدا له ذاياً كأنه معفر بالرماد، ولكنه حياه دون تأثر:

ـ كيف الحال.

انقلب نيلسون فارين في الأرجوحة وبلله بكهرمان نظراته الحزينة:

ـ أنت تعرف.

خرجت ابنته إلى الفناء لدى سماعها التحية. كانت ترتدي ثوب غواخيرا عادياً ومهترئاً، وشعرها مزين بغدائر ملونة مرفوعة إلى أعلى، ووجهها مطلي بمادة واقية من الشمس. ولكن، حتى وهي على تلك الحال من الإهمال، كان يمكن التخمين بأنه ليس ثمة امرأة أخرى في العالم أجمل منها. حبس السيناتور أنفاسه، ثم تنهد مبهوراً:

ـ عجباً، يا للأمور التي تخطر للرب!

ألبس نيلسون فارين في تلك الليلة ابنته أفضل ملابسها، وبعث بها إلى السيناتور. فأمرها الحارسان المسلحان بالبنادق، في البيت المستعار، أن تنتظر جالسة على الكرسي الوحيد في البهو، بينما رأسيهما يترنحان نعاساً من الحر.

كان السيناتور مجتمعاً في الغرفة المجاورة مع وجهاء روسال دل

فيري، وقد استدعاهم ليطلعهم على الحقائق التي أخفاها في خطبته. كانوا مشابهين تماماً لمن يحضرون هذه الاجتماعات في كل قرى الصحراء، حتى إن السيناتور نفسه أحس بالملل لقيامه بالجلسة نفسها كل ليلة. كان قميصه مبللاً بالعرق وهو يحاول تجفيفه على جسده بالهواء الساخن الذي تثيره المروحة الكهربائية وهي تطن مثل ذبابة في سبات الغرفة.

ـ نحن، طبعاً، لا نأكل عصافير من ورق ـ قال لهم ـ. فأنا وأنتم نعرف أنه في اليوم الذي ستوجد فيه أشجار وأزهار في مبرزة الماعز هذه، في اليوم الذي ستوجد فيه أسماك بدلاً من الديدان في الآبار، لن يكون لي في ذلك اليوم، ولا لكم، أي شأن هنا.. هل تفهمونني جيداً؟

لم يجب أحد منهم. وبينما السيناتور يتحدث، انتزع صورة ملونة من الرزنامة، وصنع منها بيديه فراشة ورقية. ثم ألقى بها أمام تيار المروحة، دون أي هدف، فتقلبت الفراشة داخل الغرفة ثم خرجت بعد ذلك من الباب المفتوح قليلاً. وتابع السيناتور حديثه بهيمنة تامة مستنداً إلى مشاركة الموت له.

ـ إذاً ـ قال ـ، لا أجد ضرورة لتكرار ما تعرفونه تمام المعرفة: إعادة انتخابي تفيدكم أكثر مما تفيدني، فأنا قد وصلت إلى القرف من الماء الآسن ومن تعرق الهنود، أما أنتم فإنكم تعيشون من هذا الوضع.

رأت لاورا فارين الفراشة الورقية تخرج. رأتها هي وحدها، لأن حراس البهو ناموا على المقاعد وهم يحتضنون بنادقهم. وبعد أن قامت الفراشة الملونة الضخمة بعدة لفات انفلشت تماماً، وارتطمت بالجدار، وظلت ملتصقة به، فحاولت لاورا فارين انتزاعها بأظفارها. استيقظ أحد الحراس على التصفيق في الغرفة المجاورة، وأدرك عبث محاولتها.

ـ لا يمكن انتزاعها. إنها مرسومة على الجدار ـ قال وهو شبه نائم.

عادت لاورا فارين لتجلس عندما بدأ الرجال المجتمعون بالخروج. وبقي السيناتور واقفاً أمام باب الغرفة، ممسكاً مقبض الباب بيده، ولم يكتشف وجود لاورا فارين إلا حين صار البهو خاوياً.

ـ ما الذي تفعلينه هنا؟
ـ لقد أرسلني أبي.
فهم السيناتور الأمر. نظر ملياً إلى الحراس النائمين، ثم أمعن النظر إلى لاورا فارين التي كان جبروت جمالها القاهر أكبر من جبروت الألم، عندئذ آمن بأن الموت هو الذي سيحسم أمره.
ـ ادخلي ـ قال لها.
وقفت لاورا فارين أمام باب الحجرة مفتونة: كانت آلاف أوراق البنكنوت تطفو في الهواء، متمايلة مثل الفراش. ولكن السيناتور أطفأ المروحة الكهربائية، ففقدت الأوراق النقدية الهواء، واستقرت على أشياء الغرفة.
ـ كما ترين ـ ابتسم ـ حتى البراز يطير.
جلست لاورا فارين كما لو أنها تجلس على مقعد مدرسي. كانت بشرتها ناعمة وداكنة، لها لون وكثافة البترول الخام، وشعرها كناصية مهرة، وعيناها الواسعتان أكثر وضوحاً من الضوء. تابع السيناتور خيط نظره، فالتقى أخيراً بالوردة المتسخة بملح البارود.
ـ إنها وردة ـ قالت.
فقالت وقد بدت عليها ملامح حيرة:
ـ أجل... لقد تعرفت على الورود في ريوهاتشا.
جلس السيناتور على سرير تخييم وهو يتحدث عن الأزهار، ويفك أزرار قميصه. وعلى جانب صدره، حيث يفترض هو وجود القلب في الصدر، كان له وشم قرصاني يمثل قلباً يخترقه سهم. ألقى القميص المبلل على الأرض وطلب من لاورا فارين أن تساعده في خلع جزمته.
فركعت على ركبتيها أمام السرير. وتابع السيناتور إمعان النظر إليها، ساهماً، وبينما هي تفك رباط الحذاء، سأل نفسه من نصيب من منهما سيكون مصير الشؤم في ذلك اللقاء.
ـ إنك لا تزالين صغيرة ـ قال لها.
ـ لا تظن ذلك ـ قالت ـ. سأتم التاسعة عشرة في نيسان.

بدا الاهتمام على السيناتور، وسألها:

- أي يوم منه؟

- الحادي عشر - قالت.

شعر السيناتور بتحسن: «كلانا من برج الحمل». وأضاف مبتسماً:

- إنه برج العزلة.

لم تنتبه لاورا فارين له، لأنها لم تعرف ما تفعل بالجزمة، أما السيناتور فلم يكن يعرف، من جهته، ما يفعله بلورا فارين، لأنه لم يكن معتاداً على هذا النوع من الحب الطارئ. وكان يعي فوق ذلك، أن لهذا الحب أصولاً في الفحش. ومن أجل كسب بعض الوقت للتفكير فقط، ضغط لاورا فارين بين ركبتيه، واحتضنها من خاصرتها واستلقى بظهره على السرير. عندئذ تبين له أنها عارية تماماً تحت ثوبها، لأن جسدها أطلق عبيراً زخماً كرائحة حيوان جبلي، ولكن قلبها كان مرتعداً، وبشرتها فاقدة الإحساس بتأثير عرق متجمد.

- لا أحد يحبنا - تنهد.

أرادت لاورا فارين أن تقول شيئاً، ولكن الهواء كان يكفيها فقط لتتنفس. مددها إلى جانبه ليساعدها، وأطفأ النور، فبقيت الحجرة في ظلمة الوردة. وأسلمت هي نفسها لرحمة مصيرها. داعبها السيناتور ببطء، وبحث عنها بيده دون ملامستها تقريباً. ولكنه، حيث كان ينتظر ملامستها، اصطدم بعائق حديدي.

- ما هذا؟

- إنه قفل - قالت.

- يا للهراء! - قال السيناتور غاضباً، وسألها عما كان يعرفه جيداً.

- وأين المفتاح؟

زفرت لاورا فارين وكأنها تزيح عنها هماً، وأجابت:

- إنه مع والدي. وقد طلب لي أن أخبرك بأن ترسل أحد مرافقيك في طلبه، وأن تبعث معه وعداً خطياً بأنك ستسوي وضعه.

توتر السيناتور، ودمدم غاضباً: «قواد فرنسي». ثم أطبق عينيه

ليسترخي، فالتقى بنفسه في الظلام. وتذكر بينه وبين نفسه: ***تذكر أنك ستكون أنت أو سيكون آخر غيرك، فستموت بعد وقت قصير، وبعد فترة من ذلك لن يبقى منك حتى الاسم.*** وانتظر انقضاء القشعريرة.

ـ قولي لي ـ سألها ـ: ماذا سمعتِ عني؟

ـ أتريد الحقيقة الحقيقة؟

ـ الحقيقة الحقيقة.

فتجرأت لاورا فارين:

ـ حسن، يقولون إنك أسوأ من الآخرين، لأنك مختلف عنهم.

لم يثر السيناتور. صمت طويلاً وعيناه مطبقتان، وعندما فتحهما من جديد، بدا كأنه يعود إلى فطرته الأكثر عمقاً.

ـ يا للعنة ـ حسم أمره ـ. قولي لأبيك القواد إني سأسوي وضعه.

ـ إذا أردت فإني سأذهب بنفسي لإحضار المفتاح ـ قالت له لاورا فارين.

ولكن السيناتور أوقفها قائلاً:

ـ انسي المفتاح الآن ونامي لحظة معي. فمن المريح البقاء مع أحد عندما يكون المرء وحيداً.

حينئذ أسندت رأسه على ذراعها وعيناها مثبتتان على الوردة. احتضنها السيناتور من خصرها، وأخفى وجهه تحت أبطها الذي كإبط حيوان جبلي وتغلب على الخوف. وسيموت بعد ستة شهور وأحد عشر يوماً بهذا الوضع، ضالاً ومطلقاً بسبب الفضيحة العامة التي عرفت بفضيحة لاورا فارين، وهو يبكي قهراً لأنه مات من دونها.

الرحلة الأخيرة للسفينة- الشبح

El último viaje del buque fantasma

(1968)

سيرون الآن من أنا، قال ذلك بصوته الرجولي الأجش، بعد سنوات عديدة من رؤيته، أول مرة، عابرة المحيطات العظيمة التي مرت في إحدى الليالي، دون أضواء، ودون ضجة، قبالة القرية، كقصر ضخم غير مأهول. وكانت أطول من القرية كلها، وأكثر ارتفاعاً بكثير من برج كنيستها. وتابعت الإبحار في الظلام، باتجاه المدينة الاستعمارية المحصنة ضد القراصنة، في الجانب الآخر من الشاطئ، حيث ميناء النخاسة القديم، والفنار الدوار الذي تصل حزمة من أنواره الكئيبة، كل خمس عشرة ثانية، إلى القرية، فتحول مظهرها إلى معسكر قمري، بيوته فسفورية، وشوارعه كصحراء بركانية. ومع أنه كان يحصل على إذن من أمه، ليستمع حتى ساعة متأخرة من الليل، إلى قيثارات الريح الليلية على الشاطئ، إلا أنه ما زال يتذكر عابرة المحيطات، وكأنه يراها الآن، كيف كانت تختفي عندما تضرب أنوار الفنار خاصرتها، ثم تعود للظهور من جديد عندما يبتعد النور عنها، أي أنها كانت سفينة متقطعة تظهر وتختفي عند مدخل الخليج، وهي تبحث بالتقدير، كمن يسير متلمساً طريقه وهو نائم، عن العلامات الطافية على سطح الماء التي تشير إلى موقع قناة الميناء، حتى بدا وكأن شيئاً قد أربك مؤشرات التوجه فيها، لأنها حادت نحو الصخور القريبة من سطح الماء، واصطدمت، وتحطمت نتفاً ثم غاصت دون أية ضجة، مع أن صدمة بالصخور كتلك، لا بد أن تُحدث دوياً كدوي الحديد، وانفجاراً في الآلات يجمد من الخوف

أكثر التنانين استسلاماً للنوم في الغابة الخرافية التي تبدأ اعتباراً من آخر شوارع المدينة وتنتهي في الطرف الآخر من العالم. وهكذا فقد ظن هو نفسه أنه في حلم، وخاصة في اليوم التالي، عندما رأى مياه الخليج الساطعة، وفوضى ألوان أكواخ الزنوج على تلال الميناء، ومراكب المهربين القادمين من جزر غوايانا وهم يسلمون شحنات الببغاوات البريئة وقد ملؤوا حويصلاتها بالماس، وفكر: لقد نمت وأنا أعد النجوم وحلمت بذلك المركب العظيم. وقد اقتنع طبعاً بذلك اقتناعاً تاماً حتى إنه لم يرو لأحد ما رأى، وما عاد يتذكر تلك الرؤيا إلى أن أتت الليلة نفسها من شهر آذار التالي، عندما كان يسير على الشاطئ باحثاً عن علامات تشير إلى وجود الدلافين في البحر، ولكن ما رآه كان عابرة المحيطات الخيالية، قاتمة، متقطعة، وماضية في الاتجاه الخاطئ نفسه الذي مضت به أول مرة، عندها كان متأكداً تماماً، هو وحده فقط، من أنه مستيقظ. إذ هرع ليروي ما رآه لأمه التي أمضت ثلاثة أسابيع وهي تزجره يائسة: لأن دماغك أخذت تتعفن وأنت تمضي حياتك بالمقلوب، تنام في النهار وتتسكع في الليل كالأشرار. وبما أنها كان ستذهب إلى المدينة في تلك الأيام لتشتري مقعداً مريحاً تجلس عليه لتفكر بزوجها الميت، لأن كرسيها الهزاز اهترأت خشبتا ارتكازه المقوستان بعد إحدى عشرة سنة من الترمل، فقد استغلت الفرصة لتطلب من النوتي الذي يقود المركب أن يقترب قليلاً من منطقة الصخور البحرية ليستطيع ابنها رؤية ما رآه حينئذ في نافذة البحر: أعشاب نامية بين ربيع الإسفنج وأسماك الباراغو الوردية وأسماك الكورفين الزرقاء، وهي تغطس في أقل المياه عمقاً في البحر. ورأى كذلك بعض لمات الشعر المستعار الشاردة من ركاب سفينة استعمارية غارقة، ولكنه لم ير أثراً لعابرتي المحيطات الغارقتين ولا ما يشير إلى غرقهما. ومع ذلك، ظل مصراً على كلامه، حتى إن أمه وعدته أن تخرج معه لتراقب البحر في آذار

القاذم، مؤكدة ذلك دون أن تدري أن الشيء المؤكد الوحيد في مستقبلها هو أريكة من أزمان فرنسيس دريك اشترتها من مزاد تركي، وجلست عليها تلك الليلة بالذات، وهي تتنهد: آه يا عزيزي المسكين هولوفيرنيس، لو أنك ترى كم هو جميل التفكير فيك على هذه الحواشي من القطيفة وهذا الحرير الموشى كأنه عرش ملكة، ولكنها كلما أطنبت في استحضار زوجها الميت فار دمها وتحول أكثر فأكثر إلى ما يشبه الشوكولاتة في قلبها، وكأنها لم تكن جالسة وإنما تركض، وغطت جسدها حبيبات عرق بارد، وانتابتها قشعريرة، وأصبح تنفسها مشبعاً بالتراب، إلى أن عاد هو في الصباح فوجدها ميتة على الأريكة، وما تزال بعض الحرارة تسري فيها، لكنها متعفنة تقريباً كمن تلدغه أفعى، وقد حدث الشيء ذاته بعد ذلك لأربع سيدات، قبل أن يلقوا بالأريكة القاتلة إلى البحر، بعيداً، حيث لا تسبب أذى لأحد، فقد استخدمها الكثيرون طوال قرون إلى أن فقدت القدرة على بعث الراحة في من يجلس عليها، وهكذا أصبح عليه أن يعتاد على روتين بؤسه كيتيم، يشير إليه الجميع على أنه ابن الأرملة التي أحضرت إلى القرية أريكة المصائب، ويعتمد في معيشته على ما يسرقه من السمك من الزوارق أكثر من اعتماده على الصدقات العامة، بينما أخذ صوته يكتسب خشونة ولم يعد يذكر رؤياه القديمة حتى ليلة من ليالي آذار، عندما نظر مصادفة نحو البحر، وفجأة، يا أماه، ها هو ذا حوت الأميانت الهائل، الحيوان الفحل، تعالوا وشاهدوه، وراح يصرخ بجنون، تعالوا لرؤيته، كان يصرخ بصوت كعواء الكلاب وذعر النساء، حتى إن الرجال المسنين تذكروا حينئذ هلع أجداد أجدادهم واختبؤوا تحت الأسرة وفي اعتقادهم أن القرصان وليم دامبييه قد عاد من جديد، أما الذين خرجوا إلى الشارع، فلم يحاولوا رؤية الجهاز المستحيل الذي كان يفقد اتجاهه في تلك اللحظة ويتحطم في كارثته السنوية، بل انهالوا على الصبي صفعاً

وتركوه محطماً. ويومها قال، وقد ريّل غضباً، سيرون الآن من أنا، ولكنه كان حذراً في عدم إطلاع أحد على قراره وإنما أمضى السنة كلها وفكرة «الآن سيرون من أنا» مستحوذة على ذهنه، وهو ينتظر قدوم يوم ظهور السفينة ليفعل فعلته، وأتى اليوم الموعود، فسرق زورق صيد، وعبر به الخليج وأمضى طوال ما بعد الظهر منتظراً ساعته العظيمة قريباً من الصخور البحرية الوعرة التي قرب ميناء النخاسة، مقابل الخليط البشري الذي تزخر به منطقة الكاريبي، غارقاً في مغامراته حتى إنه لم يتوقف كما كان يفعل دائماً أمام دكاكين الهندوس ليتفرج على تماثيل الموظفين الاستعماريين المنحوتة من العاج فوق ظهور الفيلة، ولم يسخر من الزنوج الهولنديين وهم على دراجاتهم الطريفة، ولم يفزع، كما في مرات سابقة، وهو يرى الملاويين ذوي البشرة التي تشبه أفعى الكوبرا والذين جابوا العالم مفتونين بحيوان خرافي في حانة سرية حيث يبيعون شرحات برازيليات مشوية على الفحم، لأنه لم يعر انتباهه لشيء، إلى أن طواه الليل ولفه بكل ثقل النجوم، وعبقت الغابة بروائح عطرة من الغاردينا والسمندر المتفسخ، وهو يجدف بالزورق المسروق نحو مدخل الخليج، وقد أطفأ المصباح كي لا يلفت انتباه شرطة الحراسة. وكل خمس عشرة ثانية كان يبدو وكأنه في قمة الكمال كلما مرت عليه حزمة الضوء الخضراء المنبعثة من الفنار، ثم يعود ليصبح إنساناً في الظلام، وهو يعلم أنه يسير قريباً من العلامات التي تحدد موقع قناة الميناء، ليس لأنه يرى بريقها الجائر يشتد أكثر فأكثر وحسب وإنما لأن تنفس المياه صار أكثر كآبة أيضاً. وهكذا كان يجدف ساهماً في تأملاته حتى إنه لم يعرف من أين أتاه فجأة نفس مرعب من سمكة قرش، ولا لماذا أصبح الليل قاتماً جداً حتى كأن النجوم قد ماتت فجأة، وما حدث هو أن عابرة المحيطات كانت هناك بكل حجمها الذي لا يمكن استيعابه، أماه، إنها أكبر من أي شيء كبير في العالم، وقاتمة

أكثر من أي شيء آخر على الأرض أو في الماء، ثلاثمئة ألف طن لها رائحة سمك القرش تمر قريباً من الزورق حتى إنه يستطيع تمييز خطوط التحام الصفائح المعدنية، دون أن يصدر ضوء واحد من صف عيون الجاموس اللانهائي، ودون أي همسة تخرج من الماكينات، ودونما روح، تحمل معها جوها الصامت، وسماءها الفارغة الخاصة، وهواءها الميت الخاص، وزمنها الراكد، وبحرها الضائع الذي يطفو عليه عالم متكامل من الحيوانات الغريقة، وفجأة اختفى كل ذلك عند مرور حزمة ضوء الفنار، وعاد الكاريبي الصافي للحظة كما كان، وليلة آذار ورائحة البجع المعهودة، كلها عادت، وظل وحيداً ما بين العلامات الطافية، لا يعرف ما يفعل، وهو يسأل نفسه مذهولاً إذا ما كان يحلم حقاً وهو مستيقظ، ليس الآن فقط وإنما في المرتين السابقتين أيضاً، ولكنه ما كاد ينتهي من التساؤل حتى أتت نفخة أطفأت العلامات الطافية من أولها إلى آخرها، وعندما ابتعد ضوء الفنار عادت العابرة للظهور وقد بدأت أجهزة توجهها تنحرف، ولكنها لا تدري في أي مكان من البحر المحيط هي موجودة، تبحث بلهفة عن القناة اللامرئية، لكنها تنحرف في الواقع نحو الصخور القريبة من سطح الماء، إلى أن أتاه الوحي البليد، واكتشف أن حادثة العلامات الطافية تلك هي آخر مفتاح من مفاتيح السر السحري، فأضاء مصباح الزورق. كان ضوءاً أحمر ضئيلاً ليس فيه ما يستنفر أحداً في أبراج الحراسة الساحلية، ولكنه كان بالتأكيد، كشمس شرقية بالنسبة لقائد السفينة. فبفضله صححت عابرة المحيطات خط سيرها ودخلت من مدخل القناة الفسيح في مناورة انبعاث سريعة، وعندئذ أضيئت جميع أنوارها في اللحظة نفسها، وعادت مراجلها تلهث، واشتعلت النجوم في سمائها وغاصت جثث الحيوانات إلى القاع، وانتشرت قعقعة صحون، وعبقت رائحة حساء الغار في المطابخ، وسُمع هدير جوقة موسيقية على السطوح القمرية و«التم ـ تم» في شرايانات عشاق

عرض البحر في عتمة القمرات، أما هو فكان لا يزال مشحوناً بالغضب المتراكم، ولم تذهله الانفعالات ولم تخفه الأعجوبة، وإنما قال بتصميم أشد من كل ما مضى، الآن سيرون من أنا، كراخو، الآن سيرون. وبدلاً من أن يبتعد إلى أحد الجانبين كيلا تصدمه تلك الآلة الهائلة، راح يجذف أمامها، لأنهم سيرون الآن من أنا، وتابع توجيه السفينة بالمصباح حتى تأكد تماماً من انقيادها له، فأجبرها على تغيير اتجاهها من جديد عن وجهة الميناء، وأخرجها من القناة اللامرئية وقادها، كأنها خروف بحري يسحبه من رسنه، نحو أنوار القرية النائمة، وبدت سفينة حية لا أثر فيها لأيِّ خدش تحت حزمة الضوء المنبعثة من الفنار والتي لم تعد تخفيها الآن وتجعلها غير مرئية، وإنما صارت تضيئها كل خمس عشرة ثانية، ثم بدأت صلبان الكنيسة تظهر وتتميز، وكذلك بؤس البيوت، والوهم، بينما تابعت عابرة المحيطات المضي وراءه، ولحقت به بكل ما تحمل: قبطانها النائم على جانب القلب، وثيران المصارعة المغمورة بالثلج في خزائن مؤونة الطعام، والمريض الوحيد في مشفاها، والمياه اليتيمة في خزاناتها، وقائد دفتها الأجنبي الذي كان يخلط ولا شك بين أنوار القرية وأنوار المرفأ، لأن جئيراً مختلفاً انطلق من العابرة في تلك اللحظة، ثم انطلق مرة أخرى فابتلّ هو بقطرات البخار التي تساقطت عليه، ومرة أخرى، فكاد الزورق الذي ليس ملكاً له أن يغرق، ثم مرة أخرى، ولكن الوقت كان قد فات، فها هي ذي تعرجات الشاطئ، وحجارة الشارع، وأبواب بيوت الذين لم يصدقوه. القرية كلها مضاءة بأضواء عابرة المحيطات المخيفة، وبصعوبة تمكن من الابتعاد من أمامها ليسمع وقوع الكارثة، وهو يصرخ وسط الهيجان، ها هي ذي، أيها القوادون، وذلك قبل لحظة من أن تشق مقدمتها الفولاذية الرهيبة الأرض، ويُسمع صوت التهشيم الواضح للتسعين ألفاً وخمسمئة كأس من كؤوس الشمبانيا التي تحطمت واحداً بعد الآخر، من المقدمة حتى المؤخرة،

عندئذ بان الضوء، ولم يكن حينها صباح يوم من آذار، وإنما ظهيرة يوم أربعاء لاهب، واستطاع هو أن يتمتع برؤية جميع من لم يصدقوه، فاغرين أفواههم، أكبر عابرة محيطات في هذا العالم والعالم الآخر، وقد ارتطمت مقدمتها بالبر أمام الكنيسة، وهي أكثر بياضاً من أي شيء، وأكثر ارتفاعاً بعشرين مرة من برج الكنيسة، وأطول من القرية بحوالي ست وتسعين مرة، واسمها المكتوب بحروف معدنية بارزة «هالالكسيلاغ»، بينما لا تزال تقطر منها المياه القديمة الخاملة التي علقت بها من بحار الموت.

بلاكامان الطيب، بائع المعجزات

Blacman el bueno vendedor de milagros

(1968)

منذ أول يوم أحد رأيته فيه، بدا لي بغلة مساعد مصارع الثيران، بحمالات سرواله المخملية التي تتخللها خطوط غرزات ذهبية، وخواتمه ذات الأحجار الملونة في أصابعه كلها، وضفيرة أجراسه الصغيرة. كان يقف فوق منضدة في مرفأ سانتا ماريا ديل دارين، بين قوارير أدوية نوعية وأعشاب عزاء يعدها هو نفسه ويبيعها بنداء مجروح في قرى الكاريبي. ولم يكن يحاول عندئذ أن يبيع أياً من تلك التفاهات الهندية، وإنما كان يطلب أن يأتوه بأفعى حقيقية كي يثبت بلحمه الحي فعالية ترياق من اختراعه، الترياق الوحيد المؤكد، أيها السيدات والسادة، ضد لدغ الأفاعي والعقارب وأم أربع وأربعين، وكل أنواع الثدييات السامة. ويبدو أن أحدهم قد تأثر جداً بتصميمه وحصل، دون أن يدري أحد من أين، على أفعى مابانا من أخبث الأنواع، من تلك التي تبدأ بتسميم الجهاز التنفسي، وقدمها إليه في إناء زجاجي، فنزع هو غطاء الإناء برغبة شديدة ظننا جميعنا معها أنه سيأكلها. وما إن شعر الحيوان بأنه صار طليقاً حتى قفز خارج الإناء ووجه إليه لدغة في رقبته خلفته هناك بالذات فاقداً الأنفاس وعاجزاً عن مواصلة ترتيلته، ولم يكد يتسع له الوقت لأكثر من تناول الترياق عندما تهاوى مستوصف قوارير الترهات مبعثراً على الحشد، وراح هو يتلوى على الأرض بجسده الضخم المتهالك كما لو أنه خاوٍ من الداخل، ولكن دون أن يتوقف عن الضحك بكامل أسنانه الذهبية. كان الصخب عظيماً، حتى إن مدرعة من **الشمال** كانت ترسو في المرفأ منذ حوالي عشرين عاماً، في زيارة نوايا حسنة،

أعلنت الحجر الصحي كي لا يصعد سم الأفعى إليها، والناس الذين كانوا يباركون سعفهم في يوم أحد الشعانين خرجوا من الكنيسة بسعفهم المبارك، لأن أحداً لم يكن يرغب في أن يضيع على نفسه استعراض الرجل المسموم الذي بدأ ينتفخ بهواء الموت، وصار أسمن مرتين مما كان عليه، يقذف زبد المرارة من فمه ويلهث من كل مسامات بدنه، لكنه يواصل الضحك بحيوية شديدة تجعل الأجراس الصغيرة ترن على امتداد جسمه كله. تسبب الانتفاخ والورم في تقطع أربطة طماقه وخياطة ملابسه، وانتفخت أصابعه كأنها السجق من ضغط خواتمه، وصار بلون الغزال في ماء مملح، وخرجت من مؤخرته بعض مغازلات أخيرة، وهكذا صار بإمكان كل من رأى شخصاً لدغته أفعى أن يعرف أنه يتعفن قبل أن يموت، وأنه سيتفتت إلى حدّ يضطرون معه إلى رفعه برفش لوضعه في كيس، لكنهم فكروا كذلك في أنه سيواصل الضحك حتى بعد تحوله إلى نشارة. كان الأمر لا يصدق حتى إن مشاة البحرية صعدوا إلى جسور المدرعة ليلتقطوا له صوراً ملونة بأجهزة تصوير بعيدة المدى، لكن النساء اللواتي خرجن من القداس أحبطن نواياهم، إذ غطين المحتضر ببطانية، ووضعن فوقه أغصان السعف المباركة بعضهن لأنه لم يرق لهن تدنيس مشاة البحرية لحرمة الجسد بآلاتهم المجيئية[1]، وأخريات لخوفهن من مواصلة رؤية ذلك الوثني الذي يمكن له أن يموت من الضحك، وأخريات لأنهن قد يحلن بذلك دون تسمم روحه على الأقل. كان الجميع قد اعتبروه ميتاً عندما أزاح السعف بحركة من ذراعه، وكان لا يزال نصف ذاهل ومتعافياً تماماً من اللحظة السيئة التي مرّ بها، لكنه أعاد نصب المنضدة دون مساعدة من أحد، وصعد فوقها ثانية مثل سرطان، وعاد يصرخ من جديد أن ذلك الترياق هو بكل بساطة يد الرب موضوعة في قارورة، مثلما رأينا جميعنا بأعيننا، مع

---

[1] المجيئيّة adventista: مذهب يقول بأن مجيء المسيح صار قريباً.

أنه لا يكلف سوى ربعين، لأنه لم يخترعه للمتاجرة به، وإنما لنفع البشرية، ولنر من الذي سيقول إليّ بقارورة منه، أيها السيدات والسادة، ولستُ أرجو منكم إلا أن لا تتزاحموا عليّ، فلدي ما يكفي الجميع.

وقد تزاحموا بالطبع، وأحسنوا صنعاً بذلك، لأنه لم يكن هناك في نهاية الأمر ما يكفي الجميع. حتى إن أميرال المدرعة اشترى قارورة منه، مقتنعاً بأنه مناسب أيضاً للرصاص المسموم الذي يطلقه الفوضويون، ولم يكتف البحارة بأن يلتقطوا له، وهو فوق المنضدة، الصور الملونة التي لم يستطيعوا التقاطها له وهو ميت، بل جعلوه يوقّع لهم أتوغرافات إلى أن لوى التشنج ذراعه. كان الوقت قد قارب الليل، ولم يبق في المرفأ إلا أكثرنا حيرة، عندما راح يبحث بعينيه عن شخص تبدو على وجهه ملامح الغباء ليساعده في حفظ القوارير، وقد ثبّت نظره عليّ بالطبع. كانت نظرته تلك كأنها نظرة القدر، ليس قدري أنا فقط، وإنما قدره هو أيضاً، فقد حدث ذلك منذ أكثر من قرن، ومازال كلانا يتذكر كما لو أنه جرى يوم الأحد الماضي. المسألة أننا رحنا نعبئ صيدلية السيرك تلك في صندوق ذي طيات بطانة أرجوانية تبدو أشبه بمدفن عالم، ولا بد أنه رأى عند ذلك في داخلي نوراً لم يُرَ في من قبل، لأنه سألني بتجهم من أنت، فأجبت بأنني يتيم وحيد لأبٍ وأمٍ لم يمت أبوه بعد، فأطلق قهقهة أشد صخباً من قهقهات السم وسألني بعد ذلك ما الذي تفعله في الحياة، فأجبته بأنني لا أفعل شيئاً سوى أنني أعيش لأن كل ما عدا ذلك لا يستحق أي عناء، وكان لا يزال يبكي من الضحك عندما سألني عن العلم الذي ارغب في معرفته أكثر من سواه في هذا العالم، وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي أجبته فيها بالحقيقة دون سخرية، بأنني أريد أن أكون عرافاً، فلم يعد عندئذ إلى الضحك، بل قال لي كمن يفكر بصوت عالٍ، بأن ما ينقصني لبلوغ ذلك قليل، لأن لدي أصعب ما يجب تعلمه، وهو وجهي الذي ينم عن البلاهة. وفي تلك الليلة

بالـذات حـدّث والـدي، ومقابـل ريـال وربعـين ومجموعـة أوراق لعـب للنبوءات الفاسدة، اشتراني إلى الأبد.

هـكـذا كـان بلاكامـان... بلاكامان الخبيـث، لأن الطيـب هـو أنا. كان قادراً على إقناع فلكي بأن شهر شباط ليس إلا قطيع فيلة غير مرئي، ولكنـه إذا مـا تخلـى الحـظ عنـه يتحـول إلى قـاس غليظ القلب. فـي أزمنـة مجده كـان يعمـل محنطـاً لنواب الملك، ويقـال إنـه كـان يـضفـي علـى وجـوههم مظهـر تـسلط يواصلون بفـضله الحـكـم لسنوات طويلة أفـضل ممـا كـانوا يحـكمـون وهـم أحيـاء، ولا يجـرؤ أحـد علـى دفـنهم مـا لـم يعـد هـو إلى إعـادة هيئـة المـوت إلـيهم، لـكـن سمعته تضررت باختراع لعبة شطرنج بلا نهاية، أدت إلى إصابة كاهن بـالجنون وإلى انتحـار شخـصيتين مـشهورتين، وهـكـذا راح يـتردى مـن مفسر أحلام إلى منوم مغناطيسي في حفلات أعياد الميلاد، ومن قالع أضراس بالإيحـاء إلى مداوٍ فـي الأسـواق الشعبية، بحيـث أن الجميـع، فـي الوقت الذي تعرفنا عليه، كـانوا ينظـرون إليـه بـازدراء، بمـن فـي ذلـك قطـاع الطريـق. وكـنـا نـمـضـي متنقلين علـى غيـر هـدى بمنـضدة خدعنا، وكـانـت الحيـاة قلقـاً أبديـاً نحـاول فـيها بيـع تحاميـل شـرجية للإخفاء تجعـل المهربين شفافـين غير مـرئيين، وقطـرات سـرية تلقيها الـزوجات المعمدات فـي الحـساء لبـث مخافة الرب فـي نفوس أزواجهـن الهولنديين، وكل ما ترغبون أيها الـسيدات والـسادة فـي شـرائه بمـلء إرادتكـم، لأن هـذا لـيسٍ أمـراً وإنمـا هـو نـصيحة، ولأن الـسعادة فـي نهاية المطاف ليست واجباً كذلك. ومع ذلك، ورغم أنه يكاد يوصلنا إلى الموت ضحكاً بما يخطر له من أفكار، إلا أننا فـي الحقيقة كنا نحـصل بمـشقة علـى مـا يقيم أودنـا، وكـان أملـه الأخـير معلقـاً علـى ميـولي كعـرّاف. فكـان يحـشرني فـي صـندوقه القبـوري متنكـراً كيـاباني، ومقيداً بسلاسل مرسـاة لأحاول التنبـؤ بمـا أسـتطيع، بينمـا هو يبقر بطن قواعد اللغة باحثاً عن أفضل طريقة لإقنـاع العـالم بعلمـه الجديد، وهنا لـديكم، أيهـا الـسيدات والـسادة، هـذا الطفـل المعذب

بحُباحِب حزقيال، وأنت يا من تقف هناك وتبدو على وجهك أمارات عدم التصديق، دعنا نر إذا ما كنت تتجرأ على سؤاله متى ستموت، لكني لم أتوصل قط إلى أن أحزر تاريخ اليوم الذي نحن فيه، وهكذا يأس مني كعرّاف، لأن نعاس الهضم يسبب اختلالاً في غدة التنبؤ لديك، وبعد أن فكّ تشنج معدتي بضربة هراوة ليرمم حسن الطالع، قرر أن يأخذني إلى أبي كي يسترد منه النقود. ومع ذلك، فقد خطرت له في ذلك الوقت فكرة إيجاد تطبيق عملي لكهرباء المعاناة، وشرع في صنع آلة خياطة تعمل متصلة بالجزء الموجوع من الجسم بواسطة كؤوس حجامة. ولأنني كنت أقضي الليل في الأنين من الضرب الذي يكيله لي لإبعاد سوء الطالع، اضطر إلى استبقائي معه ليختبر عليّ اختراعه، وهكذا راحت عودتنا تتأخر، واستعاد خلال ذلك طيب المزاج، إلى أن عملت الآلة على أحسن وجه، ليس في الخياطة خيراً من راهبة مستجدة وحسب، وإنما كانت تطرز فوق ذلك طيوراً وأزهار استروميليا حسب موضع الألم وشدته. وكنا مستغرقين في هذا الأمر، ومقتنعين بانتصارنا على سوء الطالع، عندما بلغنا نبأ أن قائد المدرعة أراد أن يكرر في فيلادلفيا تجربة الترياق، فتحول إلى مُرَبّى أميرال بحضور هيئة أركانه.

لم يعد إلى الضحك لوقت طويل. وكنا نهرب عبر الدروب الهندية في الجبال، وكلما وجدنا نفسينا أكثر ضياعاً كانت تصلنا الأخبار بوضوح أشد عن أن مشاة البحرية قد غزوا البلاد بحجة استئصال داء الحمى الصفراء، وأنهم يقطعون رأس أي بائع ترهات جوال، متأصل أو طارئ، يجدونه في طريقهم، ولم يقتصروا على السكان الأصليين وحدهم على سبيل الاحتياط، وإنما قتلوا كذلك الصينيين على سبيل اللهو، والزنوج بحكم العادة، والهندوس لأنهم سحرة أفاع، ثم عاثوا خراباً بعد ذلك بمملكة الحيوان والنبات، وبكل ما استطاعوا الوصول إليه من المملكة المنجمية، لأن اختصاصييهم في شؤوننا علموهم أن أهالي منطقة الكاريبي يتمتعون

بالقدرة على تبديل طبيعتهم لتضليل الغرباء. لم أكن أفهم من أين جاءهم ذلك الغضب ولا سبب خوفنا الكبير، حتى وجدنا نفسينا في مأمن وسط رياح خواخيرا الأبدية، وهناك فقط امتلكَ الشجاعة ليعترف لي بأن ترياقه لم يكن سوى عشبة راوند مع زيت التربنتين، ولكنه دفع ربعين لمتشرد كي يأتيه بأفعى المابانا تلك التي بلا سمّ. أقمنا بين أطلال مقر بعثة تبشيرية من العهد الاستعماري، يراودنا الأمل بمرور المهربين، لأنهم رجال يمكن الوثوق بهم، والوحيدون القادرون على المجازفة بالتقدم تحت الشمس الزئبقية في قفار ملح البارود تلك. كنا نقتات في أول الأمر على السمادل المدخنة بزهور الأنقاض، وكانت لا تزال لدينا روح للضحك ونحن نحاول أكل قوائمها المسلوقة، لكننا لم نعد نتورع في النهاية عن أكل عناكب ماء الأحواض، وعندئذ فقط أدركنا مدى افتقادنا العالم. ولأنني لم أكن أعرف في ذلك الحين أية وسيلة للوقاية من الموت، فقد استلقيت بكل بساطة في انتظاره حيث يكون الألم أقل، بينما كان صاحبي يهذي بذكرى امرأة شديدة الرقة إلى حدّ يمكن لها معه أن تنفذ من خلال الجدران بمجرد التنهد، لكن تلك الذكرى المختلقة كانت مجرد حيلة أبدعتها مخيلته لخداع الموت بحسرات الحب. ومع ذلك، وفي اللحظة التي كان علينا أن نموت فيها، اقترب مني وهو أكثر حيوية من أي وقت آخر، وظل طيلة الليل ساهراً على احتضاري، وكان يفكر بزخم شديد إلى حدّ لم أتوصل معه حتى الآن إلى معرفة إذا ما كان الصفير الذي كنت أسمعه بين الأطلال هو صوت الريح أم أنها أفكاره. وقبل انبلاج الفجر قال لي بالصوت نفسه والتصميم نفسه اللذين كانا له في زمن آخر إنه عرف الحقيقة الآن، وهي أنني أنا السبب في انقلاب حظه، ولهذا عليك أن تثبت بنطالك جيداً لأنك مثلما قلبت حظي عليك أن تعيده سوياً.

وهناك بدأ ضياع القليل من الود الذي كنت أشعر به نحوه. انتزع عني آخر ما تبقى عليّ من أسمال، ولفني بأسلاك شائكة، ودعك

جراحي بأحجار ملح البارود، وضعني في حوض مع مائي وفضلاتي البدنية، علقني من كاحلي ليجففني تحت الشمس، وظل يصرخ أن ذلك التعذيب كله غير كاف لتهدئة مطارديه. وألقى بي أخيراً لأتعفن في بؤسي داخل زنزانة التوبة حيث كان مبشرو العهد الاستعماري يقوّمون اعوجاج الهراطقة. وبغدر المتكلم من بطنه الذي مازال لديه فائض منه، راح يحاكي أصوات الحيوانات الصالحة للأكل، وصوت الشمندر الناضج، وخرير الينابيع، كي يعذبني بوهم أنني أموت عوزاً في الفردوس. وعندما جاءه المهربون أخيراً بالمؤن، صار ينزل إلى الزنزانة ليقدم لي أي شيء آكله حتى لا أموت جوعاً، لكنه يجعلني أدفع ثمن ذلك الإحسان بانتزاع أظفاري بكماشة وإزالة بريق أسناني بحجر طحن، وكان عزائي الوحيد هو الرغبة في أن تمنحني الحياة الوقتَ والحظ لأعوض عن المخازي الكثيرة بعذابات أخرى أشد سوءاً. وقد ذُهلت أنا نفسي من قدرتي على تحمل رائحة نتانتي، وكان لا يزال يلقي إليّ فضلات وجباته، ويرمي في الأركان بقطع من السحالي والبواشق المتفسخة من أجل أن يتسمم هواء الزنزانة. لا أدري كم من الوقت كان قد انقضى عندما جاء بجثة أرنب ليريني أنه يفضل أن يلقي به ليتعفن بدل أن يعطيني إياه لآكله، حتى هنا نفد صبري ولم يبق لدي سوى الشعور بالضغينة، فأمسكت بجسد الأرنب من أذنيه وضربته بالجدار متوهماً أنه هو نفسه، وليس الحيوان، من سيتمزق. وحدث عندئذ، كما في حلم، أن الأرنب لم ينبعث حياً وهو يطلق صرخة فزع وحسب، وإنما رجع كذلك إلى يديّ ماشياً في الهواء.

وهكذا بدأت حياتي العظيمة. ومنذ ذلك الحين أمضي في العالم مخلّصاً المصابين بالملاريا من الحمى مقابل بيزوين اثنين، ومانحاً البصر للعميان مقابل أربعة بيزوات وخمسين سنتافو، ونازحاً الماء من المصابين بالاستسقاء مقابل ثمانية عشر، ومعيداً أطراف المبتورين مقابل عشرين بيزو إذا كانوا كذلك منذ الولادة، ومقابل

اثنين وعشرين إذا كان البتر بسبب حروب أو زلازل أو إنزال مشاة البحرية أو أي نوع آخر من النكبات العامة، ومعالجاً المرضى العاديين بالجملة وفق ترتيب خاص، فالمجانين حسب موضوعهم، والأطفال بنصف التعرفة، والبله مقابل الشكر، ولنر من الذي يجرؤ على القول إني لستُ محسناً إلى البشر، أيها السيدات والسادة. والآن، أيها السيد قائد الأسطول العشرين، أصدر الأمر لشبانك بأن يزيلوا المتاريس كي تتمكن الإنسانية المعذبة من المرور، المجذومون إلى اليسار، والمصروعون إلى اليمين، والكسحاء حيث لا يعرقلون السير، وهناك في المؤخرة من هم ليسوا في حالة مستعجلة، وكل ما أرجوه منكم هو ألا تتزاحموا، لأنني لن أكون مسؤولاً عندئذ إذا ما اختلطت الأمراض وشفيتم من داء غير الذي تعانون منه، ولتتواصل الموسيقى إلى أن يغلي النحاس، وليتواصل إطلاق الألعاب النارية إلى أن تحترق الملائكة، وليتواصل تداول الخمر إلى أن تموت الفكرة، ولتأت الخادمات القبيحات والبهلوانات والمصورون، وهذا كله على نفقتي، أيها السيدات والسادة، فهنا تنتهي السمعة السيئة للبلاكامانات وينفلت الابتهاج الكوني من عقاله. هكذا كنت أتولى تنويمهم بتقنيات المرشحين البرلمانيين، تحسباً لحدوث خطأ في تقديراتي وتحول بعضهم إلى حالة أسوأ مما كانوا عليه. والشيء الوحيد الذي لم أكن أفعله هو بعث الموتى أحياءً، لأنهم بمجرد فتح عيونهم يضربون بغضب شديد من أقلق حالهم، ومن لا ينتحرون منهم يموتون مجدداً جراء خيبة الأمل. في البدء كانت تلحق بي كوكبة من العلماء للتقصي حول شرعية عملي، وعندما اقتنعوا بها هددوني بجحيم سيمون المجوسي، وأوصوني بحياة التوبة والتكفير كي أصير قديساً، لكني رددت عليهم دون استهانة بسلطتهم بأن بدايتي كانت من هناك تحديداً. والحقيقة أني لن أكسب شيئاً بتحولي إلى قديس بعد موتي، لأني فنان، والشيء الوحيد الذي أريده هو البقاء حياً لأواصل التنقل بمظهر الحمار في هذه السيارة المكشوفة ذات

الستة السلندرات التي اشتريتها من قنصل مشاة البحرية مع هذا السائق من ترينيداد الذي كان مغني باريتون في أوبرا القراصنة في نيو أوليانز، وقمصاني الحريرية الأصلية، وعطوري الشرقية، وأسناني المصنوعة من الياقوت، وقبعتي المصنوعة من القش، وجزمتي ذات اللونين، أستيقظ دون منبه، وأرقص مع ملكات الجمال، وأخلّفهن مذهولات بفصاحتي المستمدة من المعاجم، ودون أن تهتز عصفورتي إذا ما حدث ذات أربعاء رماد أن ذوت قدراتي، لأن بلاهة وجهي كافية لأن أواصل حياة الوزير هذه، وتفيض عن حاجتي بحشد المتاجر التي أمتلكها حتى ما وراء الغسق، حيث السياح أنفسهم الذين كانوا يتقاضون منا ثمن حياة الأميرال، تزل بهم أقدامهم الآن وهم يسعون للحصول على صور توقيعي المختصر، والتقاويم التي تحمل أشعاري الغرامية، والميداليات التي عليها صورتي الجانبية، وبوصات من ملابسي، وهذا كله دون ذكر مجد النوم الثقيل ببقائي طوال النهار والليل منحوتاً من مرمر فروسي ومغطى بذرق طيور السنونو مثل آباء الوطن المؤسسين.

من المؤسف أنه لا يمكن لبلاكامان الخبيث أن يكرر هذه القصة كي تروا أنه لا شيء من الاختلاق فيها. وفي المرة الأخيرة التي رآه فيها أحدهم في هذا العالم كان قد فقد حتى بريق تألقه القديم، وكانت روحه منهارة وعظامه مضطربة من قسوة الصحراء، ولكن ما زالت لديه جديلتان جيدتان من الأجراس الصغيرة الكافية ليعاود الظهور في يوم الأحد ذاك في ميناء سانتا ماريا دل دارين مع صندوقه القبوري الدائم، والاختلاف الوحيد هو أنه لم يكن يحاول في هذه المرة أن يبيع أي ترياق، وإنما كان يطلب بصوت شرخه الانفعال أن يقوم مشاة البحرية بإعدامه رمياً بالرصاص في استعراض علني كي يثبت بلحمه الحي القدرة على الانبعاث التي يتمتع بها هذا المخلوق الخارق، أيها السيدات والسادة، ومع أنه لديكم فائض من الحق في ألا تصدقوني بعد أن عانيتم لزمن طويل من حيلي الخبيثة

ككاذب ومزور، فإنني أقسم لكم بعظام أمي أن هذه التجربة اليوم ليس فيها ما هو من العالم الآخر، وإنما هي الحقيقة البائسة وحسب، وإذا كانت الشكوك مازالت تراودكم فانتبهوا جيداً إلى أنني لا أضحك الآن مثلما كنت أفعل في السابق، بل إنني أكبح رغبتي في البكاء. وكم كان مقنعاً وهو يفك أزرار قميصه وعيناه مغرورقتان بالدموع، ويوجه إلى قلبه صفعات بغل ليشير إلى أفضل مكان للموت، ومع ذلك لم يجرؤ مشاة البحرية على رميه بالرصاص خوفاً من أن تعرف جموع يوم الأحد فقدانهم لسمعتهم. وربما أن شخصاً لم ينس الألاعيب البلاكمانية في أزمنة أخرى تمكن من الحصول ـ لا يدري أحد من أين ـ على كمية من جذور نبات الباربسكو السام، كافية لجعل كل ما في البحر الكاريبي من أسماك الكوربينا تطفو على سطح الماء، وقدمها إليه في علبة من الصفيح، ففتح هو غطاء العلبة برغبة شديدة، كما لو أنه سيأكلها حقاً، وقد أكلها بالفعل، أيها السيدات والسادة، كل ما أرجوه منكم ألا تتأثروا ولا تصلوا من أجل راحة نفسي، لأن هذا الموت ليس سوى زيارة. وقد كان في تلك المرة نزيهاً بحيث لم يلجأ إلى الصخب الأوبرالي، وإنما نزل عن المنضدة مثل سرطان، وبحث في الأرض من خلال التردد الأول عن المكان الأكثر جدارة بالاستلقاء فيه، ومن هناك نظر إليّ كمن ينظر إلى أم وأطلق زفرته الأخيرة بين ذراعيها وهو لا يزال يكبح دموعه كرجل وتشنج متلوياً ظهراً وبطناً بكزاز الأبدية. وكانت تلك هي المرة الوحيدة، طبعاً، التي أخفق فيها العلم معي. وضعته في ذلك الصندوق المنذور مسبقاً لموته، فاتسع لجسمه كاملاً، وأقمت له قداس موت كلفني خمسين دوبلوناً ذهبياً من فئة الأربعة، لأن الكاهن كان يرتدي الذهب، وكان هناك أيضاً ثلاثة أساقفة جالسين، وأمرت أن يبنى له ضريح إمبراطور فوق رابية معرضة لأفضل أجواء البحر، مع كنيسة له وحده، ولوحة حديدية كتب عليها بحروف قوطية كبيرة هنا يرقد بلاكامان الميت الذي

أُسيئت تسميته بالخبيث، خادع مشاة البحرية وضحية العلم، وعندما وجدت أن هذه التشريفات كافية لإنصاف فضائله، بدأت الانتقام من فظاعاته، عندئذ بعثته حياً في قبره المصفح، وتركته يتقلب هناك في الرعب. كان ذلك قبل وقت طويل من أن يبتلع مدّ البحر مدينة سانتا ماريا دل دارين، لكن الضريح لا يزال سليماً على الرابية، في ظل التنانين التي تصعد لتنام وسط رياح الأطلنطي، وكلما مررتُ في تلك الأنحاء أجيئه بسيارة ممتلئة بالورود ويؤلمني قلبي أسفاً على فضائله، لكنني أضع بعد ذلك أذني على لوحة القبر كي أسمعه يبكي بين أنقاض الصندوق المتفتت، وإذا ما كان قد مات مجدداً أعيد بعثه، ذلك أن ظرافة العقاب هي في مواصلته الحياة في القبر مادمتُ حياً، وهذا يعني إلى الأبد.

القصة العجيبة والحزينة لإرينديرا الساذجة وجدتها القاسية

La incredible y triste historia de la cándida Eréndira y de su abuela desalmada

(1972)

كانت إرينديرا تحمم جدتها عندما بدأت رياح محنتها. فالمنزل الهائل ذو الملاط القمري، الضائع في عزلة الصحراء، اهتز حتى ركائزه مع الهبة الأولى. لكن إريديرا وجدتها كانتا معتادتين على مخاطر تلك الطبيعة الهذيانية، ولم تكادا تنتبهان إلى ضخامة الريح وهما في الحمام المزين برسوم طواويس مكرورة وفسيفساء صبيانية كالحمامات الرومانية.

كانت الجدة العارية والضخمة تبدو مثل حوت أبيض جميل في حوض الاستحمام الرخامي. ولم تكن الحفيدة قد تجاوزت سن الرابعة عشرة إلا قليلاً، وكانت واهنة الجسد ولينة العظام، وشديدة الإذعان بالنظر إلى عمرها. وبتقتير فيه شيء من الصرامة المقدسة، كانت تسكب على جدتها ماءً غَلت فيه نباتات مُطَهِّرة وأوراقاً عطرية تظل ملتصقة بالظهر المبلل، وبالشعر المعدني المنفلت، وبالكتف المتين الموشوم دون رحمة بوشم بحارة ساخر.

ـ حلمتُ ليلة أمس بأني أنتظر رسالة ـ قالت الجدة.

فسألتها إريديرا التي لم تكن تتكلم إلا لأسباب لا مفر منها:

ـ وأي يوم كان في الحلم؟

ـ الخميس.

ـ إنها رسالة تحمل أخباراً سيئة إذاً ـ قالت إريديرا، ثم أضافت: ـ لكنها لن تصل أبداً.

عندما انتهت من حمام جدتها، قادتها إلى غرفة نومها. كانت بدينة إلى حدّ لا تستطيع معه السير إلا وهي تستند إلى كتف حفيدتها، أو إلى عصا أشبه بعكاز مطران؛ ولكن سطوة عظيمة وعريقة تظهر حتى في أشد حركاتها مشقة. وفي الغرفة المؤثثة بذوق فيه كثير من الشطط وقليل من العته، مثلما هو البيت كله، احتاجت إريندير إلى ساعتين أخريين كي تزين جدتها. حلّت لها شعرها، شعرة شعرة، وعطرته، ومشطته، ثم ألبستها ثوباً مزيناً بأزهار استوائية. ومسحت لها وجهها ببودرة التالك، وطلت شفتيها بأحمر الشفاه، وخديها بطلاء خفيف الحمرة، ورموشها بالمسك، وأظفارها بطلاء صدفي. وعندما زينتها مثل دمية أكبر من الحجم البشري، اقتادتها إلى حديقة اصطناعية ذات أزهار خانقة كأزهار الثوب، وأجلستها على أريكة لها مقعد وعراقة عرش ملكي، وتركتها تستمع إلى اسطوانات عابرة من الغراموفون ذي النفير.

وبينما الجدة تبحر في مستنقعات الماضي، انهمكت إريندير بكنس البيت المعتم والمبرقش، المترع بأثاث جنوني وتماثيل قياصرة مختلقين، وثريات كريستالية، وملائكة من الرخام، وبيانو مطلي بورنيش ذهبي، وساعات عديدة بأشكال وأحجام لا يمكن تصورها. وكان هناك في الفناء صهريج يخزن فيه، على امتداد سنوات طويلة، الماء الذي يُحمل على ظهور الهنود من ينابيع بعيدة. وكانت تُربط إلى حلقة في الصهريج نعامة ضامرة، هي الحيوان الوحيد ذو الريش القادر على العيش في عذاب ذلك المناخ الخبيث. وكان المنزل بعيداً عن كل شيء، في روح الصحراء، بالقرب من قرية شوارعها بائسة وملتهبة، حيث تنتحر التيوس يأساً حين تهب رياح النكبة.

من شيد ذلك الملجأ العصي على الفهم هو زوج الجدة، وكان مهرباً أسطورياً يدعى أماديس، وقد أنجبت منه ابناً دعي أماديس أيضاً، هو والد إريندير. ولم يعرف أحد أصول هذه الأسرة أو دوافعها. والرواية الأوسع انتشاراً بلغة الهنود تقول إن أماديس الأب

أنقذ زوجته الجميلة من ماخور في جزر الأنتيل، حيث قتلت رجلاً طعناً بالمدية، وحملها لتعيش إلى الأبد في حصانة الصحراء. وعندما مات الأماديسان، الأول بحمى سوداوية، والثاني مخردقاً بالرصاص في نزاع مع خصوم، دفنت المرأة الجثتين في الفناء، وسرَّحت الأربع عشرة خادمة الحافيات، وواصلت اجترار أحلامها بالعظمة في ظلال البيت المتخفي، بفضل تضحيات الحفيدة غير الشرعية التي تولت هي نفسها تربيتها منذ ولادتها.

من أجل ملء الساعات وضبطها فقط، كانت إريندира بحاجة إلى ست ساعات. ولم يكن عليها عمل ذلك في اليوم الذي بدأت فيه نكبتها، إذ كانت الساعات قد مُلئت حتى صباح اليوم التالي. ولكن كان عليها، بالمقابل، أن تحمم الجدة وتُلبسها، وأن تمسح أرضية البيت، وتطهو وجبة الغداء، وتلمع أواني الكريستال. وفي حوالي الساعة الحادية عشرة، عندما بدلت الماء في دلو النعامة، وسقت الأعشاب الصحراوية على قبري الأماديسين المتجاورين، كان عليها أن تواجه هياج الريح التي صارت غير محتملة، لكن قلبها لم يحدثها بنذير الشؤم بأن تلك الرياح هي رياح نكبتها. وفي الساعة الثانية عشرة، كانت تلمع آخر كؤوس الشمبانيا، عندما شمت رائحة حساء خفيف. وكان عليها أن تحقق معجزة كي تصل راكضة إلى المطبخ دون أن تخلف لدى مرورها كارثة من حطام زجاج فينسيا.

وبالكاد تمكنت من رفع القدر التي بدأت تفور لتنسكب على الموقد. ثم وضعت على النار بعد ذلك طبيخاً كانت قد أعدته من قبل، وانتهزت الفرصة لتجلس وتستريح على مقعد في المطبخ. أغمضت عينيها، ثم فتحتهما وقد بدت عليها ملامح من لم تعرف التعب، وبدأت تسكب الحساء في الزبدية الكبيرة. لقد كانت تعمل وهي نائمة.

كانت الجدة قد جلست وحدها عند رأس مائدة مآدب عليها شمعدانات من الفضة وأدوات طعام لاثني عشر شخصاً. قرعت الجرس

الصغير، وفي الحال هرعت إريندير ا حاملة زبدية الحساء التي يتصاعد منه البخار. وفي اللحظة التي كانت تسكب لها الحساء، انتبهت الجدة إلى أنها تتحرك وهي نائمة، مرت بيديها أمام عيني حفيدتها كمن تنظف زجاجاً غير مرئي. ولم ترَ الصغيرة اليد. تابعتها الجدة بنظرها، وعندما أدارت إرينديرا ظهرها كي تعود إلى المطبخ، صرخت بها:

- إرينديرا.

أفلتت الطفلة التي استيقظت فجأة زبديةَ الحساء، فسقط على السجادة.

- ليس مهماً يا بنيتي - قالت لها الجدة بحنان مؤكد - لقد عدت تنامين وأنت سائرة.

- إنها عادة الجسم - قالت إرينديرا معتذرة. والتقطت الزبدية وهي لا تزال مشوشة من النعاس، وحاولت أن تنظف البقعة عن السجادة.

- دعيها هكذا - ثنتها الجدة عن ذلك - ستغسلينها بعد الظهر.

وهكذا، فضلاً عن مهامها المعهودة لما بعد الظهر، كان على إريندير ا أن تغسل سجادة غرفة الطعام؛ وانتهزت فرصة وجودها في حجرة الغسيل كي تغسل كذلك الثياب التي عليها غسلها يوم الاثنين، بينما كانت الريح تحوم حول المنزل بحثاً عن منفذ تدخل منه. كان عليها أن تنجز أعمالاً كثيرة، ففاجأها الليل دون أن تنتبه، وعندما أعادت سجادة غرفة الطعام إلى مكانها كان موعد نومها قد حان.

أمضت الجدة طوال فترة بعد الظهر في عزف غير متقن على البيانو، وفي الدندنة بينها وبين نفسها، بصوت ناشز، أغنيات زمانها، وكانت لا تزال على جفونها بقع من المسك المختلط بالدموع. ولكنها عندما استلقت في السرير وهي بقميص نوم من الموسلين، كانت قد تخلصت من مرارة ذكرياتها الطيبة.

- انتهزي الفرصة غداً لتغسلي سجادة الصالون أيضاً - قالت لإريندير ا - فهي لم ترَ الشمس منذ أزمنة الضجيج.

ـ حاضر، يا جدتي ـ أجابت الطفلة.

وتناولت مروحة من الريش وراح تهوّي للعجوز العنيدة التي كانت تتلو عليها مجموعة الأوامر الليلية بينما هي تغرق في النوم.

ـ اكوي الثياب كلها قبل أن تنامي، كي تنامي مرتاحة الضمير.

ـ حاضر، يا جدتي.

ـ تفحصي خزائن الملابس جيداً، لأن العثة تكون أكثر جوعاً في ليالي الريح.

ـ حاضر، يا جدتي.

ـ وفي الوقت المتبقي لديك، أخرجي الأزهار إلى الفناء لتتنفس.

ـ حاضر يا جدتي.

ـ وقدمي الطعام إلى النعامة.

كانت قد أغفت، ولكنها واصلت إصدار الأوامر، ذلك أن حفيدتها قد ورثت عنها القدرة على مواصلة الحياة وهي نائمة. خرجت إريندیرا من الغرفة دون إحداث ضجة، وأنجزت آخر المهام الليلية وهي ترد طوال الوقت على أوامر الجدة النائمة.

ـ اسقي القبرين ماء.

ـ حاضر، يا جدتي.

ـ وقبل أن تنامي تأكدي من أن كل شيء مرتب تماماً، لأن الأشياء تتألم كثيراً عندما لا توضع للنوم في أماكنها.

ـ حاضر، يا جدتي.

ـ وإذا جاء الأماديسان فحذريهما من الدخول ـ قالت الجدة ـ لأن عصبة بورفيريو غالان تنتظرهما لتقتلهما.

كفت إريندیرا عن إجابتها، لأنها عرفت أن الجدة بدأت تتيه في الهذيان، ولكنها لم تتجاوز أياً من الأوامر. وعندما انتهت من تفحص إغلاق النوافذ كلها، وأطفأت آخر الأنوار، تناولت شمعداناً من غرفة الطعام، وأضاءت الطريق حتى غرفتها، بينما كانت فترات توقف الريح تمتلئ بتنفس الجدة النائمة الرتيب والهائل.

كانت غرفتها فخمة أيضاً، ولكن ليس بمثل فخامة غرفة الجدة، وكانت مترعة بدمى قماشية وحيوانات ذات نوابض من أيام طفولتها حديثة العهد. ومنهارة من وطأة مهام يومها الرهيبة، لم تجد إرينديرا الحماسة لخلع ملابسها، بل وضعت الشمعدان على المنضدة الليلية وتهاوت على السرير. وبعد قليل من ذلك، اندفعت ريح نكبتها إلى الغرفة كسرب كلاب، وقلبت الشمعدان على الستائر.

❖ ❖ ❖

مع بزوغ الفجر، وعندما هدأت الريح أخيراً، بدأت تتساقط قطرات كبيرة ومتفرقة من المطر، أخمدت آخر الجمار وصلّبت رماد البيت المُدخن. كان أهل القرية، وجلّهم من الهنود، يحاولون إنقاذ بقايا الكارثة: جثة النعامة المتفحمة، وهيكل البيانو المذهب، وجذع أحد التماثيل. بينما كانت الجدة تتأمل بقايا ثروتها بقنوط لا يمكن سبر أغواره. وكانت إرينديرا الجالسة بين قبري الأماديسين قد انتهت من البكاء. وعندما أدركت الجدة أن أشياء قليلة جداً ظلت سليمة بين الأنقاض، نظرت إلى حفيدتها بشفقة صادقة.

ـ يا طفلتي المسكينة ـ تنهدت ـ لن تكفي حياتك كلها لتعوضيني عن هذه الخسائر.

وقد بدأت الدفع منذ ذلك اليوم بالذات، تحت وقع المطر، عندما اقتادتها الجدة إلى صاحب دكان القرية، وهو أرمل مبكر وضامر، معروف جداً في الصحراء بأنه يدفع سعراً مرتفعاً لبكارة العذارى. وأمام ترقب الجدة الوقح، تفحص الأرمل إريندرا بزهد علمي: قدّر قوة فخذيها، وحجم نهديها، وقطر ردفيها. ولم يفه بأية كلمة قبل أن ينتهي من تقدير قيمتها.

ـ إنها لا تزال صغيرة جداً ـ قال عندئذ ـ ولها ثديا كلبة.

وجعلها بعد ذلك تصعد إلى ميزان ليؤكد فتواه بالأرقام. فكان وزن إريندرا اثنين وأربعين كيلو.

ـ لا تساوي أكثر من مئة بيزو ـ قال الأرمل.

هاجت الجدة.

- مئة بيزو فقط مقابل مخلوقة جديدة تماماً! - قالت بما يشبه الصراخ - لا، يا رجل، هذه إهانة كبيرة للفضيلة.

- سأصل حتى مئة وخمسين - قال الأرمل.

- تسببت لي الطفلة بأضرار تزيد على مليون بيزو - قالت الجدة -. وبهذا المعدل ستحتاج إلى مئتي سنة كي تسدد لي خسائري.

فقال الأرمل:

- لحسن الحظ أن الشيء الوحيد الجيد فيها هو صغر سنها.

كانت العاصفة تنذر بانتزاع البيت، وكانت هناك في السقف ثقوب كثيرة، بدا معها أن المطر يهطل في الداخل كما في الخارج. وأحست الجدة أنها وحيدة في عالم كارثي.

- لو أنك ترفع المبلغ إلى ثلاثمئة.

- مئتين وخمسين.

وأخيراً اتفقا على مئتين وعشرين بيزو نقداً، إضافة إلى بعض المأكولات. عندئذ أشارت الجدة إلى إريندرا بأن تذهب مع الأرمل، وقادها هذا من يدها إلى الغرفة الخلفية، كأنه يوصلها إلى المدرسة.

- إنني انتظرك هنا - قالت الجدة.

- حاضر، يا جدتي - قالت إريندرا.

كانت الغرفة الخلفية نوعاً من عشة من أربعة أعمدة من الآجر، وسقف من سعف متعفن، مسورة بحائط طيني ارتفاعه متر واحد تنفذ منه إلى البيت اضطرابات الطقس العاصف. وفوق الحائط الطيني، هناك أصص صبار ونباتات أخرى تتحمل الجفاف. وقد عُلِّقت بين عمودين أرجوحة نوم لا لون لها، تتأرجح مثل شراع مفلت في زورق يمضي على غير هدى مع التيار. وأعلى من صفير العاصفة ووقع المطر، كانت تُسمع صرخات بعيدة، وعواء حيوانات نائية، وأصوات غرقى.

عند دخول إريندرا والأرمل إلى العشة، كان على كل منهما أن يتشبث بالآخر كي لا يطوح بهما وابل المطر الذي بللهما تماماً. لم تعد

أصواتهما مسموعة، وصارت حركاتهما مختلفة بسبب دوي العاصفة. ولدى أول محاولة من الأرمل، أطلقت إريندرا صرخة مكتومة وحاولت الهرب. فرد عليها الأرمل دون صوت، لوى ذراعها من المعصم وجرّها إلى أرجوحة النوم المعلقة. قاومته بخدش وجهه بأظفارها وعادت تصرخ بصمت. فردّ عليها بصفعة مهيبة جعلتها ترتفع عن الأرض وتطفو لحظة في الهواء بينما شعرها الطويل يتلوى في الفضاء كشعر مديوزا، ثم احتضنها من خصرها قبل أن تلامس الأرض، وطرحها بحركة فظة على شبكة النوم، وثبتها بركبتيه. عندئذ رضخت إريندرا للرعب، وفقدت صوابها، وبدت كأنها مفتونة بشريط قمري لسمكة مرت سابحة في هواء العاصفة، بينما الأرمل يعريها منتزعاً ثيابها بضربات مخلبية متباعدة، وكأنه يقتلع أعشاباً، وممزقاً إياها إلى شرائط طويلة ملونة تتلوى كالحيّات وتمضي مع الريح.

وعندما لم يبق في القرية أي رجل آخر قادر على دفع شيء مقابل ممارسة الحب مع إريندرا، أخذتها الجدة في شاحنة إلى مناطق التهريب. قامتا بالرحلة في صندوق شاحنة مكشوف، بين أكياس رز، وعلب سمن، وما تبقى لهما بعد الحريق: ترويسة سرير نائب الملك الفخم، وتمثال ملاك محارب، وكرسي العرش المصاب بحروق سطحية، وقطع أثاث أخرى ضئيلة القيمة. وفي صندوق عليه صليبان مطليان بدهان عادي، وضعتا عظام الأماديسين: الأب وابنه.

كانت الجدة تحتمي من الشمس الأبدية بمظلة مفتقة، وتتنفس بصعوبة بسبب عذاب العرق والغبار. ولكنها، حتى وهي على تلك الحال من التعاسة، كانت تحتفظ بسيطرة كاملة على وقارها. ووراء علب الصفيح وأكياس الرز، دفعت إريندرا أجور السفر وتكاليف شحن الأثاث بممارسة الحب مع معاون السائق لقاء عشرين بيزو عن كل مرة. في البداية كان منهجها في الدفاع هو نفسه الذي واجهت به اعتداء الأرمل. غير أن أسلوب المعاون كان مختلفاً، بطيئاً، وحكيماً، وتمكن في النهاية من ترويضها بالحنان، بحيث أن إريندرا، لدى وصولهم إلى

أول قرية، بعد رحلة شاقة، كانت تنعم بحب طيب مع المعاون وراء الحاجز الذي تشكله الحمولة. صاح سائق الشاحنة مخاطباً الجدة:

ـ ابتداء من هنا وإلى الأمام، عالم قائم بذاته.

تطلعت الجدة غير مصدقة إلى الشوارع البائسة والمقفرة لقرية أكبر قليلاً من القرية التي غادروها، ولكنها كئيبة جداً مثلها.

ـ لا يبدو ذلك صحيحاً ـ قالت.

ـ إنها منطقة إرساليات تبشيرية ـ قال السائق.

ـ ما أسعى إليه ليس الصدقات وإنما التهريب ـ قالت الجدة.

وبينما إرينديرا تستمع إلى الحوار من وراء الحمولة، كانت تحك بإصبعها كيس أرز. وفجأة وجدت خيطاً، شدته، فخرج لها عقد طويل من لآلئ أصلية. تأملته مذعورة وهي تحمله بين أصابعها كأنه ثعبان ميت، بينما كان السائق يرد على الجدة:

ـ لا تحلمي وأنت مستيقظة، يا سيدتي. فالمهربون لا وجود لهم.

ـ كيف لا! ـ قالت الجدة ـ اسألني أنا!

ـ ابحثي وسترين ـ سخر السائق بمزاج رائق ـ الجميع يتحدثون عنهم، ولكن أحداً لم يرهم.

انتبه المعاون إلى أن إرينديرا قد أخرجت العقد، فسارع إلى اختطافه منها ودسه من جديد في كيس الرز. كانت الجدة قد صممت على البقاء في القرية بالرغم من بؤسها، فنادت حفيدتها لتساعدها على النزول من الشاحنة. ودعت إرينديرا المعاون بقبلة سريعة، ولكنها عفوية وصادقة.

انتظرت الجدة، وهي جالسة على كرسي العرش، في وسط الشارع، إلى أن انتهوا من إنزال الأمتعة. وكان آخر شيء هو الصندوق الذي يضم رفات الأماديسين.

ـ إنه ثقيل وكأن فيه ميت ـ قال السائق ضاحكاً.

ـ إنهما اثنان ـ قالت الجدة ـ فعاملهما بما يليق من الاحترام.

ـ أراهن أنها تماثيل عاجية ـ ضحك السائق.

وضع صندوق العظام كيفما اتفق بين الأثاث المصاب بحروق، ومدّ يده مفتوحة أمام الجدة.

ـ خمسون بيزو ـ قال.

فأشارت الجدة إلى المعاون.

ـ لقد قبض خادمك باليمنى.

نظر السائق مفاجأً إلى مساعده، فأشار إليه هذا بإيماءة تأكيد. فعاد إلى كابينة القيادة، حيث كانت تسافر امرأة ترتدي ثياب الحداد وبين ذراعيها طفل يبكي من الحر. عندئذ قال المعاون للجدة بنبرة الواثق من نفسه:

ـ إريندیرا ستذهب معي، إذا لم تأمري أنت بشيء آخر. وأقول هذا بنوايا طيبة.

فتدخلت الصبية فزعة:

ـ أنا لم أقل شيئاً!

ـ أنا الذي أقول، والفكرة فكرتي ـ قال المعاون.

تفحصت الجدة جسده كاملاً، لا لتزدريه، وإنما لتحاول تقدير الحجم الحقيقي لجرأته، ثم قالت:

ـ لا مانع لدي إذا دفعت لي ما خسرته بسبب إهمالها. إنها ثمانمئة واثنان وسبعون ألفاً وثلاثمئة وخمسة عشر بيزو، يُطرح منها أربعمئة وعشرون بيزو سددتها لي، أي أن المتبقي ثمانمئة وواحد وسبعون ألفاً وثمانمئة وخمسة وتسعون بيزو.

بدأت الشاحنة التحرك.

ـ صدقيني أنني على استعداد لإعطائك كومة المال هذه لو كنت أملكها ـ قال المعاون بجد ـ فالصبية تستحقها.

استحسنت الجدة تصميم الفتى.

ـ لا بأس. عدّ عندما تحصل على المبلغ يا بني ـ ردّت عليه بنبرة لطيفة ـ، أما الآن، فانصرف، لأني إذا ما راجعتُ حساباتنا فسوف تخرج مديناً لي بعشرة بيزوات أخرى.

قفز إلى صندوق الشاحنة التي بدأت تبتعد. ولوح بيده من هناك مودعاً إرينديرا، لكنها كانت لا تزال مضطربة، فلم ترد على تحيته.

في تلك البقعة الجرداء نفسها، حيث تركتهما الشاحنة، ارتجلت إرينديرا وجدتها كوخاً لتعيشا فيه، وقد استخدمتا في ذلك صفائح توتياء وبقايا سجاجيد آسيوية. وفرشتا حصيرتين على الأرض، ونامتا على أحسن حال كما كانتا تنامان في المنزل، إلى أن نفذت الشمس من ثقوب في السقف وألهبت وجهيهما.

وخلافاً لما جرت عليه العادة، كانت الجدة هي التي تولت في ذلك الصباح تزيين إرينديرا. طلت وجهها بأسلوب تجميل قبوري كان دارجاً في أيام شبابها، وأجهزت عليها برموش مستعارة، وشريطة حرير معقودة بدت كفراشة على رأسها.

ـ إنك تبدين مخيفة ـ أقرت ـ ولكن هذا أفضل، فالرجال أفظاظ جداً في ما يتعلق بالنساء.

سمعت كلتاهما وقع خطوات بغلتين على أرض الصحراء القاسية، قبل أن تريا ظهورهما بوقت طويل. وبأمر من الجدة، اضطجعت إرينديرا على الحصيرة في وضع مبتذل، مثلما يمكن أن تفعل ممثلة مبتدئة في لحظة رفع الستارة. وغادرت الجدة الكوخ مستندة إلى عكازها، وجلست على كرسي العرش منتظرة مرور البغلتين.

كان القادم هو رجل البريد. لم يكن عمره يزيد على العشرين عاماً، بالرغم من أنه يبدو هرماً بسبب المهنة. وكان يرتدي بدلة خاكية، وطماقاً، وقبعة من الفلين، ومسدساً عسكرياً معلقاً إلى حزام الرصاص. وكان يمتطي بغلة جيدة، ويجر أخرى أقل كمالاً من رسنها، وقد حمّلها أكداساً من أكياس البريد الكتانية.

وعند مروره أمام الجدة، حياها بيده وتابع سيره. ولكنها أشارت إليه أن يلقي نظرة إلى داخل الكوخ. توقف الرجل، ورأى إرينديرا مضطجعة على الحصيرة بزينتها التي كزينة الموتى، وبثوب زُين بحواشٍ بنفسجية.

- هل تعجبك؟ - سألته الجدة.

لم يكن رجل البريد قد فهم حتى تلك اللحظة ما الذي تعرضه عليه.

- في الصيام، ليست سيئة - وابتسم.

- خمسون بيزو - قالت الجدة.

- ما هذا! وهل تملكه من الذهب! - قال - هذا المبلغ هو نفقة طعامي لشهر بكامله.

- لا تكن بخيلاً - قالت الجدة -. فأجر عامل البريد الجوي أفضل مما يتقاضاه كاهن.

- أنا عامل البريد المحلي - قال الرجل - أما البريد الجوي فهو الذي يتنقل في شاحنة صغيرة.

- الحب، على كل حال، مهم كالطعام - قالت الجدة.

- ولكنه لا يغذّي.

أدركت الجدة أن رجلاً يعيش على آمال الآخرين لديه متسع من الوقت للمساومة.

- كم معك؟ - سألته.

ترجل البريد، وأخرج من جيبه بضع أوراق نقدية مجعدة، وأراها للجدة. فتلقفتها كلها بيد ماهرة كما لو أنها كرة.

- سأمنحك تخفيضاً - قالت - ولكن بشرط واحد: أن تنشر الخبر في كل الأنحاء.

- حتى الجانب الآخر من العالم - قال رجل البريد - فهذا ما أنفع فيه.

عندئذ نزعت إرينديرا رموشها المستعارة، دون أن تتمكن من قول شيء، وانزوت في أحد جانبي الحصيرة لتفسح مكاناً لعريس المصادفة ذاك. وفور دخوله الكوخ، أغلقت الجدة المدخل ساحبة الستارة المتحركة بقوة.

كانت صفقة فعالة. فقد جاء من أماكن بعيدة رجال فتنتهم أقوال

رجل البريد، ليتعرفوا على حدث إريندرا المستجد. ووراء الرجال أتت موائد اليانصيب وأكشاك بيع المأكولات، ووراء الجميع أتى مصور على دراجة، ونصب أمام المعسكر آلة تصوير ذات منصب وكمّ حِداد سوداء، ووضع ستارة خلفية تمثل بحيرة طيور بجع مشلولة.

وكانت الجدة التي تجلس على العرش وهي تهوّي بمروحة يدوية، تبدو غريبة عن مهرجانها ذاك. فالشيء الوحيد الذي يهمها هو النظام في صف الزبائن الذين ينتظرون دورهم، والتأكد من النقود التي يدفعونها مقدماً ليدخلوا على إريندرا. لقد كانت صارمة في البداية حتى إنها رفضت زبوناً طيباً لأن ما معه أقل بخمسة بيزوات من المطلوب. ولكنها راحت تستوعب دروس الواقع مع مرور الشهور، وصارت تقبل استكمال الأجر بميداليات عليها رسوم قديسين، وبذكريات عائلية، وخواتم زفاف، وكل ما يتأكد لها، بعد عضه بأسنانها، أنه ذهب حقيقي حتى لو كان بلا بريق.

وبعد إقامة طويلة في تلك القرية الأولى، صار لدى الجدة من النقود ما يكفي لشراء حمار. فتوغلت عندئذ في الصحراء بحثاً عن أمكنة أخرى أكثر ملاءمة لاسترداد ديونها. كانت تسافر على محمل مرتجل فوق الحمار، وتحتمي من الشمس اللاهبة بالمظلة التي ترفعها إريندرا فوق رأسها. ومن خلفها يخب أربعة حمالين هنود بمعدات المعسكر: فراش النوم، وكرسي العرش المرمم، وتمثال الملاك المرمري، والصندوق الذي يضم رفات الأماديسين. والمصور يتبع القافلة على دراجته، ولكن دون أن يدركها، وكأنه ذاهب إلى مهرجان آخر.

كانت ستة أشهر قد انقضت على الحريق عندما استطاعت الجدة التوصل إلى رؤية متكاملة لتجارتها.

- إذا استمرت الأمور على هذه الوتيرة، فسوف تردين لي الديون خلال ثمانية أعوام وسبعة أشهر وأحد عشر يوماً.

ثم راجعت حساباتها بعينين مغمضتين، وهي تجتر بعض الحبوب

التي تُخرجها من جراب مخيط إلى ثوبها، حيث تخبئ المال أيضاً. وقالت موضحة:

- وكل هذا طبعاً، دون حساب أجور الهنود وطعامهم، وبعض النفقات الصغيرة الأخرى.

وإرينديرا التي كانت تسير على وقع خطوات الحمار مختنقة بالحر والغبار، لم تعلق بشيء على حسابات الجدة، ولكنها كابرت كثيراً لتمنع نفسها من البكاء.

- أحس بأن هناك زجاجاً مطحوناً في عظامي - قالت.

- حاولي أن تنامي.

- حاضر يا جدتي.

أغمضت عينيها، وأخذت نفساً عميقاً من الهواء الحارق، وتابعت المسير نائمة.

❖ ❖ ❖

ظهرت شاحنة صغيرة محملة بأقفاص، ومفزعة تيوساً بالغبار الذي تثيره في الأفق، وكانت زقزقة العصافير أشبه بدفق ماء بارد على خمول يوم الأحد في قرية سان ميغيل دِل ديسيّرتو. كان يجلس وراء المقود مزارع هولندي ضخم، شققت جلده تقلبات الطقس، وله شارب سنجابي اللون ورثه عن جد أبيه. وكان ابنه أوليسيس الذي يجلس على المقعد الآخر، مراهق ذهبي، له عينان بحريتان ومتوحدتان، ومظهر ملاك خفي. استرعت انتباه الهولندي خيمة اجتمع أمامها جميع جنود الحامية ينتظرون دورهم. كانوا يجلسون على الأرض، ويشربون من زجاجة وحيدة تنتقل من فم إلى آخر، ويغطون رؤوسهم بأغصان لوز كما لو أنهم يموهون أنفسهم لخوض معركة. فسأل الهولندي بلغته:

- أية شياطين يبيعونها هناك؟

- امرأة - أجابه ابنه بتلقائية كاملة - اسمها إرينديرا.

- وكيف عرفت ذلك؟

ـ جميع من في الصحراء يعرفون ـ أجاب أوليسيس.

نزل الهولندي إلى فندق القرية الصغير. أما أوليسيس فتخلف في الشاحنة، وفتح بأصابعه الماهرة حقيبة تجارية تركها أبوه على المقعد، وأخرج منها رزمة أوراق مالية، دس عدداً منها في جيوبه، وأعاد كل شيء مثلما كان. وفي تلك الليلة، بينما كان أبوه نائماً، خرج من نافذة الفندق وذهب ليقف في الصف أمام خيمة إرينديرا.

كانت الحفلة في أوجها. فالجنود المخمورون يرقصون وحدهم كيلا يضيعوا على أنفسهم تلك الموسيقى المجانية، والمصور يلتقط صوراً ليلية باستخدام أوراق المغنيزيوم. أما الجدة، وبينما هي تراقب سير تجارتها، كانت تعدّ الأوراق المالية في حضنها، وتفرزها في رزم متساوية، وترتبها في سلّة. لم يكن هناك حينئذ سوى اثني عشر جندياً، ولكن صف المنتظرين المسائي تطاول بزبائن مدنيين، وكان أوليسيس هو الأخير.

وصل الدور إلى جندي تبدو عليه مظاهر الكآبة. فلم تعترض الجدة سبيله وحسب، بل أعرضت كذلك عن لمس نقوده.

ـ لا، يا بني، لن تدخل ولو دفعت لي ذهب العربي كله. أنت مشؤوم.

فوجئ الجندي الذي لم يكن من أبناء تلك المنطقة.

ـ ما معنى هذا؟

ـ معناه أنك تنقل عدوى سوء الطالع ـ قالت الجدة ـ رؤية وجهك تكفي لمعرفة ذلك.

أزاحته جانباً بيدها، دون أن تلمسه، وأفسحت الطريق أمام الجندي التالي قائلة له بمزاج طيب:

ـ ادخل أنت أيها الخيّال. ولا تتأخر كثيراً، فالوطن بحاجة إليك.

دخل الجندي ولكنه عاد للخروج في الحال، لأن إرينديرا ترغب في التحدث إلى الجدة. علقت هذه السلة بذراعها ودخلت إلى الخيمة، كان المكان ضيقاً، ولكنه مرتب ونظيف. وفي أقصاه، على فراش

من القطن، كانت تجلس إرينديرا غير قادرة على كبح ارتعاش جسدها، وكانت منهوكة ومتسخة بعرق الجنود.

- جدتي - أجهشت في البكاء - إنني أموت.

لمست الجدة جبينها، وحين تأكدت من أنها لا تعاني ارتفاعاً في حرارتها، حاولت مواساتها.

- لم يبق إلا عشرة جنود.

انفجرت إرينديرا بالبكاء بصراخ حيوان مذعور. عندئذ أدركت الجدة أنها قد تجاوزت حدود الرعب، فداعبت رأسها وساعدتها على استعادة الهدوء.

- كل ما في الأمر أنك ضعيفة. هيا، كفى بكاء، واستحمي بماء أعشاب الطيب لتنشيط دمك.

خرجت من الخيمة عندما بدأت إرينديرا باستعادة هدوئها، وأعادت النقود إلى الجندي الذي ينتظر. «انتهينا اليوم - قالت له -. ارجع غداً، وستكون أول من يدخل». ثم صاحت بالواقفين في الصف:

- انتهينا، يا شباب! حتى الغد، في الساعة التاسعة.

انفرط صف الجنود والمدنيين بصرخات احتجاج. فواجهتهم الجدة بمزاج طيب، ولكنها كانت تهز عكازها المهترئ بجد.

- عديمو النظر! متحجرو القلوب! - راحت تصرخ - أتظنون أن هذه المخلوقة من حديد. لكم أود رؤيتكم مكانها! أيها الفاسدون! يا أفاقي البراز!

رد عليها الرجال بشتائم أقبح، ولكنها انتهت إلى السيطرة على الفوضى، وظلت محترسة بعكازها إلى أن حملوا موائد بيع المقالي، وفككوا أكشاك اليانصيب. وبينما هي تستعد للعودة إلى الخيمة رأت أوليسيس منتصباً بكامل جسده، وحيداً، في المكان الخالي والمظلم الذي كان يقف فيه طابور الرجال. كانت تحيط به هالة لا واقعية يبدو معها مرئياً في الظلام بتألق جماله. فقالت له الجدة:

- وأنت، أين تركت جناحيك؟

ـ من كان له جناحان هو جدي ـ أجابها أوليسيس بتلقائيته، وأضاف: ـ ولكن لا أحد يصدق ذلك.

عادت الجدة تتفحصه باهتمام مفتون. «أما أنا فأصدق ـ قالت ـ تعال غداً وأنت تضعهما». ثم دخلت إلى الخيمة وتركت أوليسيس يتأجج في مكانه.

أحست إرينديرا بالتحسن بعد الحمام. وكانت قد ارتدت قميص نوم قصير مطرز، وبدأت تجفف شعرها لتنام، ولكنها مازالت تجهد نفسها لتمنع دموعها من الانفلات. أما الجدة فكانت نائمة.

أطل أوليسيس برأسه من وراء فراش إرينديرا. ورأت هي العينين المتلهفتين والصافيتين، ولكنها قبل أن تقول أي شيء، فركت وجهها بالمنشفة لتتأكد من أن ما تراه ليس وهماً. وعندما رمش أوليسيس بأهدابه أول مرة، سألته إرينديرا بصوت خافت جداً:

ـ من أنت؟

فانسل أوليسيس داخل الخيمة حتى كتفيه، وقال: «اسمي أوليسيس»، وأراها الأوراق النقدية المسروقة، وأضاف:

ـ أحضرت النقود.

وضعت إرينديرا يديها على الفراش، وقرّبت وجهها من وجه أوليسيس، وتابعت الحديث معه كما في لعبة مدرسة ابتدائية.

ـ كان عليك أن تقف في الصف ـ قالت له.

ـ انتظرتُ طوالِ الليل ـ قال أوليسيس.

ـ عليك الآن إذاً أن تنتظر حتى الغد. ـ قالت إرينديرا ـ فأنا أشعر بآلام شديدة، وكأني ضُربت بعصا على كليتيّ.

وفي هذه اللحظة بدأت الجدة الكلام وهي نائمة:

ـ سيكتمل انقضاء عشرين عاماً على هطول المطر آخر مرة ـ قالت ـ كانت عاصفة رهيبة، اختلط فيها المطر بماء البحر، وطلع الصباح على البيت وهو ممتلئ بالسمك والقواقع، ورأى جدكِ أماديس، فلترقد روحه بسلام، سمكة ماتارايًا شفافة تسبح في الهواء.

عـاد أوليـسيس إلى الاختبـاء وراء الـسرير. فابتـسمت إرينـديرا ابتسامة مرحة، وقالت له:

ـ اهـدأ. إنهـا تـتكلم دائمـاً كمجنونـة وهـي نائمـة، ولكـن لا يمكن لزلزال أن يوقظها.

أطل أوليسيس مـن جديـد. تأملته إرينـديرا بابتـسامة مشاكسة لاتخلو من بعض الحنان، ورفعت عن الحصيرة الملاءة المستعملة.

ـ تعال ـ قالت له ـ، ساعدني على تبديل الملاءة.

عندئـذ خـرج أوليـسيس مـن وراء الـسرير وأمـسك أحـد طرفـي الملاءة. ولأنها أكبر بكثير من الحصيرة، فقـد احتاجـا إلى ثنيهـا فـي عدة طيات. وعند كل طية كان أوليسيس يقترب أكثر من إرينديرا.

ـ كنت متلهفاً بجنون لرؤيتك ـ قال فجأة ـ. فالجميع يقولون إنـك باهرة الجمال، وهذا صحيح.

فقالت إرينديرا:

ـ ولكنني سأموت.

ـ أمـي تقـول إن مـن يموتـون فـي الـصحراء لا يـذهبون إلى الـسماء وإنما إلى البحر ـ قال أوليسيس.

وضعت إرينديرا الملاءة المتسخة جانباً، وغطـت الحـصيرة بمـلاءة أخرى نظيفة ومكوية.

ـ لا أعرف البحر ـ قالت.

ـ إنه مثل الصحراء، ولكن من ماء ـ قال أوليسيس.

ـ لا يمكن السير فيه إذاً.

ـ أبي عرف رجلاً كان قادراً على ذلك ـ قال أوليـسيس ـ ولكـن منذ زمن بعيد.

كانت إرينديرا سعيدة، ولكنها أرادت أن تنام.

ـ إذا أتيت باكراً فـي الغد، ستكون الأول فـي الدور ـ قالت.

ـ سأغادر مع أبي فـي الفجر ـ قال أوليسيس.

ـ ألن تعودا للمرور من هنا؟

ـ من يدري متى ـ قال أوليسيس ـ لقد مررنا اليوم مصادفة، لأننا ضعنا على طريق الحدود.

نظرت إريندیرا إلى الجدة النائمة وهي تفكر.

ـ حسن ـ قررت ـ، أعطني النقود.

أعطاها أوليسيس النقود. استلقت إريندیرا على الفراش، ولكنه ظل في مكانه يرتجف. لقد خار عزمه في اللحظة الحاسمة. أمسكت إريندیرا يده كي يسرع، وعندئذ فقط أدركت محنته. إنها تعرف هذا النوع من الخوف.

ـ أهي مرتك الأولى؟ ـ سألته.

لم يجب أوليسيس، ولكنه ابتسم ابتسامة حزينة. عندئذ تغيرت إريندیرا.

ـ تنفس بتمهل ـ قالت له ـ. هذا ما يحدث للجميع في البداية، ولكنك لن تعاني شيئاً بعد ذلك.

مددته إلى جانبها، وبينما هي تخلع عنه ثيابه كانت تهدئه بوسائل أمومية.

ـ ما هو اسمك؟

ـ أوليسيس.

ـ إنه اسم غرينغو ـ قالت إريندیرا.

ـ لا، إنه اسم بحار.

كشفت إريندیرا عن صدره، وطبعت عليه قبلات يتيمة، شمته وقالت:

ـ تبدو كأنك من ذهب، ولكن رائحتك رائحة زهور.

ـ لا بد أنها رائحة البرتقال ـ قال أوليسيس.

كان قد صار أكثر هدوءاً، وابتسم ابتسامة تواطؤ وهو يضيف:

ـ إننا نحمل الكثير من العصافير للتمويه، ولكن ما نحمله إلى الحدود هو برتقال مهرب.

ـ البرتقال ليس من المهربات ـ قالت إريندیرا.

ـ أما برتقالنا فتهريب ـ قال أوليسيس ـ. كل واحدة منه تساوي خمسين ألف بيزو.

ضحكت إريندير أول مرة منذ زمن بعيد.

ـ أكثر ما يعجبني فيك هي الجدية التي تختلق بها كلامك غير المعقول.

كانت قد أصبحت عفوية وثرثارة، وكأن براءة أوليسيس لم تغير مزاجها فقط، وإنما طبيعتها أيضاً. وكانت الجدة، على مسافة غير بعيدة عن القدر المحتوم، تواصل كلامها وهي نائمة.

ـ في ذلك الوقت، في بداية شهر آذار، جاؤوا بكِ إلى البيت ـ قالت ـ وكنت أشبه بسحليّة ملفوفة بالقطن. شعر أبوكِ أماديس، وكان شاباً ووسيماً، بسعادة كبيرة في ذلك المساء، حتى إنه طلب عشرين عربة محملة بالزهور، وجاء وهو يصيح ويرمي الأزهار على امتداد الطرق حتى صارت القرية كلها مذهبة بالزهور مثل البحر.

استمرت بالهذيان عدة ساعات، بصوت عالٍ، وبانفعال لجوج. ولكن أوليسيس لم يسمعها، لأن إريندير أحبته كثيراً، وبصدق كبير، وعادت لممارسة الحب معه بنصف السعر، بينما الجدة تهذي، وواصلت الحب معه دون مقابل حتى الفجر.

❖ ❖ ❖

وقفت جماعة من المبشّرين متراصة الأكتاف وسط الصحراء وهم يرفعون الصلبان عالياً. وكانت ريح قوية كريح المحنة تهز مسوحهم التي من القنب ولحاهم المشعثة، وتكاد لا تتيح لهم البقاء منتصبين. وكانت تنتصب وراءهم دارة بعثة التبشير، وهو دير استعماري له برج أجراس صغير فوق جدران خشنة مطلية بالكلس الأبيض.

أشار أصغر المبشرين سناً، وهو الذي يقود الجماعة، إلى شق طبيعي على الأرض الطينية اللامعة.

ـ لا تتجاوزوا هذا الخط! ـ صرخ.

توقف الحمالون الهنود الأربعة الذين يحملون الجدة على محفة

خشبية لدى سماع الصرخة. وبالرغم من أن الجدة لم تكن تجلس براحة في المحفة، وكانت خامدة الهمة بسبب غبار الصحراء وعرقها، إلا أنها كانت تحافظ على كبريائها. أما إريندرا فكانت تسير على قدميها. وخلف المحفة كان هناك رتل من ثمانية حمالين هنود، وفي المؤخرة يمضي المصور على دراجته.

- ليست الصحراء ملكاً لأحد - قالت الجدة.

- هي ملك الرب - قال المبشِّر -، وأنتم تخرقون قوانينه المقدسة بتجارتكم النجسة.

تعرفت الجدة عندئذ طريقة النطق واللهجة الإسبانية في كلام المبشر، فتجنبت المواجهة المباشرة كيلا تعذب نفسها أمام تصلبه. وعادت لتكون هي نفسها.

- لا أفهم كلامك الغامض، يا بني.

أشار المبشر إلى إريندرا:

- هذه البنية قاصر.

- ولكنها حفيدتي.

- هذا أسوأ - ردّ المبشر -. ضعيها تحت وصايتنا بالحسنى، وإلا لجأنا إلى أساليب أخرى.

لم تكن الجدة تتوقع وصولهم إلى ذلك الحد.

- لا بأس، أيها القملة. لكني سأمر عاجلاً أو آجلاً، وسوف ترى.

بعد أيام ثلاثة من اللقاء مع المبشرين، كانت الجدة وإريندرا نائمتين في قرية قريبة من الدير، عندما زحفت أجساد رشيقة، صامتة، مثلما تزحف دورية اقتحام، وانسلت إلى الخيمة. كن ست راهبات هنديات مستجدات، قويات وشابات، بمسوحهن الكتانية الخام التي تبدو متلألئة تحت ضوء القمر. ودون إحداث أية ضجة، غطين إريندرا بظُلة كلّة، ورفعنها دون إيقاظها، وحملنها ملفوفة مثل سمكة كبيرة ورشيقة عالقة في شبكة صيد قمرية.

لم تبق وسيلة إلا ولجأت إليها الجدة لاسترداد حفيدتها من

وصاية المبشرين. وعندما أخفقت تلك الوسائل كلها، من أكثرها استقامة إلى أكثرها مواربة، لجأت إلى السلطة المدنية، وكان يمارسها عسكري. وجدته في فناء بيته، عاري الجذع، يطلق النار من بندقية حربية على سحابة سوداء متوحدة في السماء الملتهبة. كان يحاول أن يثقبها كي تُمطر، وكانت طلقاته شرسة وغير مجدية، ولكنه صار يتوقف كلما لزم الأمر، ليصغي إلى الجدة.

ـ أنا لا أستطيع عمل شيء ـ أوضح لها بعد أن استمع إليها ـ، فهؤلاء الرهبان، وفق المعاهدة مع الفاتيكان، لهم حق الاحتفاظ بالصغيرة حتى بلوغها سن الرشد. أو حتى زواجها.

ـ لماذا ينصبونك عمدة إذاً؟ ـ سألت الجدة.

ـ لإنزال المطر ـ قال العمدة.

بعد ذلك، عندما رأى أن السحابة صارت بعيدة عن متناول بندقيته، توقف عن ممارسة واجباته الرسمية، وأولى كل اهتمامه للجدة.

ـ ما تحتاجين إليه هو شخص ذو مكانة مرموقة يكفلك ـ قال لها ـ. تحتاجين إلى شخص يكفل أخلاقك وحسن سيرتك برسالة موقعة. ألا تعرفين السيناتور أونسيمو سانتشث؟

فردت الجدة بغضب وقور، وهي تجلس تحت الشمس، على كرسي بلا مسند وضيق جداً على مؤخرتها الضخمة:

ـ إنني امرأة مسكينة وحيدة في اتساعات الصحراء.

فتأملها العمدة مشفقاً بعينه اليمنى التي حرفها الحر.

ـ لا تضيعي الوقت إذاً يا سيدتي ـ قال ـ. لقد أخذك الشيطان.

لم يأخذها بالطبع. استقرت في الخيمة قبالة دير البعثة التبشيرية، وجلست تفكر، مثل محارب متوحد يفرض حصاراً على مدينة حصينة. أما المصور الجوال الذي كان يعرفها جيداً، فقد حمل أدواته ومعداته على منصب دراجته، وتأهب للرحيل وحيداً حين رآها تحت شمس الظهيرة وعيناها مصوبتان إلى الدير.

ـ فلنر من منا سيتعب أولاً، هم أم أنا ـ قالت الجدة.

ـ إنهم هنا منذ ثلاثمئة سنة، ومازالوا صامدين ـ قال المصور ـ أنا راحل.

عندئذ فقط رأت الدراجة والحمولة.

ـ إلى أين ستذهب؟

ـ إلى حيث تحملني الريح ـ قال المصور، ومضى وهو يضيف ـ: العالم فسيح.

فتنهدت الجدة.

ـ ليس فسيحاً بالقدر الذي تظنه، أيها الجاحد.

ولكنها لم تحرك رأسها بالرغم من ضغينتها، كيلا ترفع بصرها عن الدير. ولم ترفعه طوال عدة أيام من الحر المعدني، وطوال ليال من الرياح الضائعة، طوال فترة التأمل التي لا يخرج خلالها أحد من الدير. أقام الهنود سقفاً من سعف النخيل إلى جانب الخيمة، وعلقوا هناك أراجيح نومهم، ولكن الجدة كانت تسهر حتى وقت متأخر، جالسة على العرش بينما رأسها يتأرجح من النعاس، وهي تجتر الحبوب النيئة التي في جيبها، باسترخاء لا يُهزم كاسترخاء جاموسة نائمة.

وفي إحدى الليالي مرّ قريباً منها رتل شاحنات مغطاة، بطيئة، أنوارها الوحيدة أكاليل مصابيح ملونة تمنحها حجماً شبحياً لمذابح كنيسة تسير نائمة. لقد تعرفت الجدة عليها فوراً، لأنها مثل شاحنات الأماديسين. تخلفت الشاحنة الأخيرة من القافلة، ثم توقفت، ونزل من حجرة قيادتها رجل لإصلاح شيء في صندوق الشاحنة. وكان يبدو نسخة أخرى من الأماديسين بقبعته ذات الواقية المقلوبة، وجزمته العالية، وحزامي الخرطوش المتقاطعين على صدره، والبندقية الحربية والمسدسين. نادت الجدة الرجل وقد سيطر عليها إغواء قاهر:

ـ ألا تعرف من أكون؟ ـ سألته.

صوب الرجل نحوها، دون رحمة، ضوء مصباح يدوي. وتأمل لحظة الوجه الذي أتلفه السهر، والعينين المنطفئتين من التعب، وشعر

المرأة الباهت التي يمكن لها أن تقول، على الرغم من تقدمها في السن، ومن حالتها المزرية، إنها كانت أجمل امرأة في العالم. وبعد أن تفحصها بما يكفي ليتأكد من أنه لم يرها من قبل قط، أطفأ مصباحه، وقال:

- الأمر الوحيد الذي أعرفه بصورة مؤكدة هو أنك لست سيدتنا العذراء المغيثة.

- إنني خلاف ما تقوله تماماً - قالت الجدة بصوت بالغ العذوبة -. فأنا **السيدة**.

وضع الرجل يده على مسدسه بحركة غريزية:

- أية سيدة!

- السيدة أماديس الكبير.

- لستِ إذاً من هذا العالم - قال متجهماً - ما الذي تريدينه؟.

- أن تساعدني في تخليص حفيدتي، حفيدة أماديس الكبير، وابنة ولدنا أماديس، السجينة في هذا الدير.

تجاوز الرجل خوفه، وقال:

- لقد أخطأتِ البوابة - قال -. وإذا كنت تظنين أننا قادرون على التدخل في أمور الرب، فلا يمكن أن تكوني من تزعمين، بل إنك لم تعرفي الأماديسين، وليست لديك أدنى فكرة عاهرة عن التهريب.

في ذلك الفجر نامت الجدة أقل مما في الأيام السابقة. فقد أمضت الوقت وهي تجتر، متدثرة ببطانية صوفية، بينما كان جو الليل يشتت ذاكرتها، والهذيانات المكبوتة تجاهد للخروج حتى وهي مستيقظة. فكان عليها أن تضغط قلبها بيدها كيلا تخنقها ذكرى بيت بحري ذي أزهار كبيرة حمراء، حيث عاشت سعيدة. وظلت على هذه الحال إلى أن قُرع ناقوس الدير، وأضيئت الأنوار الأولى في النوافذ، وتشبعت الصحراء برائحة الخبز الساخن المعدّ لقداس الفجر. عندئذ فقط استسلمت للتعب، مخدوعة بوهم أن إرينديرا قد استيقظت، وأنها تبحث عن طريقة للهروب والعودة إليها.

أما إريندیرا بالمقابل، فلم تُضع ليلة واحدة بالأحلام منذ أخذوها إلى الدير. كانوا قد قصوا شعرها بمقراض تقليم أشجار، حتى صار رأسها مثل فرشاة، وألبسوها مسوح الكتان الخشنة التي ترتديها الراهبات المعزولات، وأعطوها دلواً مملوءاً بماء الجير ومكنسة لتطلي بالكلس الأبيض درجات السلالم كلما داس أحدهم عليها. لقد كان عملاً لا تتحمله بغلة، لأن صعود ونزول الرهبان الملوثين بالوحل والراهبات المستجدات الحمالات لم يكن يتوقف. ولكن إريندیرا وجدت أيام ذلك العمل أشبه بيوم أحد دائم بعد تلك الأشغال الشاقة المميتة في الفراش. كما أنها لم تكن المنهوكة الوحيدة في المساء، لأن ذلك الدير لم يكن مكرساً للصراع ضد الشيطان وإنما ضد الصحراء. وكانت إريندیرا قد رأت الراهبات المستجدات من بنات السكان الأصليين وهن يهدئن الأبقار بالتربيت على الرقبة ليحلبنها في الحظائر، ويقفزن أياماً بطولها على ألواح خشبية ليعصرن قوالب الجبن، ويساعدن الماعز في عملية ولادة معسرة. لقد رأتهن ينضحن عرقاً كعمال شحن السفن المدبوغين بالشمس وهن ينزحن الماء من البئر، ويسقين يدوياً بستاناً مخيفاً كانت مستجدات أخريات قد حرثته بالمعازق ليزرعن البقول في الصحراء الحجرية. وكانت قد رأت الجحيم الأرضي في أفران الخبز وفي حجرات الكي. وكانت قد رأت راهبة تطارد خنزيراً في الفناء، ورأتها تنزلق مع الخنزير الحرون وهي تتشبث بأذنيه، وتتمرغ في الوحل دون أن تفلته، إلى أن حضرت راهبتان مستجدتان تضعان مريلتين من الجلد لمساعدتها في إخضاع الخنزير، ثم قامت إحداهما بذبحه بسكين جزار، وتلطخن جميعهن بالدم والوحل. وكانت قد رأت في الجناح المنعزل من المستشفى الراهبات المصابات بالسل يرتدين ملابس الموت، وينتظرن أمر الله الأخير وهن يطرزن ملاءات زفاف على الشرفات، بينما رجال الإرسالية يبشرون في الصحراء. كانت إريندیرا تعيش في الظل، تكتشف أشكالاً أخرى من الجمال والرعب لم تكن قد

تصورتها قط في عالم السرير الضيق، غير أنه لم يكن بمقدور أشد الراهبات فظاظة ولا أكثرهن رقة أن ينتزعن منها كلمة واحدة منذ أدخلوها إلى الدير. وفي صباح أحد الأيام، بينما هي تمزج الجير بالماء في الدلو، سمعت صوت موسيقى وترية بدت كأنها ضوء أكثر شفافية من ضوء الصحراء. فأطلت، وقد فتنتها المعجزة، على صالة واسعة وخالية، جدرانها عارية ونوافذها كبيرة تدخل منها دفقات كبيرة من ضياء حزيران المبهر لتستقر راكدة هناك. ورأت في وسط القاعة راهبةً باهرة الجمال، لم تكن قد رأتها من قبل، تعزف لحن فصح على أرغن. أصغت إرينديرا إلى الموسيقى دون أن ترمش، وروحها معلقة بخيط، إلى أن قُرِع جرس الطعام. وبعد الغداء، بينما هي تطلي الدرجات بفرشاة من الحلفاء، انتظرت لحظة كفت فيها الراهبات عن الصعود والنزول، وصارت وحدها، حيث لا يسمعها أحد، وعندئذ تكلمت أول مرة منذ دخولها الدير:

- إني سعيدة - قالت.

وهكذا تبددت كل آمال الجدة في أن تهرب إرينديرا لتعود إليها، ولكنها واصلت حصارها الصوانيّ، دون أن تتخذ أي قرار إلى أن حل يوم أحد العنصرة. وكان المبشرون يمشطون الصحراء في هذه الفترة لملاحقة الخليلات الحوامل من أجل تزويجهن. فكانوا يذهبون إلى الدساكر النائية في شاحنة قديمة، ومعهم أربعة رجال من مفرزة الشرطة مسلحين جيداً، وصندوق بضائع رخيصة. وكان أصعب ما في حملات صيد الهنود تلك هو إقناع الخليلات اللواتي كن يرفضن الحكم الإلهي بحجة صائبة تقول إن الرجال يشعرون بأن لهم حق مطالبة زوجاتهم الشرعيات بعمل أشد مشقة مما يطلبن من الخليلات، بينما هم ينامون في الأراجيح دون أن يحركوا أرجلهم. فكان على المبشرين إغواؤهن بأساليب مخادعة، ومزج مشيئة الرب بشراب لغتهن نفسها ليجدنها أقل حرقة مما هي عليه. ولكن، حتى أكثرهن تملصاً كن ينتهين إلى الاقتناع عند تلقيهن أقراطاً مبهرجة.

أما الرجال بالمقابل، وبعد الحصول على موافقة النساء، فكانوا يقتادونهم بأعقاب البنادق من أراجيحهم، ويأخذونهم مقيدين في الشاحنة، ليزوجوهم بالقوة.

وخلال عدة أيام، رأت الجدة عودة الشاحنة الصغيرة إلى الدير محملة بالهنديات الحوامل، ولكنها لم تتعرف إلى فرصتها. وقد تعرفت إليها في يوم أحد العنصرة بالذات، عندما سمعت أصوات الألعاب النارية وقرع النواقيس، ورأت الجموع البائسة والسعيدة التي تمر في طريقها إلى الحفلة، ورأت أن هناك بين الحشود نساء حوامل، يضعن طرحات وأكاليل زفاف، ويتأبطن أذرع أزواج المصادفة ليصبحوا أزواجاً شرعيين في العرس الجماعي.

وبين من كانوا في نهاية الصفوف، مرّ فتى بريء القلب، له شعر هندي مقصوص مثل قرعة، ويرتدي أسمالاً، ويحمل بيديه شمعة فصح عُقد عليها شريط حريري. فنادته الجدة.

ـ قل لي، يا بني ـ سألته بأكثر أصواتها صفاء ـ، ما الذي ستفعله أنت في هذا الحفل؟

كان الفتى يشعر بالتآلف مع الشمعة، وكان يجد مشقة في إطباق فمه بسبب أسنان الحمار التي له.

ـ سيُجري لي الآباء مناولتي الأولى ـ قال.

ـ وكم دفعوا لك؟

ـ خمسة بيزوات.

أخرجت الجدة من جيبها الداخلي رزمة أوراق نقدية نظر إليها الفتى مصعوقاً.

ـ أنا سأعطيك عشرين ـ قالت الجدة ـ. ولكن لا لتشارك في المناولة الأولى، وإنما لتتزوج.

ـ وبمن سأتزوج؟

ـ بحفيدتي.

وهكذا تزوجت إريندِيرا، في باحة الدير، وهي ترتدي مسوح

الـسجينة الخـشن وطرحـة مـن الـدانتيلا أهـدتها إليهـا الراهبـات المستجدات، ودون أن تعـرف علـى الأقـل اسـم الـزوج الـذي اشـترته لها جدتها. تحملت بأمل غير مؤكـد ألم الركـبتين وهـي تركـع على أرض ملح البارود، ونتانة جلد التيس التي تنبعث من المئتي عـروس حبلـى، وعقوبة سماع رسالة القديس بطرس التي ساطوهم بها باللغة اللاتينية تحت القيظ الثابت، لأن المبشرين لم يجدوا وسيلة لمعارضة حيلة ذلك الزواج المفاجئ، ولكنهم وعدوها ببذل محاولة أخيرة للاحتفاظ بها فـي الـدير. ومـع ذلـك، عنـد انتهـاء الاحتفـال، وبحـضور القاصـد الرسولي، والعمـدة العسكري الـذي كـان يطلق النـار علـى الغيـوم، وزوجهـا الجديـد، وجدتها غـير المتـأثرة، وجـدت إرينـديرا نفـسها مـن جديـد تحـت تـأثير الـسحر الـذي سيطر عليهـا منـذ ولادتهـا. فعنـدما سـألوها مـا هـي مـشيئتها الحـرة، الحقيقيـة، والنهائيـة، لم يخامرهـا نَفَس تردد واحد.

ـ أريـد أن أذهـب ـ قالـت. ثـم أوضـحت وهـي تـشير إلى الـزوج ـ : ولكنني لن أذهب معه، بل مع جدتي.

❖ ❖ ❖

أضاع أوليسيس فترة ما بعد الظهر وهو يحاول سـرقة برتقالـة مـن مزرعـة أبيـه، إذ لم يكـن الأب يرفـع نظـره عنـه بينمـا همـا يقلمـان الأشجار. وكانت أمه تراقبه من المنزل. وهكـذا تخلـى أوليسيس عـن عزمـه ذلـك اليـوم علـى الأقـل، وظـل يـساعد أبـاه بمـزاج معكـر حتـى انتهيا من تقليم آخر أشجار البرتقال.

كانت المزرعة الفسيحة صامتة ومختفية، وكان للمنـزل الخشبي ذي سـقف التوتيـاء شِباك مـن النحـاس علـى النوافـذ، وشـرفة كـبيرة محمولـة علـى أعمـدة قـصيرة، عليهـا نباتـات بدائيـة كثيفـة الأزهـار. وكانـت والـدة أوليـسيس علـى الـشرفة، مـستلقية علـى كرسـي هـزاز فييني، وقد وضـعت علـى صـدغيها أوراقـاً مبخـرة لتخفـف ألم الـرأس، وكانت نظرتها الهندية الخالصة تتابع حركـات ابنهـا مثـل حزمـة ضـوء

غير مرئية حتى أكثر الأماكن خفية في بيارة البرتقال. لقد كانت جميلة جداً، وأصغر سناً بكثير من زوجها، ولم تكن تواصل ارتداء زي القبيلة وحسب، وإنما تعرف كذلك أقدم أسرار عرقها.

عندما رجع أوليسيس إلى البيت حاملاً أدوات التقليم، طلبت منه أمه أدوية الساعة الرابعة الموضوعة على منضدة صغيرة قريبة. وما إن لمس الكأس وقارورة الدواء حتى تحول لونهما. ثم لمس بعد ذلك، لمجرد المشاكسة، إبريقاً من الزجاج كان على المنضدة مع كؤوس أخرى، فتحول لون الإبريق كذلك إلى الزرقة. راقبته أمه وهي تتناول الدواء، وعندما تأكدت من أن ذلك ليس هذياناً مبعثه آلامها، سألته بلغة هنود غواخيرا:

ـ منذ متى يحدث لك هذا؟

ـ منذ مجيئنا إلى الصحراء ـ قال أوليسيس بلغة الغواخيرا أيضاً ـ وهو يحدث للأشياء الزجاجية وحدها.

ولإثبات ذلك، لمس الأكواب الموضوعة على المنضدة واحداً بعد الآخر، فتبدلت كلها إلى ألوان مختلفة.

ـ هذه الأمور لا تحدث إلا بسبب الحب ـ قالت الأم ـ. من هي؟

لم يجب أوليسيس. فأبوه الذي لا يعرف لغة غواخيرا، مرّ في تلك اللحظة على الشرفة حاملاً عنقود برتقال.

ـ عم تتحدثان؟ ـ سأل أوليسيس بالهولندية.

ـ لا شيء خاصاً ـ أجاب أوليسيس.

لم تكن أم أوليسيس تعرف اللغة الهولندية. وعندما دخل زوجها إلى البيت، سألت الابن بالغواخيرية:

ـ ما الذي قاله لك؟

ـ لا شيء خاصاً ـ قال أوليسيس.

لم يعد يرى أباه بعد دخوله إلى البيت، ولكنه عاد ليراه من خلال نافذة وهو في المكتب. وانتظرت الأم إلى أن ظلت وحيدة مع أوليس، وألحت عندئذ:

ـ قل لي من هي؟
ـ لا أحد ـ قال أوليسيس.
أجاب دون انتباه، لأنه كان يتابع حركات أبيه في المكتب. ورآه يضع البرتقالات على صندوق الخزنة، ليضبط الرقم السري. وبينما هو يراقب أباه، كانت أمه تراقبه.
ـ منذ وقت طويل وأنت لا تأكل خبزاً ـ أبدت ملاحظتها.
ـ لا أحبه.
اكتسب وجه الأم فجأة حيوية فريدة، وقالت: «هذا كذب. السبب أنك مريض بداء الحب، ومن هم كذلك لا يستطيعون أكل الخبز.» وانتقل صوتها، كما عيناها، من الرجاء إلى التهديد.
ـ من الأفضل أن تخبرني من هي ـ قالت ـ وإلا أجبرتك على مغاطس تطهير.
وفي المكتب، فتح الهولندي صندوق الخزنة، ووضع فيه البرتقالات، ثم أغلق الباب المصفح. عندئذ ابتعد أوليسيس عن النافذة، وردّ على أمه بنفاد صبر:
ـ قلت لك إنه لا يوجد أحد. وإذا لم تصدقيني اسألي أبي.
ظهر الهولندي من باب المكتب وهو يشعل غليون بحار، ويحمل نسخته المهلهلة من الكتاب المقدس تحت إبطه. فسألته المرأة بالإسبانية:
ـ على من تعرفتم في الصحراء؟
ـ لا أحد ـ أجابها زوجها وهو شارد الذهن بعض الشيء ـ وإذا لم تصدقيني اسألي أوليسيس.
جلس في أقصى الشرفة وراح يسحب أنفاساً من الغليون حتى انتهت شحنة التبغ. ثم فتح الكتاب المقدس كيفما اتفق له وقرأ مقاطع متفرقة طوال ساعتين تقريباً بلغة هولندية متدفقة ورنانة.
في منتصف الليل، كان أوليسيس لا يزال مستغرقاً في تفكير مكثف لم يستطع معه النوم. تقلب في شبكة النوم ساعة أخرى،

محاولاً السيطرة على ألم الذكريات إلى أن منحه الألم نفسه القوة التي كان يفتقدها ليحسم أمره. فلبس بنطاله الكابوي، وقميصه الاسكتلندي ذا المربعات، وجزمته طويلة الساق، ثم خرج من النافذة وهرب من البيت في الشاحنة الصغيرة الممتلئة بالعصافير. ولدى مروره بين الأشجار، قطف البرتقالات الثلاث الناضجة التي لم يستطع سرقتها في المساء.

انطلق عبر الصحراء طوال بقية الليل، وعند الفجر سأل في القرى والدساكر عن السبيل الذي مضت فيه إرينديرا، ولكن أحداً لم يعطه جواباً حاسماً. وأخيراً أخبروه أنها تمضي وراء موكب السيناتور أونسيمو سانتشث الانتخابي، وأن هذا الموكب يجب أن يكون اليوم في قشتالة الجديدة. لم يجده فيها، وإنما في القرية التالية، ولم تكن إرينديرا ترافق الموكب، ذلك أن الجدة توصلت إلى جعل السيناتور يكفل حسن أخلاقها برسالة كتبها بخط يده، وراحت تفتح بها أشد الأبواب الموصدة إحكاماً في الصحراء. وفي اليوم الثالث، التقى برجل البريد المحلي، فدله على الوجهة التي يبتغيها.

ـ إنهما تذهبان باتجاه البحر ـ قال له ـ وعليك أن تسرع لأن العجوز القحبة تنوي العبور إلى جزيرة آروبا.

وفي ذلك الاتجاه، لمح أوليسيس، بعد مسير نصف يوم، الخيمة الكبيرة والمتسخة التي اشترتها الجدة من سيرك مفلس. وكان المصور المتجول قد رجع لينضم إليها، مقتنعاً بأن العالم ليس فسيحاً، بالفعل، كما كان يظن. وكان قد نصب ستائره المزركشة قريباً من الخيمة. وكانت هناك جوقة موسيقية تفتن زبائن إرينديرا بألحان فالس كئيب.

انتظر أوليسيس دوره ليدخل، وكان أول ما لفت انتباهه هو الترتيب والنظافة داخل الخيمة. فقد استعاد سرير الجدة فخامته الملكية، وكان تمثال الملاك في موضعه إلى جانب صندوق رفات الأماديسين، وكان هناك أيضاً حوض استحمام من الزنك له قوائم

أسد. وكانت إريندرا مستلقية على فراشها الجديد ذي القبة والستائر، عارية ومطمئنة، تشع بريقاً طفولياً تحت الضوء الخافت في الخيمة. وكانت تنام مفتوحة العينين. توقف أوليسيس بجوارها، والبرتقالات في يده، وانتبه إلى أنها تنظر إليه دون أن تراه. فمرر يده أمام عينيها وناداها بالاسم الذي اختلقه ليفكر فيها

ـ أريدنيرا.

استيقظت إريندرا. وأحست بعريّها أمام أوليسيس، فأطلقت صرخة مكتومة، وغطت نفسها بملاءة السرير حتى رأسها.

ـ لا تنظر إلي ـ قالت ـ إنني فظيعة.

ـ لكِ كلك لون البرتقال ـ قال أوليسيس. ووضع الثمار عند مستوى عينيها كي تقارن، وأضاف ـ : انظري.

كشفت إريندرا عن عينيها وتبين أن للبرتقالات مثل لونها بالفعل.

ـ لا أريدك أن تبقى هنا الآن ـ قالت.

ـ دخلتُ لأريك هذه فقط ـ قال أوليسيس ـ انظري.

شقّ برتقالة بأظافره، وقسمها إلى نصفين بكلتا يديه، وأرى إريندرا ما بداخلها. كانت هناك ماسة حقيقية مغروسة في قلب الثمرة.

ـ هذا هو البرتقال الذي ننقله إلى الحدود ـ قال.

ـ ولكنه برتقال حي! ـ هتفت إريندرا.

ـ طبعاً ـ ابتسم أوليسيس ـ. أبي هو الذي يزرعه.

لم تستطع إريندرا تصديق ما تراه. كشفت عن وجهها، وأمسكت الماسة بين أصابعها، وتأملتها مذهولة.

ـ بثلاث ماسات مثل هذه نستطيع القيام برحلة حول العالم ـ قال أوليسيس.

أعادت إريندرا إليه الماسة بمزاج فاتر. فألح أوليسيس:

ـ لدي شاحنة صغيرة أيضاً. ولدي كذلك... انظري!

وأخرج من تحت قميصه مسدساً قديماً.

ـ لا أستطيع الذهاب قبل مرور عشر سنوات ـ قالت إريnديرا.
ـ ستذهبين ـ قال أوليسيس ـ. هذه الليلة، بعد أن تنام الحوتة البيضاء، سأنتظرك في الخارج، وسأنعق كبومة.

وقام بمحاكاة شديدة الواقعية لنعيق البوم، جعل معها عيني إريndيرا تبتسمان أول مرة.

ـ إنها جدتي ـ قالت.

ـ البومة؟

ـ الحوتة.

وضحكا لهذه المفارقة، ولكن إريندیرا استعادت الإمساك بالخيط.

ـ ليس هناك من يذهب إلى أي مكان دون إذن من جدته.

ـ يجب ألا تخبريها بأي شيء.

ـ ولكنها ستعرف على كل حال ـ قالت إريندیرا ـ. إنها ترى الأمور في أحلامها.

ـ عندما تبدأ تحلم بإنك ذاهبة، سنكون قد صرنا في الجانب الآخر من الحدود، سنجتازها مثل المهربين.

وبينما هو يمسك المسدس ببراعة ممثل سينمائي، راح يحاكي صوت إطلاق الرصاص ليشجع إريندیرا بجسارته. ولم تقل هي نعم ولم تقل لا، ولكن عينيها تنهدتا، ثم قبّلت أوليسيس مودعة، فدمدم بانفعال:

ـ غداً سنرى مرور المراكب.

وفي تلك الليلة، بعد الساعة السابعة بقليل، كانت إريندیرا تسرح شعر جدتها عندما هبت من جديد ريح محنتها. وفي حماية الخيمة، كان الحمالون الهنود، ورئيس الجوقة الموسيقية ينتظرون ليقبضوا أجورهم. انتهت الجدة من عدّ الأوراق النقدية من صندوق في متناولها، وبعد أن راجعت دفتر حساباتها دفعت إلى كبير الهنود.

ـ خذ ـ قالت له ـ: عشرون بيزو في أسبوع، ناقص ثمانية مقابل

الطعام، وناقص ثلاثة مقابل الماء، وناقص خمسين سنتافو مقابل القمصان الجديدة، تبقى ثمانية بيزوات وخمسون سنتافو. عدّها جيداً.

عدّ الهندي الأكبر النقود، ثم انسحبوا جميعهم بانحناءة احترام.

- شكراً أيتها البيضاء.

وكان التالي رئيس الموسيقيين. راجعت الجدة دفتر حساباتها، ثم توجهت إلى المصور الذي كان يحاول ترقيع إجاصة الكاميرا بلصاقات مصمغة.

- ماذا قررت؟ - قالت له - هل ستدفع ربع أجور الموسيقى أم لا؟

لم يرفع المصور رأسه وهو يرد عليها.

- الموسيقى لا تظهر في الصور.

- ولكنها توقظ في الناس الرغبة في التقاط الصور - أجابت.

- بالعكس - قال المصور -، إنها تذكرهم بالموتى، فيظهرون بعد ذلك في الصور بعيون مغمضة.

فتدخل مدير الجوقة الموسيقية قائلاً:

- ليست الموسيقى هي ما يغمض العيون، بل وميض التصوير ليلاً.

- بل هي الموسيقى - قال المصور بإصرار.

وضعت الجدة حداً للخلاف، وقالت للمصور: «لا تكن بخيلاً، أنظر كيف تسير أمور السيناتور أونسيمو سانتشث بصورة جيدة، وكل ذلك بفضل الموسيقيين الذين يرافقونه.» ثم ختمت بقسوة:

- إما أن تدفع الحصة المتوجبة عليك، أو تمضي لمصيرك وحيداً. فليس من العدل أن تتحمل هذه المخلوقة المسكينة كل النفقات وحدها.

- سأمضي وحيداً لمصيري - قال المصور - فما أنا إلا فنان في نهاية المطاف.

هزت الجدة كتفيها، والتفتت إلى الموسيقي. فناولته رزمة أوراق نقدية بموجب ما هو مدون في دفترها.

- مئتان وأربع وخمسون مقطوعة، كل واحدة بخمسين سنتافو،

زائد اثنتين وثلاثين مقطوعة من فئة الستين سنتافو في أيام الآحاد والأعياد، فيكون المجموع مئة وستة وخمسين بيزو وعشرين سنتافو.

لم يأخذ الموسيقي النقود.

- المبلغ مئة واثنان وثمانون بيزو وأربعون سنتافو. فسعر مقطوعات الفالس أغلى.

- ولماذا هي كذلك؟

- لأنها أكثر حزناً - قال الموسيقي.

أجبرته الجدة على أخذ النقود.

- حسناً إذاً، اعزف لنا هذا الأسبوع مقطوعتين مرحتين بدلاً من كل فالس تدين لنا به، وهكذا نكون متعادلين.

لم يفهم الموسيقي منطق الجدة، ولكنه تقبل الحساب وهو يحاول حلّ تلك العقدة. وفي اللحظة نفسها، كادت الريح المفزعة أن تطيح بالخيمة، وفي الصمت الذي خلّفته بعد مرورها، سُمع في الخارج نعيق بومة، واضح وكئيب.

لم تدر إرينديرا ما تفعل لتخفي اضطرابها. أغلقت صندوق النقود وخبأته تحت السرير، ولكن الجدة لاحظت ارتعاش يدها وهي تعطيها المفتاح. فقالت لها: «لا تخافي، فدائماً هناك بوم في ليالي الريح الشديدة». ومع ذلك، لم يكن رأيها مماثلاً عندما رأت المصور يخرج وهو يحمل الكاميرا على ظهره:

- يمكنك إذا شئت أن تبقى هنا حتى الغد - قالت له -، فالموت يمضي طليقاً هذه الليلة.

كان المصور قد سمع نعيق البوم، لكنه لم يغير رأيه.

- ابق هنا يا بني - ألحت الجدة - ولو من أجل المحبة التي أكنها لك.

- ولكني لن أدفع مقابل الموسيقى - قال المصور.

- آه! لا - قالت الجدة -، ليس هكذا.

- ألا ترين؟ - قال المصور - أنت لا تحبين أحداً.

شحب وجه الجدة من الغضب وقالت:

ـ انصرف إذاً، يا مولود النحس!

أحست أنها أهينت جداً، حتى إنها واصلت الهذر ضده بينما إريندير تساعدها على النوم. «يا لابن أم السوء ـ كانت تدمدم ـ ما الذي يعرفه ابن الزنا هذا عن حب الآخرين». لم تكن إريندير توليها انتباهها، لأن صوت البوم كان يستدعيها بإلحاح عنيد كلما هدأت الريح، وكانت مضطربة بسبب التردد. انتهت الجدة إلى الاستلقاء للنوم بالطقوس الصارمة نفسها التي كانت تتبعها في المنزل القديم، وبينما الحفيدة تهوّي لها، تجاوزت الضغينة وعادت تتنفس هواءها العقيم.

ـ يجب أن تستيقظي باكراً ـ قالت عندئذ ـ، لتغلي ماء ممزوجاً بأوراق الطيب لحمّامي قبل أن يأتي الناس.

ـ حاضر، يا جدتي.

ـ وفي الوقت المتبقي لك، اغسلي ملابس الهنود المتسخة، وهكذا نستطيع أن نحسم شيئاً آخر من أجورهم في الأسبوع القادم.

ـ حاضر، يا جدتي.

ـ ونامي جيداً كيلا تتعبي، فغداً هو الخميس، أطول أيام الأسبوع.

ـ حاضر، يا جدتي.

ـ وقدمي الطعام للنعامة!

ـ حاضر، يا جدتي ـ قالت إريندير. ثم تركت المروحة على أعلى السرير، وأشعلت شمعتين أمام صندوق رفات الميتين. وأصدرت لها الجدة عندئذ، الأمر متأخراً:

ـ لا تنسي إشعال شمعتين للأماديسين.

ـ حاضر، يا جدتي.

عرفت إريندير حينئذ أنها لن تستيقظ، لأنها بدأت تهذي. وسمعت عواء الريح حول الخيمة، ولكنها لم تتمكن هذه المرة أيضاً من التعرف على ريح محنتها. أطلت على عتمة الليل إلى أن عاود البوم النعيق، فتغلبت غريزة الحرية فيها أخيراً على سحر جدتها.

ولم تكن قد سارت خمس خطوات خارج الخيمة حتى التقت بالمصور الذي كان يحزم معداته على منصب الدراجة الخلفي. وقد هدّأت ابتسامته المتواطئة من روعها.

ـ أنا لا أعرف شيئاً ـ قال لها المصور ـ ولم أر شيئاً، ولن أدفع ثمن الموسيقى.

ودعها بإيماءة مباركةٍ كونية. وركضت إرينديرا نحو الصحراء، مصممة حتى النهاية، واختفت في ظلمة الريح حيث ينعق البوم.

لجأت الجدة فوراً في هذه المرة إلى السلطات المدنية. قفز قائد المفرزة المحلية من أرجوحة نومه في الساعة السادسة صباحاً، عندما عرضت الجدة رسالة السيناتور أمام عينيه. وكان والد أوليسيس ينتظر أمام الباب.

ـ كيف تريدين مني أن أقرأها ـ صرخ القائد ـ إذا كنت لا أعرف القراءة.

ـ إنها رسالة توصية من السيناتور أونسيمو سانتشث ـ قالت الجدة.

ودون توجيه مزيد من الأسئلة، التقط القائد بندقية معلقة قرب أرجوحة النوم، وبدأ بإصدار الأوامر إلى شرطييه. وبعد خمس دقائق كانوا جميعهم في سيارة الجيب العسكرية، يطيرون نحو الحدود، وسط ريح معاكسة تمحو آثار الهاربين. في المقعد الأمامي، إلى جانب السائق، جلس القائد العسكري. وفي الخلف جلس الهولندي والجدة، وعلى كل من مرقاتي البابين الجانبيين وقف شرطي مسلح.

وعلى مقربة من القرية، أوقفوا قافلة شاحنات مغطاة بمشمع واق من المطر. رفع الغطاء عدد من الرجال الموجودين في صندوق الشاحنة الخلفي، وصوبوا بنادقهم الحربية ومدافعهم الرشاشة باتجاه سيارة الجيب العسكرية. سأل القائد سائق الشاحنة الأولى عن المسافة التي التقوا فيها بشاحنة مزرعة صغيرة محملة بالعصافير.

انطلق السائق بشاحنته قبل أن يجيب.

ـ لسنا واشين ـ قال غاضباً ـ نحن مهربون.

ورأى القائد العسكري فوهات المدافع الرشاشة تمر أمام عينيه، فرفع ذراعيه وابتسم.

ـ عليكم أن تخجلوا ـ صرخ بهم ـ ولا تتجولوا في وضح النهار على الأقل.

وعلى واقية الصدمات الخلفية في الشاحنة الأخيرة كانت هناك لوحة كُتب عليها: *أفكر فيك، يا إرينديرا*.

كانت الريح تصبح أكثر جفافاً كلما تقدموا نحو الشمال، وصارت الشمس أشد قسوة مع اشتداد الريح، فكان التنفس مُجهداً وشاقاً بسبب الحر والغبار في سيارة الجيب المغلقة.

وكانت الجدة أول من لمح المصور وهو يقود دراجته في الاتجاه نفسه الذي يمضون فيه، دون أية حماية من الشمس سوى منديل معقود على رأسه.

ـ ها هو هناك ـ أشارت إليه ـ إنه المتواطئ. مولود النحس.

أمر القائد أحد الشرطيين المتعلقين بجانبي السيارة أن يتولى أمر المصور.

ـ اقبض عليه وانتظرنا هنا ـ قال له ـ سنعود حالاً.

قفز الشرطي عن المرقاة الجانبية، وأمر المصور بالوقوف مرتين. لكن المصور لم يسمعه بسبب اتجاه الريح المعاكس. وعندما تجاوزته السيارة، أومأت إليه الجدة بيدها إيماءة غامضة، وظن هو مخطئاً أنها تحييه، فابتسم ولوح لها بيده مودعاً. لم يسمع دوي الطلقة النارية. انقلب في الهواء، وهوى ميتاً على الدراجة، وقد تهشم رأسه برصاصة بندقية لم يدر قط من أين جاءته.

وقبل أن ينتصف النهار، بدؤوا يرون الريش. كان ريش يتطاير مع الهواء، وتبين أنه ريش فراخ صغيرة، وقد عرفه الهولندي لأنه ريش طيوره الذي تنزعه الريح. صوّب السائق وجهته، وضغط على دواسة السرعة، وقبل انقضاء نصف ساعة لمحوا الشاحنة الصغيرة في الأفق.

عندما رأى أوليسيس السيارة العسكرية من خلال المرآة العاكسة، بذل جهده ليزيد من ابتعاده عنها، ولكن المحرك لم يتجاوب معه أكثر. لقد سافرا دون نوم، وكانا منهوكين من التعب والعطش. واستيقظت إرينديرا التي غفت على كتف أوليسيس مذعورة. ورأت السيارة التي توشك أن تلحق بهما، وبقرار ساذج، تناولت المسدس من جرابه.

- إنه لا ينفع - قال أوليسيس - لقد كان لفرانسيس دراك في زمانه.

ضغطت زناده عدة مرات ثم ألقت به من النافذة. تجاوزت الدورية الشرطية الشاحنة المخلعة المحملة بعصافير نتفت الريح ريشها، ثم انعطفت بشدة وسدت عليها الطريق.

❖ ❖ ❖

تعرفتُ على المرأتين في تلك الفترة، وكانت فترة أكبر ازدهار لهما، مع أنني لم أتقصَ تفاصيل حياتيهما إلا بعد سنوات عديدة، حين كشف رافائيل إسكالونا في إحدى أغانيه النهاية الرهيبة للمأساة وبدا لي أنها تستحق أن تروى. كنت أجوب مقاطعة ريوهاتشا، أبيع موسوعات وكتباً طبية. وكان ألبارو سيبيدا ساموديو يمضي في تلك الأنحاء أيضاً، يبيع آلات بيرة مثلجة، فاصطحبني في شاحنته الصغيرة عبر قرى الصحراء بنية أن يحدثني عن أمر لا أدري ما هو، وتحدثنا كثيراً عن لا شيء، وشربنا الكثير من البيرة، حتى إننا لم ندرِ متى ولا من أين اجتزنا الصحراء كلها ووصلنا إلى الحدود. وهناك كانت خيمة الحب الجوالة، تحت إعلانات قماشية معلقة: **إرينديرا هي الأفضل - اذهب وعد، إرينديرا في انتظارك - هذه ليست حياة دون إرينديرا**. وكان الصف المتعرج الذي بلا نهاية، المؤلف من رجال من أجناس وأوضاع مختلفة، يبدو أشبه بثعبان ذي فقرات بشرية يغفو عبر عقارات مهجورة وساحات، وبين متاجر مزركشة وأسواق صاخبة، ويخرج من ضوضاء شوارع مدينة المهربين العابرين تلك. كل شارع فيها هو وكر قمار عام، وكل بيت حانة، وكل باب ملجأ للهاربين. وكان

اختلاط الموسيقى المتعددة التي لا يمكن فهمها، وصراخ نداءات الباعة، تشكل ضجة مرعبة في الحر الهذياني.

وبين حشود السكارى ومن لا أوطان لهم، كان بلاكامان الطيب، يقف فوق منضدة، مطالباً أن يأتوه بأفعى حقيقية ليثبت بلحمه الحي فعالية ترياق من اختراعه. وكانت هناك المرأة التي تحولت إلى عنكبوت لأنها عصت أبويها، وتسمح، مقابل خمسين سنتافو، بلمسها للتأكد من عدم وجود أي خدعة، وتردّ على ما يوجهونه إليها من أسئلة حول نكبتها. وكان هناك موفد من الحياة الأبدية يعلن المجيء الوشيك للخفاش الكوكبي الرهيب الذي ستقلب أنفاسه الكبريتية الملتهبة نظام الطبيعة، وتدفع أسرار البحر إلى الخروج طافية.

وكان ملاذ السكينة الوحيد هو حيّ التسامح، حيث لا تصل إلا جذوات من الصخب المديني. نساء آتيات من أربع جهات الكون يتثاءبن ضجراً في صالات الرقص المهجورة. وكن قد نمن القيلولة جالسات، دون أن يوقظهن أحد ليحببّهن، ويواصلن انتظار مجيء الخفاش الكوكبي تحت المراوح ذات الأذرع المثبتة في السقف. وفجأة، نهضت واحدة منهن، وتوجهت إلى رواقٍ تغطيه أزهار الثالوث ويؤدي إلى الشارع. ومن هناك كان يمر صف الراغبين بإرينديرا.

ـ فلنر ـ صرخت بهم المرأة ـ ماذا لديها وليس لدينا نحن؟

ـ رسالة من سيناتور ـ صاح أحدهم.

خرجت نساء أخريات إلى الرواق وقد اجتذبهن الصراخ والقهقهات. وقالت إحداهن:

ـ هذا الطابور متواصل على هذه الحال منذ أيام... تصوري، كل واحد يدفع خمسين بيزو.

واتخذت المرأة التي خرجت أولاً قرارها:

ـ سأذهب لأرى ما هو الذهبي في هذه الخديجة.

ـ وأنا أيضاً ـ قالت أخرى ـ، فهذا أفضل من البقاء هنا وتدفئة المقعد مجاناً.

وانضمت إليهن أخريات في الطريق. وعندما وصلن إلى خيمة إرينديرا كن قد شكلنّ موكباً صاخباً. دخلن دون استئذان، وطردن ضرباً بالوسائد الرجلَ الذي وجدنه يستفيد بأفضل ما يستطيع من النقود التي دفعها، وحملن سرير إرينديرا وأخرجنه محولاً كمحفة إلى الشارع.

ـ هذا عدوان ـ راحت الجدة تصرخ ـ، زمرة خائنات! نذلات! ـ ثم توجهت إلى الرجال الواقفين في الصف ـ : وأنتم أيها الرعديدون، أين هي خصياتكم التي تسمح بهذا الاعتداء على مخلوقة مسكينة عزلاء. يا لكم من مخنثين!

وواصلت الصراخ إلى حيث يسعفها الصوت، وهي توزع الضربات بعكازها ضد كل من يقع في متناولها. ولكن غضبها لم يكن مسموعاً وسط صيحات الحشود وصفير سخريتها.

لم تستطع إرينديرا الهرب من السخرية، إذ كانت تمنعها من ذلك سلسلة الكلب التي قيدتها بها جدتها إلى إحدى عوارض السرير مذ حاولت الهرب. ولكنهن لم يُلحقن بها أي أذى. لقد عرضنها على سريرها ذي المظلة في أشد الشوارع صخباً، مثل المرور الرمزي للتائبة المقيدة، ووضعنها أخيراً كميتة مسجاة في منصف الساحة الكبرى. وكانت إرينديرا متقوقعة على نفسها، تخفي وجهها، ولكن دون بكاء. وظلت على تلك الحال تحت الشمس الرهيبة، تعض من الخجل والغضب سلسلة كلب قدرها المشؤوم، إلى أن أشفق أحدهم عليها وغطاها بقميص.

كانت تلك هي المرة الوحيدة التي رأيتهما فيها، ولكني عرفت أنهما ظلتا في تلك المدينة الحدودية تحت حماية قوى الأمن العام، إلى أن امتلأت صناديق الجدة بالمال، وعندئذ غادرتا الصحراء باتجاه البحر. لم يُر قط مثل ذلك الرخاء مجتمعاً في ممالك الفقراء تلك. كان موكباً من عربات تجرها الجواميس، تتكدس فوقها نسخ رخيصة من الأمتعة البائدة في كارثة البيت، وليس فقط التماثيل

النصفية الإمبراطورية والساعات الغريبة، وإنما كذلك بيانو اشترته من تصفية، وفونوغراف ذو ذراع مع اسطوانات الحنين. وكانت ثلة من الهنود تتولى أمر الحمولة، وجوقة موسيقيين تعلن الوصول الظافر.

كانت الجدة تسافر في محمل مزين بأكاليل وورق ملون، وهي تجتر الحبوب التي تحتفظ بها في جيبها، في ظل مظلة موكب كنسي. وكان حجمها الضخم قد ازداد، لأنها تضع تحت بلوزتها صداراً من قماش الأشرعة، تدس فيه سبائك الذهب كما تُدس الرصاصات في حزام الخرطوش. وكانت إريندرا إلى جانبها، ترتدي ثياباً زاهية وشرابات مدلاة، ولكنها لا تزال مقيدة بسلسلة الكلب من كاحلها.

ـ لا يمكن لك أن تتذمري ـ قالت لها الجدة لدى مغادرتهما المدينة الحدودية ـ. فلديك ملابس ملكة، وسرير فخم، وجوقة موسيقية خاصة، وأربعة عشر هندياً في خدمتك. ألا يبدو لك هذا كله رائعاً؟

ـ بلى، يا جدتي.

ـ عندما تفقدينني ـ واصلت الجدة ـ، لن تكوني تحت رحمة الرجال، لأنك ستملكين منزلاً خاصاً في مدينة مهمة. وستكونين حرة وسعيدة.

كانت رؤية جديدة وغير متوقعة للمستقبل. ولكنها لم تعد تتحدث بالمقابل عن الدين الأصلي الذي كانت تفاصيله تتلوى وأقساطه تتعاظم كلما صارت حسابات التجارة أكثر تعقيداً. ومع ذلك، لم تطلق إريندرا أية زفرة تتيح للجدة لمح أفكارها. فقد انصاعت بصمت لعذاب سرير برك ملح البارود، في سبات قرى البحيرات، وفي الفوهة القمرية لمناجم مسحوق التالك، بينما الجدة ترتل رؤيا المستقبل كما لو أنها تحل رموز أوراق اللعب. وذات مساء، عند نهاية درب جبلي ضيق، شمتا روائح أشجار غار قديمة، وسمعتا نتف حوارات من جامايكا، وأحستا بلهفة إلى

الحياة، وبعقدة فـي القلب، وكـان أن وصلتا إلى البحر.

وقالت الجدة مستنشقة نـور الكـاريبي البلوري بعد نـصف حيـاة من المنفى:

ـ ها هو أمامك. ألا يروقك؟

ـ بلى، يا جدتي.

وهناك نصبتا الخيمة. أمضت الجدة الليل وهي تتكلم دون حلم، وتخلط أحياناً حنينها إلى الماضي برؤيا المستقبل. نامت إلى وقت متأخر عن عادتها، واستيقظت مطمئنـة على هـدير البحـر. ومـع ذلـك، بينمـا كانـت إرينـديرا تـساعدها علـى الاسـتحمام، عـادت إلى التنبـؤ لهـا بالمستقبل، وكانت بصيرة محمومة بدت كأنها هذيان سهر.

ـ ستكونين مالكة إقطاعية ـ قالت لها ـ. سيدة سلالة موقرة من رعاياك، ومرضيّ عنها ومكرمة مـن أعلـى الـسلطات. وسيرسـل إليـك قباطنة السفن بطاقات بريدية من كل موانئ العالم.

لم تكن إرينديرا تسمعها. كان الماء الفاتر المعطر بالزعتر يتدفق إلى الحوض عبر قناة تُغذى مـن الخـارج. وكانـت إرينـديرا تلتقط المـاء النازل بقرعة، بتكتم، ودون تنفس تقريباً، وتسكب الماء على الجدة بيد بينما اليد الأخرى تفركها بالصابون.

ـ ستطير سمعة منزلك من فم إلى فم، من حزام جزر الانتيل حتـى الممالك الهولندية ـ كانت الجدة تقول ـ. وسيكون منزلك أهم من دار الرئاسة، ففيه ستناقش قضايا الحكومة، ويُقرر مستقبل الأمة.

وفجأة، انقطع الماء في القناة. فخرجت إرينديرا من الخيمة لـترى مـا الـذي حدث، ورأت أن الهنـدي المكلـف بـسكب المـاء فــي القنـاة منهمك بقطع الخشب فـي المطبخ.

ـ انتهى ـ قال الهندي ـ يجب تبريد المزيد من الماء.

توجهت إرينديرا إلى الموقد، حيث كانت تغلي قدر كبيرة أخرى مع أوراق عطرية. لفت يديها بخرقة، وتأكـدت مـن أنهـا تـستطيع رفـع القدر دون مساعدة الهندي.

ـ انصرف أنت ـ قالت له ـ سأتولى أنا سكب الماء.

انتظرت إلى أن خرج الهندي من المطبخ. وأزاحت القدر الغالي عن النار، ورفعته بمشقة إلى مستوى القناة، وكانت على وشك أن تسكب الماء القاتل في مجرى الحوض عندما صاحت الجدة من داخل الخيمة:

ـ إرينديرا!

بدا ذلك كما لو أنها قد رأتها. وأحست الحفيدة التي أفزعتها الصرخة بالندم في اللحظة الأخيرة.

ـ ها أنا آتية، يا جدتي ـ قالت ـ، إني أبرد لك الماء.

ظلت في تلك الليلة تفكر حتى وقت متأخر، بينما كانت الجدة تغني وهي نائمة بصدارها المحشو بالذهب. تأملتها إرينديرا من سريرها بعينين حادتين كأنهما عينا هر في الظلام. ثم استلقت بعد ذلك كغريق، بذراعيها فوق الصدر، وبعينين مفتوحتين، ونادت بكل قوة صوتها الداخلي:

ـ أوليسيس.

استيقظ أوليسيس فجأة في منزل بيارة البرتقال. لقد سمع صوت إرينديرا بوضوح، حتى إنه بحث عنها في عتمة الحجرة. وبعد لحظة تفكير، لف ثيابه وحذاءه في لفافة وغادر الغرفة. وكان قد اجتاز الشرفة الخارجية عندما فاجأه صوت أبيه:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

رآه أوليسيس وقد أضاءه القمر بالزرقة.

ـ إلى العالم ـ أجاب.

ـ لن أمنعك هذه المرة ـ قال الهولندي ـ. ولكني أنبهك إلى أمر: أينما ذهبت ستظل لعنة أبيك تلاحقك.

ـ فليكن ـ قال أوليسيس.

فوجئ الهولندي، بل شعر كذلك بشيء من الفخر بتصميم ابنه، وتابعه عبر بيارة البرتقال المضاءة بالقمر بنظرة أخذت تتحول

شيئاً فشيئاً إلى ابتسامه. وكانت زوجته تقف وراءه بطريقتها كهندية جميلة. وتكلم الهولندي بعد أن أغلق أوليسيس البوابة الخارجية.

- سيعود - قال - سيرجع وقد أذلته الحياة بأسرع مما تظنين.

- أنت قاس جداً - تنهدت الزوجة -. لن يعود أبداً.

لم يكن أوليسيس، في هذه المرة، بحاجة لأن يسأل أحداً عن الاتجاه المؤدي إلى إرينديرا. اجتاز الصحراء مختبئاً في شاحنات عابرة، يسرق ليأكل وينام، ويسرق في أحيان كثيرة لمجرد المتعة في المجازفة، إلى أن وجد الخيمة الكبيرة في قرية بحرية أخرى، تُرى منها الأبنية الزجاجية لمدينة مضيئة، ويتردد فيها صفير الوداع الليلي من المراكب المنطلقة إلى جزيرة آوربا. كانت إرينديرا نائمة، مقيدة إلى عارضة السرير، في وضعية الغريق المنساق مع التيار التي كانت عليها حين نادته. ظل أوليسيس يتأملها وقتاً طويلاً دون أن يوقظها، ولكنه تأملها بزخم جعل إرينديرا تستيقظ. عندئذ تبادلا القبلات في الظلام، وتداعبا دون تسرع، وتعريا حتى الإنهاك، بحنان صامت وسعادة مكتومة يشبهان الحب أكثر من أي وقت آخر.

وفي أقصى الجانب الآخر من الخيمة، انقلبت الجدة النائمة بحركة مهيبة وبدأت تهذي:

- كان ذلك في الزمن الذي جاءت فيه السفينة اليونانية - قالت -. وكانوا بحارة مجانين يُسعدون النساء ولا يدفعون لهن نقوداً وإنما إسفنجاً حياً يمشي بعد ذلك في البيوت، ويئن كمرضى في مستشفى، ويجعل الأطفال يبكون ليشرب دموعهم.

استوت بحركة تحت أرضية وجلست في السرير.

- عندئذ جاء هو، رباه! - صرخت - أقوى، وأضخم، وأكثر رجولة بكثير من أماديس.

وأوليسيس الذي لم يكن يولي اهتماماً حتى ذلك الوقت إلى

الهذيان، حاول الاختباء عندما رأى الجدة جالسة في سريرها. فطمأنته إريندبرا.

ـ اهدأ ـ قالت له ـ فهي كلما وصلت إلى هذا الجزء، تجلس في السرير، ولكنها لا تستيقظ.

استلقى أوليسيس مستنداً إلى كتفها.

ـ كنتُ في تلك الليلة أغني مع البحارة، وظننت أن هناك هزة أرضية ـ تابعت الجدة ـ ولا بد أن الجميع ظنوا الشيء نفسه، لأنهم هربوا مطلقين الصرخات وهم يكادون يموتون من الضحك، وظل هو وحده تحت عريشة أزهار الاستروميليا. أذكر ذلك كما لو أنه حدث بالأمس، وكنت أغني الأغنية التي كان يغنيها الجميع في تلك الأزمنة. حتى الببغاوات في باحات البيوت كانت تغنيها.

ودون أي إشعار، مثلما يمكن الغناء في الأحلام فقط، غنت سطري مرارتها:

رباه، رباه، رد لي براءتي القديمة

لأستمتع مرة أخرى بحبه من البداية.

عندئذ فقط اهتم أوليسيس بمشاعر حنين الجدة .

ـ كان هناك ـ قالت ـ، وعلى كتفه ببغاء، وبندقية لقتل أكلة لحوم البشر، مثلما وصل غواتارال إلى غوايانا، وشعرتُ بأنفاس الموت تنبعث منه عندما انتصب أمامي وقال لي: جبتُ العالم مئة مرة، ورأيت كل النساء من كل الأمم، وأمتلك الأهلية لأن أقول لك إنك الأكثر شموخاً، والأوسع خدمة، والأجمل على الأرض.

استلقت من جديد وانتحبت على الوسادة. ظل أوليسيس وإريندبرا صامتين لوقت طويل، يهدهدهما في العتمة تنفس العجوز النائمة الهائل. وفجأة، سألت إريندبرا دون أدنى انكسار في صوتها:

ـ هل تجرؤ على قتلها؟

لم يعرف أوليسيس الذي فوجئ بماذا يجيب.

ـ من يدري ـ قال ـ وهل تجرئين أنت؟

ـ لا أستطيع ـ قالت إريندیرا ـ، لأنها جدتي.

عندئذ تفحص أوليسيس الجسم الضخم النائم مرة أخرى، كما لو أنه يقدّر كمية الحياة فيه، وحسم أمره:

ـ أنا قادر على كل شيء من أجلك.

❖ ❖ ❖

اشترى أوليسيس ليبرة من سمّ الجرذان، وخلطه بقشدة الحليب ومربى التوت البري، وصب تلك الكريما القاتلة في قالب حلوى كان قد أفرغه من حشوته الأصلية. ثم غطاه بعد ذلك بكريم أشد كثافة، وسواه بملعقة إلى أن لم يعد هناك أي أثر للمكيدة الفظيعة، وأكمل خدعته باثنتين وسبعين شمعة وردية.

نهضت الجدة عن عرشها وهي تهز عكازها المتوعد عندما رأته يدخل الخيمة ومعه قالب حلوى الاحتفال.

ـ يا لك من وقح ـ صرخت به ـ كيف تجرؤ على وضع قدمك في هذا البيت!

اختبأ أوليسيس خلف وجهه الملائكي.

ـ إنني آت لأعتذر منك ـ قال ـ، فاليوم هو عيد ميلادك.

وجدت الجدة نفسها عزلاء حيال كذبته الصائبة، فأمرت بإعداد المائدة كما لو أنها لعشاء زفاف. أجلست أوليسيس إلى يمينها، بينما كانت إريندیرا تقوم على خدمتهما. وبعد أن أطفأت الشموع بنفخة متحشرجة، قطعت قالب الحلوى إلى قطع متساوية. وقدمت لأوليسيس واحدة منها.

ـ الرجل الذي يعرف كيف يكسب العفو، يكون قد ربح نصف السماء ـ قالت ـ أقدم إليك القطعة الأولى التي هي رمز السعادة.

ـ أنا لا أحب الحلوى ـ قال ـ وأتمنى لك شهية طيبة.

قدمت الجدة قطعة أخرى من الحلوى لإريندیرا. فحملتها هذه إلى المطبخ، وألقت بها في صندوق القمامة.

أكلت الجدة وحدها كل ما تبقى. كانت تدس القطع كاملة

فـي فمهـا وتبتلعهـا دون مـضغها، وهـي تتـأوه مـن اللـذة، وتنظـر إلى أوليسيس من حيادية متعتها. وعندما لم يبق شيء فـي طبقهـا، أكلت كـذلك القطعـة الـتي رفـضها أوليـسيس. وبينمـا هـي تمـضغ القطعـة الأخـيرة، راحـت تلـتقط الفتـات عـن الـشرسف بأصـابعها وتدسـه فـي فمها.

لقد أكلت زرنيخاً يكفـي لإبادة جيل كامل مـن الجـرذان. ومـع ذلـك، عزفـت علـى البيـانو وغنـت حتـى منتصف الليـل، واسـتلقت فـي فراشها سعيدة، ونامت نوماً طبيعياً. وكانت العلامة الوحيدة الجديدة هي أثر من الوعورة فـي تنفسها.

كـانـت إرينـديرا وأوليـسيس يراقبانهـا مـن الـسرير الآخـر، ولا ينتظران إلا الحشرجة الأخيرة. ولكـن الـصوت كـان حيويـاً كـالعـادة عندما بدأت تهذي.

ـ لقد أصابني بالجنون، رباه! لقد سبب لـي الجنـون! ـ صـاحت ـ. كنت أضع رتاجين لبـاب مخدعي كـيلا يـدخل، وأضـع خـوان الزينـة والمنـضدة وراء البـاب، والكراسـي فـوق المنـضدة. وكـان يكفـي أن يطـرق طرقـة خفـيفة بخاتمـه كـي تتهـاوى تلـك الحـواجز؛ فتنـزل الكراسي من تلقاء ذاتها عن المنضدة، وينـزاح خـوان الزينـة والمنـضدة من تلقـاء نفسيهما، ويخـرج لـساني المزلاجين مـن حلقتيهمـا مـن تلقـاء نفسيهما.

كـان أوليـسس وإرينـديرا يتأملانهـا بـذهول متزايـد مـع تعمـق هذيانها وتحوله أكثر درامية، وصوتها أكثر حميمية.

ـ كنـت أشـعر بـأني سـأموت، وكنـت مبللـة بعـرق الخـوف وأنـا أتضرع فـي أعماقي أن ينفتح الباب دون أن ينفتح، وأن يـدخل إلـيّ دون أن يـدخل، وألا يـذهب أبـداً ولكـن ألا يعـود أبـداً كـذلك، كـي لا أكون مضطرة إلى قتله.

وواصلت إعادة فصول مأساتها طوال عدة ساعات، بمـا فـي ذلـك أدق تفاصيلها حميمية، كما لو أنها عـادت تعيشها فـي حلمهـا. وقبل

الفجر بقليل تقلبت في فراشها بحثاً عن الراحة بحركة زلزالية، وانكسر صوتها مع اقترابها من النحيب. وصرخت:

- لقد حذرته، فضحك. وأعدت تحذيره وعاد إلى الضحك، إلى أن فتح عينيه المذعورتين قائلاً: «آه، يا مليكتي! آه، يا مليكتي!» ولم يخرج صوته من فمه، بل من جرح عنقه المطعون بالسكين.

ارتعش أوليسيس مذعوراً من استذكار الجدة الرهيب، وتمسك بيد إريندira.

- عجوز قاتلة! - هتف.

لم توليه إريندira اهتماماً، لأن الفجر يبدأ يبزغ في تلك اللحظة. ودقت الساعات معلنة الخامسة.

- انصرف! سوف تستيقظ الآن - قالت إريندira.

- إنها حية أكثر من فيل - هتف أوليسيس -، هذا غير ممكن!

فاخترقته إريندira بنظرة قاتلة وقالت:

- كل ما هنالك أنك لا تنفع في قتل أحد.

تأثر أوليسيس جداً من قسوة التوبيخ، حتى إنه انطلق خارجاً من الخيمة. وتابعت إريندira مراقبة الجدة النائمة، بحقدها السري وغضب الإحباط، مع تقدم الفجر واستيقاظ هواء العصافير. عندئذ فتحت الجدة عينيها ونظرت إليها بابتسامة هادئة.

- ليحفظك الله، يا بنتي.

وكان التبدل الوحيد البارز هو بداية فوضى في العادات اليومية. كان اليوم هو الأربعاء، ولكن الجدة أرادت ارتداء ثوب يوم الأحد، وقررت ألا تستقبل إريندira أي زبون قبل الحادية عشرة، وطلبت منها أن تطلي لها أظافرها بالأحمر، وتسرح لها شعرها تسريحة بابوية.

- لم أشعر قط بمثل هذه الرغبة في التقاط صورة لي - هتفت.

بدأت إريندira بتسريح شعر الجدة، ولكن ما إن بدأت تمرر مشط التسليك حتى خرجت خصلة شعر كبيرة عالقة بين أسنانه. أرتها بذعر لجدتها. تفحصتها هذه، وشدت خصلة أخرى بأصابعها،

فخرجت في يدها قبضة من الشعر. ألقت بها إلى الأرض، وجريت مرة أخرى، فانتزعت خصلة أكبر. عندئذ راحت تنتزع الشعر بكلتا يديها وهي تكاد تموت من الضحك، وترمي حفنات منه في الهواء بابتهاج لا يمكن تفسيره، إلى أن صار رأسها مثل جوزة هند مقشورة.

لم تحصل إرينديرا على أخبار عن أوليسيس إلا بعد أسبوعين من ذلك، عندما سمعت خارج الخيمة نداء البوم. كانت الجدة قد بدأت العزف على البيانو، وكانت مستغرقة في حنينها إلى حدّ غابت معه عن الواقع. وكانت تضع على رأسها باروكة ريش متوهج.

استجابت إرينديرا للنداء، وعندئذ فقط اكتشفت الفتيل الصاعق الذي يخرج من صندوق البيانو ويمتد بين الشجيرات، ويختفي في الظلام. ركضت إلى حيث كان أوليسيس، واختبأت إلى جانبه في الأجمة، ورأيا معاً بقلبين مثقلين بالضيق، شعلة اللهب الصغيرة الزرقاء تمضي على طول الفتيل الصاعق، وتجتاز الحيز المظلم وتدخل إلى الخيمة.

ـ أغلقي أذنيك ـ قال أوليسيس.

أغلقا آذانهما معاً، دون حاجة إلى عمل ذلك، لأن الانفجار لم يحدث. أضيئت الخيمة من الداخل بوميض مشع، انفجر بصمت، واختفى في دخان بارود رطب. وعندما تجرأت إرينديرا على الدخول، معتقدة أن الجدة قد ماتت، وجدتها ببروكتها المحروقة الأطراف، وقميصها الممزق، ولكنها مفعمة بالحياة أكثر من أي وقت مضى، وكانت تحاول إطفاء النار ببطانية.

انسل أوليسيس متوارياً وسط جلبة الهنود الذين لم يعرفوا ما عليهم عمله، وقد أربكتهم أوامر الجدة المتناقضة. وعندما تمكنوا أخيراً من السيطرة على ألسنة اللهب وتبديد الدخان، وجدوا أنفسهم أمام مشهد غرق.

ـ يبدو أنه من عمل الشيطان ـ قالت الجدة ـ فالبيانويات لا تنفجر مصادفة.

وفكرت في كل أنواع الاحتمالات لتتوصل إلى سبب الكارثة الجديدة، لكن تهرب إرينديرا، وموقفها السلبي أدى إلى تضليلها. ولم تجد أدنى ثغرة في سلوك حفيدتها، بل إنها لم تتذكر وجود أوليسيس. وظلت مستيقظة حتى الفجر، تغزل الافتراضات، وتحسب الخسائر. نامت قليلاً وبصورة سيئة. وفي صباح اليوم التالي، حين نزعت عنها إرينديرا صدار سبائك الذهب، وجدت فقاعات حروق على كتفيها، وصدرها مسلوخ. «لهذا السبب كنت أتقلب في نومي - قالت بينما إرنديرا تضع لها زلال البيض على حروقها، ثم أضافت - : وقد رأيت، فوق ذلك، حلماً غريباً». بذلت جهداً في التركيز لتستحضر الصورة، إلى أن رأتها واضحة في ذاكرتها مثلما رأتها في حلمها.

- كان طاووساً في أرجوحة نوم بيضاء - قالت.

فوجئت إرينديرا، ولكنها استعادت على الفور ملامحها المعهودة.

- إنه فأل خير - كذبت - فطواويس الأحلام حيوانات حياة مديدة.

- ليسمع الله منك - قالت الجدة -، لأننا عدنا مرة أخرى إلى البداية، وعلينا أن نبدأ من جديد.

لم تتأثر إرينديرا. خرجت حاملة طست الكمادات، وتركت الجدة وجذعها مضمخ بزلال البيض ورأسها مطلي بالخردل. وكانت تسكب مزيداً من زلال البيض في الطست، تحت عريش من السعف تُستخدم كمطبخ، عندما رأت عيني أوليسيس تظهران من وراء الموقد مثلما رأتهما أول مرة وراء فراشها. لم تفاجأ، بل قالت له بصوت متعب:

- الشيء الوحيد الذي توصلتَ إليه هو زيادة ديوني.

تعكرت عينا أوليسيس بالجزع. وظل دون حراك، ينظر إلى إرينديرا بصمت، يراها تكسر البيض بملامح ثابتة، ملامح ازدراء مطلق، كما لو أنه غير موجود. وبعد لحظات، تحركت العينان، استعرضتا أشياء المطبخ، والقدور المعلقة، وقلائد الأتشيوتي المجففة، والأطباق، وسكين التقطيع. اعتدل أوليسيس دون أن يقول شيئاً، ودخل تحت العريش، وانتزع السكين من موضعها.

لم تلتفت إريندريا لتراه، ولكنها في اللحظة التي غادر فيها أوليسيس العريش، قالت له بصوت خافت جداً:

- كن حذراً، فقد رأت إشعاراً بموتها. لقد حلمت بطاووس في أرجوحة نوم بيضاء.

رأت الجدة دخول أوليسيس حاملاً السكين، فنهضت ببذل أقصى جهد دون الاستعانة بالعكاز، ورفعت ذراعيها.

- يا فتى! - صرخت - لقد جننت.

انقض أوليسيس عليها، ووجه إليها طعنة صائبة في صدرها العاري. تأوهت الجدة، انقضت عليه، وحاولت خنقه بذراعي الدب القويتين اللتين لها.

- يا ابن العاهرة - زمجرت - لقد أدركتُ بعد فوات الأوان أن لك وجه ملاك خائن.

ولم تستطع قول شيء آخر، لأن أوليسيس تمكن من تحرير يده التي تمسك السكين، ووجه إليها طعنة ثانية في الخصر. أطلقت الجدة أنّة مكتومة، واحتضنت المعتدي بقوة أكبر. وجه أوليسيس ضربة ثالثة، دون رحمة، فلطخ وجهه الدم المتدفق بضغط عال: كان دماً زيتياً، لامعاً، أخضر، مثل عسل النعناع.

ظهرت إريندريا عند المدخل حاملة الطست بيدها، وراقبت الصراع بسلبية إجرامية.

تشبثت الجدة الضخمة، وهي تزمجر من الألم والغضب، بجسد أوليسيس. كان ذراعاها وساقاها، وحتى رأسها الأجرد، كلها خضراء بالدم. وأنفاسها الهائلة ككير تهيمن على الجو كله، وقد أصابتها الحشرجات الأولى باضطراب. تمكن أوليسيس من تحرير يده المسلحة مرة أخرى، وفتح شقاً في بطنها، فضمخه تفجر الدم الأخضر حتى قدميه. حاولت الجدة استنشاق الهواء الذي بدأ ينقصها للحياة، وانهارت على وجهها. أفلت أوليسيس نفسه من ذراعيها مستنفداً، ودون أن يمنح نفسه لحظة هدنة واحدة، وجه إلى الجسد الضخم الطعنة القاضية.

عندئذ وضعت إرنيديرا الطست على منضدة، وانحنت على الجدة، تفحصتها دون أن تلمسها. وعندما أيقنت أنها قد ماتت، اكتسب وجهها فجأة كل ملامح نضج شخص بالغ لم توفرها لها سنوات شقائها العشرين. وبحركات سريعة ودقيقة، تناولت صدار سبائك الذهب وخرجت من الخيمة.

ظل أوليسيس جالساً بجانب الجثة مستنفداً من العراك، وكلما حاول تنظيف وجهه كان يزداد تلوثاً بتلك المادة الخضراء والحية التي بدت كأنها تتدفق من أصابعه. ولم يدرك الوضع الذي هو فيه إلا عندما رأى خروج إرينديرا ومعها صدار الذهب.

ناداها صارخاً، لكنه لم يتلق أي ردّ. زحف حتى مدخل الخيمة، ورأى أن إرينديرا قد بدأت تركض على الشاطئ في اتجاه معاكس لاتجاه المدينة. بذل عندئذ مجهوداً أخيراً ليلحق بها، منادياً إياها بصرخات ممزقة لم تعد نداءات عاشق وإنما نداءات ابن، ولكن تغلب عليه الإنهاك الرهيب بقتله امرأة دون مساعدة من أحد. أدركه هنود الجدة مطروحاً على بطنه عند الشاطئ، وكان يبكي من الوحدة والخوف.

لم تكن إرينديرا قد سمعته. كانت تركض عكس الريح، أسرع من غزال، ولم يكن باستطاعة أي صوت من هذا العالم أن يوقفها. مرت راكضة دون أن تدير رأسها عبر بخار برك ملح البارود المتوقد، وعبر فوهات مناجم مسحوق التالك، وعبر سبات أكواخ المستنقعات، إلى أن انتهت علوم البحر الطبيعية وبدأت الصحراء، ولكنها واصلت الركض بصدار سبائك الذهب إلى ما وراء الرياح القاحلة والأمسيات التي بلا نهاية، ولم يعد يُعرف عنها أي خبر، ولم يعثر أدنى أثر لمحنتها

اثنتا عشرة قصة قصيرة مهاجرة

DOCE CUENTOS PEREGRINOS

مقدمة

لماذا اثنتا عشرة
ولماذا قصص قصيرة
ولماذا مهاجرة

الاثنتا عشرة قصة التي يضمها هذا الكتاب كُتبت على امتداد الثمانية عشر عاماً الماضية. وقبل أن تتخذ شكلها الحالي، ظهرت خمس منها كمقالات صحفية وسيناريوهات سينمائية، وواحدة كمسلسل تلفزيوني، وهناك واحدة أخرى كنت قد رويتها قبل خمسة عشر عاماً في مقابلة مسجلة، وقد أعاد كتابتها الصديق الذي رويتها له ونشرها، وها أنذا أعود الآن إلى كتابتها استناداً إلى تلك الرواية. لقد كانت ولادة هذا الكتاب تجربة إبداعية غريبة تستحق الشرح، حتى ولو كان ذلك لجعل الأطفال الذين يريدون أن يصبحوا كتّاباً حين يكبرون، يعرفون منذ الآن كم هو إدمان الكتابة شره وحكاك.

الفكرة الأولى خطرت لي في بداية السبعينات، بمناسبة حلم مضيء حلمت به بعد خمس سنوات من العيش في برشلونة. حلمت أنني أحضر مأتمي بالذات، وأنني أقف على قدمي، وأمشي بين جماعة من الأصدقاء يرتدون ملابس الحداد الوقورة، ولكن بحماسة احتفالية. وجميعنا كنا نبدو سعداء باجتماعنا معاً. وكنت سعيداً أكثر من الجميع بتلك الفرصة السارة التي منحتنى إياها الموت للقاء أصدقائي من أمريكا اللاتينية.. أقدم الأصدقاء وأحبهم إلى نفسي، ممن لم أرهم منذ زمن طويل. وبعد انتهاء المراسم، حين بدؤوا

بالانصراف، حاولت مرافقتهم، لكن واحداً منهم جعلني أرى بقسوة حاسمة أن الحفلة بالنسبة إليّ قد انتهت. فقد قال لي: «أنت الوحيد الذي لا يستطيع الانصراف من هنا». وعندئذ فقط أدركت أن الموت يعني عدم اللقاء مع الأصدقاء إلى الأبد.

لست أدري لماذا فسَّرت ذلك الحلم النموذجي على أنه وعي لهويتي، وفكرت في أنه نقطة بداية طيبة للكتابة عن أشياء غريبة تحدث للأمريكيين اللاتينيين في أوروبا. وكانت تلك لقية مشجعة، لأني كنت قد انتهيت قبل فترة قصيرة من ***خريف البطريرك***، أشد أعمالي صعوبة ومخاطرة، ولم أكن أجد ما أبدأ به.

وعلى امتداد سنتين، رحت أسجل ملاحظات عن موضوعات كانت تخطر لي دون أن أقرر ما الذي سأفعله بها. ولأني لم أكن أملك في البيت دفتر ملاحظات في الليلة التي قررت فيها البدء بتدوين ملاحظاتي، فقد أعارني ابناي دفتراً مدرسياً. وكانا يحملانه في حقائب كتبهما خلال رحلاتنا الكثيرة، خشية فقدانه. وقد توصلت إلى تدوين أربعة وستين موضوعاً تتضمن تفاصيل كثيرة، ولم يكن ينقصني إلا كتابتها النهائية.

ذهبت إلى مكسيكو بعد عودتي من برشلونة عام 1974، وهناك اتضح لي أن هذا الكتاب يجب ألا يكون رواية، مثلما خيل إليّ في البداية، وإنما مجموعة قصص قصيرة، تستند إلى وقائع صحفية، ولكنها متحررة من شرطها الأخلاقي بحيل شعرية. كنت قد كتبت حتى ذلك الحين ثلاث مجموعات قصصية. ومع ذلك، فإن أياً من الكتب الثلاثة لم يكن معتبراً ومحسوماً كوحدة متكاملة، بل كانت كل قصة تشكل قطعة عرضية وقائمة بذاتها. وهكذا بدا لي أنه يمكن لكتابة القصص الأربع والستين أن تكون مغامرة أخاذة، إذا استطعت أن أكتبها كلها بالخط نفسه، وبوحدة داخلية في الإيقاع والأسلوب تجعل منها كلاً لا يتجزأ في ذاكرة القارئ.

كتبتُ القصتين الأوليين ـ ***أثر دمك على الثلج*** ***والصيف السعيد***

للسيدة فورييس ـ سنة 1976، ونشرتهما على الفور في ملاحق صحفية أدبية في عدة بلدان. لم أسترح يوماً واحداً أثناء ذلك، ولكنني في منتصف القصة الثالثة، وهي قصة جنازتي في الواقع، أحسست بأنني أرهق نفسي أكثر مما أرهقها لو كنت أكتب رواية. وقد حدث لي الشيء نفسه في القصة الرابعة، وبلغ الأمر حداً فقدت معه الحماسة على إكمالها. الآن عرفت السبب: فالجهد المبذول في كتابة قصة قصيرة لا يقل زخماً عن الجهد المبذول للبدء في كتابة رواية. ففي الفقرة الأولى من الرواية يجب تحديد كل شيء: البناء، النبرة، الأسلوب، الإيقاع، الطول، وحتى طابع بعض الشخصيات أحياناً. ولا يبقى بعد ذلك إلا متعة الكتابة، أكثر المتع التي يمكن تصورها حميمية وتفرداً. وإذا كان أحدنا لا يقضي كل ما تبقى من حياته في تنقيح الكتاب نفسه، فما ذلك إلا لأن الصرامة الحديدية نفسها التي نحتاج إليها للبدء بالكتاب، تفرض علينا أن ننهيه. أما القصة القصيرة، فليس لها بالمقابل بداية ولا نهاية: فإما أن تتشكل أو لا تتشكل. فإذا لم تتشكل، فإن التجربة الذاتية وتجارب الآخرين تعلمنا أن الطريقة الأكثر صحة في معظم الأحيان هي البدء بها من جديد عبر طريق آخر، أو الإلقاء بها إلى القمامة، وهذا ما قاله بعبارة مواسية شخص لا أذكر اسمه: «من الأفضل تقويم الكاتب الجيد بالنظر إلى ما مزقه وليس ما نشره». صحيح أنني لم أمزق تلك المسودات والملاحظات، ولكنني فعلت ما هو أسوأ من ذلك: ألقيت بها إلى النسيان.

أذكر أن الدفتر كان موجوداً حتى عام 1978 على طاولة عملي في مكسيكو، الغارقة بعاصفة من الأوراق. وفي أحد الأيام، بينما أنا أبحث عن شيء آخر، انتبهت إلى أن ذلك الدفتر قد اختفى عن ناظري منذ مدة طويلة. لم أهتم بالأمر. ولكنني حين أيقنت أنه غير موجود فعلاً على المنضدة، أُصبت بنوبة ذعر. لم يبق مكان في البيت إلا وخضع لتفتيش دقيق. حركنا الأثاث من أماكنه، أفرغنا المكتبة للتأكد من أنه لم يسقط وراء الكتب، وأخضعنا الخدم والأصدقاء

لتحقيق لا يُغتفر، ولكننا لم نعثر له على أثر. وكان التفسير الوحيد الممكن ـ أو المقبول؟ ـ هو أن الدفتر قد ذهب إلى صندوق القمامة في إحدى حملات إتلاف الأوراق التي أقوم بها بكثرة.

لقد فاجأني ردّ فعلي ذاته: فالموضوعات التي كنت قد نسيتها طوال ربع قرن تقريباً، تحولت في نظري إلى قضية شرف. وفي محاولة استعادتها بأي ثمن، في عملٍ مضنٍ ككتابتها، تمكنت من إعادة بناء ملاحظات ثلاثين موضوعاً منها. ولأن الجهد الذي بذلته في تذكرها كان له مفعول المُطهِّر، فقد رحت أصفي منها، دون رحمة، كل ما بدا لي إنقاذه غير ممكن؛ حتى بقي لدي ثمانية عشر موضوعاً. وكان يحدوني عندئذ تصميمي على مواصلة كتابتها دون توقف، ولكنني ما لبثت أن لاحظت أنني أفقد الاهتمام بها. ومع ذلك، وعلى النقيض مما كنت أنصح به الكتّاب الجدد دائماً، لم ألق بها إلى القمامة، بل عدت إلى حفظها من جديد. فلعل وعسى.

عندما بدأت كتابة ***قصة موت معلن***، سنة 1979، تبين لي أنني أفقد مرونة الكتابة في الاستراحة بين كتابين، وأنني أجد مشقة أكبر فأكبر في البدء من جديد. ولهذا، فرضت على نفسي ما بين تشرين الأول 1980 وآذار 1984، مهمة كتابة مقالة صحفية أسبوعية، كانت تُنشر في صحف بلدان عديدة، وذلك كنظام انضباطي للحفاظ على سخونة يدي. وعندئذ خطر لي أن خلافي مع ملاحظاتي المدونة في الدفتر ما زال مسألة أجناس أدبية، ورأيت أن تلك الملاحظات يجب ألا تكون في الواقع قصصاً قصيرة، وإنما مقالات صحفية. ولكنني بعد نشر خمس ملاحظات مأخوذة من الدفتر، بدلت رأيي ثانية: إنها مناسبة أكثر للسينما. وكان أن صُنع منها أيضاً خمسة أفلام سينمائية ومسلسل تلفزيوني.

ما لم أدركه مسبقاً هو أن العمل في الصحافة والسينما سيُدخل بعض التغييرات على أفكاري حول القصة القصيرة، حتى إنني اضطررت وأنا أكتبها الآن في شكلها النهائي، إلى الانتباه

الدقيق كي أفصل بملقط صغير بين أفكاري والأفكار التي أضافها المخرجون عند كتابة السيناريوهات. ثم إن العمل مع خمسة مخرجين مختلفين أوحى إليَّ بطريقة أخرى لكتابة القصص القصيرة: أبدأ إحداها عندما يكون لدي وقت فراغ، وأهجرها عندما أشعر بالتعب، أو عندما يبرز لي مشروع طارئ، ثم أعود لأبدأ من جديد. وبعد أكثر من سنة بقليل، انتهت ستة موضوعات من الثمانية عشر موضوعاً إلى سلة المهملات، وكان بينها موضوع جنازتي، لأنني لم أستطع مطلقاً أن أحوّل الجنازة إلى حفلة صاخبة كتلك التي رأيتها في الحلم. أما القصص الأخرى، فبدت لي بالمقابل كأنها أخذت نفساً لحياة طويلة.

إنها قصص هذا الكتاب الاثنتا عشرة. وقد كانت في شهر أيلول الماضي جاهزة للنشر، بعد سنتين أخريين من العمل المتواصل. وكان يمكن لها بذلك أن تنهي رحيلها المتواصل، ذهاباً وإياباً، إلى صندوق القمامة، لو لم تنهشني في اللحظة الأخيرة شكوك أخيرة. ذلك أنني وصفت المدن الأوروبية المختلفة التي تدور فيها أحداث القصص معتمداً على ذاكرتي، وعن بعد. وقد أردت التأكد من أمانة ذكرياتي بعد مرور نحو عشرين سنة، فقمت برحلة سريعة للتعرف مجدداً على برشلونة وجنيف وروما وباريس.

لم تكن لأي واحدة من هذه المدن أية علاقة بذكرياتي عنها. فجميعها، مثل أوروبا الحالية كلها، كانت مخلخلة في انقلاب مذهل: بدت لي ذكرياتي الواقعية أوهاماً من الذاكرة، بينما كانت الذكريات المزيفة مقنعة لدرجة أنها حلت محل الواقع. ولم أستطع بالتالي تمييز الخط الفاصل بين خيبة الأمل والحنين. كان ذلك هو الحل النهائي. فقد وجدت أخيراً ما كان ينقصني لكي أنهي الكتاب، وهو الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يمنحني إياه إلا انقضاء السنوات: إنه منظور الزمن.

وبعد عودتي من تلك الرحلة الموفقة، أعدتُ كتابة جميع القصص من البداية، في ثمانية أشهر محمومة لم يكن عليّ أن أسأل نفسي

خلالها أين تنتهي الحياة وأين يبدأ الخيال، لأن الشك بأنه ربما لا يكون هناك شيء صحيح مما عشته قبل عشرين سنة في أوروبا كان يساعدني. وأصبحت الكتابة حينئذ سلسة لدرجة الإحساس أحياناً بأنني أكتب لمجرد المتعة في القص، وهي الحالة الإنسانية الأقرب إلى الطفو في الهواء. ولأنني عملت في جميع القصص دفعة واحدة، وكنت أقفز من واحدة إلى أخرى بحرية مطلقة، فقد توصلت إلى رؤية بانورامية أنقذتني من إرهاق البدايات المتتالية، وساعدتني على اصطياد حشو الفارغ وتناقضات قاتلة. وأظن أني توصلت بذلك إلى تأليف كتاب القصص القصيرة الأقرب إلى ما رغبت في كتابته دائماً.

وهاهو ذا، جاهز لحمله إلى المنضدة بعد كثير من التجوال طولاً وعرضاً، يناضل لتجاوز انحرافات عدم اليقين. القصص كلها، باستثناء القصتين الأولين، انتهت في الوقت نفسه، وكل واحدة منها تحمل التاريخ الذي بدأتُ فيه كتابتها. والترتيب الذي ترد فيه، في هذه الطبعة، هو الترتيب الذي كانت عليه في دفتر الملاحظات.

لقد كنت أعتقد على الدوام بأن كل نسخة من القصة هي أفضل من سابقتها. فكيف يمكن إذاً معرفة أي نسخة هي الأخيرة؟ إنه سر من أسرار المهنة، لا ينصاع لقوانين العقل وإنما لسحر الغرائز، مثلما تعرف الطاهية متى يكون الحساء في أفضل حال. وعلى أي حال، ومن أجل التخلص من الشكوك، لن أعود إلى قراءتها، مثلما لم أعد قط إلى قراءة أي كتاب من كتبي، خوفاً من أشعر بالندم. من سيقرؤها سيعرف ما الذي سيفعله بها. ولحسن الحظ، فإن انتهاء هذه القصص الاثنتي عشرة المهاجرة إلى أن تُلقى في سلة المهملات، سيكون أشبه براحة العودة إلى البيت.

غابرييل غارسيا ماركيز

كارتاخينا دي إندياس، نيسان 1992

رحلة موفقة سيدي الرئيس

Buen viaje, señor presidente

كان جالساً على مقعد خشبي، تحت الأوراق الصفراء في الحديقة المقفرة، يتأمل البجعات المعفّرة، ويداه تستندان إلى الكرة الفضية في مقبض عكازه، وهو يفكر في الموت. عندما جاء إلى جنيف أول مرة، كانت البحيرة هادئة وصافية، وكانت هناك نوارس أليفة تدنو لتأكل من الأيدي، ونساء أجرة يشبهن أشباح السادسة مساء بتنانيرهن المصنوعة من الأورغنزة ومظلاتهن الحريرية. أما المرأة الوحيدة الممكنة الآن، على مدى الرؤية، فهي بائعة أزهار تقف على الرصيف المقفر. ولم يكن بإمكانه أن يصدق أن الزمن استطاع أن يُحدث مثل هذا الخراب، ليس في حياته وحسب، وإنما في العالم أيضاً.

لقد كان شخصاً آخر مجهولاً في مدينة المجهولين الشهيرين. يرتدي بدلة زرقاء داكنة تتخللها خطوط بيضاء، وصدرية من الحرير وقبعة قاسية كقبعات القضاة المتقاعدين. وله شارب متشامخ كفرسان العصور القديمة، وشعر كثيف لونه مائل إلى الزرقة، فيه تجعيدات رومنسية، ويدا عازف قيثارة، في بنصر اليسرى منهما خاتم أرمل، وعينان سعيدتان. الشيء الوحيد الذي كان يشي بحالته الصحية هو إرهاق بشرته. وبالرغم من ذلك، لا يزال يبدو متأنقاً كأمير وهو في الثالثة السبعين من العمر. ولكنه كان يشعر في ذلك الصباح بأنه بمنجى من أي نوع من أنواع الزهو. فقد خلّف وراءه، دون رجعة، سنوات المجد والسلطة، ولم يبق أمامه الآن إلا سنوات الموت.

لقد رجع إلى جنيف بعد حربين عالميتين، باحثاً عن إجابة حاسمة لألم لم يستطع أطباء المارتينيك أن يحددوا كنهه. وكان يتصور أن

الأمر لن يتطلب أكثر من خمسة عشر يوماً، ولكن ها هي ذي ستة أسابيع قد مضت في فحوصات مرهقة ونتائج مبهمة، ومازالت النهاية غير واضحة المعالم. كانوا يبحثون عن الداء في الكبد، في الكلية، في البنكرياس، في البروستات، حيث لم يكن. وبقي على تلك الحال حتى يوم الخميس الكريه ذاك، حيث حدد له أقل الأطباء الكثيرين الذين فحصوه شهرة، موعداً في الساعة التاسعة صباحاً، في قسم الأمراض العصبية.

كانت غرفة المكتب تبدو كأنها زنزانة رهبان، وكان الطبيب ضئيلاً وكئيباً، يده اليسرى ملفوفة بالجص بسبب كسر في الإبهام. وعندما أطفأ النور، ظهرت على اللوحة المضاءة صورة شعاعية لعمود فقري لم يعرف أنه عموده الفقري إلى أن أشار الطبيب بمؤشر إلى فقرتين ملتحمتين، تحت الخصر، وقال له:

ـ ألمك هنا.

لم يكن الأمر، في نظره بهذه البساطة. فقد كان ألمه محيراً ومتنقلاً. يبدو أحياناً أنه في الخاصرة اليسرى، وأحياناً في أسفل البطن، ويفاجئه في معظم الأحيان بوخز مباغت في أعلى الفخذ. أصغى الطبيب إليه بحيرة والمؤشر مثبت على اللوحة المضيئة، ثم قال له: «لهذا السبب ضلّلنا الداء طويلاً، ولكننا نعرف الآن أنه هنا». ثم وضع إصبعه على صدغه وقال مُحدداً:

ـ وإن كانت الدقة العلمية تقول، يا سيدي الرئيس، إن أصل الآلام جميعها هنا.

كان أسلوبه في الفحص السريري دراماتيكياً إلى الحد الذي جعل حُكمه الأخير يبدو حليماً: على الرئيس أن يخضع لعملية جراحية لا تخلو من مخاطرة. ولكن لا مفر منها. فسأله هذا الأخير عن نسبة المخاطرة، فلفه الطبيب العجوز بضوء من عدم اليقين حين قال له:

ـ لا يمكننا تحديد ذلك بدقة.

ثم بين له أنه إلى وقت قريب، كانت مخاطر الحوادث المميتة

كبيرة جداً، وأكبر منها مخاطر الإصابة بأنواع مختلفة من الشلل وبدرجات متفاوتة. ولكن مع تطور الطب خلال الحربين أصبحت هذه الأمور من الماضي. وانتهى إلى القول:

ـ اذهب وأنت مطمئن. جهز أمورك، وأخبرنا. ولكن يجب ألا تنسى أنك كلما أسرعت كان أفضل.

لم يكن بالصباح المناسب لهضم ذلك الخبر السيئ، خاصة وهو في الخلاء. كان قد خرج باكراً من الفندق، دون معطف، لأنه رأى شمساً ساطعة من النافذة، ومضى بخطواته المحسوبة من ***شمان دو بوسوليه***، حيث المستشفى، إلى ملجأ العشاق الاضطراريين في الحديقة الإنكليزية. وكان قد مضى عليه هناك أكثر من ساعة، وهو لا يفكر إلا في الموت، عندما بدأ الخريف. فقد تموجت مياه البحيرة مثل محيط هائج، وأفزعت ريحٌ مشاغبة طيور النورس، وأطاحت بآخر أوراق الشجر. نهض الرئيس، وقطف زهرة أقحوان من أحواض الحديقة العامة بدلاً من أن يشتريها من بائعة الأزهار، وثبتها في عروة سترته. ففاجأته البائعة قائلة:

ـ هذه الأزهار ليست ملكاً للرب أيها السيد. إنها ملك البلدية.

لم يلتفت إليها. وابتعد بخطوات خفيفة ممسكاً العكاز من منتصفه، وكان يُدوره أحياناً بظرافة شديدة الاستهتار. وعلى جسر مونت بلان، كانوا ينزعون على عجل أعلام الاتحاد التي تخفق بجنون مع الريح، وكانت النافورة الضعيفة المكللة بالزبد قد انطفأت قبل موعدها.

لم يتعرف الرئيس على مقهاه المعتاد على الرصيف، لأنهم انتزعوا قماش المظلة الخضراء، وكانت مقاهي الرصيف التي تزدهر في الصيف قد أُغلقت لتوها. أما في الصالة الداخلية، فكانت المصابيح مضاءة في عز النهار، وكان الرباعي الوتري يعزف أحد ألحان موزرت الأخيرة. تناول الرئيس عن الكونتوار جريدة من الرزمة المخصصة للزبائن، ثم علق قبعته وعكازه على المشجب، ووضع

نظارتـه ذات الإطـار الـذهبي ليقـرأ علـى أبعـد منـضدة فـي المقهـى، وحينئـذ فقـد أدرك أن الخريـف قـد أتـى. بـدأ بقـراءة صـفحة الأخبـار الدوليـة، حيـث تـرد بكثـرة فـي بعـض الأحيـان أخبـار عـن البلـدان الأمريكية، وواصل القـراءة مـن نهاية الجريـدة حتى بدايتها، إلى أن جاءته النادلة بزجاجته اليومية من مياه إيفيان. فمنذ أكثر مـن ثلاثين سنة، تخلـى عـن عـادة شـرب القهـوة استجابة لما فرضـه عليـه أطبـاؤه. ولكنه كان قد قال لهم حينئذ: «إذا أيقنت يوماً أنني أصبحت قريباً من الموت، فسوف أعـود إلى تناولها». وربمـا حانـت الـساعة. فقـد طلـب بلغة فرنسية سليمة:

ـ أحضري لي فنجان قهوة أيضاً.

ثم قال محدداً دون أن يعبأ بالمعنى المزدوج لكلامه:

ـ وليكـن علـى الطريقـة الإيطاليـة، قـادراً علـى جعـل ميـت ينهض على قدميه.

تنـاول القهـوة دون سـكر، وبرشـفات بطيئـة، ثـم وضـع الفنجـان مقلوباً فـي الصحن كي يتيح الوقت لبقايا القهوة أن تكتب مستقبله بعد هذه السنوات الطويلة من امتناعه عنها. وقد خلصه الطعم المستعاد من أفكاره السيئة لبرهة. لكنه بعد برهـة أخـرى، كمـا لـو أن الأمـر جزء من الرقية نفسها، أحس بـأن هنـاك مـن ينظـر إليـه. عندئـذ قلـب الـصفحة بحركـة عفويـة، وتطلـع مـن فـوق نظارتـه، ورأى الرجـل الشاحب ذا الذقن غير الحليقـة، والقبعـة الرياضية والسترة المصنوعة من جلد خروف مقلوب، وهو يرفع بصره عنه في الحال كي لا تلتقي نظراتهما.

كان الوجه مألوفاً لديه. فقد تصادف مرورهمـا معـاً عـدة مـرات فـي بهو المستشفى، كما أنه رآه فـي أحد تلك الأيام فـي درب ***برومينا دولاك*** أثناء تأمله البجعات، ولكنه لم يشعر قط بـأن هنـاك مـن قد يتعرف عليه. ولم يستبعد مع ذلك احتمال أن يكـون الأمـر مجـرد وهـم آخر من أوهام المنفى الكثيرة التي تطارده.

أنهى قراءة الجريدة، دون تعجل، وهو طافٍ في ألحان براهمز الفخمة، وبقي كذلك إلى أن أصبح الألم أشد قوة من مُسكّن الموسيقى. عندئذ نظر إلى الساعة الذهبية التي يعلقها بسلسلة في جيب صداره، ثم تناول مع الجرعة المتبقية من ماء إيفيان قرصي المُسكّن اللذين يتناولهما ظهراً. وقبل أن يخلع نظارته قرأ مستقبله في بقايا القهوة، وأحس برعشة جليدية: لقد رأى عدم اليقين نفسه. وأخيراً دفع ثمن القهوة مع إكرامية محترمة، ثم تناول عكازه وقبعته عن المشجب، وخرج إلى الشارع دون أن ينظر إلى الرجل الذي كان ينظر إليه. مضى بمشيته الظريفة بمحاذاة أحواض الأزهار التي عاثت بها الريح خراباً، واعتقد أنه أصبح بمنجى من الرقية المشؤومة. لكنه أحس فجأة بخطوات وراء خطواته، فتوقف عند المنعطف، ودار على عقبيه. وكان على الرجل الذي يتبعه أن يتوقف فجأة كي لا يصطدم به، ونظر إليه فزعاً، على مسافة شبرين عن عينيه، وتلعثم:

ـ السيد الرئيس!

ـ قل لمن يدفعون لك أجرك ألا ينسجوا الأوهام ـ قال الرئيس دون أن يفقد ابتسامته أو سحر صوته، وأضاف: فصحتي على خير ما يرام.

فقال الرجل الرازح تحت وطأة الوقار التي سقطت عليه:

ـ لا أحد يعرف ذلك خيراً مني. إنني أعمل في المستشفى.

طريقة نطقه وإيقاع كلماته، بل وخجله كذلك، تشير كلها إلى أنه كاريبي خالص.

ـ لا تقل لي إنك طبيب ـ قال له الرئيس.

ـ ليتني كنت كذلك، يا سيدي ـ قال الرجل ـ إنني سائق سيارة إسعاف.

ـ آسف ـ قال الرئيس مقتنعاً بخطئه ـ إنه عمل شاق.

ـ ليس بمثل مشقة عملك يا سيدي.

نظر إليه دون تحفظ. واستند إلى العكاز بكلتا يديه، وسأله باهتمام حقيقي:

ـ من أين أنت؟
ـ من الكاريبي.
ـ لقد لاحظتُ ذلك ـ قال الرئيس ـ. ولكن من أي بلد في الكاريبي؟
ـ من بلدك بالذات يا سيدي ـ قال الرجل، ثم مدّ يده للمصافحة: اسمي هوميرو ريّ.
فقاطعه الرئيس متفاجئاً ليقول دون أن يفلت يده:
ـ الله! يا له من اسم جميل!
فاسترخى هوميرو وقال:
ـ والبقية أكثر: هوميرو ريّ دي لاكاسا.
باغتتهما طعنة شتائية وهما أعزلان في منتصف الطريق. فارتعش الرئيس حتى العظام، وأدرك أنه لن يستطيع أن يمشي، دون معطفه، مسافة الكوادرات الأربع التي تفصله عن المطعم البائس الذي اعتاد تناول الغداء فيه. فسأل هوميرو:
ـ هل تغديت؟
ـ أنا لا أتناول الغداء أبداً ـ قال هوميرو ـ. إنني آكل وجبة واحدة في بيتي ليلاً.
ـ اجعل هذا اليوم استثناء ـ قال له مظهراً كل ما لديه من افتتان
ـ إنني أدعوك للغداء.
أمسكه من ذراعه وقاده إلى المطعم المقابل ذي الاسم المذهب فوق المظلة التي على واجهته: *لي بوف كورنيه*. كان المكان ضيقاً وحاراً في الداخل، ولم يكن هناك كما يبدو مكان شاغر. تقدم هوميرو ريّ الذي فوجئ بأن أحداً لم يتعرف على الرئيس، واتجه إلى عمق الصالة ليطلب مساعدة.
ـ أهو رئيس يمارس مهامه؟ ـ سأله صاحب المحل.
فقال هوميرو:
ـ لا، مطاح به.

ـ لدي دائماً منضدة خاصة لأمثال هؤلاء.

قادهما إلى مكان منعزل في عمق الصالة، حيث يمكن لهما أن يتبادلا الحديث كما يحلو لهما. شكره الرئيس قائلاً:

ـ ليس الجميع يعترفون مثلك بوقار المنفى.

كان طبق المحل الخاص هو أضلاع ثور مشوية على الفحم. وقد أجال الرئيس وضيفه النظر في ما حولهما، ورأيا على المناضد الأخرى قطع اللحم الكبيرة المشوية بحوافها ذات الدهن اللين، فهمس الرئيس: «إنه لحم رائع. لكنه مُحرَّم عليّ». ثم صوب نظرة خبثٍ إلى هوميرو، وبدّل نبرة صوته:

ـ الحقيقة إنني ممنوع من كل شيء.

ـ أنت ممنوع من تناول القهوة أيضاً ـ قال هوميرو ـ ولكنك تتناولها مع ذلك.

فقال الرئيس:

ـ هل لاحظت ذلك؟ لكن تناولها اليوم كان استثناء في يوم استثنائي.

ولم يقتصر الاستثناء، في ذلك اليوم على القهوة وحدها. فقد طلب كذلك أضلاع ثور مشوية على الفحم، وسلطة خضار طازجة دون أي تتبيل آخر سوى قليل من زيت الزيتون. وطلب ضيفه الشيء نفسه، إضافة إلى نصف زجاجة من النبيذ الأحمر.

وبينما هما ينتظران اللحم، أخرج هوميرو من جيب سترته محفظة نقود لا نقود فيها، ومترعة بأوراق كثيرة، وعرض على الرئيس صورة باهتة المعالم. وتعرف الرئيس على نفسه بقميص ذي أكمام قصيرة، ووزن أقل مما هو عليه بعدة ليبرات، وشعر وشارب أسودين قاتمين، وسط جلبة شبان يتطاولون لكي يظهروا في الصورة. وبنظرة واحدة تعرف على المكان، وتعرف على شعارات حملة انتخابية بغيضة، وتعرف على تاريخ التقاطها غير المرغوب فيه، فدمدم: «يا للهول! لقد قلت دائماً إن الإنسان يشيخ في الصور أكثر مما يشيخ في الحياة

الواقعية». ثم أعاد الصورة بإيماءة تشير إلى انتهاء الأمر، وقال:

ـ أذكر ذلك جيداً. لقد حدث منذ آلاف السنين في حلبة صراع الديكة في سان كريستوبال دي لاس كاساس.

ـ إنها قريتي. ـ قال هوميرو، ثم أشار إلى صورته بين الجماعة ـ: وهذا أنا.

تعرف الرئيس عليه:

ـ كنت لا تزال طفلاً في ذلك الحين!

ـ تقريباً ـ قال هوميرو، وتابع ـ: لقد رافقت سيادتك في حملتك الانتخابية في المنطقة الجنوبية، كقائد للألوية الجامعية.

فبادر الرئيس إلى تأنيب نفسه:

ـ وأنا لم أكن أعيرك نظرة واحدة بالطبع.

فقال هوميرو:

ـ بالعكس. لقد كنتَ لطيفاً جداً معنا. ولكننا كنا كثيرين بحيث يصعب عليك أن تتذكرنا جميعاً.

ـ وبعد ذلك؟

ـ ومن يستطيع أن يعرف ما حدث بعد ذلك أفضل من حضرتك؟ ـ قال هوميرو ـ بعد ذلك وقع الانقلاب العسكري، والمعجزة هي أننا نحن الاثنين ما زلنا سالمين هنا، ومستعدين لأكل نصف ثور. لم يحظ كثيرون بمثل هذا الحظ.

في هذه اللحظة جاؤوهما بالأطباق. وضع الرئيس الفوطة حول عنقه مثل مريلة طفل، ولم يشعر بالحرج أمام مفاجأة ضيفه الصامتة. بل قال: «إذا لم أفعل هذا فسوف أفقد ربطة عنق في كل وجبة». وقبل أن يبدأ الأكل، اختبر نضج اللحم، وأبدى موافقته بحركة تواطؤ، ثم عاد إلى الموضوع قائلاً:

ـ ما لا أستطيع تفسيره هو لماذا لم تقترب مني قبل اليوم بدلاً من ملاحقتي مثل تحرٍ.

عندئذ أخبره هوميرو بأنه تعرف عليه مذ رآه يدخل المستشفى من

باب مخصص للحالات الخاصة جداً. كان ذلك في عز الصيف، وكان يرتدي بدلة كاملة من الكتان الأبيض كالتي يرتديها أهل جزر الأنتيل، وحذاء يجمع بتناسق بين اللونين الأبيض والأسود، والأقحوانة في عروة سترته، ولبدة الشعر البديع الذي شعثته الريح. وتحقق هوميرو من أنه وحده في جنيف، دون مساعدة من أحد، فهو يعرف عن ظهر قلب المدينة التي درس فيها القانون. وقد اتخذت إدارة المستشفى، بناء على طلبه، القرارات الداخلية بضمان السرية المطلقة. وفي تلك الليلة بالذات، اتفق هوميرو مع زوجته على الاتصال به. وقد لاحقه خلال خمسة أسابيع متحيناً الفرصة المناسبة، وربما ما كان ليتجرأ على تحيته لو لم يواجهه هو نفسه.

ـ إنني سعيد لأني فعلت ذلك ـ قال الرئيس ـ وإن كنت لا أتضايق أبداً في الحقيقة من كوني وحيداً.

ـ هذا ليس عدلاً.

ـ لماذا؟ ـ سأله الرئيس بصدق ـ إن أكبر انتصارات حياتي هي توصلي إلى جعل الجميع ينسونني.

فقال هوميرو دون أن يداري انفعاله:

ـ إننا نتذكر سيادتك أكثر مما تظن. وإنه يسعدني أن أراك هكذا، معافى وشاباً.

ـ ومع ذلك ـ قال هو دون دراماتيكية ـ كل شيء يشير إلى أنني سأموت قريباً جداً.

ـ احتمالات خروجك أحسن حالاً كبيرة جداً ـ قال هوميرو.

قفز الرئيس من مكانه من المفاجأة، ولكنه لم يفقد ظرافته، وهتف:

ـ يا للعنة! هل جرى خرق الأسرار الطبية في سويسرا الجميلة؟

ـ لا وجود، في أي مستشفى في العالم، لأسرار تخفى على سائق سيارة إسعاف ـ قال هوميرو.

ـ أما ما أعرفه أنا فهو ما عرفته منذ أقل من ساعتين، ومن فم

الشخص الوحيد الذي يجب أن يعرفه.

ـ لن يكون موتك على أي حال أمراً عادياً ـ قال هوميرو ـ لسوف يضعك أحدهم في المكان الذي يليق بك كنموذج عظيم للكرامة.

تصنع الرئيس دهشة كوميدية:

ـ أشكر لك هذا التنويه.

كان يأكل بالطريقة التي يفعل بها كل شيء: ببطء وبعناية فائقة. وفي أثناء ذلك، كان يتطلع إلى عيني هوميرو مباشرة، حتى إن هذا الأخير أحس بأنه يرى ما يفكر فيه. وبعد محادثة مطولة وشجون مترعة بالحنين، ابتسم ابتسامة خبيثة وقال:

ـ كنت قد قررت الاهتمام بما سيؤول إليه جثماني، أما الآن فإنني أرى أنه لا بد لي من اتخاذ بعض الاحتياطات على طريقة الروايات البوليسية حتى لا يعثر على جثتي أحد.

ـ سيكون جهدك دون طائل ـ قال هوميرو مازحاً ـ. ففي المستشفى لا وجود لأسرار تدوم أكثر من ساعة واحدة.

عندما انتهيا من تناول القهوة، قرأ الرئيس قعر فنجانه، وارتعش مرة أخرى: كانت الرسالة هي نفسها. ومع ذلك، فإن ملامح وجهه لم تتبدل. دفع الحساب نقداً، لكنه تحقق من المبلغ عدة مرات قبل ذلك، وعدّ النقود عدة مرات بحذر مفرط، ثم ترك بقشيشاً لم يستحق عليه سوى همهمة من النادل.

ـ لقد استمتعت بهذا اللقاء ـ قال وهو يودع هوميرو ـ. ليس لدي موعد محدد للعملية الجراحية بعد، بل إنني لا أعرف إن كنتُ سأجريها أم لا. ولكن، إذا ما جرى كل شيء على ما يرام فإننا سنلتقي ثانية.

ـ ولماذا لا نلتقي قبل ذلك؟ ـ قال هوميرو ـ زوجتي، لازارا، طاهية أثرياء. وليس هناك من يطبخ الأرز مع القريدس خيراً منها، وسنكون سعداء باستضافتك في بيتنا في إحدى هذه الليالي.

ـ إنني ممنوع من أكل الحيوانات البحرية، ولكنني سآكلها

بشهية كبيرة معكم. قل لي متى.

- الخميس هو يوم عطلتي - قال هوميرو.

- جيد - قال الرئيس -. الخميس الساعة السابعة ليلاً سأكون في بيتك. وسيكون ذلك ممتعاً بالنسبة إلي.

- سآتي لمرافقتك - قال هوميرو -. عنوانك هو: فندق داميس 14 شارع أندوستري. وراء المحطة. أليس صحيحاً؟

- صحيح - قال الرئيس ذلك، وقفز بسعادة أعظم من كل ما سبق - : أرى أنك تعرف حتى مقاس الحذاء الذي أنتعله.

فقال هوميرو باستمتاع:

- طبعاً يا سيدي. واحد وأربعون.

ما لم يقله هوميرو ريّ للرئيس، ولكنه ظل يرويه طوال سنوات لكل من أراد أن يسمعه، هو أن هدفه في البدء لم يكن بريئاً. فمثل سواه من سائقي سيارات الإسعاف، كانت له ترتيبات خاصة مع مؤسسات دفن الموتى وشركات تأمين يبيع لها معلومات يحصل عليها من المستشفى بالذات، وخاصة حين يتعلق الأمر بمرضى أجانب ذوي موارد ضئيلة. وكانت أرباحه من هذه الخدمات زهيدة جداً، فضلاً عن أنه كان يتقاسمها مع موظفين آخرين يتناقلون من يد ليد التقارير السرية عن حالة المرضى المهمين. ولكن تلك المبالغ كانت عزاء طيباً لرجل منفي دون مستقبل يبذل جهداً للقيام بأود زوجته وابنيه براتب يدعو إلى السخرية.

أما زوجته، لازارا دافيس، فكانت أكثر واقعية. إنها خلاسية مرهفة من سان خوان دي بويرتوريكو، ضئيلة ومتينة، لها بشرة بلون الكراميلا الهادئ، وعينا كلبة باسلة تتطابقان تماماً مع أسلوبها في الحياة. كانا قد تعارفا في قسم الخدمات المخبرية في المستشفى، حيث كانت تعمل كمساعدة في كل شيء بعد أن أحضرها متمول من بلدها للعمل مربية أطفال، وتركها وحيدة في مهب الريح في

جنيف. وقد تزوجا حسب الطقوس الكاثوليكية، مع أنها كانت أميرة من أميرات اليوروبا، وهما يعيشان في بيت مؤلف من صالة وغرفتي نوم في الطابق الثامن من بناية بلا مصعد يسكنها مهاجرون أفارقة. ولهما طفلة في التاسعة اسمها باربارا، وطفل في السابعة اسمه لازارو، لديه أعراض تخلف ذهني خفيف.

كانت لازارا دافيس امرأة ذكية وسيئة الطباع، لكنها طيبة القلب. تعتبر نفسها نموذجاً نقياً لبرج الثور، وتؤمن إيماناً أعمى بتنبؤاتها الفلكية. لكنها لم تستطع مع ذلك أن تحقق حلمها بكسب عيشها كمنجمة لذوي الملايين. إلا أنها كانت تساهم بالمقابل في نفقات البيت بإيرادات عرضية، وكبيرة أحياناً، بإعدادها وجبات عشاء لسيدات ثريات يردن جلب أنظار ضيوفهن بإقناعهن أنهن طهوهن بأنفسهن تلك الأطباق الأنتيلية المثيرة. أما هوميرو فكان خجولاً بوقار، ولا ينفع لأكثر من الشيء القليل الذي يقوم به، لكن لازارا لا تستطيع تصور الحياة من دونه بسبب طيبة قلبه وعيار سلاحه. وقد كانت أمورهما تمضي على ما يرام في ما مضى، لكن السنوات أخذت تصبح اشد وطأة، وكان الطفلان يكبران. وفي ذلك الوقت الذي جاء فيه الرئيس، كانا قد بدأا بنقر ما وفراه خلال خمس سنوات. وهكذا، فإن أحلامهما ذهبت بعيداً عندما اكتشف هوميرو ريّ وجود الرئيس بين المرضى السريين.

كانا يعرفان ما الذي يمكنهما أن يطلباه منه بالضبط، ولا يعرفان بأي حق يمكنهما عمل ذلك. خطر لهما للوهلة الأولى أن يتعهدا مأتمه بالكامل، بما في ذلك تحنيط جثمانه وإعادته إلى الوطن. ولكنهما أخذا يدركان شيئاً فشيئاً أن موته لا يبدو وشيكاً كما اعتقدا في البداية. وفي يوم الغداء ذاك، كانا في أقصى حالات الذهول والبلبلة بسبب الشكوك.

الحقيقة أن هوميرو لم يكن قائداً للألوية الجامعية ولا أي شيء آخر من هذا القبيل. والمرة الوحيدة التي ساهم فيها بالحملة الانتخابية

كانت عند التقاط تلك الصورة التي تمكن من العثور عليها بمعجزة في خزانة الملابس، بعد أن كانت بحكم المفقودة. ولكن حماسته كانت حقيقية. وصحيح كذلك أنه اضطر إلى الهرب من البلاد بسبب مشاركته في المقاومة التي دارت في الشوارع ضد الانقلاب العسكري، على الرغم من أن السبب الوحيد في بقائه حياً في جنيف بعد كل تلك السنوات، هو فقره الروحي. وهكذا فإن كذبة ناقصة أو كذبة زائدة يجب ألا تكون عائقاً يحول دون كسبه إحسان الرئيس.

المفاجأة الأولى بالنسبة إليهما كانت في أن المنفي السامي يعيش في فندق من الدرجة الرابعة في الحي البائس بجنيف، بين مهاجرين آسيويين وبنات ليل، وأنه لا يأكل إلا في مطاعم صغيرة يؤمها الناس الفقراء، في الوقت الذي كانت فيه جنيف تغص بأماكن الإقامة اللائقة بالسياسيين المنكوبين. كان هوميرو قد رآه وهو يكرر يوماً بعد يوم الأعمال نفسها التي قام بها في ذلك اليوم. وكان قد لاحقه بنظره، وأحياناً من مسافة أقل مما يقتضيه الحذر، أثناء نزهاته الليلية بين الجدران القاتمة وأزهار الجريس الصفراء المتدلية في المدينة القديمة. ورآه يجلس غارقاً في التفكير لساعات قبالة تمثال كلفينو. وصعد وراءه، خطوة خطوة، السلالم الحجرية، وهو يكاد يختنق بأريج الياسمين المتقد، لكي يتأمل لحظات الغروب الصيفية البطيئة من قمة بورغ لوفور. وفي إحدى الليالي رآه يقف تحت رذاذ المطر الأول، دون معطف أو مظلة، وينتظر دوره مع صف طويل من الطلاب للدخول إلى حفلة كونشيرتو لروبنشين. «لست أدري كيف لم يُصب بنزلة رئوية»، هذا ما قاله لزوجته يومئذ. ويوم السبت السابق، حين بدأ الطقس يتبدل، رآه يشتري معطفاً خريفياً ذا ياقة من جلد نمس مسكي مزيف، ولكنه لم يشتره من المحلات المضيئة في شارع دي رونيه، حيث يشتري ملابسهم الأمراء الهاربون من ممالكهم، وإنما من سوق البرغوث.

وقد صرخت لازارا عندما حدثها هوميرو بذلك:

- لا نستطيع عمل شيء إذاً! إنه بخيل من النوع الخرائي، ويمكنه أن يجعل جمعية خيرية تتولى مسؤولية دفنه في قبر جماعي. لن نحصل منه على شيء أبداً.

فقال هوميرو:

- ربما كان فقيراً حقاً بعد هذه السنوات الطويلة دون عمل.

- آهٍ منك أيها الزنجي، أن يكون المرء من برج الحوت وسليل من هم من برج الحوت شيء، وأن يكون بخيلاً هو شيء آخر - قالت لازارا -. الجميع يعرفون أنه استولى على كل ما لدى الحكومة من الذهب، وأنه الأوسع ثراء بين منفيي المارتينيك.

هوميرو الذي يكبرها بعشر سنوات، ترعرع متأثراً بالأخبار التي تقول إن الرئيس كان يعمل في البناء أثناء دراسته في جنيف كي يغطي نفقات دراسته. أما لازارا بالمقابل، فقد ترعرعت وسط الفضائح الصحفية المعادية للرئيس، والتي كان يجري تضخيمها في بيت معادٍ له، حيث كانت تعمل مربية أطفال مذ كانت طفلة. وهكذا، حين عاد هوميرو إلى البيت في تلك الليلة، وهو يكاد يختنق من السعادة، لم يُجدِ معها نفعاً دليله القاطع بأنه دعاه إلى مطعم غالٍ. وشعرت بالضيق لأن هوميرو لم يطلب منه أي شيء من الأشياء الكثيرة التي حلما بها، ابتداء من منحة دراسية لطفليهما، حتى مساعدته في الحصول على وظيفة أفضل في المستشفى. وبدا لها ذلك تأكيداً لشكوكها بأنه قرر جعلهم يرمون جثته للنسور بدلاً من أن ينفق فرنكاته في مأتم وقور، وإعادة جثمانه إلى الوطن. لكن ما جعل الكأس يطفح بها هو الخبر الذي أخفاه عنها هوميرو حتى النهاية، خبر دعوته الرئيس لتناول الأرز مع القريدس يوم الخميس ليلاً.

- لم يكن ينقصنا إلا هذا - صرخت لازارا - أن يأتي ويموت هنا متسمماً بالقريدس المعلب، ويكون علينا أن نتولى أمر دفنه مما وفرناه للطفلين.

لكن ما حدد سلوكها في نهاية المطاف هو وفاؤها الزوجي. فكان عليها أن تستعير من إحدى جاراتها ثلاثة أطقم من أدوات المائدة مصنوعة من فضة مقلدة، وجفنة من الكريستال للسلطة؛ وآلة كهربائية لصنع القهوة من جارة أخرى، ومفرش مطرز للمائدة مع طقم فناجين قهوة من ثالثة. واستبدلت الستائر القديمة بالستائر الجديدة التي لا تستخدمها إلا في أيام الأعياد، ونزعت القماش الذي تغلف به الأثاث. وأمضت يوماً كاملاً في شطف الأرض، ونفض الغبار، واستبدال أماكن بعض الأشياء، إلى أن توصلت إلى عكس ما كان يناسبها، لأن ما يناسبها هو استثارة عواطف الضيف بمظاهر بؤس.

يوم الخميس ليلاً، وبعد أن استراح من الضيق الذي سببه له صعود الطوابق الثمانية، ظهر الرئيس في الباب بمعطفه الجديد القديم، وقبعته الكروية التي كانت شائعة في زمن آخر. وفي يده وردة واحدة قدمها إلى لازارا. تأثرت هي بجماله الرجولي وأساليبه الأميرية. وأما في ما عدا ذلك، فقد رأته مثلما كانت تنتظر أن تراه: زائفاً وسلاباً. بدا لها سفيهاً، لأنها كانت قد فتحت جميع النوافذ وهي تُعدّ الطعام، لتحول دون تسرب رائحة القريدس إلى البيت؛ فكان أول ما فعله، وهو يدخل، أن أخذ نفساً عميقاً، كأنه في غيبوبة مفاجئة، ثم هتف وهو يغمض عينيه ويفتح ذراعيه: «آه! رائحة بحرنا!». وبدا لها أشد بخلاً مما تصورت، لأنه حمل لها وردة واحدة، مسروقة دون شك من الحدائق العامة. وبدا لها متغطرساً، لنظرة الأنفة التي وجهها إلى قصاصات صحف تتحدث عن أمجاده الرئاسية، ورايات وبيارق من حملته الانتخابية كان هوميرو قد علقها بسذاجة كبيرة على جدار الصالة. وبدا لها قاسي القلب، لأنه لم يُسلم على الصغيرين باربارا ولازارو اللذين صنعا له بنفسيهما هدية خاصة، وقد أشار أثناء العشاء إلى شيئين لا يطيقهما: الكلاب والأطفال. فأحست بالكراهية نحوه. ومع ذلك، فإن حسها الكاريبي بوجوب إكرام

الضيف فرض نفسه على مشاعرها. كانت قد ارتدت الثوب الأفريقي الذي تحتفظ به للياليها الاحتفالية، وقلادتها وأساورها الطقوسية، ولم تأت في أثناء العشاء كله بأي حركة، ولم تقل أي كلمة زائدة عن اللزوم. كانت أكثر من أن لا تُلام: كانت كاملة.

الحقيقة أن الأرز مع القريدس لم يكن من أصناف مطبخها المختارة، ولكنها أعدته بكل ما لديها من رغبة، وخرج من بين يديها جيداً جداً. وقد سكب الرئيس لنفسه مرتين منه دون أن يتوقف عن كيل المديح. وفتنته شرائح الموز الناضج المقلية، وسلطة الأفوكاتو، بالرغم من أنه لم يشاطرهما الحنين إلى الوطن. واكتفت لازارا بالاستماع إلى أن حان موعد تقديم الحلوى، عندما حشر هوميرو نفسه، دون أن يشعر، في زقاق مسدود، بحديثه عن وجود الرب.

فقال الرئيس:

ـ أنا مؤمن بوجوده، ولكن دون أن تكون له علاقة بالبشر. إنه مشغول بأمور أكبر بكثير.

ـ أنا أؤمن بالنجوم فقط ـ قالت لازارا ذلك، وراقبت ردّ فعل الرئيس، ثم أضافت ـ: في أي يوم ولدت سيادتك؟

ـ الحادي عشر من آذار.

ـ لا بد أن تكون كذلك ـ قالت لازارا بنبرة انتصار مفاجئة، ثم تساءلت بلهجة رقيقة ـ: أليس كثيراً أن يكون هناك اثنان من برج الحوت على المائدة نفسها؟

واصل الرجلان حديثهما عن الرب، بينما ذهبت هي لإعداد القهوة. كانت قد رفعت عن المائدة أوعية وأدوات الطعام، وتمنت من أعماق روحها أن تمضي الليلة على خير. وبينما هي عائدة إلى الصالة بالقهوة، واجهتها جملة أطلقها الرئيس، سببت لها الذهول:

ـ لا تشك في ذلك يا صديقي العزيز: إن أسوأ ما جرى لوطننا المسكين هو أنني كنتُ رئيسه.

رأى هوميرو زوجته لازارا وهي في الباب، تحمل الفناجين

الصينية وماكينة صنع القهوة المستعارة، وظن أنه سيغمى عليها. وحدق بها الرئيس أيضاً وقال لها بنبرة ودودة: «لا تنظري إليّ هكذا يا سيدتي. إنني أتكلم بقلبي». ثم التفت بعد ذلك إلى هوميرو، وأكمل قائلاً:

- ولحسن الحظ أنني أدفع الآن ثمن حماقتي.

قدمت لازارا القهوة، وأطفأت المصباح الأوسط المدلى فوق المنضدة، لأن ضوءه الشديد كان يعرقل الحديث، فعمت الصالة ظلمة خفيفة حميمة. وأحست أول مرة بالاهتمام بالضيف الذي لم يكن ظُرفه كافياً لمواراة أساه. وقد تضاعف فضول لازارا عندما انتهى هو من تناول القهوة وقلب الفنجان في طبقه كي تترسب بقاياه.

حدثهم الرئيس وهم حول المنضدة عن أنه اختار منفاه في جزيرة المارتينيك للصداقة التي تربطه بالشاعر إيميه سيزيه، الذي كان قد أصدر في ذلك الحين كتابه *Cahier d'un retour au pays natal* [1]، وقد قدم له مساعدة لبدء حياة جديدة. واشتروا بما تبقى من إرث زوجته بيتاً مبنياً من أخشاب فخمة في هضاب فورت دي فرانس، على نوافذه شباك معدنية، وله شرفة مطلة على البحر تغص بأزهار بدائية، حيث من الممتع النوم على صرير الجداجد والنسيم المحمل برائحة الدبس والروم المنبعثة من معاصر قصب السكر. وأقام هناك مع زوجته التي تكبره بأربعة عشر عاماً، والمريضة منذ أن وضعت مولودها الوحيد. وقد حصّن نفسه ضد القدر بإدمان قراءة الكلاسيكيين اللاتينيين، باللاتينية، موقناً أن ذلك هو آخر عمل له في حياته. وكان عليه أن يقاوم، طوال سنوات، إغراء الإقدام على مغامرات من كل نوع كان يقترحها عليه أنصاره المهزومون. وقال:

- لكنني لم أعد قط إلى فتح أية رسالة. مطلقاً. منذ اكتشفت أن أكثرها استعجالاً تصبح الأقل استعجالاً بعد أسبوع، ثم لا

---

[1] بالفرنسية في الأصل: «كراس للعودة إلى مسقط الرأس».

يتذكرها كاتبها نفسه بعد مرور شهرين.

نظر إلى لازارا في الضوء الخافت، وهي تشعل سيجارة، ثم اختطفها من بين أصابعها بحركة شرهة. أخذ منها نفساً عميقاً، وحبس الدخان في حلقه. تناولت لازارا التي فوجئت علبتي السجائر والثقاب، لتشعل سيجارة أخرى، لكنه أعاد إليها السيجارة المشتعلة قائلاً: «إنك تدخنين بلذة كبيرة جعلتني عاجزاً عن مقاومة الإغراء». لكنه اضطر إلى إطلاق الدخان من فمه لأنه أحس ببداية نوبة سعال. وقال:

ـ لقد تخليت عن عادة التدخين منذ سنوات طويلة، لكن عادة التدخين لم تتخلَّ عني نهائياً. وقد استطاعت أن تتغلب عليّ في بعض الأحيان، مثلما جرى الآن.

جعله السعال يهتز مرتين أخريين. وعاد إليه الألم. نظر الرئيس إلى الوقت في ساعة جيبه، ثم تناول قرصي الدواء المسائيين. وبعد ذلك أمعن النظر في قعر فنجان قهوته: لم يتغير أي شيء. ولكنه لم يرتعش هذه المرة.

ـ بعض أنصاري القدماء صاروا رؤساء بعدي.

قال هوميرو:

ـ ساياغو.

وقال هو:

ـ ساياغو وآخرون. جميعهم مثلي: ننتحل شرفاً لا نستحقه، في وظيفة لا نحسن القيام بها. البعض جرياً وراء السلطة فقط، أما الأكثرية فبحثاً عما هو أدنى من ذلك: الوظيفة.

اقشعر بدن لازارا غيظاً، وسألته:

ـ هل تعرف حضرتك ما يقال عنك؟

ـ إنها أكاذيب ـ تدخل هوميرو مذعوراً.

فقال الرئيس بهدوء سماوي:

ـ إنها أكاذيب وليست أكاذيب. ففيما يتعلق بالرؤساء، يمكن

لأسوأ المخازي أن تكون الأمرين في الوقت نفسه: حقيقة وافتراء.

كان قد عاش في المارتينيك كل أيام منفاه، دون أي اتصال بالعالم الخارجي إلا من خلال الأخبار القليلة في الجريدة الرسمية. وكان يغطي نفقات معيشته بدروس في اللغتين الإسبانية واللاتينية، يلقيها في مدرسة رسمية، وبالترجمات التي كان يكلفه بها أحياناً إيميه سيزيه. كان الحر في شهر آب لا يطاق، فكان يبقى مستلقياً في أرجوحة النوم حتى الظهيرة، وهو يقرأ على هديل مروحة السقف في غرفة النوم. وكانت زوجته تشغل نفسها بالعصافير التي تربيها طليقة حتى في أشد ساعات القيظ، حيث كانت تحتمي من الشمس بقبعة عريضة الحواف ومزينة بثمار اصطناعية صغيرة وأزهار من القماش. أما حين تنخفض الحرارة، فكانا يستمتعان بالبرودة على الشرفة، حيث يسلط نظره على البحر، ويبقى كذلك إلى أن يغرق في الظلام، بينما تجلس هي على كرسيها الخيزراني الهزاز، بقبعتها المثقوبة وخواتمها المزيفة في كل أصابعها، تنظر إلى سفن العالم وهي تمر أمامها وتقول: «هذه السفينة ذاهبة إلى بويرتو سانتو». «وتلك الأخرى تكاد لا تستطيع التقدم بثقل حمولتها من موز بويرتو سانتو». إذ لم يكن ممكناً، في نظرها، أن تمر سفينة ليست من بلادها. وكان هو يتظاهر بالصمم، مع أنها توصلت في نهاية المطاف إلى النسيان خيراً منه، لأنها فقدت الذاكرة. وكانا يبقيان على تلك الحال إلى أن يتلاشى الغسق الصاخب، ويصبح عليهما عندئذ أن يلوذا بالبيت مهزومين أمام البعوض. وفي أحد شهور آب الطويلة تلك، وبينما هو يقرأ الصحيفة على الشرفة، قفز في مكانه من الدهشة.

ـ يا للعنة! ـ قال ـ لقد مِتُّ في أستوريل!

فزعت زوجته التي كانت ساهية حين سمعت الخبر. كان عبارة عن ستة أسطر في الصفحة الخامسة من الجريدة التي تُطبع عند الناصية المجاورة، والتي تُنشر فيها ترجماته المتفرقة، ويأتي مديرها لزيارته بين حين وآخر. وها هي ذي تقول الآن إنه مات في أستوريل،

بلشبونة، منتجع الانحطاط الأوروبي وحارسته التي لم يذهب إليها قط، وربما كانت المكان الوحيد في العالم الذي لا يود الموت فيه. توفيت زوجته بالفعل بعد سنة من ذلك، معذبة بالذكرى الأخيرة التي بقيت لها حتى تلك اللحظة: ذكرى ابنها الوحيد الذي شارك في الإطاحة بأبيه، ثم أُعدم رمياً بالرصاص في ما بعد، على يد شركائه.

تنهد الرئيس وقال: «هكذا نحن، ولا يمكن لشيء أن يُخلّصنا. قارة حُبلى ببراز العالم بأسره، دون برهة حب واحدة. إننا أبناء الاختطاف، والاغتصاب، والمعاشرات المشينة، والخداع، ونسل الأعداء من الأعداء». التقت عيناه بعيني لازارا الأفريقيتين، وكانت تحدق به دون رحمة، فحاول أن يهدئها بعبارة بليغة لمعلم قديم:

ـ كلمة خلاسي تعني مزج الدم بالدماء التي تسيل. فما الذي يمكن انتظاره من مثل هذا الشراب الكريه؟

سمرته لازارا في مكانه بصمت كأنه الموت. ولكنها تمكنت من استعادة السيطرة على نفسها قبل منتصف الليل بقليل، وودعته عند انصرافه بقبلة رسمية. وقد عارض الرئيس مرافقة هوميرو له حتى الفندق؛ ولكنه لم يستطع أن يمنعه من مساعدته في إيقاف سيارة أجرة. وحين رجع هوميرو إلى البيت، وجد زوجته تستشيط غضباً. وقالت له:

ـ هذا هو أكثر رئيس أحسنوا صُنعاً بالإطاحة به. إنه ابن قبحة فظيع.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها هوميرو لتهدئتها، فقد أمضيا ليلة مريعة ساهرين: أقرت لازارا بأنه من أجمل الرجال الذين رأتهم، وأن له قدرة مدمرة على الإغواء، وذكورة فحل. قالت: «لا بد أنه نمر في الفراش، حتى وهو عجوز ومخوزق كما هي حاله الآن». ولكنها كانت تعتقد أنه بدد هذه اللهبات الإلهية بتوظيفها في التصنع. لم تكن قادرة على تحمل مباهاته بأنه كان أسوأ رئيس لبلاده. ولا تبجحاته كزاهد، لأنها كانت مقتنعة من أنه يملك نصف مصانع

تكرير السكر في المارتينيك. ولا إدعاءاته الكاذبة بازدراء السلطة، لأنها لا تشك في أنه مستعد لتقديم كل شيء مقابل عودته، ولو لحظة واحدة، إلى الرئاسة، ليجعل جميع خصومه يعضون التراب. ثم انتهت إلى القول:

- وكل هذا لأنه وجدنا خاشعين عند قدميه فقط.

- وما الذي يمكنه أن يجنيه من هذا؟ - قال هوميرو.

- لا شيء. كل ما في الأمر هو أن التدلل يصبح إدماناً لا يمكن إشباعه بأي شيء.

كان غضبها شديداً إلى حد لم يستطع معه هوميرو أن يطيقها في الفراش، فمضى ليكمل الليل ملتحفاً بطانية على كنبة الصالة. استيقظت لازارا عند الفجر أيضاً، وكانت عارية تماماً، مثلما اعتادت أن تنام وأن تكون في البيت، وكانت تحدث نفسها في منولوج وحيد الوتر. وفي لحظة واحدة محت من ذاكرة البشرية كل أثر للعشاء البغيض. فقد أعادت الأغراض المستعارة في الفجر، واستبدلت الستائر الجديدة بالقديمة، وأعادت قطع الأثاث إلى أماكنها، إلى أن رجع البيت فقيراً ومحترماً مثلما كان حتى الليلة الماضية. وانتزعت أخيراً قصاصات الصحف والصور وبيارق وشعارات الحملة الانتخابية البغيضة، وألقت بكل شيء إلى صندوق القمامة مع صرخة نهائية:

- إلى الجحيم!

بعد أسبوع من العشاء، وجد هوميرو الرئيس بانتظاره عند خروجه من المستشفى، ورجاه أن يرافقه إلى فندقه. صعدا الطوابق الثلاثة العالية ليصلا إلى عليّة لها فتحة وحيدة في السقف، تطل على سماء رمادية، ويقطعها حبل عُلقت عليه ملابس لتجف. كان هناك أيضاً سرير مزدوج يشغل نصف المكان، وكرسي عادي، وإبريق لغسل الأيدي ومبولة، وخزانة فقراء ذات مرآة غبشة. لاحظ الرئيس

تأثر هوميرو، فقال له كمن يعتذر:

ـ الجحر نفسه الذي عشت فيه سنوات حياتي كطالب. لقد حجزته من بور دو فرانس.

أخرج من جراب مخملي رصيد موارده النهائي وفرده فوق السرير: عدة أساور ذهبية ذات ترصيعات متنوعة بأحجار كريمة، وعقد لؤلؤ من ثلاث لفات، وعقدان آخران من الذهب والأحجار الكريمة؛ وثلاث سلاسل ذهبية مع ميداليات قديسين، وقرطان ذهبيان مرصعان بالزمرد، وآخران بالماس، وثالثان بالياقوت؛ وصندوقان صغيران، وعلبة صغيرة جداً على شكل ميدالية، وأحد عشر خاتماً فيها فصوص من كل الأنواع، وإكليل ماسي ربما كان لإحدى الملكات. وأخرج بعد ذلك، من جراب آخر، ثلاث أزواج فضية من أزرار المعاصم مُلبَّسة بطبقة من الذهب الأبيض. ثم أخرج أخيراً، من علبة حذاء، أوسمته الستة: اثنين ذهبيين، وواحد فضي، والبقية خردة محضة.

ـ هذا كل ما بقي لي في الحياة.

لم يكن أمامه من خيار آخر سوى بيع كل شيء ليستكمل نفقات العلاج، وكان يرغب في أن يقدم له هوميرو هذا الجميل بأقصى قدر من التكتم. لكن هوميرو أحس مع ذلك بأنه غير قادر على تلبية رغبته ما دام لا يملك إيصالات نظامية.

أوضح له الرئيس أنها حلي زوجته الموروثة من جدة استعمارية كانت قد ورثت بدورها رزمة أسهم في منجم للذهب في كولومبيا. أما الساعة وأزرار معصم القميص ومشابك ربطات العنق فهي له. وأما الأوسمة فلم تكن لأحد من قبل بالطبع. ثم قال:

ـ لا أظن أن هناك من يملك فواتير بأشياء كهذه.

لكن هوميرو بقي متمسكاً بموقفه. فقال الرئيس بهدوء:

ـ في هذه الحالة، لم يعد أمامي إلا أن أسفر عن حقيقتي وأبيعها بنفسي.

بدأ بجمع المجوهرات بتروٍ محسوب. وقال له: «سامحني يا عزيزي

هوميرو، ولكن ليس هناك من بؤس أسوأ من بؤس رئيس فقير. حتى البقاء على قيد الحياة يبدو شنيعاً». في هذه اللحظة رآه هوميرو بقلبه، وسلم له أسلحته.

عادت لازارا إلى البيت متأخرة في تلك الليلة. ومذ أطلت من الباب رأت المجوهرات المتلألئة تحت الضوء الزئبقي في المطبخ، فأحست كأنها ترى عقرباً في سريرها. وقالت فزعة:

ـ لا تكن جلفاً أيها الزنجي. لماذا هذه الأشياء هنا؟

وسبب لها توضيح هوميرو مزيداً من القلق. جلست لتتفحص المجوهرات، قطعة قطعة، بتدقيق صائغ. وفي لحظة معينة تنهدت قائلة: «لا بد أنها ثروة». وراحت تتطلع أخيراً إلى هوميرو دون أن تجد مخرجاً لانبهارها.

ـ كراخو! ـ قالت ـ ما الذي على أحدنا أن يفعله ليعرف أن كل ما يقوله هذا الرجل صحيح؟

ـ ولم لا؟ ـ قال هوميرو ـ لقد رأيت للتو أنه يغسل ملابسه بنفسه ويعلقها مثلنا على سلك في الغرفة لتجف.

ـ لأنه بخيل ـ قالت لازارا.

ـ أو لأنه فقير ـ قال هوميرو.

عادت لازارا إلى تفحص المجوهرات، ولكن باهتمام أقل الآن، لأنها اقتنعت أيضاً. وهكذا ارتدت في اليوم التالي أفضل ملابسها، وتزينت بالمجوهرات التي بدت لها أغلى من سواها، ووضعت ما استطاعت من الخواتم في كل إصبع من أصابعها، ووضعت ما استطاعت من الأساور في معصميها، وذهبت لتبيعها. وقد قالت في تبجح ساخر وهي خارجة: «لنر من سيطلب فواتير من لازارا دافيس». اختارت محل المجوهرات المضبوط، الذي فيه من الفخامة أكثر مما له من الشهرة، وكانت تعلم أن البيع والشراء فيه يتم دون أسئلة كثيرة. دخلت مرتعبة، ولكن بخطوات واثقة.

طأطأ بائع جاف وشاحب، يرتدي بدلة تشريفات، رأسه بتحية

مسرحية وهو يُقبل يدها، ووضع نفسه تحت تصرفها. كان المكان في الداخل أكثر إشراقاً من النهار بفعل المرايا والأضواء القوية، وكان المحل بكامله يبدو كأنه من الماس. واصلت لازارا تقدمها إلى صدر المحل وهي لا تكاد تتطلع إلى الموظف خشية أن يلاحظ المهزلة.

دعاها الموظف للجلوس قبالة أحد مكاتب ثلاثة من طراز لويس الخامس عشر، كل واحد منها يُستخدم كمنضدة بيع فردية، ونشر فوق المنضدة منديلاً ناصعاً. ثم جلس في مواجهة لازارا، وراح ينتظر.

ـ أي خدمة أستطيع تقديمها؟

عندئذ نزعت الخواتم، والأساور، والعقود، والأقراط، وكل ما كانت تحمله ظاهراً، وراحت تضعه فوق المكتب بنظام شطرنجي. وقالت إن الشيء الوحيد الذي تريده هو معرفة قيمتها الحقيقية.

وضع الجوهري عدسة المونوكل على عينه اليسرى، وبدأ فحص الحلي بصمت سريري. وبعد مرور بعض الوقت، سألها دون أن يتوقف عن الفحص:

ـ حضرتك من أين؟

لم تكن لازارا تتوقع هذا السؤال. فقالت متنهدة:

ـ آه يا سيدي. من بعيد جداً.

ـ هذا ما تصورته ـ قال.

عاد إلى الصمت ثانية، بينما كانت لازارا تتفحصه دون رحمة بعينيها الذهبيتين الرهيبتين. اهتم الجوهري اهتماماً خاصاً بالإكليل الماسي، ووضعه بعيداً عن المجوهرات الأخرى. تنهدت لازارا وقالت:

ـ أنت نموذج كامل لبرج العذراء.

لم يوقف الجوهري فحوصاته:

ـ كيف تعرفين ذلك؟

ـ من طريقتك ـ قالت لازارا.

لم ينطق بأي تعليق إلى أن انتهى، وعندئذ توجه إليها بالوقار الذي قابلها به في البداية:

ـ من أين أتى هذا كله؟
فقالت لازارا بصوت متوتر:
ـ ارث جدتي. لقد توفيت السنة الماضية في باراماريبو عن سبعة وسبعين عاماً.
نظر الجوهري حينئذ إلى عينيها وقال لها: «آسف جداً. ولكن القيمة الوحيدة لهذه الأشياء هو ما تزنه ذهباً». ثم أمسك الإكليل بأطراف أصابعه وجعله يتلألأ تحت النور المبهر، وقال:
ـ باستثناء هذا، إنه قديم جداً، ربما هو مصري، ولولا سوء حالته لكان لا يقدر بثمن. ولكن ما زالت له على أي حال قيمة تاريخية.
أما أحجار الحلي الأخرى: الجمشت، والزمرد، والياقوت، والأوبال، فكانت كلها ودون استثناء مزيفة. قال الجوهري وهو يجمع الحلي ليعيدها إليها: «لا ريب في أن الأحجار الأصلية كانت جيدة. ولكن خلال انتقالها الطويل من جيل إلى آخر، كانت الأحجار الأصلية تختفي في الطريق، وتحل محلها أعقاب قوارير». شعرت لازارا بغثيان أخضر، فأخذت نفساً عميقاً وضبطت أعصابها. فقال لها البائع مواسياً:
ـ مثل هذا يحدث بكثرة يا سيدتي.
فقالت لازارا مفرجة عن نفسها:
ـ أعرف. لهذا أريد التخلص منها.
أحست عندئذ بأنها أصبحت بعيدة عن التهريج، وعادت لتصبح هي نفسها. ودون مزيد من اللف والدوران، أخرجت من حقيبتها أزرار معصم القميص، وساعة الجيب، ومشابك ربطات العنق، والأوسمة الذهبية والفضية، وبقية حلي الرئيس الشخصية الرخيصة، ووضعت كل شيء على المنضدة.
ـ وهذه أيضاً؟ ـ سألها الجوهري.
ـ كل شيء ـ قالت لازارا.

الفرنكات السويسرية التي دفعوها لها كانت جديدة جداً، حتى إنها خشيت أن تلوث أصابعها بحبرها الطازج. استلمت النقود دون أن تعدها، وودعها الجوهري عند الباب بالمراسم التي استقبلها بها. وعند المخرج، بينما كان يمسك الباب ليفسح لها الطريق، أوقفها لحظة ليقول لها:

ـ هناك شيء آخر يا سيدتي. أنا من برج القوس.

في أول الليل، حمل هوميرو ولازارا النقود إلى الفندق. وبعد إجراء الحسابات، تبين للرئيس أنه ما زال بحاجة إلى مبلغ صغير آخر، فراح ينزع خاتم زفافه، والساعة ذات السلسلة، وأزرار معصم قميصه ومشبك ربطة عنقه التي يستخدمها، ووضعها كلها على السرير.

أعادت لازارا إليه الخاتم، وقالت:

ـ هذا لا. فتذكار كهذا لا يمكن بيعه.

وافق الرئيس على قولها، وأعاد الخاتم إلى إصبعه. ثم ردت إليه لازارا، بالطريقة نفسها، ساعة الصدار قائلة: «وهذه أيضاً». فلم يوافق الرئيس، لكنها أعادت وضعها في مكانها في جيب صداره وهي تقول:

ـ من يخطر له أن يبيع ساعات في سويسرا؟

ـ لقد بعنا واحدة ـ قال الرئيس.

ـ أجل، ولكننا لم نبعها كساعة، وإنما كذهب.

ـ وهذه أيضاً من الذهب ـ قال الرئيس.

ـ صحيح ـ قالت لازارا ـ ولكن، بإمكانك أن تبقى دون إجراء العملية الجراحية، إنما لا يمكنك البقاء وأنت لا تعرف كم الساعة.

لم تقبل منه كذلك إطار نظارته الذهبي، مع أنه كان يملك إطاراً آخر من عظم ظهر سلحفاة، رازت الحلي التي بقيت في يدها، ووضعت حداً للتردد:

ـ ثم إن هذه كافية.

وقبل أن تخرج، نزعت الملابس المبللة عن حبل الغسيل، دون أن

تستشيره، وأخذتها لتجففها وتكويها في البيت. ذهبا على الدراجة النارية الصغيرة، هوميرو يسوق ولازارا على الشبكة المعدنية خلفه محتضنة خصره. كانت الأنوار العامة قد أضيئت لتوها في ذلك المساء الخبازّي. وكانت الريح قد انتزعت آخر الأوراق، فبدت الأشجار كأنها مستحاثات منتوفة. وكانت سفينة جر تمضي نزولاً في الرون، وفيها مذياع يصدح بأعلى صوت مخلفاً في الشوارع نثارة من الموسيقى. كان جورج براسين يغني:

Mon amour tiens bien la barre, le temps va passer par la, et le temps est un barbare danse le genre d'Attila, par la ou son cheval passe l'amour ne repoussep pas.

وكان هوميرو ولازارا يمضيان بصمت مضمخين بالأغنية ورائحة البنفسج. وبعد قليل، بدت كأنها تستيقظ من حلم طويل.

- كراخو- قالت.

- ماذا؟

- العجوز المسكين - قالت لازارا -، يا لحياته الخرائية!

يوم الخميس التالي، السابع من تشرين الأول، أجريت للرئيس العملية الجراحية التي استغرقت خمس ساعات، وأبقت الأمور حتى تلك اللحظة غامضة كما كانت من قبل. وكان عزاؤهما الوحيد، بكل صرامة، هو معرفتهما أنه مازال حياً. وبعد عشرة أيام نُقل إلى غرفة يتقاسمها مع مرضى آخرين، واستطاعا عندئذ زيارته. كان شخصاً آخر: فقد كان مشعاً وشاحباً، وبشعر خفيف يتساقط بمجرد احتكاكه بالوسادة. ولم يبق له من مهابته السابقة سوى انسيابية حركة يديه. كانت محاولته الأولى للمشي مستنداً إلى عكازين مخيبة للأمل. وقد ظلت لازارا لتنام إلى جواره، موفرة عليه بذلك أجور ممرضة ليلية. وفي الليلة الأولى، أمضى أحد مرضى الصالة الليل كله وهو يصرخ لخوفه من الموت. وقد قضت ليالي الأرق

الطويلة تلك على آخر شكوك لازارا.

وبعد أربعة شهور على وصوله إلى جنيف، سمحوا له بالخروج من المستشفى. فقام هوميرو الذي كان المشرف الدقيق على أرصدته الزهيدة، بدفع حساب المستشفى، ثم أخذه في سيارة الإسعاف مع موظفين آخرين ساعدوه في حمله حتى الطابق الثامن، واستقر هناك في غرفة الطفلين اللذين لم يتعرف عليهما قط، وبدأ يعود إلى الواقع شيئاً فشيئاً. انهمك في التمارين العلاجية بانضباط عسكري إلى أن أصبح قادراً على المشي بعكازه الوحيد السابق. ولكنه، حتى وهو يرتدي ملابسه القديمة، كان بعيداً عن أن يكون هو نفسه، سواء في مظهره أو في أسلوبه في الحياة. ولخشيته من الشتاء الذي كان قد بدأ ينذر بقسوته، وكان في الواقع أقسى شتاء في سنوات القرن، قرر العودة إلى المارتينيك في سفينة تغادر مرسيليا يوم الثالث عشر من كانون الأول، بالرغم من معارضة الأطباء الذين أرادوا إبقاءه تحت المراقبة لفترة أخرى. وفي اللحظة الأخيرة تبين له أن ما بقي من النقود لا يكفي لكل ذلك: فأرادت لازارا أن تستكمل النقص دون إخبار زوجها بأخذ حفنة من مدخرات ابنيها، ولكنها لم تجد هناك المبلغ الذي كانت تفترض وجوده. عندئذ اعترف لها هوميرو بأنه قد أخذ جزءاً من المبلغ دون أن يخبرها ليستكمل نفقات المستشفى.

ـ حسن ـ قالت لازارا بإذعان ـ فلنقل إنه كان ابننا الكبير.

في الحادي عشر من كانون الأول، أركباه في القطار المسافر إلى مرسيليا وسط عاصفة ثلجية قوية، وعندما رجعا إلى البيت فقط، وجدا رسالة وداع على الكوميدينو في غرفة الأطفال. وكان قد ترك أيضاً خاتم زفافه هدية لابنتهما باربارا، ومعه خاتم زوجته المتوفاة الذي لم يفكر في بيعه قط، والساعة ذات السلسلة هدية للازارو الصغير، ولأن اليوم كان يوم أحد، فإن بعض الجيران من أهالي الكاريبي الذين كانوا قد اكتشفوا السر، ذهبوا إلى محطة

كورنافي ومعهم فرقة موسيقى قرب من فيراكروث. كان الرئيس خامد الأنفاس بالمعطف الفاسد ولفاع عنق طويل ملون كانت تستخدمه لازارا، وعلى الرغم من ذلك ظل واقفاً في المكان المخصص للحارس في نهاية العربة الأخيرة من القطار، يودعهم ملوحاً بقبعته تحت عصف الريح الشديدة. وكان القطار قد بدأ يتحرك عندما انتبه هوميرو إلى أنه مازال يحمل عكاز الرئيس. فركض إلى حافة الرصيف وقذف العكاز بكل قوته لكي يتلقفه الرئيس في الهواء، لكنه سقط بين العجلات وتحطم. كانت لحظة مرعبة. الشيء الأخير الذي رأته لازارا هو اليد المرتعشة الممتدة لالتقاط العكاز الذي لم يصل، وحارس القطار الذي تمكن من إمساك العجوز المغطى بالثلج من لفاع عنقه، وأنقذه من الوقوع في الفراغ. ركضت لازارا مذعورة للقاء زوجها، وحاولت أن تضحك من وراء الدموع وهي تصرخ قائلة:

- رباه، هذا الرجل لن يموت بأي شيء.

وصل سالماً ومعافى، كما أخبرهما في برقية الشكر المطولة. ولم يعرفا عنه شيئاً طوال أكثر من سنة. وأخيراً وصلتهما رسالة من ست صفحات كتبها بخط يده، وقد أصبح من المستحيل التعرف عليه من خلالها. كان الألم قد عاد إليه، شديداً وفي مواعيد دقيقة مثلما كان في السابق، ولكنه قرر عدم الاهتمام به وعيش الحياة مثلما تأتي. وقد أهدى إليه الشاعر إيميه سيزيه عكازاً آخر مرصعاً بالصدف، لكنه قد قرر عدم استخدامه. وكان يأكل اللحم بانتظام منذ ستة أشهر، وكذلك جميع أنواع الأحياء البحرية، وقادراً على تناول حتى عشرين فنجاناً من القهوة الثقيلة. ولكنه لم يعد يقرأ طالعه في قعر الفناجين، لأن تنبؤاته كانت تأتي معاكسة للواقع. ويوم أكمل الخامسة والسبعين من عمره، تناول عدة كؤوس لذيذة جداً من روم المارتينيك، جعلته يشعر بأنه على ما يرام. كما أنه عاد إلى التدخين. إنه لا يشعر بأن حاله أفضل بالطبع، ولكنها ليست

أسوأ كذلك. وبعد، فقد كان السبب الحقيقي لتلك الرسالة هو إطلاعهما على رغبته في العودة إلى بلاده ليقف على رأس حركة تجديدية، من أجل قضية عادلة ووطن كريم، ولو أنه لن يكسب من ذلك سوى المجد البائس وعدم الموت في سريره كشيخ هرم. وتنتهي الرسالة إلى القول بأن الرحلة إلى جنيف، بهذا المعنى، كانت أمراً صادراً عن العناية الإلهية.

حزيران 1979

القديسة

La santa

بعد اثنتين وعشرين سنة، عدت لألتقي ثانية بمرغريتو دوارتي. ظهر لي فجأة في أحد أزقة تراستيفيري السرية، وقد وجدت مشقة في التعرف إليه للوهلة الأولى بسبب صعوبة نطقه اللغة القشتالية وهيئته التي تشبه هيئة روماني قديم. كان شعره أبيض وخفيفاً، ولم يبق فيه أي أثر من السلوك الكئيب أو من ملابس المثقف الأنديزي الجنائزي التي جاء بها إلى روما أول مرة، لكنني في سياق الحديث معه رحت أجرده شيئاً فشيئاً من غدر سنوات حياته إلى أن عدت أراه مثلما كان، صموتاً ومباغتاً، وعنيداً مثل قاطع أحجار. وقبل فنجان القهوة الثاني في أحد بارات أزمنتنا السابقة، تجرأت على أن أوجه إليه السؤال الذي كان ينهشني من الداخل:

- ماذا جرى للقديسة؟

- القديسة هنا. إنها تنتظر - أجابني.

ولم يكن بإمكان أحد سوى صاحب صوت التِنور الصادح رافائيل ريبيرو سيلفا وسواي أنا، يمكنه أن يدرك حقيقة الشحنة الإنسانية الرهيبة في جوابه. فقد كنا نعرف مأساته بدقة إلى الحد الذي جعلني أفكر خلال سنوات طويلة في أن مرغريتو دوارتي هو الشخصية الباحثة عن مؤلف، والتي ننتظرها نحن الروائيين طوال حياة كاملة. وإذا كنت لم أترك هذه الشخصية تعثر عليّ، فلأنني رأيت أن نهاية قصته تبدو غير معقولة.

كان قد جاء إلى روما في ذلك الربيع المشع الذي أصيب فيه البابا بيوس الثاني عشر بنوبة فواق لم تنفع في علاجها كل وسائل

الأطباء والمشعوذين الحميدة والخبيثة. وكان ذلك هو خروجه الأول من قريته الجبلية الوعرة توليما، الواقعة في سلسلة جبال الأنديز الكولومبية، وكان ذلك يبدو عليه بوضوح حتى في طريقة نومه. فقد ظهر في أحد الأيام في قنصلية بلادنا ومعه حقيبة مصنوعة من خشب الصنوبر المصقول، تبدو في شكلها وحجمها، مثل علبة فيولونسيل، وعرض على القنصل السبب المفاجئ لزيارته. عندئذ اتصل القنصل هاتفياً بمواطنه ذي الصوت الصادح رافائيل ريبيرو سيلفا، ليجد له غرفة في النزل الذي كنا نعيش فيه كلانا. وهكذا تعرفت عليه.

لم يكن مرغريتو دوارتي قد تخطى مرحلة الدراسة الابتدائية، لكن ميله إلى الآداب الجميلة وفر له تكويناً أكثر اتساعاً، من خلال القراءة النهمة لكل مادة مطبوعة تقع بين يديه. وفي الثامنة عشرة من عمره، حين أصبح الكاتب العمومي المشهور في المقاطعة، تزوج من فتاة جميلة، ما لبثت أن توفيت بعد فترة قصيرة من ولادة ابنتهما البكر. وهذه الابنة التي كانت أكثر جمالاً من أمها، توفيت بدورها بحمى غامضة وهي في السابعة من عمرها. لكن قصة مرغريتو دوارتي الحقيقية بدأت قبل ستة شهور من مجيئه إلى روما، حين كان لا بد من نقل مقبرة قريته لبناء سدّ في الموقع. ومثله مثل جميع سكان المنطقة، نبش مرغريتو عن عظام موتاه لينقلها إلى المقبرة الجديدة. كانت الزوجة قد صارت رميماً. أما في القبر المجاور، فكانت الطفلة لا تزال سليمة تماماً بعد مرور إحدى عشرة سنة على دفنها. حتى إنهم حين نزعوا غطاء التابوت، فاحت منه رائحة الورود الندية التي دُفنت معها. لكن الأمر الأكثر غرابة هو أنه لم يكن للجسد أي وزن.

غصت القرية بمئات الفضوليين الذين اجتذبتهم أصداء المعجزة. لم يكن هناك أي شك. فعدم تفسخ الجسد كان علامة لا لبس فيها من علامات القداسة. وحتى مطران الأبرشية نفسه وافق على ضرورة

عرض هذه الأعجوبة على هيئة التحكيم في الفاتيكان. وهكذا جرت حملة تبرعات عامة لتمكين مرغريتو دوارتي من السفر إلى روما، ليناضل من أجل قضية لم تعد تخصه وحده، أو تخص مجتمع قريته الضيق، بل قضية الأمة بأسرها.

وبينما هو يروي لنا قصته في نزل حي باريولي الهادئ، نزع مرغريتيو دوارتي القفل، وفتح غطاء الصندوق المتقن الصنع. وهكذا كان أن اشتركت أنا والصادح ريبيرو سيلفا في المعجزة. لم تكن مومياء ذاوية مثل تلك التي يمكن رؤيتها في متاحف كثيرة في العالم، وإنما طفلة ترتدي ثوب عروس، ولا تزال نائمة بعد إقامة طويلة تحت الأرض. كانت البشرة صافية، والعينان المفتوحتان اللامعتان تثيران في النفس انطباعاً لا يطاق بأنهما تريانا عبر الموت. قطعة الساتان والأزهار الاصطناعية التي صنع منها الإكليل لم تستطع مقاومة قسوة الزمان والبقاء بحالة جيدة كما البشرة، أما الأزهار الطبيعية الموضوعة في يدها فكانت لا تزال حية. ووزن الصندوق الخشبي بقي بالفعل على حاله عندما أخرجنا الجسد منه.

بدأ مرغريتو دوارتي مساعيه منذ اليوم التالي لوصوله. وتلقى في أول الأمر مساعدة دبلوماسية فيها من الشفقة أكثر مما فيها من الفعالية، ثم بدأ يلجأ إلى كل ما يخطر لباله من الحيل لتجاوز عقبات الفاتيكان التي لا حصر لها. وقد كان متحفظاً على الدوام في ما يتعلق بمساعيه، ولكن المعروف عنها أنها كانت كثيرة وغير مجدية. لقد اتصل بكل الجمعيات الدينية والهيئات الإنسانية التي صادفها في طريقه، حيث كانوا يستمعون إليه باهتمام، ولكن دون دهشة، ويعدونه بإجراءات فورية لم تصل قط إلى النهاية المنشودة. والحقيقة أن تلك الفترة لم تكن بالفترة المناسبة. فكل ما هو مرتبط بالكرسي الرسولي كان مؤجلاً إلى أن يتجاوز البابا أزمة الفواق التي بقيت صامدة، ليس أمام أرقى المراجع الطبية الأكاديمية وحسب، وإنما كذلك أمام أساليب العلاج السحرية التي كانت

تتوارد من كل أرجاء العالم.

وأخيراً، في شهر تموز، شفي بيوس الثاني عشر وذهب لقضاء إجازته الصيفية في قلعة غاندولفو. فحمل مرغريتو القديسة إلى أول جلسة عامة أسبوعية للبابا على أمل أن يعرضها عليه. ظهر البابا في البهو الداخلي، على شرفة منخفضة جداً لدرجة أن مرغريتو استطاع أن يرى أظفاره المشذبة جيداً وأن يحس بأنفاسه العابقة برائحة الخزامى. ولكن البابا لم يَجُل بين السائحين القادمين من كل أرجاء الدنيا لرؤيته، مثلما كان يأمل مرغريتو، وإنما اكتفى بإلقاء الخطبة نفسها بسبع لغات، وانتهى بمنح مباركته العامة.

بعد كل هذا التأجيل، قرر مرغريتو أن يتصدى للأمور بنفسه، وقدم إلى سكرتارية دولة الفاتيكان رسالة خطية من نحو ستين ورقة، لم يتلق رداً عليها. كان قد تنبأ بذلك. فالموظف الذي استلمها منه حسب الشكليات الرسمية الصارمة، لم يكد يتكرم بإلقاء نظرة رسمية إلى الطفلة الميتة؛ والموظفون الذين كانوا يمرون قريباً منه حينئذ، كانوا ينظرون إليها دون أي اهتمام. وقد روى له أحدهم أنهم تلقوا في السنة السابقة أكثر من ثمانمئة رسالة تطالب بتطويب جثث لم تتفسخ في أماكن مختلفة من العالم. فطلب مرغريتو من الموظف أخيراً أن يختبر بنفسه انعدام وزن الجسد. فاختبره الموظف، لكنه رفض الاقرار بانعدام الوزن قائلاً:

ـ لا بد أن يكون الأمر مجرد وهم جماعي.

كان مرغريتو يقضي ساعات فراغه القليلة في أيام الآحاد الصيفية المجدبة، في غرفته بالنزل، مستغرقاً في قراءة أي كتاب يبدو له مفيداً لقضيته. وفي آخر كل شهر، وبمبادرة شخصية منه، كان يسجل في دفتر مدرسي قائمة مفصلة بنفقاته، بخطه البديع ككاتب عمومي عظيم، لكي يقدم كشفاً دقيقاً وموثقاً بحساباته إلى المساهمين بالنفقات في قريته. وقبل أن تنتهي السنة، كان قد تعرف على متاهات روما كمن ولد فيها. وكان يتكلم بلغة إيطالية طليقة

وقليلة الكلمات مثلما يتكلم قشتاليته الأنديزية. وكان يعرف أكثر من أي شخص آخر تفاصيل عمليات تطويب القديسين. ولكن زمناً طويلاً انقضى قبل أن يستبدل بدلته الجنائزية، وصداره وقبعة القضاة التي كانت تستخدمها في روما تلك الحقبة بعض الجمعيات السرية التي لا تُشهر أهدافها. وكان يخرج منذ الصباح الباكر حاملاً صندوق القديسة، ويرجع أحياناً في ساعة متأخرة من الليل، منهوكاً وحزيناً، ولكن مع قبس من الأمل دائماً يبثه حماسة جديدة لليوم التالي.

ـ القديسون يعيشون زمنهم الخاص ـ كان يقول.

كنت موجوداً آنذاك في روما أول مرة، وكنت أدرس في المركز السينمائي التجريبي، وقد عشت عذاباته بزخم لا يُنسى. النزل الذي كنا نقيم فيه كان في الحقيقة شقة حديثة على بعد خطوات قليلة من شارع فيللا بورغيسي، وكانت صاحبة البيت تشغل غرفتين منه وتؤجر أربع غرف أخرى لطلاب أجانب، كنا ندعوها ماريا بيلا، وكانت جميلة ومزاجية في ذروة خريفها، ومخلصة دائماً للقاعدة المقدسة بأن كل واحد هو ملك مطلق في غرفته. والحقيقة أن من كان يتحمل ثقل الحياة اليومية هي أختها الكبرى، الخالة أنطونيتا، ملاك دون أجنحة، تعمل ساعات طويلة كل يوم، وتتنقل بسطلها وممسحتها لتلمع الأرضية الرخامية أكثر مما يمكن تلميعها. وهي التي علمتنا أكل العصافير المغردة التي يصطادها زوجها بارتوليني بحكم عادة سيئة بقيت له من الحرب، وهي التي أخذت مرغريتو ليعيش في بيتها عندما لم تعد موارده تكفي لأسعار ماريا بيلا.

لم يكن هناك ما هو أقل موافقة لأسلوب مرغريتو في الحياة من ذلك البيت الذي ليست له قوانين، والذي يحتفظ لنا بالمفاجآت في كل ساعة، حتى في ساعات الفجر، عندما كان يوقظنا زئير رهيب يطلقه أسد حديقة الحيوان في شارع فيللا بورغيسي. كان مغني التينور ريبيرو سيلفا قد حقق امتياز جعل أهالي روما يعجزون عن مقاومة الاستماع إلى بروفات غنائه الصباحية الباكرة. فقد كان

ينهض في السادسة صباحاً، فيستحم حمامه الطبي بماء مثلج ويشذب لحية وحواجب ميفيستوفيليس التي له، وحين يصبح جاهزاً بعباءته ذات المربعات الاسكتلندية، ولفاع رقبته الحريري وعطره الخاص، عندئذ فقط، يستسلم جسداً وروحاً لتمريناته الغنائية. كان يفتح نافذة غرفته على مصراعيها، حتى عندما تكون النجوم الشتائية في السماء، ويبدأ بتحمية صوته بعبارات متدرجة من أغنيات الحب التي تؤدى بصوت منفرد، إلى أن ينطلق في غنائها بملء صوته. وكانت المفاجأة اليومية المنتظرة هي أنه حين يطلق «دو» صدره، يرد عليه أسد فيللا بورغيسي بزئير يزلزل الأرض.

فكانت الخالة أنطونيتا تهتف بذهول أحياناً:

ـ أنت القديس ماركوس مجسداً يا بني. فهو وحده الذي كان قادراً على مخاطبة الأسود.

وفي صباح أحد الأيام، لم يكن الأسد هو الذي ردّ عليه. فما إن بدأ ذو الصوت الصادح لحن الحب الغنائي من ***عطيل***:

Gia nella notte s'estingue ogni clamor

حتى جاءنا فجأة، من أقصى الفناء، الرد بصوت ندي بديع. واصل ذو الصوت الصادح، وأكمل الصوتان معاً غناء القطعة كاملة لبعث المسرة في قلوب الجيران الذين فتحوا نوافذهم ليطهروا بيوتهم بسيل ذلك الحب الذي لا يُقاوم. وكاد ذو الصوت الصادح أن يسقط مغمياً عليه حين عرف أن ديدمونته غير المرئية لم تكن إلا ماريا كاينغليا العظمى.

لدي انطباع بأن تلك الحادثة هي التي شكلت مبرراً مناسباً لمرغريتو دوارتي كي يندمج في حياة البيت. فمنذ ذلك الحين، بدأ يجلس مع الجميع إلى المائدة المشتركة وليس في المطبخ، كما كان يفعل في السابق، حيث كانت الخالة أنطونيتا ترضيه بشكل شبه يومي بوجبة متقنة من العصافير المغردة. كانت ماريا بيلا تقرأ لنا ونحن على المائدة، الصحف اليومية كي نعتاد على اللفظ الإيطالي،

وتكمل الأخبار بتعسف وظرف يبعثان المرح أحياناً في حياتنا. وقد روت لنا في أحد تلك الأيام، ملمحة إلى وضع القديسة، أنه يوجد في مدينة باليرمو متحف ضخم يضم جثثاً غير متفسخة لرجال ونساء وأطفال. وأن بينهم كذلك عدد من الأساقفة، نُبش عنهم في مقبرة الآباء الكبوشيين نفسها. وقد أقلق الخبر مرغريتو الذي لم يعد يعرف لحظة سلام واحدة إلى أن ذهبنا إلى باليرمو. ولكنه اكتفى بنظرة سريعة عابرة على الأروقة التي تعرض فيها تلك الموميات غير المجدية ليطلق حكماً فيه العزاء:

ـ الحالة ليست مماثلة. فهؤلاء يبدو واضحاً على الفور أنهم ميتون.

بعد الغداء، تموت روما عادة في سبات آب. فشمس الظهيرة تبقى ثابتة في كبد السماء، ولا يُسمع في صمت الساعة الثانية بعد الظهر سوى خرير الماء، وهو الصوت الطبيعي لروما. ولكن النوافذ تُفتح في نحو الساعة السابعة مساء لاستدعاء الهواء البارد الذي يكون قد بدأ بالتحرك، وتخرج إلى الشوارع جموع متهللة لا هدف لها سوى العيش، وسط فرقعة الدراجات النارية، ونداءات بائعي البطيخ، وأغاني الحب بين أزهار الشرفات.

لم نكن أنا والصادح ننام القيلولة. فكنا نخرج معاً على دراجته الفيسبا، هو يقودها وأنا خلفه على الشبكة الحديدية، وكنا نأخذ المثلجات والشيكولاته إلى عاهرات الصيف اللواتي يحوّمن تحت أشجار الغار المعمرة في جادة بيللا بورغيسي بحثاً عن سائحين مؤرقين في عز الظهيرة. كن جميلات وفقيرات وودودات مثل معظم إيطاليات ذلك الزمان، وكن يرتدين ثياباً من الأورغنزة الزرقاء، أو من البوبلين الوردي أو الكتان الأخضر، ويحتمين من الشمس بالمظلات التي أكلتها العثة أثناء أمطار الحرب الأخيرة. كانت مرافقتهن متعة إنسانية، لأنهن كن يقفزن فوق قوانين المهنة أحياناً ويسمحن لأنفسهن بترف فقدان زبون جيد كي يذهبن معنا لتناول فنجان قهوة مع حديث مطول في مقهى الناصية القريبة، أو التنزه في

عربات الأجرة التي تجرها الخيول عبر دروب الحديقة، أو التألم معنا على مصير الملوك المخلوعين عن عروشهم مع عشيقاتهم المأساويات وهم يمتطون الجياد عند الغروب في مضمار غالوباتويو. وفي أكثر من مناسبة، كنا نقدم لهن خدماتنا كمترجمين مع زبون غرينغو تائه.

لم يكن ذهابنا بمرغريتو دوارتي إلى جادة فيللا بورغيسي من أجلهن، وإنما أخذناه ليتعرف على الأسد. كان يعيش في جزيرة صغيرة مقفرة يحيط بها خندق عميق. وما إن لمحنا على الضفة الأخرى للخندق حتى بدأ يزأر بهياج فاجأ حارسه. وهرع رواد الحديقة مذعورين. فحاول ذو الصوت الصادح أن يعرّف بهويته بإطلاق «الدو» الصباحي الذي يخرج من أعماق صدره، لكن الأسد لم يوله أي اهتمام. بدا كأنه يزأر متوجهاً إلينا جميعاً دون تمييز، لكن الحارس انتبه في الحال إلى أن زئيره موجه إلى مرغريتو وحده. وقد كان الأمر كذلك فعلاً: فحيثما تحرك كان الأسد يتحرك، وما إن يختفي حتى يتوقف عن الزئير. والحارس الذي كان دكتوراً في الآداب الكلاسيكية من جامعة سينه، فكر في أن مرغريتو كان اليوم دون ريب مع أسود أخرى، وأن رائحتها قد انتقلت إليه. وسوى هذا التفسير ـ الذي لم يكن صالحاً ـ لم يكن لديه تفسير آخر.

ـ الزئير ليس حربياً على أي حال ـ قال ـ، بل هو زئير حنان.

ما أذهل الصادح ريبيرو سيلفا، مع ذلك، لم يكن هذا الحادث الخارج عن المألوف، وإنما اضطراب مرغريتو عندما توقفنا لتبادل الحديث مع فتيات الحديقة. لقد روى لنا ذلك ونحن على المائدة، وقد اتفق الجميع، بعضهم بدافع المزاح وبعضهم الآخر بدافع التفهم، على أنه من الواجب مساعدة مرغريتو في حل مشكلة عزلته. وتأثرت ماريا بيلا بطيبة قلوبنا، فضغطت على صدر الأم التوراتية الحنون بيديها المرصوفتين بخواتم مقلدة، وقالت:

ـ أنا مستعدة لعمل ذلك على سبيل الإحسان، لولا أنه لا قدرة لي على تحمل الرجال الذين يلبسون صداراً.

وهكذا كان أن مرّ الصادح في شارع فيللا بورغيسي في الساعة الثالثة بعد الظهر، وأحضر على دراجته الفيسبا الفراشة التي بدت له مناسبة لمنح مرغريتو دواتري ساعة من الصحبة الطيبة. جعلها تتعرى في غرفته، وحممها بصابون معطر، وجففها، وعطرها بعطره الشخصي، ورش جسدها كله ببودرة التالك الممزوجة بالكافور التي يستخدمها بعد حلاقة ذقنه. وأخيراً دفع لها قيمة الوقت الذي مضى، وأضاف إليه أجرة ساعة أخرى، ولقنها كل ما عليها أن تفعله حرفاً حرفاً.

اجتازت الحسناء العارية البيت المعتم على رؤوس أصابعها، كأنها حلم قيلولة، وطرقت طرقتين رقيقتين على باب الغرفة الأخيرة. فتح لها الباب مرغريتو دوارتي الذي كان حافياً ودون قميص.

قالت له بصوت وأسلوب تلميذة:

- *Buona sera giovanotto. Mi manda il tenre.*[1]

تمثل مرغريتو الصفعة بوقار عظيم. فتح الباب ليفسح لها الطريق، فاستلقت على السرير بينما هو يتعجل في لبس قميصه وحذائه ليقوم بما يقتضيه الواجب نحوها بالاحترام اللائق. وأخيراً جلس إلى جوارها على الكرسي، وبدأ الحديث معها. فوجئت الفتاة بسلوكه وطلبت منه أن يسرع، لأن لديه ساعة واحدة فقط. ولكن لم يبد عليه ما يدل على أنه قد فهم.

وقد قالت الفتاة في ما بعد إنها كانت مستعدة على أي حال للبقاء معه كل الوقت الذي يريده دون أن تأخذ منه سنتاً واحداً، لأنه لا يمكن أن يكون هناك في العالم رجل مقبول أكثر منه. ولأنها لم تكن تدري ما الذي ستفعله في الوقت المتبقي، فقد راحت تتفحص الحجرة بنظرها، ولاحظت وجود الصندوق الخشبي فوق المدفأة. وسألته إذا كان فيه ساكسيفون، لكن مرغريتو لم يجب على

---

[1] بالإيطالية في الأصل: مساء الخير أيها الشاب. لقد أرسلني الصادح.

سؤالها، بل أزاح الستارة قليلاً كي يدخل بعض الضوء، ثم حمل العلبة إلى السرير ورفع عنها الغطاء. حاولت الفتاة أن تقول شيئاً، لكن فكها السفلي ارتخى. أو كما قالت لنا في ما بعد *Mi si gelo il culo*.[1] هربت من الحجرة مذعورة، لكنها أخطأت التوجه في الممر، ووجدت نفسها وجهاً لوجه مع الخالة أنطونيتا التي كانت آتية لتركب مصباحاً جديداً في غرفتي. وقد أصاب الاثنتين فزع شديد لم تتجرأ الفتاة معه على مغادرة حجرة الصادح حتى ساعة متأخرة من الليل.

لم تعرف الخالة أنطونيتا قط حقيقة ما حدث. فقد دخلت إلى غرفتي وهي مذعورة جداً، حتى إنها لم تستطع تركيب المصباح في مكانه بسبب ارتعاش يديها. سألتها عما حدث لها، فقالت: «هذا البيت مرعب. حتى الآن ونحن في عز النهار». وروت لي باقتناع تام أن ضابطاً ألمانياً كان قد ذبح عشيقته خلال الحرب في الغرفة التي يشغلها الصادح. وأن الخالة أنطونيتا رأت عدة مرات، وهي تمارس عملها، شبح الحسناء القتيلة يلتقط خطواته في الممرات. ثم قالت:

- لقد رأيتها تمشي الآن عارية في الممر. إنها هي نفسها.

استعادت المدينة إيقاعها المعتاد في الخريف. وأُغلقت مقاهي الرصيف التي كانت مزدهرة في الصيف مع هبوب الرياح الأولى، ورجعنا أنا والصادح إلى حانة تراستيفيري، حيث اعتدنا تناول العشاء مع تلاميذ الكونت كارلو كالكاجني في الغناء، وبعض زملائي في معهد السينما. وكان أكثر هؤلاء الزملاء مثابرة هو لاكيس، شاب يوناني ذكي ولطيف، الشيء المزعج الوحيد فيه خطاباته المُنوِّمة عن الظلم الاجتماعي. ومن حسن الحظ أن ذوي الأصوات الصادحة والندية كانوا يهزمونه في معظم الأحيان بغناء مقاطع من الأوبرات بأعلى أصواتهم، دون أن يزعجوا أحداً مع ذلك، حتى بعد منتصف الليل. بل إن بعض الساهرين العابرين كانوا ينضمون إلى

---

[1] لقد تجمدت مؤخرتي.

الكورال، ويفتح ساكنو البيوت المجاورة نوافذهم للتصفيق.

في إحدى الليالي، وبينما نحن نغني، دخل مرغريتو على رؤوس أصابعه كي لا يزعجنا. وكان يحمل معه صندوق خشب الصنوبر الذي لم يكن لديه متسع من الوقت لحمله إلى النزل بعد أن عرض القديسة على كاهن سان خوان دي ليتراس الذي كان تأثيره على جمعية إجراءات التطويب معروفة للملأ. وقد لمحته بصورة عرضية وهو يضع الصندوق تحت طاولة منعزلة، ويجلس منتظراً أن ننتهي من الغناء. ومثلما يحدث دائماً عند حدود منتصف الليل، جمعنا عدة موائد عندما بدأت الحانة تخلو من الزبائن، وبقينا وحدنا نحن الذين نغني ونتجادل حول السينما وأصدقاء الجميع. وبين هؤلاء كان مرغريتو دوارتي الذي أصبح معروفاً هناك بأنه الكولومبي الصامت والكئيب الذي لا يعرف أحد عنه شيئاً. سأله لاكيس، بخبث، إن كان يعزف الفيولونسيل. فشعرت بالذهول للسؤال الذي بدا لي طيشاً لا يمكن تفسيره. ولم يتمكن الصادح الذي بوغت مثلي، من ترقيع الموقف. وكان مرغريتو هو الوحيد الذي أخذ السؤال على محمل الجد. فقال:

ـ هذا ليس فيولونسيل. إنها القديسة.

وضع الصندوق على المنضدة، وفتح القفل، ثم رفع الغطاء. فهزت المطعم ومضة ذهول. وتجمع الزبائن الآخرون والندل، ثم جاء أخيراً العاملون في المطبخ بمرايلهم الملطخة بالدم، والتف الجميع مذهولين لمشاهدة المعجزة. رسم بعضهم على صدره إشارة الصليب. وجثت إحدى الطاهيات وهي تضم كفيها وقد أصابتها قشعريرة حمى، وراحت تصلي بصمت.

مع ذلك، وبعد أن مضى انفعال المفاجأة، خضنا نقاشاً متشعباً وبأصوات صارخة حول قصور القداسة ومحدوديتها في زمننا. وكان لاكيس هو أكثرنا راديكالية بالطبع. والشيء الوحيد الذي بقي واضحاً في النهاية هي فكرته عن صنع فيلم نقدي حول موضوع

القديسة. وقال:

- إنني واثق من أن سيسر العجوز سيساعدنا على تمرير هذا الموضوع.

وكان يشير بذلك إلى سيسر زافاتيني، أستاذ مادة الفكرة والسيناريو السينمائيين، وأحد العظماء في تاريخ السينما، والأستاذ الوحيد الذي كان يقيم علاقات شخصية معنا على هامش الدراسة في المعهد. لم يكن يتوقف عند محاولة تعليمنا المهنة وحدها، وإنما كذلك طرقاً مختلفة لرؤية الحياة. لقد كان آلة لإبداع أفكار الأفلام السينمائية. وكانت الأفكار تخرج منه متدفقة، ورغماً عنه تقريباً. وكانت تأتيه بسرعة كبيرة، حتى إنه كان يحتاج دائماً لمساعدة أحد كي يلتقط الأفكار منه وهو يفكر بصوت عالٍ. ولكنه ما إن ينتهي من إملاء تلك الأفكار حتى يفقد الحماسة. «من المؤسف أنها ستتحول إلى فيلم»، هكذا كان يقول. فقد كان يرى أن الشاشة تضيع الكثير من سحر أفكاره الأصلي. كان يحتفظ بالأفكار مصنفة في بطاقات حسب موضوعاتها، مثبتة بدبابيس على الجدران. وكان لديه من تلك البطاقات ما يكفي لملء إحدى غرف بيته.

ذهبنا يوم السبت التالي لمقابلته ومعنا مرغريتو دوارتي. كان شرهاً إلى الحياة لدرجة أننا وجدناه عند باب بيته في شارع أنجيلا ميريسي، يتشوق جزعاً للفكرة التي أخبرناه بها بالهاتف. حتى إنه لم يصافحنا بمودته المعهودة، وإنما قاد مرغريتو إلى منضدة معدة سلفاً، وفتح العلبة بنفسه. حينئذ حدث ما لم نكن نتصوره. فبدلاً من أن يجن جنونه، كما كنا نتوقع، أحس بنوع من الشلل الذهني. ثم همس مذعوراً:

- *Ammazza!*

نظر إلى القديسة بصمت دقيقتين أو ثلاث دقائق، ثم أغلق الصندوق بنفسه، ودون أن يقول شيئاً، قاد مرغريتو إلى الباب، كأنه يقود طفلاً يخطو خطواته الأولى. وودعه مربتاً على ظهره، وقال له:

«شكراً يا بني، شكراً جزيلاً. وليكن الرب معك في نضالك».
وعندما أغلق الباب، رجع إلينا وأطلعنا على حكمه:
- لا تنفع للسينما، لن يصدق أحد الأمر.
وقد رافقنا هذا الدرس المفاجئ في ترام العودة. إذا كان هو قد قال ذلك، فيجب عدم التفكير في الأمر أبداً: القصة لا تنفع. ومع ذلك، استقبلتنا ماريا بيلا برسالة مستعجلة تقول إن زافاتيني سيكون بانتظارنا هذه الليلة بالذات، ولكن دون اصطحاب مرغريتو.
وجدناه في إحدى لحظات تألقه، وكان لاكيس قد أحضر معه اثنين أو ثلاثة من مريديه، ولكنه بدا كأنه لم يرهم حين فتح الباب، وهتف قائلاً:
- لقد وجدت الفكرة. سيكون الفيلم قنبلة إذا استطاع مرغريتو تحقيق معجزة بعث الطفلة حية من جديد.
- في الفيلم أم في الحياة؟ - سألته.
قمع هذه العقبة قائلاً لي: «لا تكن أحمق». ولكننا لمحنا فوراً في عينيه بريق فكرة لا تُقاوم. «لو أنه يستطيع بعثها حية في الحياة الواقعية»، قال ذلك، ثم فكر بجدية:
- عليه أن يجرب.
كانت عبارته وسواساً عابراً قبل أن يمسك الخيط ثانية، ثم بدأ يذرع الغرفة مثل مجنون سعيد، محركاً يديه وملقياً علينا أفكار الفيلم بصوت عالٍ. كنا نستمع إليه بذهول كأننا نرى الصور مثل عصافير متألقة تنطلق أفواجاً وتحلق بجنون في كل أنحاء البيت.
- في إحدى الليالي - قال -، بعد أن يكون عشرون بابا قد تبدلوا دون أن يقابلوه، يدخل مرغريتو إلى بيته، متعباً وهرماً، يفتح الصندوق. يداعب وجه الميتة الصغيرة، ويقول لها بكل ما في الدنيا من حنان: «حباً بأبيك يا بنتي: انهضي وامشي».
نظر إلى الجميع، وأنهى كلامه بحركة انتصارية:
- فتنهض الطفلة!

كان ينتظر شيئاً منا. ولكننا كنا حائرين إلى حد لم نجد معه ما نقوله، باستثناء لاكيس، اليوناني، الذي رفع يده كما في المدرسة ليطلب الإذن بالكلام.

ـ مشكلتي أنني لا أستطيع تصديق ذلك ـ قال. وأمام ذهولنا، اتجه مباشرة إلى زافاتيني:

ـ اعذرني أيها المعلم، ولكنني لا أصدق حدوث ذلك.

ـ ولماذا؟ ـ وكان زافاتيني هو المذهول عندئذ.

فقال لاكيس مغموماً:

ـ وما أدراني. إنه أمر لا يمكن حدوثه.

حينئذ صرخ المعلم بصوت مدوٍ لا بد أن الحي بأسره سمعه:

ـ *¡Ammazza* هذا ما يخوزقني في الستالينيين: إنهم لا يصدقون الواقع.

خلال السنوات الخمس عشرة التالية، وكما روى لي مرغريتو نفسه، حمل القديسة إلى قلعة غاندولفو لعل الفرصة تتاح له لعرضها على البابا. وفي لقاء للبابا مع مئتي حاج من أميركا اللاتينية، تمكن مرغريتو من رواية قصته لقداسة البابا يوحنا الثالث والعشرين، وسط دفع بالأيدي والمرافق، ولكنه لم يستطع أن يعرض عليه الطفلة لأنه اضطر إلى تركها عند المدخل مع أمتعة حجاج آخرين، تحسباً من محاولة اغتيال. وقد استمع البابا إليه بكل الاهتمام المتاح له وسط الحشد الكبير، وربت على خده مشجعاً، وقال له:

ـ أحسنت يا بني. سيكافئ الرب مثابرتك.

ومع ذلك، فإن إحساسه الحقيقي بأنه أصبح على وشك تحقيق حلمه كان خلال الولاية السريعة للبابا ألبينو لوشياني الباسم. فقد تأثر أحد أقرباء البابا جداً بقصة مرغريتو، ووعده ببذل مساعيه. لم يصدقه أحد. ولكن بعد يومين من ذلك، وبينما هم يتناولون طعام الغداء، اتصل شخص بالنزل لينقل رسالة سريعة وبسيطة إلى مرغريتو: عليه ألا يغادر روما، لأنه سيُستدعى قبل يوم الخميس إلى

الفاتيكان من أجل اجتماع خاص مع البابا.

لم يُعرف قط إذا ما كانت تلك المكالمة الهاتفية مجرد مزحة، لكن مرغريتو يعتقد أنها ليست كذلك. وقد بقي على أهبة الاستعداد. لم يعد يخرج من البيت. وإذا اضطر للذهاب إلى المرحاض، كان يعلن بصوت عالٍ: «أنا ذاهب إلى الحمام». فكانت ماريا بيلا الظريفة دائماً، حتى وهي في فجر شيخوختها، تطلق قهقهة امرأة حرة وتصيح:

ـ لقد عرفنا يا مرغريتو، فقد يتصل بك البابا.

في الأسبوع التالي، وقبل يومين من الإشارة الهاتفية المنتظرة، انهار مرغريتو أمام عنوان الصحيفة التي انزلقت من تحت الباب: **مات البابا**. ولم يبقه منتصباً على قدميه للحظة سوى الوهم بأنها جريدة قديمة جاءت عن طريق الخطأ، لأنه لم يكن من السهل التصديق بأن هناك بابا يموت كل شهر. ولكن الأمر كان كذلك فعلاً: فالبابا ألبينو لوشياني، الذي تم اختياره قبل ثلاثة وثلاثين يوماً، مات في سريره فجر ذلك اليوم.

رجعتُ إلى روما بعد اثنتين وعشرين سنة من تعرفي على مرغريتو دوارتي، وربما أنني ما كنت سأفكر فيه لو لم ألتق به مصادفة. فقد كنت متضايقاً جداً بسبب تقلبات الدهر بحيث لم يكن بإمكاني التفكير في أحد. كان يهطل دون توقف رذاذ مطر بليد مثل قطرات حساء دافئ، وكان الضوء الماسي الذي عرفته في أزمنة أخرى قد أصبح معكراً، والأماكن التي كانت لي في ما مضى والتي تسند حنيني أصبحت مختلفة وغريبة عني. والبيت الذي كان فيه النزل مازال على حاله، ولكن ليس هناك من يعرف شيئاً عن ماريا بيلا. وليس هناك من يرد على أي رقم من أرقام الهاتف الستة التي بعث بها إليّ الصادح ريبيرو سيلفا على امتداد تلك السنوات. وفي غداء مع أهل السينما الجدد، استحضرتُ ذكرى أستاذي، فخيم صمت مفاجئ على المائدة لبرهة، إلى أن تجرأ أحدهم على القول:

ـ زافاتيني؟ قديسي الصغير.

وهكذا كان: لم يكن هنالك من سمع به. أشجار جادة بورغيسي كانت مشعثة تحت المطر. ومضمار خيول الأميرات الحزينات التهمه حرج كثيف من شجيرات دون أزهار. وجميلات الأزمنة الغابرة استبدلن برياضيين مخنثين يتنكرون بثياب مانولات. والناجي الوحيد من مملكة حيوانات فانية كان الأسد العجوز، صاخباً ومزكوماً في جزيرته المحاطة بمياه ذاوية. ولم يعد هناك من يغني أو يموت حباً في الحانات البلاستيكية في ساحة إسبانيا. فروما حنيننا صارت روما قديمة أخرى ضمن روما الأباطرة القديمة. وفجأة، أوقفني في زقاق تراستيفيري صوت يمكن له أن يكون آتياً من الموت:

ـ مرحباً أيها الشاعر.

وكان هو نفسه، عجوزاً ومتعباً. لقد مات خمسة باباوات، وبدأت روما بأسرها تبدي أول أعراض الشيخوخة، وهو مازال ينتظر. «لقد انتظرتُ طويلاً ولم يبق إلا القليل» هذا ما قاله لي عند الوداع، بعد أربع ساعات من أحاديث الحنين. «ربما بضعة شهور فقط». مضى يجر قدميه وسط الشارع، بجزمته الحربية وقبعة الروماني القديم التي بهت لونها، دون أن يهتم ببرك ماء المطر، حيث الضوء نفسه بدأ يتعفن. عندئذ لم يعد يراودني أي شك، هذا إذا كان الشك قد راودني يوماً، بأنه هو نفسه القديس. فهو دون أن يدري، ومن خلال جسد ابنته الذي لا يتفسخ، أمضى اثنتين وعشرين سنة مناضلاً في الحياة من أجل القضية العادلة بتطويبه قديساً.

آب 1981

طائرة الحسناء النائمة

El avión de la bella durmiente

كانت حسناء، مرنة، ذات بشرتها ناعمة بلون الخبز، والعينان حبتا لوز أخضر، شعرها ناعم وأسود وطويل على الظهر، وهالة عراقة، يمكن أن تكون أندونيسية أو من الأنديز. وكانت تلبس بذوق مرهف: سترة كتان بيضاء، وبلوزة حرير طبيعي مزينة برسوم أزهار فاتحة جداً، وبنطال كتان خام، وحذاء مستو له لون أزهار البوغامبليا. «هذه هي أجمل امرأة رأيتها في حياتي»، فكرتُ وأنا أراها تمر بخطوات لبوة رشيقة، بينما كنت أقف في الدور لإجراءات الصعود إلى طائرة نيويورك، في مطار شارل ديغول بباريس. كانت طيفاً خارقاً للطبيعة ظهر برهة واحدة واختفى وسط الحشد في البهو.

كانت الساعة التاسعة صباحاً. وكان الثلج يهطل منذ الليلة السابقة، وحركة المرور أشد كثافة من المعتاد في شوارع المدينة، وأبطأ بكثير على الطريق السريع إلى المطار، وكانت هناك شاحنات مصطفة إلى جانب الطريق، وسيارات يتصاعد منها البخار تحت الثلج. أما في بهو المطار بالمقابل، فكانت الحياة لا تزال ربيعاً.

كنت أقف في طابور التسجيل وراء عجوز هولندية، ظلت مدة ساعة تقريباً تجادل حول وزن حقائبها الإحدى عشرة. وكنت قد بدأت أشعر بالملل حين رأيت الطيف المفاجئ الذي حبس أنفاسي، وهكذا لم أعرف كيف انتهت المجادلة، إلى أن أنزلتني الموظفة من السحاب بعبارة تأنيب على شرودي. وعلى سبيل الاعتذار، سألتها إن كانت تؤمن بالحب من النظرة الأولى. فقالت لي: «أجل، بالطبع. أما الغراميات المستحيلة فهي الأخرى». أبقت بصرها مثبتاً على شاشة

الكمبيوتر، وسألتني أي مكان أفضل: مع المدخنين أم غير المدخنين.

ـ لا فرق عندي ـ قلت لها بتعمد كامل ـ على ألا أكون إلى جانب الإحدى عشرة حقيبة.

فشكرتني بابتسامة تجارية دون أن ترفع بصرها عن الشاشة المتألقة. ثم قالت لي:

ـ اختر رقماً: ثلاثة، أو أربعة، أو سبعة.

ـ أربعة.

وكان لابتسامتها وميض انتصاري حين قالت:

ـ خلال خمس عشرة سنة من عملي هنا، أنت أول شخص لا يختار الرقم سبعة.

سجلت على بطاقة الصعود إلى الطائرة رقم المقعد وسلمتني إياها مع بقية أوراقي وهي تنظر إليّ أول مرة بعينين لهما لون العنب كانتا عزائي ريثما أرى الحسناء ثانية. وعندئذ فقط انتبهت إلى أن المطار قد أغلق للتو، وأن جميع الرحلات قد تأجلت.

ـ إلى متى؟

ـ إلى أن يشاء الله ـ قالت بابتسامتها ـ. لقد أعلنت الإذاعة صباح اليوم أنه سيكون أعظم هطول للثلج خلال السنة.

لقد أخطأوا. فقد كان الأعظم خلال القرن. أما في قاعة انتظار الدرجة الأولى، فكان الربيع واقعياً لدرجة أن هناك أزهاراً في الأصص، وحتى الموسيقى المعلبة بدت سامية ومهدئة مثلما أراد لها مبدعوها. وفجأة خطر لي أن ذلك المكان هو الملجأ المناسب للحسناء، وبحثت عنها في القاعات الأخرى وأنا أرتعش لجرأتي. لكن معظم الموجودين هناك كانوا رجالاً من الحياة الواقعية، يقرؤون صحفاً بالإنكليزية، بينما زوجاتهم يفكرن في آخرين وهن يتأملن الطائرات الميتة على الثلج من خلال الواجهات الزجاجية البانورامية، ويتطلعن إلى المصانع الجليدية، وأراضي رُسيه الزراعية الفسيحة التي عاثت بها الأسود خراباً. وبعد منتصف النهار، لم يعد هناك مكان واحد غير

مشغول، وأصبح الحر شديداً لا يطاق، فهربت بعيداً كي أتنفس.

رأيت في الخارج مشهداً مرعباً. أناساً من كل الأشكال يملؤون قاعات الانتظار كلها، ويخيمون في الممرات الخانقة، بل على السلالم أيضاً، مستلقين على الأرض مع كلابهم وأطفالهم وأمتعة سفرهم. فقد كان الطريق إلى المدينة مقطوعاً، وكان قصر البلاستيك الشفاف ذاك يبدو أشبه بمركبة فضائية ضخمة متوقفة وسط العاصفة. ولم استطع تفادي التفكير في أنه لا بد للحسناء من أن تكون أيضاً في مكان ما وسط تلك القطعان الوديعة. وبث في هذا الخاطر حماسة جديدة للانتظار.

كنا قد وعينا في ساعة الغداء وضعنا كغرقى. فوقفت طوابير بلا نهاية أمام مطاعم وكافتيريات وبارات المطار السبعة الممتلئة. وبعد أقل من ثلاث ساعات أُغلقت جميعها لأنه لم يعد لديها ما تقدمه للأكل أو الشرب. أما الأطفال الذين بدا لنا لبعض الوقت أنه لا وجود لأحد في العالم سواهم، فقد راحو يبكون معاً في وقت واحد، وبدأت تتصاعد من الجموع رائحة القطيع. لقد كان وقت الغرائز. والشيء الوحيد الذي تمكنت من أكله وسط تدافع الناس هو آخر كأسين من مثلجات الكريم في دكان للأطفال. أكلتهما بتمهل وأنا جالس إلى الكونتوار، بينما النُدل يضعون الكراسي فوق المناضد كلما نهض الزبائن عنها. وكنت أنظر إلى نفسي في المرآة التي قبالتي، وأنا أمسك كأس المثلجات الأخير والملعقة الكرتونية الأخيرة، وأفكر في الحسناء.

رحلة نيويورك التي كانت مقررة في الحادية عشرة صباحاً، انطلقت في الثامنة ليلاً. وعندما تمكنت أخيراً من الصعود إلى الطائرة، كان مسافرو الدرجة الأولى قد احتلوا أماكنهم، فقادتني إحدى المضيفات إلى مكاني. وقفت وقد كتمت الدهشة أنفاسي. ففي المقعد المجاور، وإلى جانب النافذة، كانت الحسناء تستولي على المكان المخصص لها بخبرة الرحالة المجربين. وفكرت: «إذا ما كتبت عن هذا الأمر يوماً فلن يصدقه أحد». وبصعوبة بالغة حاولت

أن أوجه إليها بلساني المعقود تحية خجولة لم تسمعها.

لقد استقرت في مكانها وكأنها ستعيش فيه سنوات طويلة. كانت تضع كل شيء في مكانه بنظام، إلى أن صار المكان مرتباً كالبيت المثالي، حيث كل شيء في متناول اليد. وفيما هي تفعل ذلك، جاءنا الضابط المسؤول عن الركاب بكأس شمبانيا للترحيب. تناولت كأساً لأقدمه إليها، ولكنني ندمت فوراً. فقد كانت تريد كأس ماء فقط. ثم طلبت من الضابط بإفرنسية سليمة أولاً، ثم بإنكليزية لا تقل طلاقة، بألا يوقظها لأي سبب طوال الرحلة. كان صوتها الرصين والدافئ يجرجر في طياته حزناً شرقياً.

عندما جاؤوها بالماء، فتحت فوق ركبتيها علبة زينة ذات زوايا نحاسية، مثل صناديق الجدات، وأخرجت قرصي دواء ذهبيين من علبة تحتوي أقراصاً أخرى متعددة الألوان. وكانت تفعل كل شيء بمنهجية ووقار، كما لو أنه ليس هناك شيء غير محسوب لديها منذ ولادتها. وأخيراً أنزلت ستارة النافذة، وفتحت مسند المقعد إلى أقصاه، وتدثرت بالبطانية حتى نصفها دون أن تخلع حذاءها، ووضعت على وجهها قناع النوم، واضطجعت على المقعد بجنبها، فصار ظهرها باتجاهي، ونامت دون لحظة تمهل واحدة، دون زفرة واحدة، ودون أي تبديل في وضعها، طوال الثماني ساعات الأبدية والاثنتي عشرة دقيقة الإضافية التي استغرقتها الرحلة إلى نيويورك.

لقد كانت رحلة مشحونة. فأنا الذي آمنت دائماً بأنه لا وجود في الطبيعة لما هو أجمل من امرأة جميلة، كان من المستحيل عليّ أن أفلت لحظة واحدة من سحر تلك المخلوقة الخارجة من قصة خرافية، والنائمة إلى جانبي. لقد اختفى الضابط عن الأنظار فور إقلاعنا، وحلت محله مضيفة ديكارتية حاولت أن توقظ الحسناء لتقدم لها علبة أدوات تجميل وسماعتي الموسيقى. كررتُ على مسامعها التحذير الذي كانت قد وجهته هي نفسها إلى الضابط، لكن المضيفة أصرت على أن تسمع منها بالذات أنها لا تريد تناول العشاء. وكان على

الضابط أن يؤكد لها الأمر، لكنها وبختني مع ذلك لأن الحسناء لم تعلق في عنقها قطعة الورق المقوى التي تشير إلى رغبتها في عدم إيقاظها.

تناولت عشائي وحيداً، وكنت أقول بصمت كل ما كنت سأقوله لها لو أنها كانت مستيقظة. كان نومها هادئاً إلى الحد الذي شعرت معه بالقلق في إحدى اللحظات من أن يكون القرصان اللذان تناولتهما للموت وليس للنوم. وقبل تناول كل رشفة من مشروبي كنت أرفع كأسي:

ـ نخب صحتك أيتها الحسناء.

أطفؤوا الأنوار بعد انتهاء العشاء، وعرضوا الفيلم على لا أحد. وبقينا نحن الاثنين في ظلمة العالم. كانت أكبر عاصفة عرفها القرن قد انقضت، وكان ليل الأطلسي فسيحاً ونظيفاً، وبدت الطائرة كأنها ثابتة بين النجوم. عندئذ تأملتها شبراً شبراً طوال عدة ساعات، وكانت علامة الحياة الوحيدة التي استطعتُ ملاحظتها هي ظلال الأحلام التي تمر فوق جبهتها، مثلما تمر ظلال الغيوم فوق الماء. كانت تعلق في عنقها سلسلة ناعمة جداً، تكاد تكون غير مرئية فوق بشرتها الذهبية، وكانت أذناها تامتين، بلا ثقوب للأقراط، وأظفارها بلون الصحة الجيدة الوردي، وخاتم أملس في يدها اليسرى. ولأنها لم تكن قد تجاوزت العشرين كما بدا لي، فقد واسيت نفسي بأنه ليس سوى خاتم خطوبة عابرة وسعيدة. وفكرت: «أن أعرف أنك نائمة، حقيقية، أكيدة، مسيل مأمون من الهجران، خط نقي، قريبة جداً من ذراعيّ المكبلتين»، ورحت أكرر في ذروة نشوة الشمبانيا سونيتة خيراردو دييغو المحكمة هذه. بعد ذلك أنزلت مسند مقعدي إلى مستوى مسند مقعدها، وأصبحنا مستلقيين وقريبين أحدنا من الآخر أكثر مما لو كنا في سرير زوجي. كان جو تنفسها هو جو صوتها ذاته، وكانت بشرتها تطلق بخاراً خفيفاً لا يمكن له أن يكون إلا الرائحة الخاصة بجمالها. بدا لي الأمر غير معقول: ففي

الربيع السابق، كنت قد قرأت رواية بديعة للكاتب ياسوناري كاواباتا عن المسنين البرجوازيين في كيوتو الذين يدفعون مبالغ مالية طائلة لقضاء الليل في تأمل فتيات المدينة وهن عاريات ومنوّمات، بينما هم يحتضرون حباً في السرير نفسه: لا يستطيعون إيقاظهن ولا لمسهن، بل إنهم لا يحاولون ذلك، لأن جوهر تلك اللذة هو في رؤيتهن نائمات. وفي تلك الليلة، بينما أنا أسهر على إغفاءة الحسناء، لم أفهم ذلك الصفاء الشيخوخي وحسب، وإنما عشته بكل أبعاده.

ـ من سيصدق ذلك ـ قلت لنفسي بحبٍ للذات هيجته الشمبانيا ـ: أنا، عجوز ياباني على هذه الارتفاعات؟

أظن أنني نمت عدة ساعات، مهزوماً تحت وطأة الشمبانيا وومضات الفيلم الصامت، واستيقظت وأنا أشعر أن رأسي قد تصدع. ذهبت إلى دورة المياه، وورائي بمقعدين كانت ترقد عجوز الإحدى عشرة حقيبة وقد فرشخت ساقيها على المقعد بطريقة مقززة جداً. كانت تبدو كأنها ميت مهجور في أرض المعركة. وكانت نظارة قراءتها ملقاة على الأرض في منتصف الممر، فاستمتعت لبرهة بالسعادة البائسة لأني لم ألتقطها لها عن الأرض.

بعد أن فرّجت عن نفسي من الإفراط في الشمبانيا، فوجئت برؤية نفسي في المرآة. كنت قبيحاً وشنيعاً. وقد أدهشني أن تكون آثار الحب رهيبة إلى هذا الحد. وفجأة راحت الطائرة تهوي، ثم ما لبثت أن استوت بقدر ما استطاعت، وواصلت طيرانها متقافزة كخبب الجياد. أضيء أمرُ العودة إلى المقاعد. فخرجت فزعاً ومتوهماً بأن اضطرابات الرب وحدها هي القادرة على إيقاظ الحسناء، وأنه لا بد لها حينئذ من أن تلتجئ إلى ذراعي هرباً من الرعب. وأوشكتُ في تسرعي أن أدوس نظارة العجوز الهولندية، وكان ذلك سيسعدني. لكنني رجعت ثانية، والتقطت النظارة ووضعتها في حضنها، ثم شكرت حظي لأنها لم تختر المقعد رقم أربعة قبلي.

كان نوم الحسناء من النوع الذي لا يُقهر. وعندما استقرت الطائرة في الجو، أحسست برغبة في هزها متذرعاً بأية حجة، لأن الشيء الوحيد الذي كنت أتمناه في تلك الساعة الأخيرة من الرحلة هو رؤيتها مستيقظة، حتى وإن كانت غاضبة، كي أتمكن من استعادة حريتي، وربما شبابي كذلك. ولكنني لم أجرؤ على عمل ذلك. وقلت لنفسي باحتقار كبير: «اللعنة! لماذا لم أولد في برج الثور!». ولكنها استيقظت دون مساعدة من أحد في اللحظة التي أضيء فيها إعلان الهبوط، وكانت جميلة ونضرة كما لو أنها نامت في حديقة ورود. وحينئذ فقط انتبهت إلى أن رفاق المقعد في الطائرة، مثل الأزواج القدماء، لا يتبادلون تحية الصباح حين يستيقظون. وهي لم تفعل ذلك أيضاً. نزعت قناع النوم، وفتحت عينيها المتألقتين، ثم أعادت مسند المقعد إلى وضعه الأول، وأزاحت البطانية جانباً، وهزت غرة شعرها الذي يتسرح من تلقاء نفسه وبثقله بالذات، ثم وضعت صندوق أدوات الزينة فوق ركبتيها ثانية، وعملت مكياجاً سريعاً وخفيفاً، وهو ما تطلب منها الوقت المحدد تماماً كي لا تنتظر، إلى أن فُتح باب الطائرة. عندئذ ارتدت سترتها الكتانية، ومرت فوقي تقريباً مع كلمة اعتذار متداولة بقشتالية صافية من أمريكا اللاتينية، ومضت دون كلمة وداع، ودون أن تشكرني على الأقل لكل ما فعلته من أجل ليلتنا السعيدة، واختفت حتى شمس هذا اليوم في أمازون نيويورك.

حزيران 1982

بائعة الأحلام

Me alquilo para soñar

في الساعة التاسعة صباحاً، وبينما نحن نتناول الفطور على شرفة فندق ريفيرا هافانا، وجه البحر لطمة رهيبة في وضح النهار رفعت عن الأرض عدة سيارات كانت تسير على جادة الكورنيش العريضة، أو تقف على الرصيف، وارتطمت إحداها بأحد جوانب الفندق. كان ذلك أشبه بانفجار ديناميت زرع الرعب في طوابق المبنى العشرين، وحوّل واجهة البهو الزجاجية إلى فتات. السائحون العديدون الذين كانوا في قاعة الانتظار آنذاك انقذفوا في الهواء مع الأثاث، وأصيب بعضهم بجروح من وابل الزجاج المتطاير. لا بد أنها كانت موجة هائلة، لأن شارعاً عريضاً ذا اتجاهين يفصل بين الحاجز البحري والفندق. ومع ذلك، فإن الموجة قد اجتازته، وبقي لديها ما يكفي من القوة لتحطيم واجهة الفندق الزجاجية.

المتطوعون الكوبيون الفرحون، وبمساعدة رجال الإطفاء، جمعوا كل الحطام والفتات في أقل من ست ساعات، وأغلقوا بوابة الفندق المطلة على البحر وهيؤوا واحدة غيرها، وعاد كل شيء إلى حالته المعهودة. لم يهتم أحد في ذلك الصباح بالسيارة التي بقيت ملتصقة بالجدار، فقد ظن الجميع أنها إحدى السيارات التي كانت متوقفة على الرصيف. ولكن عندما أخرجتها الرافعة من الكوة التي أحدثتها في الجدار، اكتشفوا وجود جثة امرأة مقيدة بحزام الأمان في مقعد السائق. وقد كانت الضربة قوية إلى حد لم يبق معه في جسمها عظم واحد سليم. كان وجهها مهشماً، وحذاؤها مفتقاً، وثيابها ممزقة، وكان في إصبعها خاتم ذهبي له شكل أفعى عيناها

من الزمرد. وقد تحققت الشرطة من أنها مدبرة بيت السفير البرتغالي الجديد. وبالفعل، كانت قد وصلت إلى هافانا مع السفير وزوجته قبل خمسة عشر يوماً. وقد خرجت في ذلك الصباح إلى السوق وهي تقود السيارة الجديدة. لم يكن اسمها يعني أي شيء لي حين قرأت الخبر في الصحف، ولكنني بقيت بالمقابل مشوشاً بسبب الخاتم الذي له شكل أفعى عيناها من الزمرد. ولم أستطع أن أعرف مع ذلك في أي إصبع كانت تضعه.

وقد كان ذلك الأمر التفصيلي حاسماً، لأني كنتُ أخشى أن تكون امرأة لا يمكنني نسيانها، ولم أعرف اسمها الحقيقي قط، كانت تضع خاتماً مماثلاً في سبابتها اليمنى، وكان هذا النوع من الخواتم أكثر ندرة في ذلك الحين. لقد تعرفت عليها قبل أربع وثلاثين سنة في فيينا، حين كنتُ آكل السجق وأشرب بيرة البراميل في حانة يرتادها الطلاب اللاتينيون. وكنت قد وصلت من روما في ذلك الصباح، ومازلت أذكر الانطباع الفوري الذي خلفه في نفسي صدرها الرائع والفسيح الذي يشبه صدر مغنٍ صوته من أعلى الطبقات، وذيول الثعالب الخامدة على ياقة معطفها، وذاك الخاتم المصري الذي له شكل أفعى. بدا لي أنها النمساوية الوحيدة على الطاولة الخشبية الطويلة، وذلك بسبب لغتها القشتالية البدائية التي تتكلمها دون أن تتنفس وبلكنة خردواتية. ولكن لا، لم تكن نمساوية. فقد ولدت في كولومبيا، وسافرت إلى النمسا في فترة ما بين الحربين حين كانت ما تزال طفلة تقريباً، كي تدرس الموسيقى والغناء. وكان عمرها يوم عرفتها نحو ثلاثين سنة من الحياة السيئة، فهي لم تكن جميلة في يومٍ من الأيام، وقد بدأت تشيخ قبل أوانها. ولكنها كانت بالمقابل كائناً إنسانياً أخاذاً. وأحد أكثر الكائنات رهبة أيضاً.

كانت فيينا ما تزال في ذلك الحين مدينة إمبراطورية قديمة، وكان موقعها الجغرافي بين العالمين اللذين خلفتهما الحرب الثانية دون إمكانية للمصالحة بينهما، قد حوّلها إلى جنة السوق السوداء

والجاسوسية العالمية. ولم أستطع تخيل أجواء أكثر ملاءمة لمواطنتي الهاربة تلك التي ما زالت تأكل في حانة الناصية الطلابية لمجرد الوفاء لأصولها وحسب، ذلك أنها تملك من الموارد ما يكفي لشراء الحانة وكل من فيها من الندماء نقداً. لم تخبر أحداً باسمها الحقيقي قط، وكنا نعرفها دائماً باسم جرماني يصعب النطق به اخترعه لها الطلاب اللاتينيون في فيينا: **فراو فريدا**. وما كادوا يعرفونني عليها حتى انقدتُ للبلاهة السعيدة وسألتها عما فعلته حتى استطاعت تثبيت نفسها بتلك الطريقة الراسخة في ذلك العالم البعيد جداً والمختلف تماماً عن صخور الرياح في موطنها كينديو، فردت علي بعبارة أشبه بالصفعة:

- إنني أبيع الأحلام.

وكان ذلك هو عملها الوحيد حقاً. لقد كانت الابنة الثالثة بين أحد عشر ابناً لكاتب حسابات ناجح عند كالداس القديم، ومنذ تعلمت نطق الكلام فرضت على البيت العادة الحميدة برواية الأحلام على الريق، وهي الساعة التي تكون فيها قدرتها على الحدس لا تزال تحتفظ بنقائها. وعندما كانت في السابعة من عمرها حلمت أن سيلاً قد جرف أحد أخوتها. وبسبب معتقدات دينية خرافية محضة، منعت الأم الطفل من أحب الأشياء إليه، ألا وهو السباحة في الوادي. لكن فراو فريدا كانت تملك نظاماً خاصاً للتكهن، فقالت لأمها:

ـ هذا الحلم لا يعني أنه سيغرق، بل يعني أنه يجب ألا يأكل حلوى.

إن هذا التفسير بحد ذاته يبدو فضيحة عندما يكون المقصود به طفلاً في الخامسة من عمره لا يمكنه العيش دون حلوياته الخاصة بيوم الأحد. ولكن الأم المقتنعة بقدرات ابنتها التنبؤية جعلت الطفل يحترم الإنذار بقبضة قاسية. وعند أول سهو منها، اختنق الصغير بكرة من السكاكر كان يأكلها خلسة، ولم يكن إنقاذه ممكناً.

لم تكن فراو فريدا تفكر في أنه يمكن لقدرتها تلك أن تتحول إلى مهنة، إلى أن جرتها الحياة مرغمة، من عنقها، في

شتاءات فيينا القاسية. عندئذ طرقت باب أول بيت أعجبها لتطلب عملاً تعيش منه، وعندما سألوها عما تستطيع عمله، قالت الحقيقة وحدها: «الأحلام». وكان شرحاً قصيراً قدمته لسيدة البيت كافياً لقبولها، وبراتب لا يكاد يكفي لنفقاتها الصغرى، ولكن مع غرفة جيدة وثلاث وجبات، وخاصة وجبة الفطور، لأنه الوقت الذي كانت تجلس فيه الأسرة كلها لتعرف القدر اليومي لكل واحد من أفرادها: الأب الذي كان مستثمراً راقياً؛ والأم: امرأة سعيدة ومولعة بموسيقى الحجرة الرومنسية، وطفلين أحدهما في الحادية عشرة والآخر في التاسعة. وكانوا جميعهم متدينين، وميالين في الوقت نفسه إلى الإيمان بالخرافات القديمة. وقد استقبلوا فراو فريدا مبتهجين، وكان التزامها الوحيد هو الكشف عن القدر اليومي للأسرة من خلال الأحلام.

وقد قامت بهذا العمل على خير وجه لزمن طويل، وخاصة في سنوات الحرب، حين كان الواقع أشد شؤماً من الكوابيس. وكانت هي وحدها التي تقرر في موعد الفطور العمل الذي يجب أن يقوم به كل واحد منهم في ذلك اليوم، وكيف عليه أن يؤديه، إلى أن أصبحت تنبؤاتها هي السلطة الوحيدة في البيت. لقد فرضت سيطرتها المطلقة على الأسرة؛ حتى إن أدنى نفس كان يتم بأمر منها. وفي أيام وجودي في فيينا مات رب تلك الأسرة، وقد تلطف بأن أوصى لها بجزء من ثروته، وبشرط وحيد هو أن تواصل الحلم لأفراد الأسرة حتى نهاية الأحلام.

بقيتُ في فيينا أكثر من شهر، كنتُ أشاطر الطلاب خلاله حياة الضنك، وأنتظر نقوداً لم تصل قط. وقد كانت زيارات فراو فريدا المفاجئة والسخية للحانة في ذلك الحين أشبه بالأعياد في نظام حياتنا المدقع فقراً. وفي إحدى تلك الليالي، في بهجة تناول البيرة، همست في أذني باقتناع لا يسمح بأي إضاعة للوقت.

ـ لقد جئت فقط لأقول لك إني حلمت بك الليلة الماضية. عليك أن

تغادر فيينا فوراً ولا تعود إليها في السنوات الخمس القادمة.

كان اقتناعها واقعياً جداً حتى إنني غادرت في تلك الليلة بالذات، في القطار الأخير المتوجه إلى روما. ومن جهتي، بقيت موهوماً، وصرت أعتبر نفسي منذ ذلك الحين ناجياً من كارثة لم أعرف حقيقتها على الإطلاق. ولم أرجع إلى فيينا حتى الآن.

قبل حدوث كارثة هافانا كنت قد التقيت بفراو فريدا في برشلونة، وبطريقة غير متوقعة ومصادفة بدت لي سحرية. حدث ذلك يوم وطأ فيه بابلو نيرودا أرض إسبانيا لأول مرة منذ الحرب الأهلية، خلال توقفه القصير في رحلة بطيئة إلى بالبارايسو. لقد أمضى الصباح معنا في الصيد من مكتبات الكتب القديمة، واشترى من مكتبة بورتير كتاباً قديماً، ممزق الغلاف ومهترئاً، دفع ثمنه ما يعادل راتب شهرين في عمله القنصلي في رانغون. كان يتحرك بين الناس مثل فيل مقعد، وباهتمام طفلي بالآلية الداخلية لكل شيء، فقد كان العالم يبدو له دمية ضخمة تتحرك بنابض، وبه تُبتدع الحياة.

لم أعرف أحداً أشد منه شبهاً بالفكرة الراسخة لدينا عن أحد باباوات عصر النهضة: شره ورقيق. وقد كان هو دائماً، ولو مكرهاً، من يترأس المائدة. وكانت زوجته ماتيلدي تضع على صدره مريلة تبدو أقرب إلى مريلة الحلاق منها إلى فوطة المطعم، ولكنها الطريقة الوحيدة للحيلولة دون أن يلوث نفسه بالصلصات. وقد كان نموذجياً في ذلك اليوم في مطعم كاربايبرا. فقد أكل ثلاث سرطانات كركند كاملة كان يقطعها بمهارة جراح، وكان في الوقت نفسه يلتهم بنظره أطباق الجميع، ويلتقط شيئاً من كل واحد منها بتلذذ يصيب من حوله بعدوى الرغبة في أكل: محار غاليسيا، وبلح البحر الكانتبري، واربيان أليكانتي، واسباردينيا كوستا برافا. وفي أثناء ذلك، ومثلما يفعل الفرنسيون، لا يتحدث إلا عن لذائذ المطبخ، وخاصة الحيوانات البحرية الخرافية في تشيلي التي كان يحملها في قلبه. وفجأة توقف عن الأكل، وشحذ قرون استشعار السرطان البحري التي

يملكها، وقال لي بصوت خافت جداً:

ـ هناك شخص ورائي لا يتوقف عن النظر إليّ.

تطلعتُ من فوق كتفه، وكان ما قاله صحيحاً. فوراء ظهره، وعلى بعد ثلاث طاولات، كانت هناك امرأة جريئة تضع قبعة قديمة من اللبد ولفاع عنق بنفسجي اللون، تمضغ ببطء وعيناها مثبتتان عليه. تعرفتُ عليها فوراً. كانت هرمة وبدينة، لكنها هي نفسها، وكان خاتم الأفعى في إصبعها السبابة.

كانت قادمة من نابولي على السفينة نفسها التي يسافر فيها نيرودا وزوجته، ولكنهم لم يلتقوا على متن السفينة. دعوناها لتناول القهوة على طاولتنا، ودفعتُها للحديث عن أحلامها كي أفاجئ الشاعر. ولكنه لم يُبد أي اهتمام، فقد أعلن منذ البداية أنه لا يؤمن بتنبؤات الأحلام. وقال:

ـ الشعر وحده هو البصيرة.

بعد الغداء، وأثناء النزهة التي لا بد منها في شارع رمبلاس، تأخرتُ عن الجماعة متعمداً مع فراو فريدا كي نستعيد ذكرياتنا بعيداً عن أسماع الآخرين. وأخبرتني أنها باعت ممتلكاتها في النمسا، وأنها تعيش متقاعدة في بورتو بالبرتغال، في بيت وصفته لي بأنه مثل قلعة مزيفة فوق هضبة ترى منها المحيط كله حتى أميركا. وقد اتضح لي من خلال الحديث، دون أن تقول ذلك مباشرة، أنها بالانتقال من حلم إلى حلم، انتهت إلى الاستيلاء على ثروة أسيادها في فيينا. لم أتأثر بالأمر مع ذلك، لأني كنت أفكر على الدوام بأن أحلامها لم تكن أكثر من حيلة للعيش. وقد قلت لها ذلك.

فأطلقت قهقهتها التي لا تُقاوَم وقالت لي: «مازلت جريئاً جداً كعادتك». ولم تقل شيئاً آخر، لأن بقية الجماعة كانوا قد توقفوا ينتظرون انتهاء نيرودا من التحدث بلكنته التشيلية مع ببغاوات شارع رمبلا الطيور. وعندما أكملنا حديثنا، بدلت فراو فريدا الموضوع. ـ بالمناسبة. يمكنك أن تعود الآن إلى فيينا ـ قالت لي.

عندئذ فقط انتبهت إلى أن ثلاث عشرة سنة قد مضت منذ تعارفنا.

- لن ارجع إليها مطلقاً - قلت لها -، حتى وإن كانت أحلامك مزيفة، فمن يدري.

في الساعة الثالثة انفصلنا عنها لنرافق نيرودا إلى قيلولته المقدسة. وقد نامها في بيتنا بعد بعض الإجراءات المهيبة التي تُذكّر في بعض جوانبها بطقوس الشاي في اليابان. فقد كان لا بد من فتح بعض النوافذ وإغلاق أخرى لتكون درجة الحرارة مضبوطة بدقة وليتوفر نوع معين من الضوء في اتجاه معين، وصمت مطبق. وقد نام نيرودا على الفور، واستيقظ بعد عشر دقائق. مثلما يستيقظ الأطفال في الوقت الذي لا يخطر لنا على بال. جاء إلى الصالة المكيفة حسب رغبته وشعار الوسادة مطبوع على وجنته.

- لقد حلمتُ بتلك المرأة التي تحلم - قال.

أرادت ماتيلدي أن يروي لها الحلم. فقال:

- حلمتُ بأنها كانت تحلم بي.

- هذا لبورخيس - قلت له.

فتطلع إليّ بخيبة أمل:

- هل كتبه؟

- إذا كان لم يكتبه بعد فسوف يكتبه يوماً. وسيكون واحدة من متاهاته - قلت.

ودعنا نيرودا فور صعوده إلى السفينة، وجلس إلى طاولة منزوية، وبدأ كتابة أشعار متدفقة بقلم الحبر الأخضر الذي كان يرسم به أزهاراً وأسماكاً وعصافير عند إهداء كتبه. وعندما أطلقت السفينة صفارة الاستعداد الأولى بحثنا عن فراو فريدا، ووجدناها أخيراً على السطح المخصص للسائحين حين كنا على وشك مغادرة السفينة دون وداعها. وكانت هي قد استيقظت من قيلولتها قبل قليل أيضاً.

- لقد حلمت بالشاعر - قالت لنا.

فطلبت منها وأنا مذهول أن تروي لنا الحلم.

ـ حلمتُ بأنه يحلم بي ـ وحين قالت ذلك بدا عليها الارتباك أمام نظراتي الذاهلة، وواصلت كلامها قائلة ـ ماذا تريد؟ قد يتسرب بين الأحلام الكثيرة أحياناً حلم لا تكون له أية علاقة بالحياة الواقعية.

لم أعد لرؤيتها أو السؤال عنها إلى أن عرفت بقصة الخاتم الذي له شكل أفعى، والذي كانت تضعه المرأة الميتة في حادث فندق ريفيرا هافانا. ولهذا لم أستطع مقاومة الإغراء بسؤال السفير البرتغالي عنها حين التقينا معاً، بعد عدة شهور، في حفل استقبال دبلوماسي. حدثني السفير عنها بحماسة شديدة وتقدير كبير. قال لي: «لا يمكنك أن تتصور كم كانت استثنائية. ولو أنك عرفتها لما كان بإمكانك مقاومة إغراء كتابة قصة عنها» وواصل بالنبرة ذاتها الحديث عن تفاصيل مذهلة، ولكن دون أي أثر يتيح لي الوصول إلى نتيجة حاسمة.

وأخيراً طلبت منه شيئاً محدداً:

ـ ما الذي كانت تفعله بالضبط؟

فقال السفير بشيء من خيبة الأمل:

ـ لا شيء. كانت تحلم.

آذار 1980

«جئت لأتكلم في الهاتف فقط»

«Sólo vine a hablar por teléfono»

في مساء يوم أمطار ربيعية غزيرة، وبينما كانت ماريا دلا لوث ثرفنتيس تقود سيارة مستأجرة وتسافر باتجاه برشلونة، تعرضت سيارتها لعطل طارئ في صحراء مونخيروس. كانت مكسيكية في السابعة والعشرين من عمرها، جميلة وجدية، وقد حققت قبل سنوات شيئاً من الشهرة كممثلة منوعات خفيفة. وهي الآن متزوجة من ساحر ألعاب خفة صالونات، وكانت ذاهبة في ذلك اليوم للقائه بعد أن قامت بزيارة أقارب لها في مدينة سرقسطة. وبعد ساعة من إشارات يائسة لإيقاف السيارات والشاحنات التي تمر مسرعة في العاصفة، أشفق عليها سائق حافلة مهترئة. والحقيقة أنه نبهها إلى أنه لن يذهب بعيداً جداً.

ـ ليس مهماً ـ قالت ماريا ـ الشيء الوحيد الذي أحتاج إليه هو هاتف.

وكان ذلك صحيحاً. وكانت تحتاج إليه لتخبر زوجها فقط، بأنها لن تستطيع الوصول قبل الساعة السابعة ليلاً. كانت تبدو كعصفور مبلل وهي ترتدي معطف طلاب وتنتعل حذاء لشاطئ البحر في شهر نيسان. وكانت مشوشة جداً بسبب محنتها، حتى إنها نسيت أن تأخذ المفاتيح من سيارتها. المرأة التي كانت تجلس بجوار السائق، ذات المظهر العسكري، إنما رقيقة المعاملة، قدمت لها منشفة وبطانية، وأفسحت لها مكاناً إلى جانبها. بعد أن نشفت ماريا نفسها قدر الإمكان، جلست ولفت جسمها بالبطانية، وحاولت أن تشعل سيجارة، لكن أعواد الثقاب كانت مبللة. قدمت لها جارتها في المقعد ناراً وطلبت منها واحدة من السجائر القليلة التي ظلت جافة.

وبينما هـي تـدخن، استسلمت ماريا للرغبة فـي التفريج عـن نفسها، فـرن صـوتها أعلـى مـن صـوت المطـر وهـدير الحافلة. فقاطعتهـا المـرأة بوضع سبابتها على شفتيها، وتمتمت:

- إنهن نائمات.

تطلعت ماريا من فوق كتفها، ورأت أن الحافلة ممتلئة بنساء مـن أعمار لا يمكـن التحقـق منهـا، وبهيئات مختلفة، وكـن ينمن وهـن يلتحفن بطانيات مماثلة لبطانيتها. انتقلت عدوى سكينتهن إليها، فتكـورت فـي المقعـد وغـادرتْ صـوت المطـر. عندما استيقظت كـان الظلام قد خيم، وكـان وابل المطر قد تحـول إلى سكون ثلجي. لم تكن لديها أدنى فكرة عـن المدة التي نامتها ولا فـي أي مكـان مـن العالم هي. وكانت جارتها فـي المقعد تتخذ وضع التأهب.

- أين نحن؟ - سألتها ماريا.

- لقد وصلنا - أجابت المرأة.

كانت الحافلة تدخل إلى فنـاء مرصـوف بالحجـارة فـي بنـاء هائـل وقاتم، يبدو كأنه دير قديم فـي غابة أشجار عملاقة. المسافرات اللواتي ظهرن قليلاً تحت ضوء مصباح الفناء الشاحب، بقيـن فـي أماكنهن إلى أن جعلتهن المرأة ذات المظهر العسكري ينزلن بنوع من الأوامـر البدائية، كمـا فـي روضـة أطفـال. جميعهن كـن متقـدمات فـي السـن، وكـن يتحـركن ببطء شديد فـي عتمـة الفنـاء، كمـا لـو أنهـن صـور فـي حلـم. وفكـرت ماريـا التـي كانـت الأخيرة فـي النـزول بـأنهن راهبـات. لكـن فكـرتها تلك ما لبثت أن تراجعت حين رأت عدة نساء يرتدين زياً موحداً يستقبلن القادمات عند باب الحافلة، ويغطين رؤوسهن بشراشف كـي لا يتبللن، ثـم يجعلـونهن فـي رتـل أحـادي، ويـوجهنهن دون التحـدث إليـهن، بتربيتات إيقاعية وحازمة. وبعد أن ودّعت ماريا جارتها فـي المقعـد، أرادت أن تعيد إليها البطانية، لكـن المـرأة قالـت لهـا إنـه يمكنهـا أن تغطـي بهـا رأسها لكي تجتاز الفناء وتسلمها هناك إلى البواب.

- هل أجد هناك هاتفاً؟ - سألتها ماريا.

- بالطبع - قالت المرأة - هناك سيخبرونك أين تجدينه.

ثم طلبت من ماريا سيجارة أخرى، فقدمت لها كل ما تبقى في العلبة المبللة قائلة لها: «في الطريق ستجف». لوحت لها المرأة بيدها مودعة وهي تقف على سلم الحافلة، ثم صاحت: «حظاً سعيداً». وانطلقت الحافلة دون أن تتيح لها الوقت لقول المزيد.

راحت ماريا تركض نحو مدخل المبنى. حاولت إحدى الحارسات إيقافها بتربيتة قوية على ظهرها، لكنها ما لبثت أن اضطرت إلى إطلاق صيحة متسلطة: «قلت لك توقفي!». نظرت ماريا من تحت البطانية، ورأت عينين جليديتين وإصبعاً لا يقبل الاستئناف يشير لها بالانضمام إلى الرتل الطويل. أطاعت الأمر. وفي دهليز المبنى انفصلت عن الجماعة وسألت البواب أين يوجد هاتف. فأعادتها إحدى الحارسات إلى الصف بتربيتة خفيفة على ظهرها وهي تقول لها:

- من هنا يا جميلتي، من هنا يوجد هاتف.

واصلت ماريا السير مع النساء الأخريات في ممر مظلم، ثم دخلت أخيراً إلى مهجع نوم جماعي، حيث جمعت الحارسات الأغطية من النساء وبدأن بتوزيعهن على الأسرّة. جاءت امرأة مختلفة، بدت لماريا أكثر إنسانية وذات مرتبة عالية، واستعرضت الصف وهي تقارن بين قائمة في يدها وأسماء النساء اللواتي وصلن للتو، المكتوبة على قطعة كرتون مخيطة إلى صدورهن. وعندما وصلت إلى ماريا فوجئت بعدم وجود بطاقة على صدرها.

- أنا جئت لأتكلم في الهاتف فقط - قالت لها ماريا.

وأوضحت لها بأقصى سرعة أن سيارتها قد تعطلت في الطريق. وأن زوجها الذي يعمل ساحراً في الحفلات، ينتظرها في برشلونة لينجزا معاً ثلاثة التزامات عمل قبل منتصف الليل، وأنها تريد أن تخبره بأنها لن تستطيع الوصول في الموعد المناسب للذهاب معه. كانت الساعة تقترب من السابعة، وهو سيخرج من البيت خلال عشر دقائق، وهي تخشى أن يلغي كل الالتزامات بسبب تأخرها. بدا على

الحارسة أنها تستمع إليها باهتمام. ثم سألتها:
ـ ما اسمك؟
أخبرتها ماريا باسمها وهي تطلق تنهيدة فرج، ولكن المرأة لم تجد الاسم بعد أن راجعت القائمة عدة مرات. فسألت عن ذلك إحدى الحارسات بذعر، ولم تجد هذه ما تقوله سوى هز كتفيها.
ـ المسألة هي أنني جئت لأتكلم في الهاتف فقط ـ قالت ماريا.
فقالت لها المسؤولة وهي تقودها نحو سريرها بعذوبة مبالغ فيها بصورة لا يمكن لها معها أن تكون واقعية:
ـ لا بأس يا جميلتي. إذا كنتِ طيبة يمكنك التحدث بالهاتف مع من تريدين. ولكن ليس الآن... غداً.
حينئذ حدث شيء في ذهن ماريا جعلها تدرك السبب الذي جعل نساء الحافلة يتحركن كما لو أنهن في قعر حوض مائي. الحقيقة أنهن كن خامدات بالمهدئات، وذلك القصر الغارق في الظلال، بجدرانه الحجرية السميكة وأدراجه الجليدية، هو في الواقع مستشفى نسائي للأمراض العقلية. استولى عليها الذعر، وركضت هاربة من مهجع النوم، وقبل أن تصل إلى الباب تلقفتها حارسة عملاقة ترتدي أفرهول ميكانيكي، وثبتتها على الأرض بحركة مصارعة بارعة. نظرت ماريا إليها متوسلة وقد شلّها الرعب.
ـ حباً بالرب ـ قالت ـ. أقسم لك بأمي الميتة أنني جئت لأتكلم في الهاتف فقط.
وكان يكفيها رؤية وجه الحارسة لتعرف أنه ليس هناك توسل ممكن أمام تلك المرأة الممسوسة ذات الأفرهول التي يدعونها «هرقلة» بسبب قوتها الهائلة. كانت المسؤولة عن الحالات الصعبة، وقد ماتت سجينتين بذراعها التي تشبه ذراع دب قطبي، والمدربة على فنون القتل غير المتعمد. عملية القتل الأولى صُنفت كحادث موصوف. أما الثانية فكانت أقل وضوحاً، وقد تم توبيخ هرقلة وتحذيرها بأنها ستخضع لتحقيق معمق في المرة القادمة. والرواية الشائعة تقول إن تلك النعجة

الضالة التي تنتمي إلى أسرة ذات ألقاب كبيرة، لها تاريخ حافل بحوادث مشبوهة في عدة مصحات للأمراض العقلية في إسبانيا.

لكي تنام ماريا في الليلة الأولى اضطروا إلى حقنها بمُنوِّم. وعندما أيقظتها الرغبة في التدخين قبل الفجر، وجدت نفسها مقيدة من معصميها وكاحليها إلى السرير. ولم يأت أحد على صراخها. وفي الصباح، حين لم يكن زوجها في برشلونة قد وجد أي أثر لها، اضطروا إلى نقلها إلى عيادة الإسعاف لأنهم وجدوها فاقدة الحواس في مستنقع بؤسها.

لم تدر كم من الوقت مضى عليها حين استعادت رشدها. ولكن الدنيا كانت حينئذ بركة حُبٍّ راكدة، ورأت قبالة سريرها عجوزاً أثرياً، يدب على باطن قدميه ويبتسم ابتسامة مستقرة، أعاد إليها سعادة الحياة بقاعدتين بارعتين. كان ذلك هو مدير المصحة.

قبل أن تقول له شيئاً، وحتى دون أن تسلم عليه، طلبت منه ماريا أن يعطيها سيجارة. قدم لها واحدة مشتعلة، وأهدى إليها العلبة الممتلئة تقريباً. لم تستطع ماريا عندئذ أن تمنع نفسها من البكاء.

ـ انتهزي الفرصة الآن وابكي مثلما تريدين ـ قال لها الطبيب بصوت مُنوِّم ـ فليس هناك علاج أفضل من الدموع.

فضفضت ماريا عن نفسها دون حياء، ومثلما لم تستطع أن تفعل مطلقاً مع عشاقها العابرين في ضجر ما بعد ممارسة الحب. وبينما الطبيب يستمع إليها، راح يُسرح شعرها بأصابعه، ويسوي وضع الوسادة كي تتنفس بصورة أفضل، ويقودها في متاهة ترددها بحكمة وعذوبة لم تحلم بمثلهما قط. لقد تحققت، أول مرة في حياتها، أعجوبة أن تجد رجلاً يتفهمها ويصغي إليها بكل جوارحه دون أن يأمل بمضاجعتها مقابل ذلك. وبعد أكثر من ساعة الفضفضة المعمقة، طلبت منه أن يسمح لها بالتكلم إلى زوجها بالهاتف.

نهض الطبيب بكل وقار مكانته. وقال مربتاً على خدها بأرق طريقة عرفتها في حياتها: «ليس الآن أيتها الملكة. كل شيء في وقته». أومأ لها

وهو عند الباب بمباركة أسقفية، وقال قبل أن يختفي إلى الأبد:

- ثقي بي.

في ذلك اليوم بالذات، تم تسجيل ماريا في الملجأ برقم متسلسل مع تعليق سطحي حول لغز أصلها والشكوك حول هويتها. وعلى الهامش تشخيص للحالة مكتوب بيد المدير وخطه: اهتزاز في الشخصية.

ومثلما توقعت ماريا، فقد خرج زوجها من شقته المتواضعة في حي هورتا متأخراً نصف ساعة لكي ينجز ثلاثة التزامات عمل. وكانت تلك هي أول مرة تتخلف فيها عن موعد محدد منذ سنتين تقريباً من زواجهما الحر والمنسجم، وقد عزا تأخرها إلى شدة الأمطار التي عاثت خراباً بالإقليم كله في نهاية ذلك الأسبوع. وقبل أن يخرج من البيت علق لها على الباب ملحوظة أوضح فيها برنامجه لتلك الليلة.

في حفلته الأولى، بين أطفال متنكرين جميعهم بهيئة كناغر، استغنى عن أهم ألعابه السحرية، وهي لعبة الأسماك غير المرئية، لأنه لا يستطيع أداءها دون مساعدة زوجته. وكان الالتزام الثاني في بيت امرأة مسنة، في الثالثة والتسعين، تجلس على مقعد ذي عجلات، وتفاخر بأنها احتفلت بكل واحد من أعياد ميلادها الثلاثين الأخيرة بحضور ساحر مختلف في كل مرة. وقد كان مضطرباً بسبب تأخر ماريا لدرجة أنه لم يستطع التركيز على أبسط ألعابه. أما الالتزام الثالث فكان عمله المعهود كل ليلة في أحد مقاهي رامبلاس، حيث عرض دون إلهام أمام مجموعة من السياح الفرنسيين لم يستطيعوا تصديق ما يرونه، لأنهم يرفضون الإيمان بالسحر. وبعد كل عرض كان يتصل هاتفياً بالبيت، وينتظر دون أوهام أن ترد عليه ماريا. وفي المكالمة الأخيرة، لم يعد قادراً على كبح قلقه وهواجسه بأن شيئاً سيئاً قد حدث.

في طريق عودته إلى البيت بالشاحنة الصغيرة المعدلة من أجل العروض العامة، رأى بهاء الربيع في نخيل شارع باسيو دي غراسيا،

وهزته الفكرة المشؤومة: كيف يمكن أن تكون المدينة دون ماريا. وقد تلاشى الأمل الأخير عندما وجد رسالته ما تزال معلقة على الباب. وكان مشوشاً إلى حد نسي معه تقديم الطعام للقط.

الآن فقط، بينما أنا أكتب، انتبهت إلى أنني لم أعرف اسمه الحقيقي قط، لأننا كنا نعرفه في برشلونة باسمه المهني فقط: ساتورنو الساحر. كان رجلاً غريب الأطوار، به بلادة اجتماعية لا يمكن تخليصه منها. ولكن لمسة الظرافة التي تنقصه، كانت موجودة بوفرة عند ماريا. وكانت هي التي تقوده من يده في مجتمع الأسرار الكبيرة ذاك، حيث لا يخطر ببال أحد أن يتصل بأحد هاتفياً بعد منتصف الليل ليسأل عن زوجته. لقد فعل ساتورنو ذلك مرة بعيد قدومه إلى المدينة، وهو لا يريد أن يتذكر الأمر. وهكذا اكتفى في تلك الليلة بالاتصال بسرقسطة، حيث ردّت عليه، دون إحساس بالذعر، جدة نصف نائمة وأخبرته بأن ماريا قد غادرتهم بعد الغداء. لم ينم إلا ساعة واحدة عند الفجر. ورأى حلماً موحلاً بدت فيه ماريا بثوب زفاف ممزق وملطخ بالدم، واستيقظ على يقين مرعب بأنها قد هجرته وتركته وحيداً من جديد، وإلى الأبد هذه المرة، في العالم الرحب دونها.

لقد فعلت ذلك من قبل ثلاث مرات، ومع ثلاثة رجال مختلفين، هو واحد منهم، خلال السنوات الخمس الأخيرة. فقد هجرته في مدينة مكسيكو بعد ستة شهور من تعارفهما، وحين كانا يحتضران من السعادة في غرام مجنون في مستوطنة أنثوريس. وفي صباح أحد الأيام اختفت ماريا من البيت بعد ليلة من الغراميات المريعة. تركت أشياءها كلها، بما في ذلك خاتم زفافها السابق، ورسالة تقول فيها إنها لم تعد قادرة على العيش تحت وطأة تعذيب ذلك الحب المحموم. وظن ساتورنو أنها قد رجعت إلى زوجها الأول الذي كان زميلاً لها في المدرسة الثانوية، وتزوجت منه سراً لأنها كانت لا تزال دون السن القانونية، وقد هجرته إلى آخر بعد سنتين خاليتين من الحب. ولكن لا، لم يكن الأمر كذلك: فقد رجعت إلى بيت

والـديها. وذهـب سـاتورنو إليهـا ليعيـدها بـأي ثمـن. توسـل إليهـا دون شـروط، ووعـدها بـأكثر ممـا يـستطيع تحقيقـه بكـثير، ولكنـه اصطدم بقرار لا رجعة عنه، إذ قالت له: «هناك غراميات طويلة الأجل وغراميات قصيرة الأجل». ثم أضافت دون رحمة: «وقد كان هذا حباً قصير الأجل». فاستسلم أمام صلابتها. مع ذلك، وفي صباح عيد جميع القديسين، عند عودته إلى غرفته كيتيم بعد سنة من النسيان تقريباً، وجدها نائمة على الأريكة في الصالة، بإكليل من أزهار الليمون، وبفستان العروس ذي الأذيال المتموجة الطويلة.

أخبرته ماريا بالحقيقة. فخطيبها الجديد، وهو أرمل لا أولاد له، حياته مستقرة ومستعد للزواج الأبدي في الكنيسة الكاثوليكية، تخلى عنها وهي تنتظره بثياب الزفاف عند المذبح. وقد قرر أبوها إقامة الحفلة رغم كل شيء. وسايرت هي اللعبة، فرقصت وغنت مع الموسيقيين، وشربت أكثر مما تتحمل، ومضت عند منتصف الليل بحثاً عن ساتورنو وهي في حالة رهيبة من الندم المتأخر.

لم تجده في البيت، ولكنها وجدت المفتاح في أصيص الأزهار الذي في الممر، حيث كانا يتركانه دائماً. وكانت هي التي استسلمت له دون شروط في تلك المرة. فسألها: «وإلى متى ستبقين الآن؟». فردت عليه بسطر من أشعار فينيسيوس دي مورايس: «الحب أبدي ما دام موجوداً». وبعد انقضاء سنتين كان الحب لا يزال أبدياً.

بدا كأن ماريا قد نضجت. فقد تخلت عن أحلامها في التمثيل وكرست نفسها له وحده، سواء في العمل معه أو في الفراش. وفي أواخر السنة الماضية كانا قد حضرا مؤتمراً للسحرة في بربينيان، وتعرفا على برشلونة وهما في طريق العودة. وقد أعجبتهما المدينة لدرجة أنه مضى عليهما فيها ثمانية شهور، وكانت أمورهما على ما يرام، فقد اشتريا شقة في حي لاهورتا الكتلاني جداً والصاخب الذي لا بوابين فيه. كانت الشقة واسعة تكفي لإنجاب خمسة أبناء. وكانت السعادة ممكنة، حتى جاءت نهاية الأسبوع تلك، حين استأجرت سيارة

وذهبت لزيارة أقارب لها في سرقسطة بعد أن وعدته بأنها ستعود في السادسة من مساء يوم الاثنين. وعندما أشرقت شمس يوم الخميس، لم تكن قد أظهرت ما يدل على أنها ما زالت على قيد الحياة.

وفي يوم الاثنين من الأسبوع التالي، اتصلت شركة تأمين السيارة المستأجرة هاتفياً بالبيت لتسال عن ماريا. فقال لهم ساتورنو: «لا أعرف شيئاً. ابحثوا عنها في سرقسطة». وأغلق الخط. بعد أسبوع من ذلك، جاء شرطي بملابس مدنية إلى البيت ليقول إنهم وجدوا السيارة على الهيكل، في طريق فرعية بالقرب من قادش، على بعد تسعمئة كيلومتر من المكان الذي تركتها فيه ماريا. وكان ساتورنو حينئذ يقدم الطعام للقط، ولم يكد ينظر إلى الشرطي إلا ليطلب منه، دون مواربة، أن لا يضيع وقته، لأن زوجته قد هربت من البيت وهو لا يعرف مع من ولا إلى أين. وكانت قناعته بذلك راسخة حتى إن الشرطي أحس بالحرج وطلب منه المعذرة على إزعاجه بالأسئلة. وهكذا أُغلق ملف القضية.

كانت الظنون قد راودت ساتورنو بأن ماريا قد هجرته مرة أخرى يوم فصح القيامة في كاداكيس، حيث دعتهما روسا ريغاس للإبحار في زورق شراعي. كنا يومذاك في بار ماريتيم المكتظ والصاخب بجماعات الغاوتشي ديفينا في خريف الفرانكية. وحول طاولة معدنية محاطة بكراسٍ معدنية تكاد لا تتسع لستة أشخاص، كنا أكثر من عشرين شخصاً. وبعد أن استنزفت ماريا علبة السجائر الثانية في تلك الجلسة، وجدت نفسها دون ثقاب. فامتدت ذراع نحيلة يغطيها زغب رجولي ويحيط بها سوار نحاسي روماني، وشقت طريقها بين الحشد الملتف حول الطاولة، وقدمت لها ناراً. شكرته ماريا دون أن تنظر من يكون، لكن ساتورنو رآه. كان مراهقاً نحيفاً وأمرد، به شحوب ميت وله ذيل من الشعر الأسود الفاحم يصل حتى خصره. وكان زجاج الباب يكاد لا يتحمل غضب ريح الشمال الربيعية، بينما كان هو يرتدي نوعاً من بيجامات الخروج إلى الشارع مصنوعة من القطن الخام، وينتعل نعل فلاح خشبياً.

لم يرياه ثانية حتى أواخر الخريف، في أحد مطاعم المأكولات البحرية في حي برشلونيتا، وكان يرتدي الثياب القطنية نفسها، وله جديلة طويلة بدلاً من ذيل الشعر السابق. سلّم عليهما كصديقين قديمين، وبسبب الطريقة التي قبّل بها ماريا، والطريقة التي ردّت عليه بها، ألهبت ساتورنو الشكوك بأنهما كانا يلتقيان سراً. وبعد عدة أيام وجد بالمصادفة اسماً جديداً ورقم هاتف سجلتهما ماريا في دفتر أرقام الهاتف المنزلي، وكشف له وضوح الغيرة الذي لا يرحم عمن يكون ذلك الاسم وذلك الرقم. وقد جاءت المذكرة الاجتماعية عن الدخيل لتجهز عليه نهائياً: اثنتان وعشرون سنة، ابن وحيد لأسرة ثرية، فنان ديكور متخصص في تزيين واجهات محلات الأزياء، يقال إنه مخنث، وله شهرة راسخة كوسيط في استئجار سيدات متزوجات. لكن ساتورنو استطاع التماسك حتى الليلة التي لم تعد فيها ماريا إلى البيت. عندئذ بدأ يتصل به هاتفياً كل يوم، في البداية كل ساعتين أو ثلاث ساعات، منذ السابعة صباحاً وحتى فجر اليوم التالي، ثم صار يتصل بالرقم كلما وجد هاتفاً في متناول يده. وقد ضاعف من عذاباته أن أحداً لم يكن يرد على الهاتف.

وفي اليوم الرابع ردّت عليه امرأة أندلسية كانت تقوم بتنظيف البيت فقط. وقد قالت له بغموض كبير أثار جنونه: «السيد خرج». ولم يستطع ساتورنو مقاومة الإغراء وسؤالها عما إذا كانت الآنسة ماريا موجودة.

فقالت له المرأة:

ـ لا تسكن هنا أية ماريا. السيد عازب.

ـ أعرف ذلك ـ قال لها ـ. لا أقصد أنها تسكن في البيت، ولكنها تأتي إليه أحياناً، أليس كذلك؟

فانتفضت المرأة صارخة:

ـ ولكن، من الكونيو الذي يتكلم؟

أغلق ساتورنو الهاتف. وبدا له ردّ المرأة السلبي دليلاً آخر على ما

لم يعد مجرد شكوك بالنسبة إليه، وإنما هو يقين متأجج. فقد السيطرة على نفسه. وفي الأيام التالية اتصل بجميع معارفهما في برشلونة، حسب التسلسل الأبجدي. لم يقدم له أحد منهم جواباً شافياً، ولكن كل مكالمة كانت تزيد من تعاسته، لأن هذيانات غيرته صارت مشهورة بين ساهري ***غاوتشي ديفينا*** المتمادين، فكانوا يردون على مكالماته بأية دعابة تزيد من عذابه. وعندئذ فقط أدرك كم هو وحيد في تلك المدينة الجميلة والمجنونة والمغلقة التي لا يمكنه أن يكون سعيداً فيها. وفي الفجر، بعد أن قدم الطعام للقط، ضغط على قلبه كي لا يموت، واتخذ القرار بنسيان ماريا.

بعد شهرين من ذلك، لم تكن ماريا قد اعتادت على حياة المصحة بعد. وكانت تقيم أودها بلقيمات قليلة من وجبات السجن تتناولها بأدوات طعام مربوطة بسلاسل إلى المنضدة الخشبية الضخمة، ونظرها مثبت على صورة للجنرال فرانثيسكو فرانكو تتصدر قاعة طعام العصور الوسطى الكئيبة. كانت تقاوم الساعات في أول الأمر بروتينها البليد في صلوات الفجر، والمدائح، وتراتيل التاسوع، وطقوس كنسية أخرى تشغل بها معظم وقتها. كانت ترفض اللعب بالطابة في فناء البهو أو العمل في مشغل الأزهار الاصطناعية التي توليها بعض النزيلات اهتماماً معتوهاً. ولكنها منذ الأسبوع الثالث بدأت تندمج شيئاً فشيئاً في حياة الدير تلك. وكان الأطباء يقولون إنهن جميعهن يبدأن هكذا، ثم ينتهي بهن الأمر عاجلاً أو آجلاً إلى الاندماج في الجماعة.

تمكنت من حلّ مشكلة افتقادها السجائر في الأيام الأولى من خلال إحدى الحارسات التي كانت تبيعها بسعر الذهب، لكن المشكلة عادت تعذبها حين نفد المال القليل الذي بحوزتها. فارتضت بعد ذلك سجائر ورق الجرائد التي تصنعها بعض السجينات من أعقاب يجمعنها من القمامة، ذلك أن تسلط التدخين على عقلها يضاهي بشدته تسلط الهاتف. لكن البيزتات القليلة التي أصبحت تكسبها في ما بعد من صنع الأزهار الاصطناعية وفرت لها الفرج اليومي.

أقسى ما كانت تعانيه هو الوحدة في الليل، سجينات كثيرات كن يبقين مستيقظات مثلها في الظلام، ولكن دون أن يجرؤن على عمل أي شيء، لأن الحارسة الليلية كانت تسهر كذلك وراء البوابة المقفلة بسلسلة وقفل. ومع ذلك، وبينما كان الحزن يثقل على ماريا في إحدى الليالي، سألت بصوت يمكن لجارتها في السرير المجاور أن تسمعه:

ـ أين نحن؟

فأجابها صوت جارتها المهيب والواضح:

ـ في أعماق الجحيم.

وقال صوت آخر بعيد رن في أجواء المهجع:

ـ يقولون إن هذه أرض الموريسكيين ويجب أن يكون قولهم صحيحاً، ففي الصيف، حين يكون هناك قمر، يُسمع صوت الكلاب وهي تنبح على البحر.

سُمع صوت سحب السلسلة من حلقات البوابة مثل صوت مرساة سفينة غاليون ضخمة، ثم فُتح الباب، وراحت الحارسة التي بدت أنها المخلوق الوحيد الحي في الصمت الفوري، تتمشى من أحد جانبي المهجع إلى الجانب الآخر. أحست ماريا بالذعر، وكانت هي وحدها التي تعرف سبب ذعرها.

فمنذ أسبوعها الأول في المصحة، عرضت عليها الحارسة الليلية، دون مواربة، أن تنام معها في غرفة الحراسة. بدأت ذلك بالحديث عن صفقة محددة: مبادلة الحب بالسجائر، بالشوكولاته، بكل شيء. وقالت لها وهي ترتعش: «ستنالين كل شيء. ستكونين الملكة». وأمام رفض ماريا، بدّلت الحارسة من أسلوبها. كانت تترك لها رسائل حب تحت الوسادة، وفي جيوب ثوبها، وفي أماكن لا تخطر على بال. وكانت رسائل ضيق مؤثرة يمكنها أن تحرك الحجر. ومنذ أكثر من شهر، بدت كما لو أنها استسلمت للهزيمة، إلى أن كانت الليلة التي جرت فيها حادثة المهجع.

عندما تأكدت الحارسة من أن كل السجينات نائمات، اقتربت من سرير ماريا، وراحت تهمس في أذنها بكل أنواع البذاءات الرقيقة وهي تقبل وجهها، وعنقها المتجمد من الرعب، وذراعيها المتيبستين، وساقيها المنهوكتين. وأخيراً، وربما لأنها اعتقدت أن شلل ماريا لم يكن بسبب الرعب وإنما الرضا، تجرأت على المضي إلى ما هو أبعد من ذلك. فوجهت إليها ماريا عندئذ لطمة بظاهر كفها أطاحت بها إلى السرير المجاور. نهضت الحارسة حانقة هائجة وسط الضجة التي أثارتها السجينات بصخبهن، وصرخت:

ـ يا بنة القحبة. سنتعفن معاً في هذه الحظيرة إلى أن تصبحي مجنونة بي.

جاء الصيف دون إعلان مسبق، في يوم الأحد الأول من شهر حزيران، وكان لا بد من اتخاذ إجراءات طوارئ، لأن السجينات المختنقات من الحر بدأن بخلع الغفارات الصوفية أثناء القداس. وقد رأت ماريا بمتعة ومرح مشهد المريضات العاريات والحارسات اللواتي يطفن بينهن مثل دجاجات عمياء في ممرات الكنيسة. ووسط تلك الفوضى، حاولت أن تحمي نفسها من الضربات التي كانت توجه كيفما اتفق، ولم تدر كيف وجدت نفسها وحيدة في مكتب مهجور، فيه هاتف يكرر رنيناً متوسلاً. تناولت ماريا السماعة دون تفكير، وسمعت صوتاً بعيداً وضاحكاً يتسلى بتقليد خدمات الساعة الناطقة:

ـ الساعة الخامسة والأربعون، واثنتان وتسعون دقيقة، ومئة وسبع ثوان.

ـ منيوك! ـ قالت ماريا.

ثم أغلقت الخط بسعادة، وكانت على وشك الخروج حين انتبهت إلى أنها تتخلى عن فرصة لا تتكرر. حينئذ أدارت القرص على ستة أرقام، باضطراب شديد وسرعة كبيرة لم تكن واثقة معها إن كان ذلك هو رقم بيتها. انتظرت وقلبها يكاد يقفز من مكانه، سمعت الرنين المألوف بإيقاعه الحزين، مرة، مرتين، ثلاث مرات، ثم

سمعت أخيراً صوت رجل حياتها في البيت الذي أصبح من دونها.

ـ من؟

وكان عليها أن تنتظر مرور كرة الدموع التي تشكلت في حلقها. ثم تنهدت:

ـ يا أرنبي، يا حياتي.

غلبتها الدموع. وفي الطرف الآخر من الخط ساد الصمت لحظة، ثم انطلق الصوت المتأجج بالغيرة، لينطق الكلمة الوحيدة:

ـ قحبة! ـ وأغلق الهاتف بشدة.

في تلك الليلة، وفي نوبة هستيريا عاتية، انتزعت ماريا في قاعة الطعام صورة الجنراليسمو فرانكو، وألقت بها بكل قوتها إلى الواجهة الزجاجية المطلة على الحديقة، وهوت مغتسلة بدمها. وقد بقي لديها مع ذلك من الغضب ما يكفي لتتصدى بالضرب للسجانات اللواتي أردن إخضاعها، دون أن يتمكنّ من ذلك، إلى أن رأت الهرقلة منتصبة في فراغ الباب وهي تقاطع ذراعيها على صدرها وتنظر إليها. فاستسلمت. ومع ذلك، فقد سحبنها إلى جناح المجنونات الهائجات، وأخمدنها بماء بارد يتدفق من خرطوم مطاطي، وحقنّها بالتربنتين في ساقيها. وبينما هي عاجزة عن المشي بسبب الالتهابات في ساقيها، أدركت ماريا أنه لا يوجد شيء في العالم تمتنع عن الإقدام عليه في سبيل الهرب من ذلك الجحيم. وفي الأسبوع التالي، حين عادت إلى المهجع الجماعي، نهضت على رؤوس أصابعها وطرقت على زنزانة السجانة الليلية.

الثمن الذي طلبته ماريا مسبقاً هو حمل رسالة إلى زوجها. وافقت السجانة، شرط أن يبقى الاتفاق سراً مطلقاً. وأشارت لها بسبابة لا ترحم:

ـ إذا كشفت السر يوماً، ستموتين.

وهكذا ذهب ساتورنو الساحر إلى مصح المجنونات يوم السبت التالي بشاحنة السيرك التي أعدها للاحتفال بعودة ماريا. استقبله المدير شخصياً في مكتبه النظيف والمرتب كنظافة وترتيب سفينة

حربية، وقدم له تقريراً مؤثراً عن وضع زوجته: لا أحد يعرف من أين أتت، ولا كيف ولا متى. فالمعلومات الأولى عن دخولها المصح هي السجل الرسمي الذي أملاه هو نفسه عندما قابلها. ونتيجة التحقيق الذي بدأ في اليوم ذاته لم يتوصل إلى شيء. وكان أكثر ما شغل اهتمام المدير هو معرفة الطريقة التي عرف بها ساتورنو بمكان زوجته. لكن ساتورنو حمى السجانة.

- أخبرتني بذلك شركة تأمين السيارة المستأجرة - قال.

هز المدير رأسه مقتنعاً وقال: «لا أعرف ما الذي تفعله شركات التأمين كي تعرف كل شيء». ألقى نظرة على الملف الذي كان على منضدته الشبيهة بمنضدة ناسك، وانتهى قائلاً:

- الشيء الوحيد المؤكد هو خطورة حالتها.

وأبدى استعداده للسماح له بزيارتها مع اتخاذ الاحتياطات اللازمة إذا وعده ساتورنو الساحر، من أجل مصلحة زوجته، بالتصرف حسبما يشير عليه. وخاصة في طريقة معاملتها، لتفادي إصابتها بنوبة من نوبات غضبها التي أخذت تتزايد وتصبح أكثر خطورة.

- غريب! لقد كانت عصبية دائماً، ولكنها تتحكم بنفسها جيداً - قال ساتورنو.

أومأ الطبيب إيماءة عالم وقال: «هناك أنواع من السلوك تبقى كامنة لسنوات طويلة، ثم تتفجر فجأة. ومع ذلك، فهي محظوظة لأنها وقعت هنا، لأننا اختصاصيون بالحالات التي تحتاج لقبضة قوية». ثم أشار أخيراً إلى فكرة الهاتف الغريبة المتسلطة على عقل ماريا، وقال له:

- سايرها.

فقال ساتورنو بمباهاة سعيدة:

- اطمئن يا دكتور. هذا من اختصاصي.

كانت قاعة الزيارة مزيجاً من السجن وقاعة الاعتراف، وقد كانت غرفة المحادثات في الدير سابقاً. لم يكن دخول ساتورنو هو انفجار السعادة الذي يمكن لكليهما أن ينتظراه. كانت ماريا تقف

في وسط القاعة، إلى جانب منضدة صغيرة ومقعدين ومزهرية دون أزهار. كان واضحاً أنها مستعدة للذهاب معه بمعطفها المحزن الذي له لون الكرز، وحذاء متسخ قدموه لها كصدقة. وفي أحد الأركان، كانت تقف هرقلة، بصورة غير مرئية تقريباً، وهي تقاطع ذراعيها فوق صدرها. لم تتحرك ماريا وهي ترى زوجها يدخل، ولم يبد أي تأثر على وجهها الذي كانت آثار جروح الزجاج بادية عليه. تبادلا قبلة روتينية. وسألها:

ـ كيف حالك الآن؟

ـ سعيدة لأنك جئت أخيراً يا أرنبي. لقد عانيت الموت ـ قالت.

لم يكن لديهما متسع من الوقت للجلوس. فقد حدثته وهي تختنق بالدموع عن بؤس الدير، وبربرية الحارسات، وطعام الكلاب، وليالي الأرق الطويلة من الرعب. ثم قالت:

ـ لم أعد أعرف كم يوماً أو شهراً أو سنة مضى عليّ هنا. لكنني أعرف أن كل يوم كان أسوأ من سابقه ـ ثم أضافت وهي تطلق زفرة من أعماق روحها: ـ أظن أنني لن أعود أبداً لأكون الإنسانة التي كنتها من قبل.

فقال وهو يداعب بأطراف أصابعه آثار الجروح الحديثة في وجهها:

ـ لقد انقضى ذلك كله. سأواظب على المجيء كل سبت. وفي أيام أخرى إذا سمح المدير بذلك. وسترين كيف أن كل شيء سينتهي على ما يرام.

تطلعت إليه بعينيها المذعورتين. فاستعان ساتورنو بفنونه التي يستخدمها في الصالونات. حدثها بلهجة طفولية عذبة عن تلك الأكاذيب الكبيرة، والرواية المهذبة لتنبؤات الطبيب، وانتهى إلى القول لها: «باختصار، ما زلتِ بحاجة إلى بضعة أيام أخرى كي تستردي عافيتك تماماً».

فأدركت ماريا الحقيقة، وقالت بذهول:

ـ بالله عليك يا أرنبي! لا تقل لي إنك قد صدقت أنني مجنونة!

ـ كيف يخطر ببالك شيء كهذا ـ قال وهو يحاول الضحك ـ كل ما في الأمر هو أنه من المناسب للجميع أن تبقى هنا لبعض الوقت. وفي ظروف أفضل بالطبع.

ـ ولكنني أخبرتك بأنني جئت لأتكلم بالهاتف فقط! ـ قالت ماريا.

لم يدرِ كيف يتصرف حيال الفكرة المرعبة المتسلطة على عقلها. نظر إلى هرقلة. فانتهزت هذه الفرصة لتقول له بإيماءة إلى ساعة معصمها إن وقت الزيارة قد انتهى. أحست ماريا بالإشارة، فالتفتت إلى الخلف، ورأت هرقلة مستعدة للهجوم الفوري. عندئذ تشبثت بعنق زوجها وهي تصرخ كمجنونة حقيقية. أبعدها عنه بكل ما يستطيعه من حب، وتركها تحت رحمة هرقلة التي انقضَّت عليها من الخلف، دون أن تتيح لها الوقتِ للإتيان بأي رد فعل. طبقت عليها حركة مفتاح مصارعة بيدها اليسرى، ثم أطبقت بذراعها الحديدية الأخرى على عنقها، وصرخت بساتورنو الساحر:

ـ انصرف الآن!

وهرب ساتورنو مذعوراً.

ولكنه في يوم السبت التالي كان قد تخلص من رعب الزيارة، فعاد إلى المصح وقد ألبس القط مثل ملابسه: بدلة شبكية حمراء وصفراء كبدلة ليوناردو العظيم، وقبعة ساحر عالية، وعباءة كبيرة جداً كأنها للطيران. ودخل بشاحنته الصغيرة المزركشة إلى فناء السجن، وقدم هناك عرضاً مدهشاً استمر نحو ثلاث ساعات، استمتعت به السجينات من خلال نوافذهن بصرخات شاذة وهتافات لا تتناسب مع الموقف. جميعهن كن موجودات، باستثناء ماريا التي لم ترفض مقابلة الزوج وحسب، بل رفضت أن تراه من الشرفة أيضاً وهو يقدم عرضه. أحس ساتورنو بأنه أصيب بجرح قاتل. فقال له المدير مواسياً:

ـ هذا ردّ فعل طبيعي. سينقضي في ما بعد.

لكنه لم ينقض أبداً. فبعد محاولات كثيرة لرؤية ماريا، عمل ساتورنو المستحيل لجعلها تستلم رسالة منه، ولكن دون جدوى. فقد أعادتها إليه أربع مرات وهي لا تزال مغلقة، دون أي تعليق منها. وأخيراً أذعن ساتورنو للأمر، لكنه واظب على إحضار حاجتها من السجائر إلى بواب المستشفى، دون أن يدري إذا كانت تصل إلى ماريا، وبقي على تلك الحال إلى أن هزمه الواقع.

لم يُعرف شيء عنه بعد ذلك سوى أنه تزوج من جديد ورجع إلى بلاده. وقبل مغادرته برشلونة ترك القط الذي كان يوشك على الموت جوعاً عند إحدى عشيقاته العابرات، وقد وعدته هذه بمواصلة إيصال السجائر إلى ماريا. لكن هذه العشيقة اختفت بدورها. وتذكر روسا ريغاس أنها رأتها في محلات الكورت إنجليس، منذ نحو اثنتي عشرة سنة، وكان رأسها حليقاً وهي ترتدي ثوباً فضفاضاً برتقالي اللون كالذي ترتديه إحدى الطوائف الدينية الشرقية، وكانت حبلى إلى أقصى حدود الحبل. وقد قالت لها إنها واصلت حمل السجائر إلى ماريا، كلما استطاعت ذلك، وكانت تحل لها بعض الأمور المستعجلة الطارئة إلى أن أتى يوم لم تجد فيه سوى أنقاض المستشفى المهدم كذكرى خبيثة من تلك الأزمنة غير المرغوبة. وقد بدت لها ماريا في صحوة جيدة من جنونها يوم التقت بها آخر مرة، وكان وزنها قد ازداد قليلاً، وكانت سعيدة بالأمان الذي تجده في المصح. وفي ذلك اليوم أخذت إليها القط أيضاً، لأن النقود التي تركها لها ساتورنو لإطعامه كانت قد نفدت.

نيسان 1978

رعب آب

Espantos de agosto

وصلنا إلى مدينة أريزو قبل انتصاف النهار بقليل، وأضعنا أكثر من ساعتين في البحث عن القلعة التي يرجع تاريخ بنائها إلى عصر النهضة، والتي كان الكاتب الفنزويلي ميغيل أوترو سيلفا قد اشتراها في ذلك المنعطف الشاعري من الريف التوسكاني. كان يوم أحد متقداً وصاخباً في أوائل شهر آب، ولم يكن من السهل العثور على أحد يعرف شيئاً عن القلعة في الشوارع المكتظة بالسياح. وبعد محاولات عديدة غير مجدية رجعنا إلى السيارة، وغادرنا المدينة عبر دروب تحف بها أشجار سرو وليس فيها أية إشارات مرور، وهناك دلتنا راعية إوز عجوز إلى مكان القلعة بالضبط. وقبل أن نودعها سألتنا إذا كنا نفكر في النوم هناك، وأجبناها ـ حسبما كان مقرراً ـ بأننا ذاهبون للغداء فقط.

ـ لحسن الحظ ـ قالت ـ لأن ذلك البيت مرعب.

ولأننا، أنا وزوجتي، لا نؤمن بالأشباح في منتصف النهار، فقد سخرنا من تصديقها الخرافات. أما ابنانا، الأول في التاسعة والثاني في السابعة من العمر، فقد أسعدتهما فكرة التعرف على شبح حاضر الجسد.

ميغيل أوترو سيلفا الذي كان مضيفاً رائعاً وأكولاً راقياً، فضلاً عن أنه كاتب جيد، كان ينتظرنا بغداء لا يُنسى مدى الحياة. وبسبب تأخرنا في الوصول لم نجد متسعاً من الوقت للتجوال في القلعة ورؤيتها قبل الجلوس إلى المائدة. غير أنه لم يكن هناك ما هو مرعب في مظهرها الخارجي، وكان يمكن لأي قلق أن يتبدد برؤية منظر المدينة

كلها من الشرفة المزهرة التي تناولنا الغداء عليها. كان من الصعب التصديق أن تلك التلة التي تتسلقها البيوت، حيث يكاد المجال لا يتسع لتسعين ألف نسمة، قد أنجبت ذلك العدد الكبير من العباقرة الخالدين؛ ومع ذلك، فقد قال لنا ميغيل أوترو سيلفا، بمزاجه الكاريبي إن أياً من أولئك العباقرة لم يحظ بشهرة أوسع من شهرة أريزو.

ثم أصدر حكمه:

ـ أعظمهم هو لودوفيكو.

هكذا، دون ألقاب: لودوفيكو، سيد الآداب والحرب العظيم الذي شيد قلعة نكبته تلك، والذي حدثنا ميغيل أوترو سيلفا عنه طوال الغداء. حدثنا عن سلطاته الواسعة، وعن حبه المتناقض، وعن موته المرعب. روى لنا كيف أنه في لحظة من لحظات جنون القلب، طعن سيدة هواه بخنجر وهي في الفراش الذي مارسا فيه الحب قبل قليل، ثم استحث كلابه الحربية الشرسة ضد نفسه بالذات، فمزقته بأنيابها إلى لقم صغيرة. وأكد لنا بجدية كبيرة أن شبح لودوفيكو مازال يطوف منذ منتصف الليل في أرجاء البيت محاولاً الحصول على السكين في مطهر حبه.

الحقيقة أن القلعة كانت فسيحة وكئيبة. ولكن قصة ميغيل في وضح النهار، وببطن ممتلئ وقلب سعيد، لم تكن لتبدو أكثر من مزحة أخرى من مزاحه الكثير لإمتاع ضيوفه. كانت الحجرات الاثنتان والثمانون التي تجولنا فيها دون دهشة بعد القيلولة، قد تعرضت لكل أنواع التغيير على يد أسيادها المتعاقبين. وكان ميغيل قد أعاد ترميم الطابق السفلي كاملاً، وأقام فيه غرفة نوم حديثة أرضها من المرمر، ومرافق للساونا والرياضة البدنية، وشرفة الأزهار الكثيفة التي تناولنا الغداء عليها. أما الطابق الثاني، وهو الأكثر استخداماً عبر العصور المتعاقبة، فكان مجرد متوالية من غرف تفتقر إلى شخصية محددة، فيها مفروشات مهجورة من أزمنة مختلفة. وفي الطابق الثالث كانت هناك غرفة محفوظة على حالها، يبدو أن الزمن

نسي المرور بها. وكانت تلك الغرفة هي مخدع لودوفيكو.

لقد كانت لحظة ساحرة. فقد كان هناك السرير ذو الستائر المطرزة بخيوط الذهب، وشرشف من أعاجيب المنسوجات الحريرية لا يزال متيبساً بدم العشيقة المقتولة الجاف. وكانت هناك المدفأة برمادها المتجمد والحطبة الأخيرة التي تحجرت فيها، وخزانة الأسلحة الجاهزة للإطلاق، والصورة الزيتية للفارس الساهم في إطار من الذهب، رسمها أحد معلمي فلورنسا الذين لم يحالفهم الحظ في الخلود. وقد كان أكثر ما أثر فيّ مع ذلك هي رائحة الفريز الطازج الراكدة في أجواء الحجرة دون أي تفسير ممكن.

أيام الصيف في توسكانيا طويلة وبطيئة، والأفق يبقى ثابتاً في مكانه حتى التاسعة ليلاً. عندما انتهينا من مشاهدة القلعة، كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة، لكن ميغيل أصر على مرافقتنا لمشاهدة جداريات بيروديلا فرانسيسكا في كنيسة القديس فرانشيسكو، ثم تناولنا فنجاناً من القهوة مع محادثة مطولة تحت عرائش الساحة. وحين عدنا لأخذ الحقائب، وجدنا العشاء جاهزاً، وهكذا بقينا لتناول العشاء.

وبينما نحن نفعل ذلك تحت السماء الخبازية ذات النجمة الوحيدة، اخذ الطفلان بعض المشاعل من المطبخ، ومضيا لاستكشاف العتمة في الطوابق العليا. ومن المائدة كنا نسمع وقع خطواتهم على السلم الحجري كوقع حوافر خيول جامحة. وكانت تصل إلى مسامعنا تأوهات الأبواب، وصرخاتهما السعيدة وهما يناديان لودروفيكو في الحجرات المعتمة. وكانا هما صاحبا الفكرة الخبيثة ببقائنا هناك للنوم. وقد أيدهما ميغيل أوترو سيلفا بفرح، ولم تكن لدينا الشجاعة التمدنية لنقول لهما لا.

وعلى عكس ما كنت أخشاه، فقد نمنا نوماً مريحاً جداً، أنا وزوجتي في غرفة نوم في الطابق السفلي، وابناي في الغرفة المجاورة. الحجرتان كلتاهما كانتا معدلتين على الطراز الحديث، ولم يكن

فيهما أي شيء قاتم. وبينما كنت أحاول أن أغفو، عددت الدقات المؤرقة الاثنتي عشرة الصادرة عن ساعة البندول في الصالة، وتذكرت تحذير الراعية الرهيب. لكننا كنا متعبين إلى حد نمنا معه بسرعة، في إغفاءة عميقة ومتواصلة، واستيقظت بعد الساعة السابعة على شمس رائعة تنفد من خلال النباتات المعرشة على النافذة. وكانت زوجتي إلى جانبي تبحر في بحر البريئين الراكد. وقلت لنفسي: «أية حماقة هي إيمان المرء بالأشباحٍ في هذا الزمان». عندئذ فقط هزتني رائحة الفريز المقطوف حديثاً، ورأيت المدفأة برمادها البارد والحطبة الأخيرة المتحجرة فيها، وصورة الفارس الحزين الذي ينظر إلينا عبر ثلاثة قرون في الإطار الذهبي. ذلك أننا لم نكن في غرفة نوم الطابق السفلي حيث نمنا في الليلة السابقة، وإنما في مخدع لودوفيكو، تحت الإفريز والستائر المعبَّرة والشراشف المبللة بالدم الدافئ في فراشه الملعون.

تشرين الأول 1980

ماريا دوس براسيروس

María dos Prazeres

وصل مندوب مؤسسة دفن الموتى في موعده بالضبط، وكانت ماريا دوس براسيروس لا تزال بقميص النوم، ورأسها ممتلئ بلفافات الشعر، ولم تكد تجد الوقت الكافي لوضع وردة حمراء على أذنها حتى لا تبدو بمظهر غير مرغوب، كما كانت تشعر. وقد ازداد أسفها على مظهرها حين فتحت الباب ورأت أن الرجل لم يكن كاتباً شرعياً حدادي الهيئة كما كانت تتخيل هيئة تجار الموت، بل كان شاباً خجولاً يلبس سترة مخططة على شكل مربعات، وربطة عنق مزينة بعصافير ملونة. لم يكن يحمل معطفاً على الرغم من ربيع برشلونة المريب بأمطاره ذات الرياح الكاسحة التي تجعله منفراً أكثر من الشتاء. وماريا دوس براسيروس التي اعتادت على استقبال رجال كثيرين في كل الأوقات، أحست بخجل قلما تشعر به. لقد أتمت منذ وقت قريب سبعة وستين عاماً من عمرها، وكانت موقنة من أنها ستموت قبل عيد الميلاد، وعلى الرغم من ذلك، كادت أن تغلق الباب وتطلب من بائع الجنازات أن ينتظر لحظة ريثما ترتدي ملابسها لتستقبله بما يتناسب ومكانته. لكنها فكرت بعد ذلك في أنه سيتجمد على السلّم المظلم، فدعته إلى الدخول قائلة:

ـ اعذرني على هذا المظهر الخفاشي. لكنني أعيش في كتالونيا منذ أكثر من خمسين سنة، وهذه هي المرة الأولى التي يأتي إليّ بها شخص في الموعد المحدد.

كانت تتكلم لغة كتلانية دقيقة فيها شيء من العراقة، بالرغم من أنه مازالت تظهر في كلامها موسيقى برتغاليتها المنسية. وعلى

الرغم من سنوات حياتها ولفافات شعرها السلكية، كانت لا تزال خلاسية نحيفة وخفيفة، ذات شعر قاس وعينين صفراوين شرستين، وكانت قد فقدت الشفقة على الرجال منذ زمن بعيد. أما البائع الذي مازال مبهوراً من ضوء الشارع، فلم ينطق بأي تعليق، وإنما مسح نعل حذائه بحصيرة القنب، وقبّل يدها باحترام.

فقالت له ماريا دوس براسيروس وهي تطلق قهقهة حصوية:

ـ أنت رجل مثل رجال زماني. تفضل واجلس.

وبالرغم من أنه جديد في المهنة، إلا أنه كان يعرف حقيقة مهنته جيداً، بحيث لا يأمل بمثل ذلك الاستقبال الاحتفالي في الساعة الثامنة صباحاً، وخاصة من امرأة مسنة لا ترحم، بدت له للوهلة الأولى أنها عجوز معتوهة هاربة من أمريكا. وهكذا ظل واقفاً على بعد خطوة واحدة من الباب لا يدري ما يقول، بينما كانت ماريا دوس براسيروس تزيح ستائر القطيفة السميكة عن النوافذ. أضاء بريق نيسان الخفيف الصالة المرتبة التي بدت أشبه بواجهة في محل ثريات. وكانت كل أداة من أدوات الاستخدام اليومي، دون زيادة ولا نقصان، تبدو موضوعة في مكانها الطبيعي، وبذوق صائب تماماً لدرجة يصعب العثور على بيت آخر أفضل ترتيباً في مدينة برشلونة شديدة العراقة والسرية.

ـ أرجو المعذرة. لقد أخطأت في البيت ـ قال.

ـ ليتك تكون كذلك، ولكن الموت لا يخطئ ـ قالت له.

فتح البائع فوق منضدة غرفة الطعام مخططاً مثنياً في طيات كبيرة، مثل سجل إبحار السفن، ومقسم إلى قطع ملونة بألوان مختلفة على كل منها صلبان وأرقام عديدة. وأدركت ماريا دوس براسيروس أنه المخطط الكامل لمقبرة مونجويك الفسيحة. وتذكرت برعب قديم جداً مقبرة ماناوس تحت أمطار تشرين الأول، حيث كانت حيوانات التابير تغوص في الماء الموحل بين جثوات التراب التي لا تحمل أسماء وقبور المغامرين الفخمة ذات الواجهات الفلورنسية.

وفي أحد تلك الأيام، وكانت لا تزال طفلة صغيرة جداً، طلع الصباح على الأمازون وقد فاض وطغى على ما حوله متحولاً إلى مستنقع نتن، ورأت يومذاك التوابيت المهشمة تطفو في فناء بيتها وقد علقت في شقوقها نتف من ملابس الموتى وشعورهم. وكانت تلك الذكرى هي السبب الذي جعلها تختار هضبة مونجويك كي ترقد فيها بسلام، بدلاً من أن تختار مقبرة سان خيرفاسيو الصغيرة والقريبة والمألوفة لديها.

- أريد مكاناً لا تصله المياه أبداً - قالت.

- إنه هنا - قال البائع وهو يشير إلى موقع على الخريطة بمؤشر قابل للطي والتمديد كان يحمله في جيبه مثل قلم حبر فولاذي- ليس ثمة بحر يمكنه الصعود إلى هنا.

جالت ببصرها على رقعة المربعات الملونة حتى وجدت المدخل الرئيسي، وهناك كانت القبور الثلاثة المتلاصقة والمتشابهة التي لا أسماء عليها، حيث يرقد يوينا فينتورا دوروتي وقائدان فوضويان آخران ماتوا في الحرب الأهلية. في كل ليلة كان هناك من يكتب الأسماء على الألواح الحجرية البيضاء. كانوا يكتبونها بقلم رصاص، بالدهان، بالفحم، بقلم لتخطيط الحواجب أو بطلاء أظفار، بكامل حروفها وبالترتيب الصحيح. وفي كل صباح كان الحراس يمحون الأسماء كيلا يعرف أحد من هو الذي تحت الرخام الأبكم. كانت ماريا دوس براسيروس قد حضرت جنازة دوروتي، الأكثر حزناً وهياجاً بين كل من عاشوا في برشلونة منذ الأزل، وكانت ترغب في أن ترقد بالقرب من قبره. ولكن لم يكن هناك أي مكان شاغر في المقبرة المكتظة بساكنيها. فكان عليها أن ترضى بما هو ممكن. قالت: «شرط ألا تحشروني في أحد الأدراج مدة خمس سنوات حيث تكون إحدانا كأنها في علبة بريد». ثم تذكرت فجأة الشرط الأساسي الآخر.

- وخاصة - أكملت -، أن تدفنوني مستلقية.

فقد كانت قد سرت، بالفعل، إشاعة تقول إنهم يحفرون قبوراً عمودية للاقتصاد في المكان، وقد جاءت تلك الإشاعة رداً على حملة دعائية صاخبة لبيع القبور بالتقسيط قبل الوفاة. فأوضح لها البائع، بخطبة محفوظة عن ظهر قلب، ومكرورة مرات ومرات، بأن تلك الرواية هي أكذوبة خبيثة أطلقتها مؤسسات دفن الموتى التقليدية للنيل من مصداقية الحملة لتشجيع شراء القبور بالتقسيط، وبينما هو يشرح الأمر، طرق أحدهم الباب ثلاث طرقات مكتومة، فتوقف عن الكلام حائراً، لكن ماريا دوس براسيروس أومأت له بأن يتابع.

ـ لا تقلق ـ قالت بصوت خافت ـ. إنه نوي.

فأمسك البائع خيط الحديث ثانية، وأحست ماريا دوس براسيروس بالرضا عن التفسير الذي قدمه. ومع ذلك، وقبل أن تفتح الباب، أرادت أن تقدم إجمالاً نهائياً لفكرة نضجت في قلبها خلال سنوات طويلة، حتى أدق تفاصيلها الحميمة، منذ طوفان ماناوس المغرق في القدم. وقالت:

ـ ما أريد قوله هو أنني أبحث عن مكان أكون فيه مستلقية تحت التراب، بعيداً عن أخطار الفيضانات، وإذا كان ممكناً تحت ظل الأشجار في الصيف، وحيث لا يخرجوني بعد بضع سنوات ليلقوا بي إلى القمامة.

فتحت باب الشقة ودخل كلب صغير مبلل بماء المطر، ذو مواهب فاسدة لا علاقة لها بكل ما في البيت. كان عائداً من نزهته الصباحية في الجوار، وأصيب لدى دخوله بنوبة فرح. فقد قفز إلى الطاولة وهو ينبح دون معنى، وكاد يفسد مخطط المقبرة بقوائمه الملوثة بالوحل. ولكن نظرة واحدة من السيدة كانت كافية لتهدئة اندفاعه.

ـ نوي! ـ قالت له دون أن تصرخ ـ *Baixa d'aci!*[1]

---

[1] باللغة الكتلانية في الأصل: نوي! أخرج من هنا!

انكمش الحيوان على نفسه، ونظر إليها مرعوباً، وانزلقت دمعتان صافيتان على وجهه. عندئذ عادت ماريا دوس براسيروس إلى الاهتمام بالبائع، فرأته واجماً.

ـ *Collons!*، [1] ـ هتف ـ لقد بكى!

فاعتذرت منه ماريا دوس براسيروس بصوت خافت:

ـ لقد هاج فرحاً لأنه وجد شخصاً هنا في مثل هذه الساعة. إنه يدخل إلى البيت عادة بحذر أشد من حذر الرجال، اللهم إلا أنت كما رأيتك تدخل الآن.

ـ ولكنه بكى، كونيو! ـ كرر البائع، وانتبه في الحال إلى الكلمة النابية التي تلفظ بها، فاعتذر خجلاً ـ اعذريني، ولكني لم أر مثل هذا حتى في السينما.

ـ جميع الكلاب يمكنها عمل ذلك إذا دُربت ـ قالت ـ. كل ما في الأمر أن أصحاب الكلاب يقضون حياتهم في تعليمها عادات تسبب لها الألم، كأن تأكل في أطباق أو تقضي حاجاتها في ساعات محددة وفي أمكنة معينة. ولا يعلمونها بالمقابل الأشياء الطبيعية التي تروقها، مثل الضحك والبكاء. أين وصلنا في موضوعنا؟

لم يكن قد بقي إلا القليل. وكان على ماريا دوس براسيروس أن تخضع لقضاء فصول الصيف بعيداً عن ظل الأشجار، لأن الأماكن الظليلة المتبقية في المقبرة محجوزة لذوي المراتب العليا في النظام. لكن شروط العقد وبنوده بالمقابل كانت حشواً لا حاجة له، لأنها تريد الاستفادة من الحسم بالدفع مقدماً ونقداً.

انتهى البائع وبدأ يضع أوراقه في الحقيبة. وعندئذ فقط، تفحص البيت بنظرة واعية، فانبهر بجماله. ثم أعاد النظر إلى ماريا دوس براسيروس كأنه يراها أول مرة.

ـ هل يمكنني توجيه سؤال غير لائق؟ ـ سألها.

---

[1] بالكتلانية في الأصل: «خصيات!»، وهي كلمة تقال للتعبير عن الاستغراب.

فقادته نحو الباب وهي تقول:

ـ بالطبع، ما لم يكن عن السن.

ـ لدي هوس في تخمين مهن الناس من الأشياء التي أراها في بيوتهم ـ قال ـ، والحقيقة أنني لم أستطع أن أخمن شيئاً هنا. ماذا تشتغلين حضرتك؟

فردت عليه ماريا دوس براسيروس وهي تكاد تموت من الضحك:

ـ أنا شرموطة يا بنِي. أم أنه لم يعد يظهر عليّ ذلك؟

احمر البائع خجلاً وقال:

ـ آسف.

ـ أنا التي عليها أن تعتذر ـ قالت وهي تمسك ذراعه لتحول دون أن يشج رأسه بعارضة الباب: ـ وانتبه لنفسك! لا تهشم رأسك قبل أن تدفنني جيداً.

وما إن أغلقت الباب حتى حملت الكلب وراحت تداعبه، وضمت صوتها الأفريقي البديع إلى كورال الأطفال الذي بدأ يُسمع في تلك اللحظة من جوقة أطفال في الجوار. قبل ثلاثة أشهر من ذلك، كان قد انكشف لها في الحلم أنها ستموت، ومنذ ذلك اليوم أحست بأنها مشدودة أكثر من أي وقت آخر إلى ذلك الكائن الوحيد في عزلتها. كانت قد رتبت بدقة شديدة مسألة توزيع ممتلكاتها ومصير جسدها بعد موتها، وكانت مستعدة للموت في تلك اللحظة دون أن تزعج أحداً. لقد اعتزلت العمل بإرادتها بعد أن جنت ثروة جمعتها طوبة فوق طوبة، ولكن دون تضحيات شديدة المرارة. وقد اختارت لنفسها ملجأ نهائياً في قرية غراسيا القديمة والنبيلة جداً، والتي هضمها توسع المدينة العمراني. كانت قد اشترت الطابق الأول المهدم الذي يعبق برائحة الرنكة والرطوبة، وكانت جدرانه المتآكلة بفعل الملح البحري ما تزال تحتفظ بآثار رصاص المعارك غير المجيدة. لم يكن للبناء بواب، وكانت تنقص السلم الرطب والمظلم بعض الدرجات، بالرغم من أن جميع الطوابق كانت مشغولة. أصلحت ماريا دوس

براسيروس الحمام والمطبخ، وغطت الجدران بملصقات ذات ألوان بهيجة، وركّبت زجاجاً وستائر من القطيفة للنوافذ. ثم جاءت أخيراً بالأثاث المتقن، بأدوات المطبخ والديكور وصناديق الحرير والبروكار التي كان يسرقها الفاشيون من بيوت هجرها الجمهوريون في هروب الهزيمة، ومنهم راحت تشتري شيئاً فشيئاً على امتداد سنوات طويلة، بأسعار أوكازيون ومزادات سرية. العلاقة الوحيدة التي بقيت لها من ماضيها هي صداقتها مع الكونت دي كاردونا الذي واظب على زيارتها في يوم الجمعة الأخير من كل شهر، لتناول العشاء معها وممارسة حب فاتر بعد الأكل. ولكن، حتى تلك الصداقة التي تعود إلى أيام الشباب ظلت في حدود المحافظة، فقد كان الكونت يترك سيارته التي تحمل شعاره النبيل على مسافة بعيدة وحذرة، ويأتي إلى طابقها الأول ماشياً في الظل، لحماية كرامته وكرامتها على السواء. ولم تكن ماريا تعرف أحداً في العمارة، باستثناء البيت المقابل، حيث يعيش منذ وقت قصير، زوجان شابان، مع طفلة في التاسعة من عمرها. ومع أن الأمر يبدو غير معقول، إلا أنه صحيح، فهي لم تلتق أحداً سواهم من الجيران على السلم.

وعلى الرغم من ذلك، فقد أثبت لها توزيع ثروتها أنها أكثر رسوخاً مما كانت تتصور هي نفسها في ذلك المجتمع الكتلاني النقي الذي تستند كرامته الوطنية على الحياء. فحتى أتفه الأشياء وأقلها قيمة وزعتها على أقرب الناس إلى قلبها، وكان هؤلاء هم أقربهم إلى بيتها. وفي النهاية لم تكن تشعر قانعة بأنها عادلة، ولكنها كانت واثقة بالمقابل من أنها لم تنس أحداً لا يستحق النسيان. وقد كان توزيع ثروتها عملاً أعدته بصرامة ودقة جعلت الكاتب بالعدل في شارع أربول، وهو الذي يفاخر بأنه رأى كل شيء، لا يصدق عينيه حين رآها تملي من الذاكرة على كتبته القائمة المفصلة لممتلكاتها، بالاسم الدقيق لكل شيء منها بلغة كتلانية من العصر الوسيط، والقائمة الكاملة للورثة مع مهنهم

وعناوينهم والمكان الذي يحتلونه في قلبها.

بعد زيارة بائع الجنازات تحولت إلى زائرة أخرى من زائري المقبرة في أيام الآحاد. ومثل جيرانها في القبور، بدأت تغرس زهوراً للفصول الأربعة في الأحواض المحيطة بالقبر، وتسقي العشب الذي نما حديثاً، وتشذبه بمقص جنائني إلى أن يصبح مثل سجادة مقر البلدية. وتأقلمت كثيراً مع المكان حتى إنها لم تفهم كيف بدا لها في أول الأمر موحشاً.

في الزيارة الأولى أحست بقلبها يقفز حين رأت، عند البوابة، القبور الثلاثة التي لا تحمل أسماء، لكنها لم تتوقف حتى للنظر إليها، لأن الحارس المؤرق كان على بعد خطوات منها. غير أنها انتهزت، في الزيارة الثالثة، فرصة سهو الحارس لتنجز حلماً آخر من أحلامها الكبيرة، فكتبت بأحمر الشفاه على لوحة القبر الأول الحجرية التي غسلها المطر: دوروتي. وأصبحت منذ ذلك الحين تفعل الشيء نفسه كلما سنحت لها الفرصة، أحياناً على واحد من القبور، وأحياناً على اثنين، وأحياناً على الثلاثة معاً، ودائماً بيد ثابتة وقلب مضطرب بالحنين.

وفي يوم أحدٍ في أواخر شهر أيلول، شهدت أول عملية دفن على الرابية. وبعد ثلاثة أسابيع من ذلك، في مساء رياح جليدية، دفنوا شابة حديثة الزواج في قبر مجاور لقبرها. وحتى نهاية تلك السنة كانت سبعة ضرائح قد أصبحت مشغولة، لكن الشتاء الفاني انقضى دون أن يؤثر عليها. لم تكن تشعر بأي ألم. ومع ازدياد الحر ودخول ضجة الحياة المتدفقة من النوافذ المفتوحة، كانت معنوياتها ترتفع وتجدها كافية لتجاوز غموض أحلامها وهي على قيد الحياة. والكونت دي كاردونا الذي كان يقضي أشد الشهور حراً في الجبل، وجدها لدى عودته أكثر جاذبية مما كانت عليه في شبابها المفاجئ، حين كانت في الخمسين من عمرها.

وبعد عدة محاولات فاشلة، تمكنت ماريا دوس براسيروس من جعل نوي يميز قبرها في المقبرة الفسيحة ذات القبور المتشابهة. ثم

سعت بعد ذلك لتعليمه البكاء فوق الضريح الفارغ لكي يواصل عمل ذلك كعادة بعد موتها. أخذته عدة مرات مشياً على الأقدام من بيتها إلى المقبرة، مشيرة له إلى نقاط علاّم لكي يحفظ الطريق الذي يقطعه أتوبيس لاس رمبلاس، إلى أن رأت أنه قد أتقن ذلك بما يكفي لإرساله وحيداً.

وفي يوم الأحد الذي أجرت فيه التجربة الأخيرة، في الساعة الثالثة بعد الظهر، نزعت عنه السترة الربيعية، لأن الصيف كان وشيكاً من جهة، وكي لا يلفت الأنظار من جهة أخرى، ثم أطلقته ليذهب وحيداً. رأته يبتعد على الرصيف المظلل بخطوات رشيقة ومؤخرته مضغوطة وحزينة تحت ذيله المشعث، وتمكنت بصعوبة من كبح رغبتها في البكاء على نفسها وعليه، وعلى السنوات الطويلة والمريرة من الأوهام المشتركة، إلى أن رأته ينعطف باتجاه البحر عند ناصية كاييه مايور. بعد خمس عشرة دقيقة من ذلك صعدت إلى حافلة لاس رامبلاس من ساحة ديليسبس المجاورة، وهي تحاول أن تراقبه من النافذة، ورأته فعلاً بين جماعات الأطفال الذين يخرجون يوم الأحد، وكان بعيداً وجدياً، ينتظر تبدل ضوء إشارة عبور المشاة في شارع باسيو دي غراسيا.

«رباه!» تنهدت: «كم يبدو وحيداً».

وكان عليها أن تنتظر نحو ساعتين تحت شمس مونجيك القاسية، حيَّت عدداً من زائري القبور الذين كانت قد التقت بهم في آحاد أخرى أقل تاريخية، وهي تكاد لا تتذكرهم، لأن زمناً طويلاً قد انقضى مذ رأتهم أول مرة، حتى إنهم ما عادوا يلبسون ثياب الحداد، ولا يبكون، وصاروا يضعون الأزهار على القبور دون أن يفكروا في موتاهم. وبعد قليل، حين ذهب الجميع، سمعت جؤاراً حزيناً أفزع النوارس، ورأت في البحر الفسيح عابرة محيطات بيضاء ترفع علم البرازيل، فتمنت من أعماق روحها أن تأتيها برسالة من شخص مات من أجلها في سجن بيرنامبوكو. وبعد الخامسة بقليل،

ظهر نوي على الرابية متقدماً اثنتي عشرة دقيقة عن موعده. كان لعابه يسيل من الإنهاك والحر، لكنه يمشي بخيلاء طفل فائز. في تلك اللحظة تجاوزت ماريا دوس براسيروس مخاوفها من ألا تجد من يبكي على قبرها.

وكان في الخريف التالي أن بدأت تشعر بنذر مشؤومة لا تستطيع فك رموزها، لكنها تزيد من ثقل قلبها. عادت إلى تناول القهوة تحت أشجار الأكاسيا الذهبية في ساحة الساعة بمعطفها ذي الياقة المصنوعة من ذيول الثعالب، وقبعتها المزينة بأزهار اصطناعية، والتي عادت لشدة قِدمها وأصبحت دارجة من جديد. شحذت غريزيتها. وفي محاولة لتفسير جزعها أمعنت النظر في ثرثرة بائعات العصافير في لاس رمبلاس، وهمس الرجال في أكشاك الكتب الذين ما كانوا يتكلمون عن كرة القدم لأول مرة منذ سنوات طويلة، وصمت مشوهي الحرب وهم يلقون فتات الخبز للحمائم، ورأت في كل مكان علامات الموت المؤكدة. في عيد الميلاد علقوا أنواراً ملونة على أشجار الأكاسيا، وكانت الموسيقى وأصوات البهجة تنطلق من الشرفات، واقتحمت جموع السائحين الغرباء عن قدرنا مقاهي الهواء الطلق، لكنها حتى وهي في تلك الأجواء الاحتفالية كانت تشعر بالتوتر المقموع نفسه الذي سبق الأزمنة التي أصبح الفوضويون فيها هم سادة الشارع[1]. وماريا دوس براسيروس التي عاشت تلك الحقبة المشحونة بالانفعالات العظيمة، لم تستطع التحكم بقلقها، واستيقظت أول مرة وهي لا تزال في منتصف الحلم على وخزات فزع. وفي إحدى الليالي أطلق مخبرو أمن الدولة الرصاص قبالة نافذتها على طالب كان قد كتب على الجدار بفرشاة دهان: *Visca Catalunya llivre!*.[2]

---

[1] في سنوات الحرب الأهلية الإسبانية (1936ـ1939) كان الفوضويون هم الذين يسيطرون على برشلونة وحكومة كتالونيا المستقلة ذاتياً.

[2] بالكتلانية في الأصل: «تحيا كتالونيا حرة!».

«رباه! ـ قالت لنفسها مذهولة ـ يبدو كأن الجميع يموتون معي!».
لم تعرف مثل ذلك الجزع إلا وهي طفلة في ماناوس، قبل لحظة من بزوغ الفجر، حين هدأت ضوضاء الليل المتنوعة فجأة، وتوقفت المياه، وتذبذب الوقت في مكانه، وغرقت الغابات الأمازونية في صمت مطبق لا يمكن له إلا أن يكون مثل صمت الموت، ووسط ذلك التوتر الذي لا يُقاوم، في يوم الجمعة الأخير من شهر نيسان، جاء الكونت دي كاردونا كعادته لتناول العشاء في بيتها.
كانت زيارته قد تحولت إلى طقس تقليدي. فالكونت يأتي في موعد محدد ودقيق، بين السادسة والتاسعة ليلاً، حاملاً زجاجة شمبانيا من إنتاج البلاد، ملفوفة بجريدة المساء، لإخفائها قدر الإمكان. وعلبة شوكولاته محشوة. وكانت ماريا دوس براسيروس تُعد له معكرونة في الفرن وفروجاً طرياً بصلصته، وهما الطبقان المفضلان للكتلانيين النبلاء في أيام عزهم، وطبقاً فيه تشكيلة من فواكه الموسم. وبينما هي مشغولة في المطبخ، كان الكونت يستمع من الغراموفون إلى مقاطع من الأوبريات الإيطالية في نسخ تاريخية وهو يتناول، برشفات بطيئة، كأساً من نبيذ أوبورتو، يبقى معه حتى انتهاء الاسطوانات.
وبعد العشاء الذي يمتد طويلاً، ويتحدثان فيه كثيراً، كانا يمارسان، عن ظهر قلب، حباً ثابتاً يخلّف في نفسيهما رواسب كارثية. وقبل أن ينصرف الكونت، وهو قلق دائماً من اقتراب منتصف الليل، كان يترك خمساً وعشرين بيزتا تحت منفضة السجائر في المخدع. وكان هذا هو السعر الذي تتقاضاه ماريا دوس براسيروس حين تعرف عليها في فندق للعابرين في شارع باراليلو، والشيء الوحيد الذي لم يطله صدأ الزمان.
لم يسأل أي منهما نفسه يوماً إلى أي شيء ترتكز تلك الصداقة. لقد كانت ماريا دوس براسيروس مدينة له ببعض الخدمات البسيطة. وكان يقدم لها نصائح مناسبة من أجل استثمار

جيد لمدخراتها، وقد علمها معرفة القيمة الحقيقية لممتلكاتها الأثرية، وكيفية حيازتها بطريقة لا يُكشف معها أنها أشياء مسروقة. والأهم من ذلك كله أنه هو الذي أشار عليها بأن تعيش شيخوخة محترمة في حي غراسيا، حين أخبروها في المبغى الذي أمضت فيه حياتها أنها صارت مستعملة جداً وغير مناسبة للأذواق المعاصرة، وأرادوا إرسالها إلى بيت للمتقاعدات السريات، حيث يتولين تعليم الأطفال ممارسة الحب مقابل خمس بيزتات. كانت قد روت للكونت أن أمها باعتها وهي في الرابعة عشرة من عمرها، في ميناء ماناوس، وأن أول قبطان باخرة تركية تمتع بها دون رحمة خلال عبور المحيط، ثم هجرها دون نقود ودون لغة ودون اسم في مستنقع أضواء باراليلو. كلاهما كان مدركاً أن ما يجمع بينهما قليل جداً، حتى إنهما لم يكونا يشعران بالوحدة قدر شعورهما بها وهما معاً، ولكن أياً منهما لم يتجرأ على إلحاق الأذى باللقاءات المعهودة. كانا بحاجة إلى هزة وطنية كي يدركا معاً، وفي الوقت المناسب، كم كان يكره كل منهما الآخر، وبأي قدر من الحنان، طوال تلك السنوات الطويلة.

وقد جاءت تلك الهزة بصورة صاعقة. كان الكونت دي كاردونا يستمع إلى أغنية الحب الثنائية **لابوهيمي**، تغنيها ليسيا ألبانيسي بمرافقة بينيامين جيغلي، حين وصلت إلى مسامعه رشة أخبار مفاجئة من المذياع الذي كانت تستمع إليه ماريا دوس براسيروس في المطبخ. دنا على رؤوس أصابعه ليستمع معها. كان الجنرال فرانثيسكو فرانكو، دكتاتور إسبانيا مدى الحياة قد تولى مسؤولية تقرير المصير النهائي لثلاثة انفصاليين باسكيين صدر بحقهم حكم الإعدام. أطلق الكونت تنهدة اطمئنان وقال:

- سيرمونهم بالرصاص إذاً، لأن الزعيم رجل عادل.

ثبتت ماريا دوس براسيروس عليه عيني الكوبرا الملكية المتوقدتين، ورأت حدقتيه الخاليتين من الشفقة وراء نظارته الذهبية،

وأسنانه المفترسة، ويديه الهجينتين كيدي حيوان معتاد على الرطوبة والعتمة. تماماً مثلما كان في الواقع. وقالت له:

ـ عليك أن تتضرع إلى الله ألا يحدث ذلك، لأنه إذا أُعدم واحد منهم فسوف أدس لك السمَّ في الحساء.

ارتعب الكونت:

ـ لماذا؟

ـ لأني قحبة عادلة أيضاً.

لم يرجع الكونت بعد ذلك قط، وأيقنت ماريا دوس براسيروس أن الحلقة الأخيرة من حياتها قد أُغلقت. والحقيقة أنها، إلى ما قبل ذلك بقليل، كانت تغضب إذا ما تخلى لها أحدهم عن المقعد في الحافلة، أو حاول مساعدتها في عبور الشارع، أو الإمساك بذراعها لتصعد السلّم. لكنها لم تعد تقبل ذلك وحسب، بل أصبحت تتمناه كضرورة بغيضة. عندئذ أوصت على إعداد لوحة من الحجر لقبرها، مثل التي على قبور الفوضويين، دون اسم أو تاريخ، وبدأت تنام دون أن تقفل الباب لكي يتسنى لنوي الخروج بالخبر إذا ماتت وهي نائمة.

في أحد أيام الآحاد، ولدى عودتها من المقبرة، التقت على فسحة السلم بالطفلة التي تعيش في البيت المقابل. فسارت معها في الشارع عدة كوادرات، وكانت تحدثها عن كل شيء بسذاجة الجدات، وتراقبها وهي تلعب مع نوي كصديقين قديمين. وفي ساحة ديامنتي دعتها، مثلما كانت قد خططت، لتناول المثلجات.

ـ هل تحبين الكلاب؟ ـ سألتها.

ـ إنها تفتنني ـ قالت الطفلة.

عندئذ عرضت عليها ماريا دوس براسيروس الاقتراح الذي كانت قد أعدته منذ زمن طويل.

ـ إذا حدث لي شيء في يوم من الأيام، خذي نوي واهتمي به. بشرط واحد، هو أن تتركيه طليقاً في أيام الآحاد دون أن تقلقي

عليه. فهو يعرف ما سيفعله.

بدت السعادة على الطفلة. ورجعت ماريا دوس براسيروس أيضاً إلى بيتها بسعادة من عاشت حلماً كان ينضج في قلبها منذ سنوات. ومع ذلك، لم يكن إرهاق الشيخوخة ولا تأخر الموت هو السبب في عدم اكتمال ذلك الحلم. بل إنه لم يكن قراراً ذاتياً كذلك. فالحياة هي التي قادتها في إحدى أمسيات تشرين الأول الجليدية لتتنبه إلى اقتراب عاصفة مباغتة وهي خارجة من المقبرة. كانت قد كتبت الأسماء على الألواح الحجرية الثلاثة، وبدأت تنزل نحو موقف الحافلة، ماشية على قدميها، حين تبللت تماماً تحت زخة المطر الأولى. وبالكاد استطاعت أن تحتمي عند أبواب بيوت في حي مقفر يبدو كأنه في مدينة أخرى، بحاناته الخربة ومعامله المعفرة بالغبار، وقاطرات الشحن الضخمة التي تجعل دوي العاصفة أشد رعباً. وبينما هي تحاول أن تدفئ الكلب بجسمها، كانت ماريا دوس براسيروس ترى الحافلات تمر مزدحمة بالركاب، وسيارات الأجرة تمر فارغة ولكن إشاراتها مطفأة. ولم يلتفت أحد إليها وهي تشير بيدها مثل غريق. وفجأة، عندما بدا أن تحقق معجزة هو أمر مستحيل، مرت سيارة فاخرة لها لون الفولاذ الغسقي في الشارع الغارق بالماء، دون أن تصدر صوتاً تقريباً، ثم توقفت بغتة عند الناصية ورجعت القهقرى إلى حيث كانت تقف هي. أُنزل الزجاج بنفحة سحرية، وعرض عليها السائق أن يوصلها.

ـ مشواري بعيد ـ قالت ماريا دوس براسيروس بصراحة ـ ولكنك تقدم لي جميلاً عظيماً إذا جعلتني أقترب قليلاً.

ـ أخبريني إلى أين تودين الذهاب ـ قال بإصرار.

ـ إلى غراسيا ـ قالت.

فُتح الباب دون أن يمسه أحد. وقال لها:

ـ إنه طريقي. اصعدي.

في السيارة العابقة برائحة أدوية مبردة، تحول المطر إلى محنة

غير واقعية، فتبدل لون المدينة، وأحست أنها في عالم غريب وسعيد، كل شيء فيه محلول مسبقاً. كان السائق يشق طريقه وسط فوضى المرور بانسيابية فيها شيء من السحر. وكانت ماريا دوس براسيروس تشعر بالخوف، ليس لبؤسها هي بالذات فقط، وإنما أيضاً لبؤس الكلب المحزن الذي ينام في حضنها.

قالت، لأنها شعرت بأنه عليها أن تقول شيئاً:

ـ هذه السيارة أشبه بعابرة محيطات. لم أرَ مثلها في حياتي، حتى ولا في الأحلام.

ـ الحقيقة إن الشيء السيئ الوحيد فيها هو أنها ليست لي، قال ذلك بكتلانية متعثرة، ثم أضاف باللغة القشتالية بعد لحظة: ـ راتبي مدى الحياة لا يكفي لشرائها.

ـ هذا ما تصورته ـ قالت متنهدة.

تأملته بطرف عينها، كان مضاءً بلون أخضر يرسله ضوء لوحة القيادة، ورأت أنه مراهق تقريباً، شعره مجعد وقصير، وله بروفيل برونزي كتمثال روماني. فكرت في أنه ليس جميلاً، إنما له سحر مختلف، وتناسبه تماماً سترة الجلد الرخيصة المستهلكة من كثرة الاستعمال، ولا بد أن أمه تشعر بالسعادة حين تراه يرجع إلى البيت. وبسبب يديه الفلاحيتين وحدهما، اقتنعت بأنه ليس مالك السيارة.

لم يعودا إلى تبادل الحديث في بقية الطريق، لكن ماريا دوس براسيروس أحست أنها خضعت لنظرات تأمل عارضة عدة مرات كذلك، فتألمت مرة أخرى لأنها ما زالت على قيد الحياة بعد هذه السن. أحست أنها قحبة، وأنها تدعو للرثاء بمنديل المطبخ الذي وضعته على رأسها كيفما اتفق حين بدأ هطول المطر، والمعطف الخريفي المحزن الذي لم يخطر ببالها استبداله لأنها كانت تفكر في الموت.

وعندما وصلا إلى حي غراسيا، كان المطر قد بدأ بالتوقف، وكان الظلام قد خيم، وأنوار الشارع قد أضيئت. طلبت ماريا دوس

براسيروس من سائقها أن يتركها عند ناصية قريبة، لكنه أصر على إيصالها حتى باب بيتها. لم يفعل ذلك وحسب، وإنما أوقف السيارة فوق الرصيف أيضاً لكي تستطيع النزول دون أن تبتل بالماء. أفلتت الكلب، وحاولت الخروج من السيارة بكل الوقار الذي يتيحه لها جسدها، وعندما التفتت لتشكره، وجدت نفسها في مواجهة نظرة رجلٍ قطعت أنفاسها. ظلت لحظة لا تفهم جيداً من منهما الذي ينتظر شيئاً، وممن ينتظره. وعندئذ سألها هو بصوت حازم:

ـ هل أصعد؟

أحست ماريا دوس براسيروس بالإهانة. فقالت:

ـ أشكرك لأنك أوصلتني، ولكنني لا أسمح لك بأن تسخر مني.

ـ ليس هناك ما يدعوني للسخرية من أحد ـ قال بالقشتالية وبجدية حاسمة ـ وخاصة من امرأة مثل حضرتك.

كانت ماريا دوس براسيروس قد تعرفت على رجال كثيرين مثل هذا، وكانت قد أنقذت من الانتحار آخرين أكثر جرأة منه، لكنها لم تشعر على امتداد سنوات حياتها الطويلة بمثل ذلك الخوف في حسم الموقف. وسمعته يقول بإصرار دون أدنى تبدل في رنة صوته:

ـ هل أصعد؟

مضت دون أن تغلق باب السيارة، وردت عليه بالقشتالية لتكون واثقة من أنه فهمها:

ـ افعل ما تشاء.

دخلت إلى الدهليز المضاء بنور خافت من بريق الشارع الزائغ، وبدأت تصعد الدرجات الأولى وركبتاها ترتعشان، وكانت مختنقة برعب ما كان لها أن تصدق أنه ممكن إلا في لحظة الموت. وعندما توقفت أمام باب الطابق الأول، وهي ترتجف جزعاً في البحث عن المفاتيح في حقيبتها، سمعت صوت إغلاق بابي السيارة على التوالي في الشارع. وحاول نوي الذي كان قد سبقها أن ينبح، فأمرته بتمتمة احتضار: «اصمت». وعلى الفور تقريباً سمعت وقع الخطوات

الأولى على الدرجات الخربة في السلم، وخافت أن ينفجر قلبها. وخلال جزء من الثانية عادت تستعرض كامل الحلم المنذر الذي بدّل حياتها تماماً طوال ثلاث سنوات، وأدركت خطأ تفسيرها. فقالت لنفسها بذهول:

«رباه! لم يكن نذير الموت إذاً!»

وأخيراً، وجدت ثقب المفتاح وهي تسمع الخطوات المعدودة في الظلام، وتسمع الأنفاس المتصاعدة من شخص يقترب مرتعداً مثلها في الظلام، وعندئذ أدركت أن الانتظار سنوات وسنوات، ومعاناتها الطويلة الطويلة في الظلام، لم تكن عبثاً، حتى ولو لمجرد أن تعيش تلك اللحظة فقط.

أيار 1979

سبعة عشر إنكليزياً مسموماً

Diecisiete ingleses envenenados

أول ما لاحظته السيدة برودينثيا لينيرو لدى وصولها إلى ميناء نابولي هو أن له رائحة ميناء يوهاتشا نفسها. لم تقل ذلك لأحد بالطبع، لأن أحداً لن يفهمه في عابرة المحيطات الهرمة تلك، المزدحمة بإيطاليين من بوينس آيرس يعودون إلى الوطن أول مرة بعد الحرب، ولكنها أحست على أي حال أنها أقل توحداً وأقل ذعراً وبُعداً وهي في الثانية السبعين من العمر، وبعد ثمانية عشر يوماً من الإبحار في بحر سيء بعيداً عن أناسها وعن بيتها.

لقد رأت أنوار اليابسة منذ الفجر. وكان المسافرون قد استيقظوا في وقت مبكر أكثر من المعتاد، وارتدوا ملابسهم الجديدة في ما كان قلق الوصول يثقل على قلوبهم، فبدا يوم الأحد الأخير ذاك على متن السفينة كأنه الشيء الوحيد الحقيقي طوال الرحلة كلها. كانت السيدة برودينثيا لينيرو بين الأشخاص القليلين الذين حضروا القداس. وعلى خلاف الأيام الأخرى، حين كانت تمضي على متن السفينة بملابس حدادية، ارتدت للنزول إلى البر رداء رمادياً من الكتان الخشن، وعقدت حول خصرها حزام أخوية القديس فرانثيسكو، وانتعلت صندلاً من الجلد الخام لا يبدو كنعال الحجاج لأنه جديد فقط. وكانت تلك هي الدفعة الأولى على الحساب: فقد نذرت للرب أن تلبس مسوح التوبة حتى الموت إذا ما منحها نعمة زيارة روما ورؤية الحبر الأعظم، وها هي ذي النعمة قد مُنحت لها. وعند حافة الطاولة أشعلت شمعة للروح القدس لأنه بثها الشجاعة على تحمل أنواء الكاريبي، ورتلت صلاة من أجل كل واحد من أبنائها التسعة وأحفادها الأربعة عشر الذين يحلمون بها

في تلك اللحظة، في ليلة رياح عاتية في ريوهاتشا.

عندما صعدت إلى السطح بعد تناول الفطور، كانت الحياة في السفينة قد تبدلت. فالأمتعة مكدسة في صالة الرقص، وسط شتى أنواع بضائع السياح التي اشتراها الإيطاليون من أسواق السحر في جزر الأنتيل، وكان هناك فوق منضدة الكونتوار قرد من بيرنانبوكو في قفص حديدي مزركش. كان صباحاً مشعاً في أوائل شهر آب. يوم أحد نموذجي من فصول الصيف تلك التي تلت الحرب، حيث الضوء كوحي يومي. وكانت السفينة الضخمة تتحرك ببطء شديد، مطلقة لهاثَ مريضٍ، في مياه ساكنة صافية. وكان حصن دوق أنجو الملفوف بالضباب قد بدأ يظهر بصورة غير واضحة في الأفق، لكن المسافرين الواقفين عند حافة السفينة كانوا يظنون أنهم يتعرفون على الأماكن المألوفة لديهم، ويشيرون بأصابعهم دون رؤيتها ويصرخون مبتهجين بلهجات جنوبية. أما السيدة برودينثيا لينيرو التي عقدت صداقات كثيرة خلال الرحلة في السفينة، واعتنت بأطفالٍ بينما كان أباؤهم يرقصون، بل إنها خاطت كذلك أحد أزرار سترة الضابط الأول في السفينة، وجدت الجميع وقد أصبحوا غرباء وبعيدين عنها فجأة. فقد اختفت الآن الروح الاجتماعية والدفء الإنساني والأشياء التي أتاحت لها البقاء على قيد الحياة خلال نوبات الحنين الأولى في السبات المداري. إن الحب الأبدي في أعالي البحار ينتهي مع رؤية الميناء. وفكرت السيدة برودينثيا لينيرو التي لم تكن تعرف طباع الإيطاليين المتقلبة، إن الداء ليس في قلوب الآخرين وإنما في قلبها هي بالذات. لأنها هي الوحيدة الذاهبة بين جموع العائدين. وفكرت في أن السفر لا بد أن يكون كذلك، وأحست أول مرة في حياتها بوخزةِ كونها غريبة بينما هي تتأمل من حافة السفينة آثار عوالم كثيرة خامدة في قعر الماء. وأرعبتها صرخة رعب مفاجئة أطلقتها فتاة جميلة جداً كانت تقف إلى جوارها:

ـ يا أماه! ـ قالت الفتاة وهي تشير إلى الماء ـ انظروا هناك.

كان هناك غريق. وقد رأته السيدة برودينثيا لينيرو طافياً على ظهره وسط الماء. كان رجلاً ناضجاً وأصلع ذا بنية غريبة، وكانت عيناه المفتوحتان السعيدتان بلون السماء عند الشروق. وكان يرتدي بدلة مراسم مع صدار من البروكار، وينتعل حذاء لماعاً، ويضع على ياقة سترته زهرة غاردينيا. وكانت في يده اليمنى علبة صغيرة مكعبة الشكل ملفوفة بورق هدايا، وكانت أصابعه الحديدية الزرقاء الضاربة إلى السواد مشدودة على شريط العلبة، وهو الشيء الوحيد الذي وجده ليتمسك به لحظة موته.

ـ لا بد أنه سقط من أحد زوارق الأعراس ـ قال أحد ضباط السفينة ـ هذا يحدث بكثرة خلال الصيف في هذه المياه.

كان مشهداً عابراً، لأنهم بدؤوا حينئذ بالدخول إلى الخليج، وشدت اهتمام المسافرين أمور أخرى أقل كآبة. لكن السيدة برودينثيا لينيرو واصلت التفكير في الغريق، الغريق المسكين، الذي كانت أذيال سترته الرسمية تتماوج مع أثر مخور السفينة في الماء.

ما إن دخلت السفينة الخليج حتى خرج لاستقبالها مركب جرّ، وسحبها برسنٍ بين أنقاض عدد كبير من السفن الحربية المدمرة خلال الحرب. بدأ الماء يتحول إلى زيت مع تقدم السفينة بين الأنقاض الصدئة، وأصبح الحر أكثر حدة حتى من حرّ ريوهاتشا في الساعة الثانية بعد الظهر. وفي الجانب الآخر من المضيق، تحت شمس الساعة الحادية عشرة المتوهجة، ظهرت فجأة المدينة كلها، بقصورها الخيالية وكنائسها القديمة ذات الألوان المتلبدة على التلال. وفاحت حينئذ من القيعان التي حُركت رائحة كريهة لا تطاق تعرفت عليها السيدة برودينثيا لينيرو كرائحة السرطانات المتعفنة في فناء بيتها.

وأثناء مناورة السفينة للرسو، كان المسافرون يتعرفون على أقربائهم في فوضى الميناء بسعادة مبالغ فيها. وكان معظم هؤلاء من السيدات الخريفيات ذوات الصدور المهيبة اللواتي يختنقن في ملابس الحداد، مع أجمل الأطفال وأكثرهم عدداً على وجه الأرض، ومع

أزواجهن الضئيلين النشيطين، من ذلك الصنف الخالد الذي يقرأ الجريدة بعد الزوجات، والذين يرتدون بدلات كتّاب بالعدل صارمة رغم شدة الحر.

ووسط ضجة الاحتفال تلك، كان هناك رجل عجوز ذو مظهر لا عزاء له، يلبس رداء شحاذ، ويُخرج من جيوبه بكلتا يديه حفنات وحفنات من الصيصان الحية التي ملأت الميناء في لحظات وراحت تزقزق بجنون في كل الأنحاء، ولأنها حيوانات سحر، فإن عدداً كبيراً منها يواصل الجري حياً بعد أن تدوسه الجموع الغافلة عن الأعجوبة. وضع الساحر قبعته مقلوبة على الأرض، لكن أحداً ممن كانوا عند حافة السفينة لم يلق إليه بقطعة نقد واحدة على سبيل الإحسان.

فُتنت السيدة برودينثيا لينيرو بالمشهد العجيب الذي بدا كأنه أقيم على شرفها، لأنها الوحيدة التي أبدت إعجابها به، ولم تنتبه في أية لحظة أنزلوا سقالة المرور، واقتحم سيل بشري السفينة بصراخ واندفاع قراصنة. وبينما هي مشدوهة من تلك البهجة ومن رائحة البصل المنبعثة من تلك الأُسر في الصيف، ومعرضة لضربات زمر الحمالين الذين كانوا يتعاركون على حمل الأمتعة، أحست بأنها مهددة بميتة غير مجيدة كميتة صيصان الميناء. عندئذ جلست فوق صندوقها الخشبي ذي الزوايا الصفيحية المطلية، وحافظت على تماسكها بترتيل حلقة مفرغة من الصلوات ضد الشرور والأخطار في أراضي الكفار. وهناك وجدها الضابط الأول في السفينة بعد انتهاء الجائحة وعدم بقاء أحد سواها في الصالة الخاوية.

ـ يجب ألا يبقى أحد هنا حتى هذا الوقت ـ قال لها الضابط بشيء من اللطف ـ. هل أستطيع مساعدتك في شيء؟

ـ عليّ أن أنتظر القنصل ـ قالت.

وهذا ما كان. فقبل يومين من إبحارها، كان ابنها البكر قد أرسل برقية إلى القنصل في نابولي، وهو من أصدقائه، يرجوه فيها أن ينتظرها في المرفأ ويساعدها في الإجراءات لتواصل السفر إلى

روما. وكان قد بعث إليه باسم السفينة وموعد الوصول، ونبهه أيضاً إلى أنه يستطيع التعرف عليها من مسوح القديس فرانشيسكو التي سترتديها عند النزول إلى البر. وقد أبدت تشبثاً صارماً بموقفها مما جعل الضابط الأول في السفينة يسمح لها بالانتظار قليلاً، على الرغم من اقتراب موعد غداء الطاقم، ومن أنهم قد وضعوا الكراسي فوق المناضد وبدؤوا بشطف سطح السفينة بسكب دلاء من الماء. وكان عليهم أن يحركوا الصندوق من مكانه عدة مرات كي لا يبللوه بالماء، ولكنها كانت تبدل مكانها دون تأثر، ودون أن تقطع صلواتها، إلى أن أخرجوها من صالة اللهو، ثم انتهى بها المطاف إلى الجلوس تحت الشمس في زوارق النجاة. وهناك وجدها الضابط الأول مرة أخرى قبل الساعة الثانية بعد الظهر بقليل، غارقة في العرق وهي بثياب غوص التائبين. وكانت تصلي دون أمل، لأنها خائفة وحزينة، وتكبح بمشقة رغبتها في البكاء.

قال لها الضابط الأول دون اللطف الذي أبداه أول مرة:

ـ لا جدوى من مواصلتك الصلاة. فالرب نفسه يذهب في إجازة في شهر آب.

وأوضح لها أن نصف إيطاليا موجودة على شواطئ البحر في هذه الفترة، وخاصة في أيام الآحاد. ومن المحتمل ألا يكون القنصل في إجازة، بسبب طبيعة منصبه، ولكنه لا يفتح مكتبه بكل تأكيد حتى يوم الاثنين. والشيء العقلاني الوحيد الذي يمكنها عمله هو الذهاب إلى أحد الفنادق، والاستراحة باطمئنان هذه الليلة، والاتصال في اليوم التالي بالقنصلية هاتفياً، ولا شك أن رقم هاتفها موجود في الدليل. وهكذا كان على السيدة برودينثيا لينيرو أن تقتنع بوجهة النظر هذه، وقد ساعدها الضابط في إجراءات قسم الهجرة والجمارك، وفي تبديل النقود، ووضعها في سيارة أجرة طالباً من السائق أن يأخذها إلى فندق محترم.

انطلقت سيارة الأجرة الهرمة التي تشبه عربة جنائزية وهي تهتز

وتتمايل في الشوارع المقفرة، وفكرت السيدة برودينثيا لينيرو لحظة في أنها هي والسائق الكائنان الوحيدان الحيان، في مدينة أشباح، وأنهما معلقان بأسلاك وسط الشارع، ولكنها فكرت أيضاً في أن رجلاً يتكلم كثيراً، وبكل تلك العاطفة لن يكون لديه وقت ليلحق الأذى بامرأة مسكينة وحيدة تحدت مخاطر المحيط لترى البابا.

وبعد متاهة الشوارع عادت ترى البحر ثانية، وواصلت سيارة الأجرة اهتزازها على امتداد شاطئ متقد ومنعزل، حيث كانت توجد فنادق صغيرة كثيرة ذات ألوان صاخبة. لكن السيارة لم تتوقف عند أي منها، وإنما مضت مباشرة إلى أقلها ظهوراً، قائم وسط حديقة عامة فيها أشجار نخيل ضخمة ومقاعد خضراء. وهناك وضع السائق الصندوق على الرصيف المظلل، وأمام تردد السيدة برودينثيا لينيرو، أكد لها أن ذلك هو الفندق الأكثر وقاراً في نابولي.

رفع حمّال وسيم ولطيف الصندوق على كتفه وتولى أمرها. قادها إلى مصعد محاط بشبكة معدنية مرتجلة في فراغ السلّم، وانطلق يغني أغنية لبوتشيني بملء صوته وبتصميم مفزع. كان بناء قديماً مؤلفاً من تسعة طوابق مرممة، وفي كل واحد من تلك الطوابق يوجد فندق مختلف. أحست السيدة برودينثيا لينيرو فجأة بلحظة تشوش وهي محشورة في صندوق كصندوق الدجاج يصعد ببطء في فراغ سلّم من المرمر، ويفاجئ الناس في البيوت وهم في أكثر لحظات ترددهم حميمية، بسراويلهم الداخلية المثقوبة وتجشؤاتهم الحمضية. توقف المصعد مهتزاً في الطابق الثالث، وحينئذ توقف حمّال الحقائب عن الغناء، وفتح باب المصعد ذا المعيّنات القابلة للطي، وأشار للسيدة برودينثيا لينيرو بحركة احترام لطيفة أنها أصبحت في بيتها.

رأت فتى مراهقاً ونحيلاً وراء طاولة خشبية مطعمة بقطع من الزجاج الملون في البهو، ونباتات ظل في أصص من النحاس. وقد أعجبها الفتى على الفور، لأن ناصية شعره جميلة تشبه ناصية شعر حفيدها الأصغر. وأعجبها اسم الفندق بحروفه المحفورة على لوحة

برونزية، وأعجبتها رائحة الفينيك المنبعثة من المكان، وأعجبتها نباتات السرخس المعلقة، والصمت، والزنابق المذهبة التي تزين ورق الجدران، فخطت خارج المصعد، لكن قلبها انكمش عندئذ. كانت هناك جماعة من السائحين الإنكليز يرتدون سراويل قصيرة ونعال الشاطئ يغفون في صف طويل على مقاعد الانتظار. كانوا سبعة عشر، وكانوا يجلسون في ترتيب متسلسل فيبدون كأنهم شخص واحد مكرر في رواق مرايا. رأتهم السيدة برودينثيا لينيرو بنظرة واحدة، دون أن تتمكن من تمييزهم. والشيء الوحيد الذي انطبع في ذهنها هو صف الرُّكب الوردية التي بدت لها مثل قطع لحم خنزير معلقة بخطافات في دكان جزارة. لم تتقدم خطوة أخرى نحو الطاولة، وإنما تراجعت فزعة ودخلت إلى المصعد ثانية. قالت:

ـ فلنذهب إلى طابق آخر.

ـ هذا هو الفندق الوحيد الذي فيه مطعم يا سيدتي ـ قال الحمال.

ـ ليس مهماً ـ قالت.

أومأ الحمال موافقاً، ثم أغلق المصعد، وأكمل غناء المقطع المتبقي له من الأغنية حتى وصلا إلى فندق الطابق الخامس. كان كل شي يبدو أقل صرامة مما في الفندق الآخر، وكانت صاحبة الفندق سيدة ربيعية، تتكلم القشتالية بطلاقة، ولم يكن هناك من ينام القيلولة على كراسي البهو. ولم يكن في الفندق مطعم بالفعل، ولكن صاحبته كانت متفقة مع أحد المطاعم على تقديم طعام لنزلاء الفندق بسعر خاص. وهكذا قررت السيدة برودينثيا لينيرو أن تمضي تلك الليلة هناك، مطمئنة إلى طلاقة لسان صاحبة الفندق ولطفها، بقدر اطمئنانها لعدم وجود أي إنكليزي وردي الركبتين في البهو.

كانت ستائر نوافذ الغرفة مسدلة في الثانية ظهراً، وكان للظل برودة وصمت أيكة خفية، وكان مناسباً للبكاء. وما إن صارت السيدة برودينثيا لينيرو وحدها حتى أغلقت الباب بالمزلاجين، وتبولت، لأول مرة منذ الصباح، تبولاً خفيفاً أتاح لها أن تتذكر شخصيتها

المفقودة طوال الرحلة. ثم نزعت نعليها وحزام مسوحها وتمددت على جهة القلب فوق السرير المزدوج الذي كان فسيحاً جداً وموحشاً جداً بالنسبة لها وحدها. وأطلقت الينبوع الآخر من دموعها المتأخرة.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تغادر فيها ريوهاتشا وحسب، وإنما إحدى المرات القليلة التي تغادر فيها بيتها منذ أن تزوج أبناؤها وغادروها، وظلت وحدها مع هنديتين حافيتين لتعتني بجسد زوجها الذي صار بلا روح. لقد أمضت نصف حياتها في غرفة قبالة أنقاض الرجل الذي أحبته، والذي بقي في غيبوبة نحو ثلاثين سنة، مستلقياً على سرير غراميات شبابه، فوق فرشة من جلود الماعز.

وفي شهر تشرين الأول الماضي، فتح المريض عينيه في ومضة صحو مفاجئة، وتعرف على ذويه، وطلب استدعاء مصور، فجاؤوا بمصور الحديقة العجوز مع جهازه ذي الكم الأسود، وطست المغنيسيوم الذي يستخدمه للصور المنزلية، وقد وجه المريض نفسه عملية التصوير. قال: «صورة لبرودينثيا، من أجل الحب والسعادة اللذين منحتني إياهما في الحياة»، والتُقطت الصورة بأول وميض من المغنسيوم. ثم قال: «والآن صورتان لابنتي المعبودتين برودنثيتا وناتاليا»، والتُقطت الصورتان. وبعدها: «صورتان أخريان لابنيّ النموذجيين في الأسرة بعاطفتهما وحكمتهما». وظل على تلك الحال إلى أن انتهى ورق الصور، وكان على المصور أن يذهب إلى بيته ويتمون بمزيد منها. وفي الساعة الرابعة مساء، عندما لم يعد بالإمكان التنفس في غرفة النوم العابقة بالمغنسيوم وصخب الأقارب والأصدقاء والمعارف الذين جاؤوا لأخذ نسخهم من الصورة، بدأ المشلول يتلاشى وهو يودع الجميع مصافحة، وكأنه يُمحى من الدنيا على حافة سفينة مبحرة.

لم يكن موته هو الراحة التي ينتظرها الجميع للأرملة. فقد ظلت مغمومة جداً مما دعا أولادها إلى الاجتماع لسؤالها كيف يمكنهم مواساتها، فردت عليهم بأنها لا تريد شيئاً سوى الذهاب إلى روما ورؤية البابا. وحذرتهم قائلة:

ـ سأذهب وحيدة ومرتدية مسوح القديس فرانثيسكو. هذا نذر.

الشيء الوحيد السار الذي بقي لها من سنوات السهر تلك هو متعة البكاء. وحين اضطرت وهي في السفينة إلى تقاسم القمرة مع راهبتين غادرتا السفينة في مرسيليا، كانت تتأخر في المرحاض كي تبكي دون أن يراها أحد. وهكذا كانت غرفة الفندق في نابولي هي المكان الوحيد المناسب للبكاء على هواها، منذ أن غادرت ريوهاتشا. وكانت ستبكي حتى موعد انطلاق القطار إلى روما في اليوم التالي، لو لم تطرق صاحبة الفندق عليها الباب في الساعة السادسة لتذكرها بأنها إذا لم تذهب إلى المطعم في الوقت المناسب، فسوف تبقى دون طعام.

اصطحبها موظف الفندق ليدلها على المطعم. كانت هناك نسمة باردة قد بدأت تهب من البحر، وكان بعض المستحمين لا يزالون على الشاطئ تحت شمس الساعة السابعة الباهتة. لحقت السيدة برودينثيا لينيرو الموظف في الشوارع الصاعدة والضيقة التي كانت تستيقظ للتو من قيلولة يوم الأحد، ووجدت نفسها فجأة تحت عريشة وارفة، حيث توجد مناضد للطعام مغطاة بشراشف ذات مربعات حمراء، وعليها مرطبانات مخللات فارغة تستخدم كمزهريات فيها أزهار ورقية. الزبائن الوحيدون في تلك الساعة المبكرة كانوا عمال الخدمة في المطعم، وكاهن فقير جداً يأكل بصلاً وخبزاً في ركن منزو. ولدى دخولها، أحست بأن الجميع يتطلعون إليها بسبب مسوحها الرمادية، ولكنها لم تتأثر، لأنها تعلم أن تحول المرء إلى أضحوكة هو جزء من التوبة والتكفير عن الذنوب. أما النادلة بالمقابل، فقد أثارت في نفسها شيئاً من الشفقة، لأنها كانت شقراء وجميلة وتتكلم كما لو أنها تغني. ففكرت أن الوضع في إيطاليا سيئ جداً بعد الحرب، إذا كانت مثل هذه الفتاة مضطرة للخدمة في مطعم، ولكنها أحست بالراحة في الجو المزهر تحت العريشة. وأيقظت فيها روائح الطبخ بأوراق الغار، في المطبخ، الجوع المؤجل بسبب هموم

ذلك اليوم. ولأول مرة، منذ زمن طويل، لم تشعر بالرغبة في البكاء.

وبالرغم من ذلك، لم تستطع أن تأكل كما تشتهي، لأنها وجدت، من جهة أولى، صعوبة كبيرة في التفاهم مع النادلة الشقراء التي كانت مع ذلك لطيفة وصبورة؛ ومن جهة أخرى لأن اللحم الوحيد المتوافر هو لحم العصافير المغردة التي يربونها في أقفاص في بيوت ريوهاتشا. الكاهن الذي كان يأكل في الركن، وانتهى إلى تقديم خدماته كمترجم لها مع النادلة، حاول أن يُفهمها أن حالة طوارئ الحرب لم تنته في أوروبا بعد، وأنه عليها أن تنظر إلى وجود عصافير برية تؤكل كمعجزة. ولكنها رفضت أن تأكلها.

ـ إن ذلك سيكون بالنسبة إلي كأنني آكل أحد أبنائي ـ قالت.

وكان عليها أن تنقع بحساء شعيرية، وطبق من الكوسا المسلوقة مع شرائح صغيرة من لحم الخنزير الزنخ، وقطعة خبزتبدو كأنها قطعة من الرخام. وبينما هي تأكل، دنا الكاهن منها ليتوسل إليها أن تدعوه، على سبيل الإحسان، لتناول فنجان من القهوة، وجلس معها. كان يوغسلافياً، ولكنه عمل مبشراً في بوليفيا، وكان يتكلم، بصعوبة، قشتالية معبرة. بدا للسيدة برودينثيا لينيرو رجلاً عادياً لا يملك أدنى قدر من الحلم، ولاحظت أن يديه قبيحتان وأظفارهما متشظية وقذرة، وكانت تنبعث منه رائحة بصل دائمة، تبدو جزءاً من شخصيته. ولكنه في نهاية المطاف رجل في خدمة الرب، ثم إن اللقاء بشخص يمكنها التفاهم معه وهي بعيدة كل هذا البعد عن بيتها، هو متعة جديدة أيضاً.

تبادلا الحديث بتمهل، ساهيين عن ضجة الاسطبل التي كانت تتزايد كلما ازداد عدد الزبائن على الطاولات الأخرى. وكانت السيدة برودينثيا لينيرو قد أصدرت حكمها القاطع بشأن إيطاليا: لا تعجبها. ليس لأن الرجال متعسفون قليلاً، وهذا كثير؛ وليس لأنهم يأكلون العصافير، وهذا أكثر من كثير؛ وإنما لطبيعتهم الخبيثة في ترك الغرقى يهيمون مع التيار.

الكاهن الذي كان قد طلب على حسابها، فضلاً عن القهوة، كأساً من الغَرَّابا، حاول أن يبين لها سُطحية حكمها ذاك. ففي زمن الحرب وُضع نظام خدمات فعال جداً لإخراج الغرقى الكثيرين الذين كانوا يظهرون كل صباح طافين في مياه خليج نابولي، وتحديد هوياتهم ودفنهم في المقابر.

وانتهى الكاهن إلى القول:

- منذ قرون وعى الإيطاليون أنه لا توجد إلا حياة واحدة، وهم يحاولون أن يعيشوها على أفضل وجه يستطيعونه. وهذا جعلهم متحسبين ومتقلبين، ولكنه أشفاهم من القسوة أيضاً.

- حتى إنهم لم يوقفوا السفينة - قالت.

- ما يفعلونه هو إخطار سلطات الميناء بواسطة جهاز الإرسال - قال الكاهن -، ولا بد أنهم الآن قد أخرجوا الغريق ودفنوه وفق مشيئة الرب.

بدلت المحادثة مزاج الاثنين. كانت السيدة برودينثيا لينيرو قد انتهت من تناول الطعام، وعندئذ فقط انتبهت إلى أن جميع الموائد صارت مشغولة. وعلى أقربها إليها كان هناك سائحون شبه عراة يأكلون بصمت، وكان بينهم بعض العشاق الذين يتبادلون القبلات بدلاً من تناول الطعام. أما على الموائد التي في صدر المحل، قريباً من الكونتوار، فكان هناك زبائن من أهالي الحي يلعبون النرد ويشربون نبيذاً لا لون له. فأدركت السيدة برودينثيا أن هناك سبباً وحيداً لوجودها في ذلك البلد البغيض.

- هل تظن حضرتك أن هناك صعوبة كبيرة في رؤية البابا؟ - سألت.

وأجابها الكاهن بأنه ليس هناك ما هو أسهل من ذلك في الصيف. فقد كان البابا يقضي إجازته في قلعة غاندولفو، وفي مساء كل يوم أربعاء، يستقبل في جلسة عامة حجاجاً من جميع أرجاء العالم. وكان رسم الدخول زهيداً جداً: عشرون ليراً.

ـ وكم يتقاضى مقابل تلقي الاعتراف؟ ـ سألته.

فقال الكاهن بشيء من الاستنكار:

ـ الأب المقدس لا يتلقى اعترافات أحد، باستثناء الملوك طبعاً.

ـ لا أرى سبباً يجعله يرفض تقديم هذا الجميل لامرأة بائسة جاءت من بعيد جداً ـ قالت.

ـ حتى بعض الملوك، وهم ملوك، ماتوا وهم ينتظرون ـ قال الكاهن ـ ولكن، لا بد أنها خطيئة رهيبة جعلتك تقومين بمثل هذه الرحلة لمجرد الاعتراف أمام الحبر الأعظم.

لم تفكر السيدة برودينثيا لينيرو في الأمر لحظة واحدة، ورآها الكاهن تبتسم أول مرة، وقالت:

ـ المجد لمريم الطاهرة! تكفيني رؤيته. ـ ثم أضافت مع زفرة بدت كأنها تخرج من روحها ـ لقد كان حلم حياتي!

الحقيقة أنها كانت لا تزال خائفة وحزينة. والشيء الوحيد الذي كانت ترغب فيه هو الذهاب فوراً، ليس من المكان وحسب، بل من إيطاليا كلها. ولا بد أن الكاهن قد أحس بأن تلك الممسوسة لن تقدم له شيئاً آخر، فتمنى لها حظاً سعيداً ومضى إلى منضدة أخرى ليطلب أن يقدموا له فنجاناً من القهوة على سبيل الإحسان.

عندما خرجت السيدة برودينثيا لينيرو من المطعم، وجدت المدينة وقد تبدلت، فاجأها ضوء الشمس في الساعة التاسعة ليلاً، وأرعبتها الجموع الصاخبة التي اقتحمت الشوارع في سكينة النسيم الجديد. لم يكن العيش ممكناً على دوي كل دراجات الفيسبا النارية المجنونة التي يقودها رجال دون قمصان، يحملون وراءهم نساءهم الجميلات اللواتي يتمسكن بخصورهم، ويشقون طريقهم في طفرات متلوية بين الخنازير المعلقة ومناضد بيع البطيخ.

كانت الأجواء أجواء احتفال، لكن السيدة برودينثيا لينيرو رأتها أجواء كارثة. سألت عن الطريق. ووجدت نفسها فجأة في شارع غير صحيح، فيه نساء يجلسن عند أبواب بيوتهن المتشابهة التي سببت

لها أضواؤها الخمراء المتقطعة ارتعاشة ذعر ولحق بها لعدة كوادرات رجل جيد الملابس، يضع في إصبعه خاتماً ذهبياً، وجوهرة على ربطة عنقه، وكان يقول لها شيئاً ما بالإيطالية، ثم بالإنكليزية والفرنسية بعد ذلك.. وحين لم يحظ برد منها، عرض عليها بطاقة بريدية من رزمة بطاقات أخرجها من جيبه، ولم تكن بحاجة إلا لنظرة واحدة كي تعرف أنها كانت تجتاز الجحيم.

هربت مذعورة، وفي نهاية الشارع وجدت من جديد البحر الغسقي برائحة الحيوانات البحرية المتعفنة نفسها التي تنطلق من ميناء ريوهاتشا، فعاد قلبها إلى مكانه. وتعرفت على الفنادق ذات الألوان قبالة الشاطئ المقفر، وسيارات الأجرة الجنائزية، وألماسة النجمة الأولى في السماء الرحبة. وفي طرف الخليج رأت السفينة التي وصلت فيها، وحيدة في الميناء، وكانت ضخمة ومضاءة. ولكنها انتبهت إلى أنه لم تعد لها أية علاقة بحياتها. ومن هناك، انعطفت إلى اليسار، ولكنها لم تستطع التقدم، فقد كان هناك حشد من الفضوليين توقفهم عند حدّ معين دورية من رجال الدرك. وكان هناك صف من سيارات الإسعاف تنتظر وأبوابها مفتوحة أمام مبنى الفندق.

تطلعت السيدة برودينثيا لينيرو من فوق أكتاف الفضوليين، ورأت حينئذ السياح الإنكليز من جديد. كانوا يُخرجونهم، واحداً واحداً، على حمالات إسعاف، وجميعهم كانوا يبدون وقورين ودون حراك، وكانوا لا يزالون يشبهون شخصاً واحداً مكرراً عدة مرات، بالبدلة الرسمية التي ارتدوها للعشاء: بنطال من قماش صوفي رقيق، وربطة عنق ذات خطوط مائلة، والسترة الغامقة التي تحمل شعار ترينيتي كوليج مطرزاً على جيب السترة. وكان الجيران على الشرفات، والفضوليون في الشارع، يعدونهم معاً بصوت جماعي، كما في استاد رياضي، كلما أخرجوا واحداً منهم. كانوا سبعة عشر. وضعوهم في سيارات الإسعاف اثنين اثنين، وانطلقوا بهم وسط دوي صفارات إنذارها الحربية.

صعدت السيدة برودينثيا لينيرو وهي مصعوقة من كل تلك الأحداث، وفي المصعد الممتلئ بزبائن الفنادق الأخرى الذين يتكلمون لغات مغلقة عليها. وكانوا ينزلون في كل الطوابق، باستثناء الطابق الثالث الذي كان مفتوحاً ومضاء، ولكن لم يكن هناك أحد وراء الكونتوار أو على مقاعد البهو، حيث رأت الركب الوردية للسبعة عشر إنكليزياً النائمين. كانت صاحبة الطابق الخامس تعلق على الكارثة بحماسة منفلتة، وقالت للسيدة برودينثيا لينيرو بالقشتالية:

ـ ماتوا جميعهم. لقد تسمموا بحساء محار العشاء. محار في آب! تصوري!

أعطتها مفتاح غرفتها دون أن توليها مزيداً من الاهتمام، وراحت تقول لزبائن آخرين بلهجتها: «بما أنه لا وجود لدي مطعم هنا، فإن كل من ينام عندنا يطلع عليه الصباح وهو حي!». ومرة أخرى أقفلت السيدة برودينثيا لينيرو باب الغرفة بالمزلاجين، بينما كانت عقدة من الدموع محبوسة في حلقها. ثم دفعت وراء الباب طاولة الكتابة والكنبة، ووضعت أخيراً كاستحكام لا يمكن تجاوزه في مواجهة رعب ذلك البلد الذي تحدث فيه أشياء كثيرة في وقت واحد. بعد ذلك ارتدت ثياب الأرملة، واستلقت على السرير، ثم صلّت سبع عشرة سبحة من أجل الراحة الأبدية لأرواح السبعة عشر إنكليزياً المسممين.

نيسان 1980

ريح الشمال

Tramontana

رأيته مرة واحدة في «بوكاشيو»، الكباريه الرائج في برشلونة، قبل ساعات قليلة من ميتته المشؤومة. كانت تطارده عصبة شبان سويسريين يحاولون أخذه معهم، في الساعة الثانية فجراً، لإنهاء الحفلة في كاداكيس. كانوا أحد عشر، يصعب التمييز بينهم، الرجال والنساء منهم يبدون متشابهين. فهم جميلون ذوو أرداف ضيقة وشعور ذهبية طويلة. ويجب ألا يكون هو قد تجاوز العشرين من عمره. رأسه مغطى بتجعيدات كثة، وله بشرة ضاربة إلى الصفرة ولامعة كبشرة الكاريبيين الذين اعتادوا من أمهاتهم على المشي في الظل، وفي عينيه نظرة غريبة كأنها خُلقت لتفتن السويسريات، وربما بعض السويسرين أيضاً. كانوا قد أجلسوه إلى منضدة الكونتوار مثل دمية تتكلم من بطنها، وراحوا يغنون له أغنيات رائجة يرفقونها بإيقاع من أكفهم، ليقنعوه بالذهاب معهم. وكان يشرح لهم أسبابه مذعوراً. وتدخل أحد الحاضرين ليطلب منهم أن يتركوه وشأنه، فتصدى له أحد السويسريين وهو يكاد يموت من الضحك:

- إنه لنا - قال صارخاً - لقد وجدناه ملقى في صندوق الزبالة.

كنت قد دخلت قبل قليل مع جماعة من الأصدقاء بعد حضورنا الكونشيرتو الأخير الذي قدمه دافيد أوستراخ في قصر الموسيقى، وقد اقشعر بدني من عدم اقتناع السويسريين بتركه. فالأسباب التي كان الفتى يطرحها مقدسة. لقد كان يعيش في كاداكيس حتى الصيف الماضي، حيث تعاقد لغناء أغنيات أنتيلية في حانة رائجة، وظل هناك إلى أن هزمته ريح الشمال. وقد تمكن من مغادرة المكان هارباً في اليوم

التالي وقرر عدم العودة إليه أبداً، سواء أكانت هناك ريح شمالية أم لم تكن، ليقينه بأن الموت ينتظره إذا ما عاد ثانية. وكان ذاك نوعاً من الإيمان الكاريبي الذي لا يمكن أن تفهمه عصبة الشماليين العقلانيين المتأججين بالحر وبنبيذ كتالونيا القوي في ذلك الحين، والذي كان يزرع في القلب أفكاراً خارقة للنواميس والأعراف.

أما أنا فكنت أفهمه كما لا يمكن لأحد أن يفهمه. لقد كانت كاداكيس إحدى أجمل قرى شاطئ كوستابرافا، وأكثرها محافظة. وبعض السبب في ذلك يعود إلى أن الطريق إليها جبلي ضيق ومتعرج على حافة هاوية بلا قرار، حيث لا بد أن تكون الروح ثابتة جداً كي يتمكن المرء من قيادة السيارة بسرعة تزيد على خمسين كيلومتراً في الساعة. بيوتها القديمة بيضاء وواطئة، على الطريقة التقليدية لقرى الصيد على شواطئ البحر المتوسط. أما البيوت الجديدة فأشرف على بنائها مهندسون معماريون مشهورون احترموا التناسق الأصلي. وفي الصيف، حين يبدو الحر كأنه آتٍ من الشاطئ الأفريقي المقابل، كانت كاداكيس تتحول إلى بابل جهنمية، تغص بسياح من كل أرجاء أوروبا، ينازعون طوال ثلاثة شهور سكانها الأصليين جنتهم وجنة الغرباء الذين حالفهم الحظ بشراء بيت بسعر مناسب حين كان الشراء لا يزال ممكناً. ومع ذلك، وعندما تصبح كاداكيس مرغوبة أكثر، في فصلي الربيع والخريف، لم يكن هناك من يتوقف عن التفكير مذعوراً بريح الشمال، ريح الأراضي القاسية والعنيدة، والتي يقول الأهالي وبعض الكتّاب الذين وقعوا في المحنة إنها تحمل معها بذرة الجنون.

منذ نحو خمس عشرة سنة كنت من روادها المواظبين، إلى أن تقاطعت ريح الشمال مع حيواتنا. أحسست بها قبل مجيئها، في ساعة القيلولة في أحد أيام الآحاد، ومن خلال نُذر لا يمكن تفسيرها، تشير إلى أن شيئاً ما سيحدث. خمدت همتي، وأحسست بالكآبة دون سبب، وشعرت بأن ابنيّ، وهما دون العاشرة في ذلك الحين، يلاحقاني عبر البيت بنظرات عدائية. وبعد قليل دخل البواب حاملاً صندوق عدّة وحبالاً

بحرية لتثبيت النوافذ والأبواب، ولم يفاجأ بحالة الإنهاك التي أشعر بها.

ـ إنها ريح الشمال. وستكون هنا بعد أقل من ساعة ـ قال لي.

كان رجل بحر قديم، عجوزاً جداً، يحتفظ من مهنته بتلك السترة الواقية من المطر، والقبعة والغليون، وبشرته المحروقة بأملاح بحار العالم. وكان في ساعات فراغه يلعب لعبة البتانكو في الساحة مع محاربين قدماء في عدة معارك خاسرة، ويتناول المقبلات مع السياح في حانات الشاطئ. فقد كانت لديه القدرة على التفاهم مع أناس من جميع اللغات بكتلانية المدفعي التي يتكلمها. وكان يفتخر بأنه يعرف جميع موانئ الكوكب الأرضي، ولكنه لا يعرف مدينة داخلية واحدة، ويقول: «ولا حتى باريس الفرنسية، على الرغم مما هي باريس». وهو لا يثق بأية مركبة ما لم تكن بحرية.

في السنوات الأخيرة شاخ دفعة واحدة، ولم يعد يخرج إلى الشارع. كان يقضي معظم وقته في وكره كبواب، وحيداً، مثلما عاش حياته كلها. كان يطهو طعامه بنفسه في علبة من الصفيح، على موقد كحولي، وبهذا كان يجد ما يكفي كي نستمتع جميعنا بلذائذ المطبخ القوطي. ومنذ الفجر كان يهتم بشؤون المستأجرين، شقة فشقة. وكان أحد أفضل الرجال الخدومين الذين تعرفت إليهم في حياتي، يضاف إلى ذلك ما يتمتع به من كرم الكتلانيين غير الإرادي وحنانهم الخشن. كان قليل الكلام، لكنه يتكلم بأسلوب مباشر وصائب. وعندما لا يكون لديه ما يفعله، يقضي ساعات وساعات في ملء جداول يانصيب التنبؤ بنتائج كرة القدم، لكنه قلما يلصق عليها طابع الاشتراك في المراهنات.

في ذلك اليوم، وبينما هو يدعم الأبواب والنوافذ تحسباً للكارثة، حدثنا عن ريح الشمال كما لو أنها امرأة فظيعة؛ ولكن حياته تصبح بلا معنى من دونها. وقد فوجئت لأن رجل بحر يقدم مثل تلك الإتاوة لريح تأتي من اليابسة.

ـ إنها أكثر قِدماً ـ قال.

وكان المرء يشعر بأنه لا يقسم سنواته إلى أيام وشهور، وإنما إلى عدد المرات التي جاءتها ريح الشمال. «السنة الماضية، وبعد حوالي ثلاثة أيام من هبة ريح الشمال الثانية، أُصبتُ بنوبة مغص حادة»، هكذا قال لي في إحدى المرات. وربما أوضح ذلك إيمانه بأنه بعد كل ريح شمال يشيخ عدة سنوات. وقد كان تسلُّط الفكرة عليه شديداً إلى حد أننا نتلهف إلى التعرف عليها كزيارة قاتلة وشائقة.

ولم يكن علينا أن ننتظر طويلاً. فما كاد البواب يخرج حتى سُمع صفير أخذ يزداد حدة وزخماً، ثم انقض في دوي أشبه بهزة أرضية. وعندئذ بدأت الريح، في هبات متفرقة أول الأمر، ثم أخذت تتزايد أكثر فأكثر إلى أن صارت متواصلة، دون توقف ودون سكون، بزخم وعتو فيهما شيء خارج عن المألوف. كانت شقتنا، خلافاً لما هو شائع في الكاريبي، تقوم قبالة الجبل، وربما كان ذلك بسبب حب الكتلانيين العريقين الغريب للبحر، ولكن دون أن يروه. وهكذا كانت الريح تصفعنا من الجهة الأمامية مهددة بتقطيع أحزمة النوافذ.

وأكثر ما لفت انتباهي هو أن الطقس ظل محتفظاً ببهاء لا يتكرر، بشمس ذهبية وسماء صافية. حتى إنني قررت الخروج إلى الشارع مع الطفلين لرؤية حالة البحر. ولأن الصغيرين، في نهاية المطاف، قد ترعرعا بين زلازل المكسيك وأعاصير الكاريبي، فقد بدا لنا أن ريحاً أقوى أو أخف لا يمكن أن تسبب القلق لأحد. مررنا على رؤوس أصابعنا أمام حجرة البواب، ورأيناه ساكناً أمام طبق فاصولياء مع السجق وهو يتأمل الريح عبر النافذة. ولم يرنا ونحن نخرج. تمكنا من المشي أثناء احتمائنا بالبناء، ولكننا حين وصلنا إلى الناصية المكشوفة اضطررنا إلى التشبث بأحد الأعمدة كي لا تسحبنا قوة الريح، وبقينا هناك نتأمل بإعجاب البحر الهادئ والصافي وسط الكارثة، إلى أن جاء البواب وأنقذنا بمساعدة بعض الجيران. وعندئذ فقط اقتنعنا بأن الشيء العقلاني الوحيد هو البقاء محبوسين في البيت إلى أن يشاء الله. ولم تكن لدى أحد حينئذ أي فكرة عن الموعد الذي سيشاء فيه.

بعد مضي يومين، أحسسنا أن تلك الريح المرعبة ليست ظاهرة أرضية وإنما هي إساءة شخصية يوجهها أحدهم ضد أحد بعينه، وضد واحد بعينه فقط. كان البواب يزورنا عدة مرات في اليوم، قلقاً على حالتنا المعنوية، وكان يأتينا بفواكه الموسم وكعك للطفلين. ومن أجل غداء يوم الأحد، أهدى إلينا طبق البستة الكتلاني المتفوق، محضّراً في علبة مطبخه الصفيحية: لحم أرنب مع حلزونات. فكانت حفلة وسط الرعب.

أما يوم الأربعاء، حين لم يحدث أي شيء آخر سوى الريح، فقد كان أطول أيام حياتي. ولكن لا بد أنه كان شيئاً أشبه بعتمة الفجر، لأننا استيقظنا جميعاً في الوقت نفسه بعد منتصف الليل، متضايقين من الصمت المطبق الذي لا يمكن له أن يكون إلا صمت الموت. لم تكن تتحرك ورقة واحدة على الأشجار من جهة الجبل. وهكذا خرجنا إلى الشارع حين لم يكن هناك نور بعد في غرفة البواب، واستمتعنا بسماء الفجر وهي بكامل نجومها اللامعة، وبالبحر الفوسفوري المشع. وعلى الرغم من أن الساعة كانت دون الخامسة، إلا أن عدداً كبيراً من السائحين كان يستمتع بالسكينة على صخور الشاطئ، وبدأ بعضهم بتهيئة زوارقهم الشراعية بعد ثلاثة أيام من الاعتكاف.

لم يلفت انتباهنا عند خروجنا أن غرفة البواب مظلمة. لكننا حين رجعنا إلى البيت، كان الهواء قد أصبح فوسفورياً كالبحر، وكانت غرفة البواب لا تزال مطفأة الأنوار. طرقنا الباب مرتين وقد استغربنا الأمر، ولأننا لم نتلق أي ردّ، فقد دفعتُ الباب. أظن أن الطفلين قد رأياه قبلي، وأطلقا صرخة رعب. فالبواب العجوز، بشعارات البحار البارز المتدلية من ياقة سترته البحرية، كان معلقاً من عنقه إلى دعامة السقف الوسطى، وهو لا يزال ينوس بفعل الهبة الأخيرة من ريح الشمال.

في ذروة النقاهة، وبإحساس بالحنين المسبق، غادرنا القرية قبل الموعد المقرر، واتخذنا قراراً لا رجعة فيه بعدم العودة إليها أبداً. كان السائحون قد عادوا إلى الشارع من جديد، وكانت هناك موسيقى في

ساحة قدماء المحاربين الذين لم يكونوا يبدون أية حماسة في قذف كرات البيتانكا. ومن خلال زجاج مقهى ماريتيم المعفر، تمكنا من رؤية بعض الأصدقاء الناجين، وقد بدؤوا الحياة من جديد في ربيع الشمال المشع ذاك. لكن هذا الأمر كله صار ينتمي إلى الماضي.

لهذا السبب، وفي فجر ذلك اليوم الحزين في كباريه **بوكاشيو**، لم يكن هناك من يفهم مثلي رعب شخص يرفض العودة إلى كاداكيس لأنه متأكد من أنه سيموت هناك. ومع ذلك، لم تكن ثمة طريقة لثني السويسريين الذين انتهى بهم الأمر إلى حمل الفتى بالقوة تحت الادعاء الأوروبي بضرورة تطبيق علاج حماري على شعوذته الأفريقية.

أدخلوه وهو يرفس بقدمية إلى شاحنة سكارى، وسط تصفيق وسخرية الزبائن المنقسمين، وانطلقوا في تلك الساعة في الرحلة الطويلة إلى كاداكيس.

في الصباح التالي أيقظني الهاتف. وكنت قد نسيت أن أسدل الستارة عند عودتي من الحفلة، ولم تكن لدي أية فكرة عن الوقت، ولكن غرفة النوم كانت مجللة ببهاء الصيف. وقد أيقظني تماماً الصوت الجزع القادم عبر الهاتف، والذي لم أتبين صاحبة للوهلة الأولى:

ـ هل تذكر الفتى الذي حملوه في الليل إلى كاداكيس؟

ولم أكن بحاجة إلى سماع المزيد. اللهم إلا أن الأمر لم يكن مثلما تخيلته، وإنما أكثر مأساوية. فالفتى المذعور من العودة الوشيكة، انتهز سهو السويسريين المجانين وألقى بنفسه من السيارة المنطلقة بسرعة إلى الهوة السحيقة، محاولاً بذلك الهرب من موت محتم.

كانون الثاني 1982

صيف السيدة فوربس السعيد

El verano feliz de la señora Forbes

عندما عدنا إلى البيت في المساء، وجدنا ثعبان بحر ضخماً معلقاً من عنقه في إطار الباب، كان أسود لامعاً، وبدا مثل تعويذة غجر شريرة. عيناه لا تزالان تشعان بالحياة وأسنانه المنشارية بادية في فكيه المفتوحين. كنت في ذلك الحين في التاسعة من عمري، وأحسست برعب هائل أمام ذلك المنظر الهذياني، حتى إن صوتي انحبس. أما أخي الذي كان يصغرني بسنتين، فقد أفلت اسطوانات الأكسجين وقناع الغوص وأقدام السباحة الزعنفية، ومضى هارباً وهو يطلق صرخة رعب. سمعته السيدة فوربس من السلم الحجري المتعرج الذي يصعد بين الصخور من المرسى حتى البيت، فلحقت بنا لاهثة وشاحبة. وكانت رؤيتها للحيوان المصلوب على الباب كافية لجعلها تدرك سبب رعبنا. لقد اعتادت أن تقول إنه عندما يكون هناك طفلان معاً فكلاهما مذنب في ما يفعله كل واحد منهما، ولهذا أنبتنا نحن الاثنين على صرخات أخي، وواصلت توبيخها لنا لعدم سيطرتنا على نفسينا. تكلمت بالألمانية، وليس بالإنكليزية مثلما يطالبها عقد عملها كمربية، ربما لأنها كانت خائفة أيضاً وترفض الإقرار بذلك. ولكنها ما إن التقطت أنفاسها حتى عادت إلى إنكليزيتها الحجرية، وقالت لنا:

ـ إنها حية *هيلينية سمراء*، هكذا تسمى لأنها كانت حيواناً مقدساً عند قدماء الإغريق.

ظهر أوريستي فجأة من وراء شجيرات الكبّار. إنه الفتى الوطني الذي يدربنا على الغوص في المياه العميقة. كان يضع نظارة الغوص على جبهته، ويرتدي سروال سباحة صغيراً جداً، ويلف حول خصره

حزاماً جلدياً فيه ست مُدى مختلفة الأشكال والأحجام، لأنه لم يكن يعرف طريقة أخرى للصيد تحت الماء إلا الصراع جسداً لجسد مع الحيوانات. كان في نحو العشرين من عمره، وكان يقضي في الأعماق البحرية وقتاً أطول مما يقضيه على اليابسة، وكان هو نفسه يبدو مثل حيوان بحري بجسده المطلي بشحم المحركات. عندما رأته السيدة فوربس أول مرة، قالت لوالدي إنه من المستحيل تصور وجود كائن بشري أجمل منه، ومع ذلك، فإن جماله لم ينقذه من صرامتها. وكان عليه أن يتحمل توبيخاً بالإيطالية لأنه علق الحية السمراء على الباب، دون أي مبرر آخر ممكن سوى إخافة الطفلين. ثم أمرته السيدة فوربس بنزعها من مكانها بالاحترام اللائق بمخلوق أسطوري، وأمرتنا بأن نذهب لارتداء ملابسنا لتناول العشاء.

فعلنا ذلك فوراً ونحن نحاول ألا نقترف خطأ واحداً، لأننا تعلمنا بعد أسبوعين من الحياة في ظل نظام السيدة فوربس أنه ليس هناك ما هو أقسى من العيش. وبينما نحن نستحم في الحمام المعتم، انتبهت إلى أن أخي ما زال يفكر في السمراء، فقد قال لي: «لها عينا بشر». وكنت متفقاً معه، لكنني أقنعته بعكس ذلك، وتمكنت من تغيير الموضوع إلى أن انتهيت من الاستحمام. ولكن، عندما خرجتُ من تحت الدوش، طلب مني أخي أن أبقى معه.

ـ مازال الوقت نهاراً ـ قلت له.

ثم أزحت الستارة. كنا في أوج آب، وبدا من خلال النافذة السهب القمري الملتهب الممتد حتى الجانب الآخر من الجزيرة، والشمس المتوقفة في السماء.

ـ ليس هذا ما أعنيه ـ قال أخي ـ. لكنني أخاف أن يتملكني الخوف.

ومع ذلك، فقد بدا هادئاً عندما وصلنا إلى المائدة، وعمل كل شيء بإتقان استحق معه تهنئة خاصة من السيدة فوربس، ونقطتين إضافيتين على رصيده الأسبوعي الجيد. أما أنا بالمقابل، فقد حسمت

لي نقطتين من النقاط الخمس التي كنت قد نلتها، لأنـي تعجلت فـي اللحظة الأخيرة، ووصلت إلى غرفة الطعام وأنا مضطرب الأنفاس. كان حصولنا على خمسين نقطة يمنحنا الحق بتناول حصة مضاعفة من الحلوى، ولكن أياً منا لم يستطع تجاوز الخمس عشرة نقطة. وكان ذلك مؤسفاً حقاً، لأننا لم نجد منذ ذلك الحين مطلقاً حلوى بودين ألذ من تلك التي كانت تصنعها السيدة فوربس.

قبل البدء بتناول العشاء كنا نصلي ونحن واقفون أمام الأطباق الفارغة. ومع أن السيدة فوربس لم تكن كاثوليكية، إلا أن عقد عملها يشترط عليها أن تجعلنا نصلي ست مرات في اليوم، وقد تعلمت صلواتنا كي تنفذ شروط العقد. بعد ذلك، كنا نجلس ثلاثتنا، حابسين أنفاسنا بينما هي تتفحص أدق تفاصيل سلوكنا، وعندما تتأكد من أن كل شيء على ما يرام، تقرع الجرس، وعندئذ تدخل الطاهية فولفيا فلامينيا حاملة حساء الشعيرية الأبدي في ذلك الصيف المضجر.

في البداية، حين كنا وحدنا مع والدينا، كان تناول الطعام يتحول إلى حفلة. كانت فولفيا فلامينيا تقدم لنا الطعام وهي تحوم حول المائدة، بميل إلى الفوضى يبعث السعادة في الحياة، ثم تجلس معنا أخيراً، وينتهي بها الأمر إلى أكل شيء من طبق كل واحد منا. ولكن مذ تولت السيدة فوربس مسؤولية مصيرنا، أصبحت تقدم لنا الطعام بصمت مطبق يمكننا معه أن نسمع فوران الحساء الذي يغلي في القدر. كنا نتناول العشاء وعمودنا الفقري مستند إلى مسند الكرسي، ونمضغ اللقمة عشر مرات في أحد الحنكين، ثم عشر مرات أخرى في الحنك الآخر، دون أن نرفع بصرنا عن السيدة الحديدية النحيلة الخريفية وهي تلقي علينا من ذاكرتها دروساً في التمدن. كان العشاء أشبه بقداس الأحد، ولكن دون سلوى الناس الذين يغنون.

في اليوم الذي وجدنا فيه السمراء الميتة معلقة على الباب، حدثتنا السيدة فوربس عن الواجبات تجاه الوطن. وبعد الحساء قدمت لنا فولفيا فلامينيا التي كانت تطفو في الجو المخلخل بصوت السيدة

فوربس، شريحة مشوية على الفحم من لحم ثلجي تعبق برائحة شهية. أنا الذي كنت أفضل منذ ذلك الحين لحم السمك على أي شيء آخر في الأرض أو في السماء، سكّنت تلك الذاكرة لبيتنا في غواكامايال اضطراب قلبي. لكن أخي رفض طبقه دون أن يتذوقه.

ـ لا يعجبني ـ قال.

قطعت السيدة فوربس الدرس وقالت له:

ـ لا يمكنك معرفة ذلك، فأنت لم تذقه بعد.

ثم توجهت إلى الطاهية بنظرة تحذير، ولكن بعد فوات الأوان. فقد قالت فوافيا فلامينيا:

ـ السمراء هي أفخر سمك في العالم يا صغيري، تذوقها وسترى ذلك.

لم تضطرب السيدة فوربس. وروت لنا بمنهجيتها الصارمة، أن السمراء كانت طعام الملوك المفضل في قديم الزمان، وأن المحاربين كانوا يتنازعون مرارتها لأنها تمنحهم شجاعة خارقة. ثم كررت علينا ما قالته مرات كثيرة في تلك الفترة القصيرة، بأن الذوق الجيد في الأكل ليس موهبة خِلقية، كما أنه من غير الممكن تعلمه في أية فترة من فترات العمر، وإنما يجب فرضه فرضاً منذ الطفولة. وهكذا لم يكن هناك أي مبرر لعدم الأكل. أنا الذي كنت قد تذوقت السمراء قبل أن أعرف ما هي، بقيت أشعر إلى الأبد بالتناقض: كان لها طعم صافٍ، وإن خالطه شيء من الكآبة، ولكن صورة الثعبان المعلق في عارضة الباب العليا كانت أكثر تسلطاً من شهيتي. بذل أخي أقصى ما لديه من الجهد لابتلاع اللقمة الأولى، لكنه لم يطقها: وتقيأ.

قالت له السيدة فوربس دون أن تضطرب:

ـ ستذهب إلى الحمام، وتنظف نفسك جيداً، ثم تعود لتأكل.

شعرتُ بغم شديد من أجله. فقد كنت أعرف كم يعذبه اجتياز البيت كله مع العتمة الأولى، والبقاء وحيداً في الحمام طوال الوقت الذي يتطلبه غسل فمه. لكنه رجع سريعاً وهو يرتدي قميصاً آخر

نظيفاً، وكان شاحباً يرتعش ارتعاشة خفيفة، وتحمل جيداً التفتيش الصارم على نظافته. وبعدئذ قطعت السيدة فوربس قطعة من السمراء، وأصدرت الأمر بمواصلة تناول الطعام. ابتلعتُ لقمة أخرى بمشقة بالغة. أما أخي فامتنع حتى عن الإمساك بأدوات الطعام.

ـ لن آكلها ـ قال.

كان تصميمه حازماً لدرجة أن السيدة فوربس تفادت المواجهة.

ـ لا بأس ـ قالت ـ ولكنك لن تأكل الحلوى.

وقد بثت طمأنينة أخي الحماسة في نفسي، فقاطعتُ الشوكة والسكين فوق الطبق، مثلما علمتنا السيدة فوربس أن نضعهما عند الانتهاء من الطعام، وقلت:

ـ وأنا لن آكل حلوى أيضاً.

ـ ولن تشاهدا التلفزيون ـ ردت عليّ.

ـ ولن نشاهد التلفزيون ـ قلت.

وضعت السيدة فوربس الفوطة على المنضدة، ونهضنا ثلاثتنا كي نصلي. بعد ذلك أرسلتنا إلى غرفة النوم مع تحذيرنا بأنه علينا أن نغفو قبل أن تنتهي هي من تناول الطعام. كما أن جميع النقاط التي كنا قد حصلنا عليها قد أُلغيت، ولن يكون بإمكاننا، قبل الحصول على عشرين نقطة، التلذذ مجدداً بحلوى الكريمة، وكعكة الفانيليا، وبسكويت الكرز الشهي الذي كانت تصنعه لنا، والذي لن نتذوق مثله طوال ما تبقى من حياتنا.

كان لا بد لتلك القطيعة من أن تأتي عاجلاً أو آجلاً. فطوال سنة كاملة كنا ننتظر بلهفة ذلك الصيف الحر الذي سنقضيه في جزيرة بانتيلاريا، في أقصى جنوب صقلية. وقد كان كذلك فعلاً خلال الشهر الأول، حين كان أبوانا معنا. ومازلت أتذكر، كما في حلم، بطحاء الصخور البركانية الشمسية، والبحر الخالد، والبيت المطلي كله بالكلس، حتى جدران الآجر فيه، والذي كانت تظهر من نوافذه، في الليالي الصافية، أحزمة الضوء المنبعثة من منارات

الشاطئ الأفريقي. وبينما كنا نستكشف مع أبي الأعماق البحرية الهاجعة حول الجزيرة، اكتشفنا وجود صف طوربيدات صفراء، ملتصقة بالقاع منذ الحرب الأخيرة. وأخرجنا جرة خزف إغريقية طولها نحو متر، مزينة بأغصان غار متحجرة، وفي قعرها تترسب ثمالة نبيذ قديم جداً وسام. وكنا قد سبحنا في مياه مدخنة وراكدة، حيث المياه كثيفة إلى حد يمكن معه المشي فوقها. لكن الاكتشاف الأكثر إبهاراً بالنسبة لنا كان فولفيا فلامينيا. فقد كانت تبدو مثل أسقف سعيد، وتمضي على الدوام محاطة بدورية من القطط الناعسة التي تعرقل مشيها، وكانت تقول إنها لا تتحملها حباً بها، وإنما لكي تحول دون أن تأكلها الجرذان. وفي الليل، بينما أبوانا يشاهدان برامج الكبار في التلفزيون، كانت تأخذنا إلى بيتها الذي يبعد أقل من مئة متر عن بيتنا، وتعلمنا تمييز الأصوات البعيدة، والأغنيات، وعويل الرياح القادمة من تونس. كان زوجها رجلاً فتياً جداً بالمقارنة معها، وكان يعمل خلال الصيف في الفنادق السياحية في الجانب الآخر من الجزيرة، ولم يكن يأتي إلى البيت إلا للنوم. وكان أوريستي يعيش مع أبويه في مكان أبعد قليلاً، ويأتي دائماً في الليل ومعه مجموعة من الأسماك المربوطة بسلك، وسلال من جراد البحر التي اصطادها للتو، ويعلقها في المطبخ كي يأخذها زوج فولفيا فلامينيا ويبيعها في الفنادق في اليوم التالي. وبعد ذلك كان يضع نظارة الغوص على جبهته من جديد، ويصطحبنا معه لاصطياد الجرذان البرية الكبيرة كالأرانب، والتي تترصد فضلات المطابخ. وكنا نرجع إلى البيت في بعض الأحيان بعد أن يكون أبوانا قد ناما، ونكاد لا ننام بسبب الضجة التي تثيرها الجرذان وهي تتنازع على الفضلات في أفناء البيوت. ولكن، حتى ذلك الإزعاج كان عنصراً سحرياً آخر من عناصر صيفنا السعيد.

لا يمكن لقرار التعاقد مع مربية ألمانية أن يخطر إلا لوالدي، وهو كاتب من الكاريبي لديه من الخيلاء أكثر مما لديه من

الموهبة. ولانبهاره برماد الأمجاد الأوروبية، كان يبدو في قلق دائم للاعتذار عن أصوله، سواء في كتبه أو في حياته الواقعية، وكان قد فرض أوهامه بأنه لن يُبقي في أبنائه على أي أثر من ماضيه. أما أمي فقد ظلت ذليلة على الدوام، مثلما كانت وهي معلمة جوالة في أعالي غواخيرا. ولم تكن تتصور أنه يمكن أن تخطر لزوجها فكرة غير ملهمة. وهكذا لم يكن لأي منهما أن يسأل نفسه بقلبه كيف ستكون حياتنا مع تلك الرقيب القادمة من دورتموند، والتي عمدت إلى تلقيننا أقدم العادات الأوروبية بالقوة، بينما هما يشاركان مع أربعين كاتباً رائجاً في رحلة بحرية ثقافية تستمر خمسة أسابيع يطوفون فيها على جزر بحر إيجة.

كانت السيدة فوربس قد وصلت يوم الخميس الأخير من شهر تموز في رحلة المركب النظامية من باليرمو. ومذ رأيناها أول مرة أدركنا أن الحفلة قد انتهت. جاءت منتعلة جزمة رجل ميليشيا ومرتدية ثوباً ذا ياقات متقاطعة في ذلك الحر الجنوبي، وبشعر مقصوص كشعور الرجال، تحت قبعة من اللبد. وكانت تنبعث منها رائحة قرد. وقد قال لي أبي: «هكذا هي رائحة الأوروبيين كلهم، وخاصة في الصيف، إنها رائحة الحضارة». ولكن، بغض النظر عن زيها العسكري، كانت السيدة فوربس مخلوقة هزيلة، وربما كانت ستثير في نفوسنا شيئاً من الشفقة لو أننا كنا كباراً، أو لو أنها كانت تملك أثراً من الحنان. انقلبت الدنيا منذ مجيئها رأساً على عقب. فساعات البحر الست التي كانت منذ بداية الصيف تمريناً متواصلاً على التخيل، تحولت إلى ساعة واحدة متشابهة، ومكرورة في أحيان كثيرة. عندما كنا مع أبوينا كان لدينا كل الوقت الذي نشاء للسباحة مع أوريستي، فكان يذهلنا بفنه وجرأته اللذين يواجه بهما الأخطبوطات في مخابئها المعكرة بالحبر والدم، دون أن يكون لديه أي سلاح آخر سوى سكاكينه القتالية. وواصل بعد ذلك المجيء في الزورق الصغير ذي المحرك، مثلما كان يفعل دائماً، لكن

السيدة فوربس لم تعد تسمح له بالبقاء معنا لحظة واحدة زائدة عن الوقت المخصص لدرس السباحة تحت الماء. ومنعتنا من الخروج ليلاً إلى بيت فولفيا فلامينيا، لأنها اعتبرت ذلك مبالغة في الألفة مع الخدم. وصار علينا أن نخصص الوقت الذي كنا نستمتع فيه من قبل باصطياد الجرذان، لقراءة أعمال شكسبير قراءة تحليلية. كان من المستحيل علينا، نحن الذين اعتدنا سرقة المانجا من الجنائن وقتل الكلاب رجماً بالحجارة في شوارع غواكامايال الملتهبة، أن نتصور عذاباً أشد قسوة وشراسة من تلك الحياة القائمة على المبادئ.

ومع ذلك، سرعان ما انتهينا إلى أن السيدة فوربس لم تكن صارمة جداً مع نفسها مثلما هي معنا. وكان ذلك هو الشرخ الأول في سلطتها. في أول الأمر كانت تبقى على الشاطئ تحت المظلة الملونة، بملابسها الحربية، وهي تقرأ مقاطع من شيللر بينما أوريستي يعلمنا الغوص، ثم كانت تعطينا درساً نظرياً حول السلوك في المجتمع، ساعة بعد ساعة، وحتى استراحة الغداء.

وفي أحد الأيام طلبت من أوريستي أن يأخذها معه في الزورق ذي المحرك إلى دكاكين السياح في الفنادق، ورجعت من هناك ومعها ثوب استحمام من قطعة واحدة، أسود ولامعاً مثل جلد فقمة، ولكنها لم تنزل إلى الماء مطلقاً. كانت تستلقي تحت الشمس على الشاطئ، بينما نحن نسبح، وتمسح العرق عن جسمها بمنشفة، دون أن تمر تحت الدوش. وهكذا صارت تبدو بعد ثلاثة أيام مثل جرادة بحر مسلوقة، وصارت رائحة حضارتها لا تطاق.

كانت لياليها استهتاراً متواصلاً. فمنذ بدء ولايتها علينا شعرنا بأن هناك من يمشي في ظلام البيت، ملوحاً بذراعيه في العتمة، وبدأ أخي يقلق من فكرة كونهم الغرقى التائهين الذين كثيراً ما حدثتنا عنهم فولفيا فلامينيا. وسرعان ما اكتشفنا أن السيدة فوربس تعيش في الليل حياتها الحقيقية كامرأة متوحدة، وتستنكر هي نفسها تلك الحياة في النهار. وفي فجر أحد الأيام فاجأناها في المطبخ بقميص نوم

تلميذة، وهي تعدّ حلوياتها الرائعة، وجسدها كله حتى وجهها ملوث بالطحين، وتشرب كأساً من نبيذ أوبورتو باضطراب ذهني كان لا بد له أن يثير حفيظة السيدة فوربس الأخرى. ومنذ ذلك الحين عرفنا أنها لا تذهب إلى مخدعها بعد أن تدفعنا إلى النوم، وإنما تنزل لتسبح خفية، أو تبقى في الصالة حتى ساعة متأخرة جداً من الليل، تشاهد في التلفزيون، دون صوت، الأفلام المحرمة على الصغار، وهي تأكل قوالب كاملة من الحلوى، وتشرب حتى زجاجة كاملة من النبيذ الخاص الذي كان أبي يحتفظ به بحرص شديد للمناسبات المهمة. وعلى عكس مواعظها في الصرامة والرصانة، كانت تسرف في الطعام دون ضابط، وبنوع من الشغف المفرط. وكنا نسمعها بعد ذلك تتكلم وحدها في غرفتها، ونسمعها تلقي بألمانيتها الرخيمة مقاطع كاملة من *Die Jungfrau von Orleans* ونسمعها تغني، ونسمعها تنتحب في الفراش حتى الفجر، ثم تخرج لتناول الفطور بعد ذلك وعيناها منتفختان من البكاء، وتكون في كل مرة أكثر كآبة وتسلطاً. لم نعرف أنا وأخي مثل تلك التعاسة منذ ذلك الحين، ولكنني من جانبي كنت مستعداً لتحملها حتى النهاية، لأنني أعرف أن حجتها ستتغلب في جميع الأحوال على حجتنا. أما أخي بالمقابل، فقد واجهها بكل اندفاع طبعه، وتحول صيفنا السعيد إلى جحيم. وكانت حادثة السمراء هي الحد الأخير. ففي تلك الليلة بالذات، وبينما نحن في السرير، سمعنا جلبة السيدة فوربس المتواصلة في البيت الهاجع، فأطلق أخي دفعة واحدة شحنة الحقد كلها التي كانت تتعفن في روحه.

ـ سأقتلها ـ قال.

لقد فاجأني. ليس بسبب تصميمه، وإنما لأني كنت أفكر في الشيء نفسه منذ العشاء. ومع ذلك، حاولت أن أثنيه عن أفكاره.

ـ سيقطعون رأسك ـ قلت له.

ـ لا توجد مقصلة في صقلية ـ قال ـ ثم إن أحداً لن يعرف من هو الفاعل.

كان يفكر في جرة الخزف المستخرجة من البحر التي ما زالت فيها بقية من نبيذ قاتل. وكان أبي قد احتفظ بها ليُجري عليها تحاليل أكثر تعمقاً لمعرفة طبيعة السمّ فيها، لأنه لا يمكن أن يكون السبب في تحول النبيذ إلى سمّ هو مجرد القِدم ومرور الزمن. وقد كان استخدام ذلك السمّ ضد السيدة فوربس سهلاً جداً. ولن يخطر ببال أحد أن الأمر لم يكن أكثر من حادث أو انتحار. وفي الفجر، حين سمعناها تهوي منهوكة من السهر الصاخب، سكبنا نبيذاً من الجرة الخزفية في زجاجة النبيذ الخاص الذي يحتفظ به أبي. وكنا قد سمعنا أن تلك الجرعة كافية لقتل حصان.

كنا نتناول وجبة الفطور عادة في المطبخ، في الساعة التاسعة تماماً، وكانت تقدمها لنا السيدة فوربس نفسها مع أرغفة الخبز الصغيرة المحلاة التي تأتي بها فولفيا فلامينيا منذ الصباح الباكر وتتركها في سلة فوق الفرن. وبعد يومين من استبدال النبيذ، وبينما نحن نتناول الفطور، نبهني أخي بنظرة فيها خيبة أمل إلى أن الزجاجة السامة لا تزال في خزانة الكؤوس دون أن يمسها أحد. كان ذلك في يوم الجمعة، وقد ظلت الزجاجة في مكانها طوال نهاية الأسبوع. في ليلة الثلاثاء، شربت السيدة فوربس نصفها وهي تشاهد أفلاماً ماجنة في التلفزيون.

ومع ذلك، فقد جاءت في موعدها المعتاد إلى فطور يوم الأربعاء، بوجهها المعهود بعد ليلة سيئة، وعيناها القلقتان مثلما كانتا دائماً وراء زجاج نظارتها السميك، وقد ازداد قلقهما حين وجدت في سلة أرغفة الخبز رسالة عليها طوابع من ألمانيا. قرأتها وهي تشرب القهوة، بالطريقة نفسها التي نهتنا عنها مرات ومرات. وأثناء القراءة كانت تنعكس على وجهها هبات إشراق تشع من الكلمات المكتوبة. بعد ذلك نزعت الطابع عن مغلف الرسالة ووضعته في السلة مع أرغفة الخبز من أجل مجموعة زوج فولفيا فلامينيا الذي يهوى جمع الطوابع البريدية. وعلى الرغم من سوء تجاربنا السابقة معها، فقد رافقتنا في

ذلك اليوم في استكشاف الأعماق البحرية، وتسكعنا معاً في بحر مياه رقيقة إلى أن أخذ الأكسجين ينفد من الاسطوانات، فرجعنا إلى البيت دون أن نأخذ درس العادات الحميدة. ولم تكن السيدة فوربس متمتعة بمزاج وردي طوال ذلك النهار وحسب، بل بدت في موعد العشاء أكثر حيوية مما كانت عليه أبداً. أما أخي من جهته فلم يكن قادراً على تحمل معاناة خيبة الأمل. فما إن تلقينا أمر البدء بتناول الطعام حتى أزاح طبق حساء الشعيرية جانباً بحركة استفزازية، وقال:

- لقد سئمت حتى خصيتي من ماء الديدان هذا.

بدا كأنه ألقى على المائدة قنبلة حربية. شحب لون السيدة فوربس وتصلبت شفتاها إلى أن بدأ دخان الانفجار ينقشع. وكانت الدموع قد أحدثت غبشاً على زجاج نظارتها، فنزعتها ومسحتها بالفوطة، ثم وضعت الفوطة على الطاولة قبل أن تنهض وهي تشعر بمرارة هزيمة دون أمجاد، وقالت:

- افعلا ما ترغبان فيه. اعتبراني غير موجودة.

وحبست نفسها في غرفتها منذ الساعة السابعة. ولكن قبل أن ينتصف الليل، حين كانت تظن أننا قد نمنا، رأيناها تمر بقميص نوم التلميذة، حاملة إلى غرفة نومها نصف قالب حلوى الشيكولاتة والزجاجة التي مازال فيها مقدار أربعة أصابع من النبيذ المسموم. أحسستُ بارتعاشة شفقة عليها.

- مسكينة السيدة فوربس - قلت.

لم يكن أخي يتنفس بسلام حين قال:

- نحن المساكين إذا هي لم تمت هذه الليلة.

في فجر ذلك اليوم، عادت إلى التكلم وحدها لوقت طويل، وأنشدت أشعاراً لشيللر بصوت عالٍ، وبإلهام جنوني، واختتمتها بصرخة أخيرة ملأت كل جو البيت. بعد ذلك تنهدت عدة مرات من أعماق روحها وسقطت بصفير كئيب ومتواصل كصفير سفينة منساقة مع التيار. وعندما استيقظنا ونحن لا نزال منهوكين من توتر السهر، كانت

الشمس تنفذ كالسكاكين من بين فتحات أباجور النافذة، لكن البيت كان يبدو كأنه غارق في مستنقع. عندئذ انتبهنا إلى أن الساعة تقترب من العاشرة، وإلى أنه لم يجر إيقاظنا وفق روتين السيدة فوربس الصباحي. لم نسمع صوت تدفق الماء في المرحاض في تمام الساعة الثامنة، ولا صوت صنبور المغسلة، ولا صوت رفع أباجورات النوافذ، ولا صوت حدوتي جزمتها، ولا الطرقات الثلاث القاتلة على الباب براحة يدها النحاسية. وضع أخي أذنه على الجدار، وحبس أنفاسه كي يسمع أدنى همسة في الحجرة المجاورة، ثم أطلق زفير تحرر في النهاية.

- انتهى الأمر - قال -. الشيء الوحيد المسموع هو صوت البحر.

أعددنا فطورنا قبل الحادية عشرة بقليل، ثم نزلنا إلى الشاطئ، ونحن نحمل أسطوانتي أكسجين لكل واحد منا، واثنتين أخريين احتياطيتين، قبل أن تأتي فولفيا فلامينيا مع دورية قططها لتقوم بتنظيف البيت. كان أوريستي في المرسى ينزع أحشاء سمكة ذهبية تزن ست ليبرات اصطادها للتو. قلنا له إننا انتظرنا السيدة فوربس حتى الساعة الحادية عشرة، ولأنها ظلت نائمة قررنا النزول وحدنا إلى البحر. وقلنا له أيضاً إنها عانت في الليل من نوبة بكاء وهي على المائدة، وربما تكون قد نامت نوماً سيئاً وفضلت البقاء في الفراش. لم يبد أوريستي اهتماماً زائداً بتوضيحاتنا، مثلما كنا نأمل تماماً، ورافقنا للطواف طوال أكثر من ساعة في الأعماق البحرية. بعد ذلك أشار علينا أن نصعد لتناول الغداء، ومضى في الزورق ذي المحرك ليبيع السمكة الذهبية في فنادق السياح. ومن السلم الحجري قلنا له وداعاً بأيدينا، إلى أن اختفى وراء صخور الشاطئ. عندئذ وضعنا أسطوانات الأكسجين وواصلنا السباحة دون إذن من أحد.

كان اليوم غائماً، وكانت هناك جلبة رعود قاتمة في الأفق، لكن البحر كان هادئاً وصافياً ومكتفياً بضوئه وحده. سبحنا على سطح الماء حتى خط فنار بانتيلاريا، ثم انحرفنا نحو مئة متر إلى اليمين، وغصنا حيث قدرنا أننا رأينا الطوربيدات الحربية في بداية

الصيف. وقد وجدناها هناك: كانت ستة طوربيدات، مطلية بلون أصفر شمسي وتحمل أرقاماً متسلسلة سليمة لم تمس. وكانت مستلقية في القاع البركاني في نظام دقيق لا يمكن له أن يكون مصادفة. ثم واصلنا الدوران حول الفنار بحثاً عن المدينة الغارقة التي كثيراً ما حدثتنا عنها فولفيا فلامينيا بفزع شديد. ولكننا لم نستطع العثور عليها. وبعد ساعتين، حين أقتنعنا بأنه ليست هناك أسرار جديدة تستحق الاكتشاف، صعدنا إلى سطح الماء مع انتهاء جرعة الأكسجين الأخيرة.

كانت عاصفة صيفية قد بدأت بينما نحن غائصان. فقد هاج البحر، وراحت أسراب من الطيور آكلة اللحوم تحوّم مطلقة زعقات متوحشة فوق جماعات الأسماك المحتضرة المنثورة على الشاطئ. ولكن ضوء المساء بدا كما لو أنه قد صُنع للتو، وكانت الحياة طيبة دون وجود السيدة فوربس. ومع ذلك، حين انتهينا من الصعود بمشقة على الدرجات الصخرية، رأينا أناساً كثيرين في البيت وسيارتي شرطة أمام الباب. عندئذ وعينا أول مرة هول ما أقدمنا عليه. صار أخي يرتجف، وحاول الرجوع على أعقابه.

ـ أنا لن أدخل ـ قال.

أما أنا بالمقابل، فقد راودني إلهام غامض بأننا ما إن نرى الجثة حتى نصبح بمنأى عن أي شكوك.

ـ اهدأ ـ قلت له ـ. خذ نفساً عميقاً، وفكر في أمر واحد فقط: نحن لا نعرف شيئاً.

لم يهتم بنا أحد. تركنا أسطوانات الأكسجين والأقنعة وأقدام العوم عند البوابة، ودخلنا من الممر الجانبي، حيث كان يقف رجلان. انتبهنا إلى وجود سيارة إسعاف عند الباب الخلفي، وعدد من العسكريين المسلحين ببنادق. وفي الصالة، كانت نسوة الجوار يصلين بلهجتهن وهن جالسات على كراسٍ مستندة إلى الجدار، بينما كان رجالهن يتجمعون في الفناء ويتحدثون في أي أمر لا علاقة له

بالموت. ضغطتُ بقوة أكبر على يد أخي المتصلبة والباردة، ودخلنا البيت من الباب الخلفي. كانت غرفة نومنا مفتوحة وبالحالة نفسها التي تركناها بها في الصباح. وفي غرفة نوم السيدة فوربس، وهي التالية بعد غرفتنا، كان يقف دركي مسلح يراقب الدخول إليها، لكن الباب كان مفتوحاً. نظرنا إلى الداخل بقلب مثقل، وما كدنا نفعل ذلك حتى خرجت فولفيا فلامينيا من المطبخ مثل هبة ريح، وأغلقت الباب مطلقة صرخة رعب:

- حباً بالرب يا صغيريّ، لا ترياها!

ولكن ذلك كان متأخراً. ولن ننسى أبداً، مدى الحياة، ما رأيناه في تلك اللحظة الخاطفة. كان هناك رجلان يرتديان ملابس مدنية ويقيسان بشريط متري المسافة بين السرير والجدار، بينما كان شخص آخر يلتقط صوراً بآلة تصوير ذات غطاء أسود من تلك التي يستخدمها مصورو الحدائق العامة. ولم تكن السيدة فوربس على السرير المشعث، بل كانت ملقاة على جانبها فوق الأرض، عارية وسط بركة من الدم الجاف الذي صبغ أرض الغرفة كلها. وكان جسدها مثقباً مثل غربال بطعنات خنجر. لقد كان في جسمها سبعة وعشرون جرحاً قاتلاً، وكان يبدو من عدد الطعنات وقسوتها أنها وُجهت بثورة حب متأجج، وأن السيدة فوربس تلقتها بالعاطفة نفسها، حتى دون أن تصرخ، ودون أن تبكي، مرددة أشعار شيللر بصوتها العسكري البديع، ومدركة أن ذلك هو الثمن المحتوم لصيفها السعيد.

1976

الضوء كالماء

La luz es como el agua

في عطلة عيد الميلاد، عاد الطفلان إلى طلب زورق التجديف.

- حسن - قال الأب -، سنشتريه حين نعود إلى كارتاخينا.

لكن توتو، في التاسعة من عمره، وجويل، في السادسة، كانا أشد تصميماً مما اعتقده أبواهما. فقد قالا معاً:

- لا. إننا نحتاجه الآن وهنا.

- أولاً، - قالت الأم - لا يوجد هنا ماء للإبحار سوى الماء الذي ينزل من الدوش.

وكانت هي وزوجها على حق. ففي بيتهم في كارتاخينا دي إندياس، يوجد فناء فيه رصيف على الخليج، ومكان يتسع ليختين كبيرين. أما هنا، في مدريد، فيعيشون محشورين في شقة في الطابق الخامس من المبنى رقم 47 في شارع باسيو دي لاكاستيّانا. لكنهما في النهاية لم يستطيعا، هو أو هي، أن يرفضا، لأنهما كانا قد وعدا الطفلين بزورق تجديف مع آلة سدس وبوصلة إذا فازا بإكليل الغار في السنة الثالثة الابتدائية، وقد فازا به. وهكذا اشترى الأب كل شيء دون أن يخبر زوجته، وهي الأكثر معارضة لتحمل ديون من أجل الألعاب. كان زورقاً بديعاً من الألمنيوم، مزيناً بخط ذهبي عند حد الغاطس.

وقد كشف الأب السر عند الغداء:

- الزورق موجود في الكراج. المشكلة أنه لا يمكن الصعود به في المصعد أو على السلم، وفي الكراج لا يوجد متسع كاف.

ومع ذلك، دعا الطفلان أصدقاءهما يوم السبت التالي للصعود بالزورق على السلم، وتمكنوا من حمله إلى غرفة المستودع في البيت.

- تهانينا. - قال لهما الأب - ثم ماذا الآن؟

قال الطفلان:

- الآن لا شيء. كل ما كنا نريده هو حمل الزورق إلى الغرفة، وها قد صار هنا.

يوم الأربعاء ليلاً، وكما في كل أربعاء، ذهب الأبوان إلى السينما. أما الطفلان اللذان صارا وحيدين وسيدي البيت فقد أغلقا الأبواب والنوافذ، وكسرا أحد مصابيح الصالة المضاءة. فبدأ يتدفق تيار من الضوء الذهبي والبارد من المصباح المكسور، تركاه يسيل إلى أن بلغ ارتفاعه أربعة أشبار. عندئذ أقفلا التيار، وأخرجا الزورق، وأبحرا بمتعة بين جزر البيت.

كانت هذه المغامرة الخرافية نتيجة طيش مني حين شاركت في ندوة حول شِعر الأدوات المنزلية. فقد سألني توتو كيف يضاء النور بمجرد ضغط الزرّ، ولم تكن لدي الشجاعة للتفكير في الأمر مرتين حين أجبته:

- الضوء كالماء: يفتح أحدنا الصنبور، فيخرج.

وهكذا واصلا الإبحار كل يوم أربعاء ليلاً، وتعلما استخدام آلة السدس والبوصلة، وحين كان الأبوان يرجعان من السينما يجدانهما نائمين على اليابسة كملاكين. وبعد عدة شهور، كانا يتحرقان للمضي إلى ما هو أبعد من ذلك، فطلبا أجهزة صيد تحت الماء. مجموعة كاملة: أقنعة، أقدام زعنفية، أسطوانات أكسجين، وبنادق هواء مضغوط.

- أمر سيء أن يكون لديكما في غرفة المستودع زورق تجديف لا يمكن استخدامه في شيء - قال الأب -. لكن الأسوأ من ذلك أن تطلبا حيازة أجهزة غوص.

- وماذا لو فزنا بالغاردينيا الذهبية في الفصل الأول من السنة؟ - قال جويل.

- لا - قالت الأم مذعورة - لا نريد أي شيء آخر.

لامها الأب على تصلبها. فقالت:

ـ المشكلة أن هذين الولدين لا يفوزان بقلامة ظفر لمجرد القيام بالواجب، أما من أجل نزواتهما فإنهما مستعدان للفوز بكرسي المعلم.

ولم يقل الأبوان في نهاية الأمر نعم ولم يقولا لا. لكن توتو وجويل اللذين كان ترتيبهما الأخير في السنوات السابقة، فازا في تموز بالغاردينتين الذهبيتين وثناء المدير العلني. وفي ذلك المساء بالذات، ودون أن يطلبا، وجدا في غرفة نومهما أجهزة الغوص في علبتها الأصلية. وفي يوم الأربعاء التالي، بينما كان الأبوان يشاهدان ***التانغو الأخير في باريس***، ملأ الطفلان الشقة إلى ارتفاع ذراعين، وغاصا مثل سمكتي قرش وديعتين تحت الأثاث والأسرة، وأخرجا من أعماق الضوء الأشياء التي كانا قد فقدها منذ سنوات في الظلام.

وعند منح الجوائز النهائية، اختير الأخوان كتلميذين مثاليين في المدرسة، وقُدمت لهما شهادات امتياز. وفي هذه المرة لم يطلبا شيئاً، لأن الأبوين سألاهما عما يريدانه. وقد كانا عاقلين لدرجة أنهما لم يرغبا إلا في إقامة حفلة في البيت لتكريم زملائهم في الصف.

كان الأب متألقاً وهو يتحدث على انفراد مع زوجته.

ـ هذا دليل على نضجهما ـ قال.

ـ الله يسمع منك ـ قالت الأم.

وفي يوم الأربعاء التالي، بينما الأبوان يشاهدان فيلم ***معركة الجزائر***، رأى الناس الذين كانوا يمرون في شارع كاستيّانا شلالاً من الضوء يهوي من عمارة قديمة مختفية بين الأشجار. كان يخرج من الشرفات، ويتدفق بغزارة على واجهة المبنى، ويجري في الجادة العريضة في سيل ذهبي يضيء المدينة حتى غوادارما.

حطم رجال الإطفاء الذين استدعوا على عجل باب الطابق الخامس، ووجدوا البيت طافحاً بالضوء حتى السقف. كانت الأريكة والمقاعد المغلفة بجلد فهد تطفو في الصالة على مستويات متعددة بين زجاجات البار، والبيانو بشرشفه الذي من مانيلا الذي كان يتحرك مثل سمكة

مانتاريا ذهبية. وكانت الأدوات المنزلية، في أوج شاعريتها، تطير بأجنحتها الخاصة في سماء المطبخ، وأدوات الجوقة الحربية التي يستخدمها الطفلان للرقص تطفو على غير هدى بين الأسماك الملونة المتحررة من الحوض الذي تحبسها فيه ماما. وكانت تلك الأسماك هي الوحيدة التي تطفو حية وسعيدة في المستنقع الفسيح المضيء. وفي الحمام، كانت تطفو فراشي أسنان الجميع، والواقيات الذكرية التي يستخدمها بابا، وأنابيب معجون الأسنان، وطقم أسنان ماما الاصطناعية، وكان تلفزيون الصالة يطفو مائلاً وهو ما يزال مفتوحاً يبث الحلقة الأخيرة من فيلم منتصف الليل المحظور على الأطفال.

وفي نهاية الممر، كان الصغيران يطفوان بين مائين، توتو جالساً في مقدمة الزورق، متشبثاً بالمجدافين والقناع على وجهه، وهو يبحث عن فنار الميناء إلى حيث سمح له الهواء الذي في الاسطوانة، وجويل يطفو في مؤخرة المركب وهو ما يزال يبحث بآلة السدس عن موقع نجم القطب. وكان يطفو في جميع أرجاء البيت رفاقهم في الصف السبعة والثلاثون، وقد تخلدوا في لحظة تبولهم في أصيص الجرانيوم، أو غنائهم النشيد المدرسي بكلمات محورة إلى سخرية من المدير، أو تناولهم خفية كأس براندي من زجاجة بابا. ذلك أنهم كانوا قد فتحوا أنواراً كثيرة في وقت واحد جعلت البيت يطفح، وغرق جميع تلاميذ الصف الرابع الابتدائي في مدرسة سان خوليان الهوسبيتالاريو في الطابق الخامس من المبنى 47 في باسّو دي كاستيانا، في مدريد بإسبانيا، المدينة البعيدة عن الأصياف الملتهبة والرياح المتجمدة، والتي لا بحر فيها ولا نهر، والتي لم يكن سكان يابستها يوماً من الأيام ماهرين في فنون الإبحار في الضوء.

كانون الأول 1978

أثر دمك على الثلج

El rastro de tu sangre en la nieve

عند الغروب، حين وصلا إلى الحدود، لاحظت نينا داكونتي أن إصبعها الذي تضع فيه خاتم الزفاف ما زال ينزف. وكان الحارس الأهلي الإسباني الملتف ببطانية من الصوف الخام فوق القلنسوة المثلثة اللامعة، يتفحص جوازي السفر بوساطة مصباح كربوري، وكان يبذل جهده كي لا تقلبه شدة الريح التي تهب من جبال البيرنيه. وعلى الرغم من أن جوازي السفر كانا دبلوماسيين نظاميين، فقد رفع الحارس المصباح ليتأكد من تطابق الصورتين مع الوجهين. كانت نينا داكونتي تبدو أشبه بطفلة، لها عينا عصفور سعيد وبشرة بلون الدبس مازالت تشع بوهج شمس الكاريبي في غروب كانون الأول الكئيب ذاك، وكانت متدثرة حتى العنق بمعطف من فرو أعناق النمس المسكي لا يمكن شراؤه براتب سنة كاملة من رواتب حرس الحدود كلهم. أما زوجها بيللي سانتشث دي أفيلا، الذي كان يقود السيارة، فكان يصغرها بسنة واحدة، ويكاد يكون جميلاً مثلها، وكان يرتدي سترة ذات مربعات اسكتلندية وقبعة لاعب كرة. وعلى العكس من زوجته، فقد كان طويل القامة ورياضياً، وله فكان حديديان مثل فكوك القتلة المرهوبين. ولكن ما كان يكشف حالتهما بصورة أفضل، هي السيارة البلاتينية التي تنبعث من دخلها رائحة حيوان حي، وهي سيارة لم تكن حدود الفقراء تلك قد شهدت مثلها من قبل. كان المقعد الخلفي ممتلئاً بحقائب جديدة وعدة علب هدايا لم تُفتح بعد. وكان هناك أيضاً الساكسيفون الذي كان الهوى المتسلط على حياة نينا داكونتي قبل أن تنهزم أمام الحب المعاكس لقاطع طريقها الرقيق في النادي.

عندما أعاد الحارس جوازي السفر مختومين، سأله بيللي سانتشث

أين يمكنه أن يجد صيدلية لتضميد إصبع زوجته، فصاح الحارس وهو يواجه الريح إنه يمكنهما السؤال عن ذلك في هينديايا، على الجانب الفرنسي من الحدود، لكن حراس هينديايا كانوا يجلسون حول الطاولة بقمصان قصيرة الأكمام، ويلعبون الورق في ما هم يأكلون خبزاً يغمسونه في فناجين نبيذ كبيرة، داخل كشك زجاجي دافئ وجيد الإضاءة. وكانت رؤيتهم لحجم ونوع السيارة كافية ليشيروا لهما بأيديهم أن يدخلا إلى فرنسا. فأطلق بيللي سانتشث نفير سيارته عدة مرات، لكن الحراس لم يفهموا أنه يناديهم، بل فتح أحدهم زجاج الكشك وصرخ بغضب أشد قوة من الريح:

- *Merde. Allez-vous-en.*[1]

عندئذ خرجت نينا داكونتي من السيارة وهو ملتحفة بالمعطف حتى أذنيها، وسألت الحارس بفرنسية تامة أين توجد صيدلية. فرد الحارس رداً معهوداً وفمه ممتلئ بالخبز إن هذه المسألة ليست من اختصاصه، لاسيما في مثل تلك العاصفة، ثم أغلق النافذة الصغيرة. ولكنه ما لبث أن أمعن النظر في الصبية التي كانت تمص إصبعها المجروح، وهي متدثرة ببريق النمس المسكي، ولا بد أنه ظنها رؤيا سحرية في ليلة الرعب تلك، لأن مزاجه تبدل في الحال. أوضح لهما أن أقرب مدينة هي بياريتز، ولكنهما قد لا يجدان صيدلية مفتوحة وسط رياح الذئاب تلك في عز الشتاء إلى أن يصلا بايون، وهي أبعد قليلاً من بياريتز. ثم سألها:

- هل الأمر خطير؟

فابتسمت نينا داكونتي وهي تعرض عليه بنصرها ذا الخاتم الماسي، حيث يكاد لا يظهر الجرح الذي أحدثته شوكة الورد.

- لا شيء. إنها وخزة وحسب - قالت.

قبل وصولهما إلى بايون، عاد الثلج للهطول من جديد. لم تكن الساعة قد تجاوزت السابعة، ولكنهما وجدا الشوارع مقفرة والبيوت

---

[1] بالفرنسية: اللعنة، أدخلا.

مقفلة بسبب العاصفة الهوجاء، وبعد عدة جولات في المدينة، لم يجدا أية صيدلية مفتوحة، فقررا مواصلة التقدم. وقد فرح بيللي سانتشث بالقرار. كان به ولع بالسيارات الغربية لا يرتوي. وله أب يعاني شعوراً كبيراً بالذنب، وثروات هائلة تفيض عن إرضاء نزوات ابنه الذي لم يكن قد قاد من قبل مثل تلك السيارة من طراز بينتلي التي أهديت إليه بمناسبة زفافه. لقد كانت نشوته وراء المقود كبيرة لدرجة أنه كلما سار مسافة أطول، شعر بقدر أقل من الإرهاق. وكان مستعداً للوصول في تلك الليلة إلى بوردو، حيث حُجز لهما جناح زفافي، في فندق سبليندد، ولم تكن هناك رياح ولا ثلوج في السماء قادرة على الوقوف في وجهه. أما نينا داكونتي فكانت منهوكة، لاسيما في الجزء الأخير من الطريق الذي قطعاه من مدريد، فقد كان طريقاً جبلياً ضيقاً كدروب الماعز، يعصف فيه البرد. وهكذا، بعد خروجهما من بايون، لفت منديلاً على إصبعها ذي الخاتم وضغطت عليه جيداً لتوقف الدم الذي مازال يسيل، ونامت بعمق. ولم يوقظها بيللي سانتشث إلا عند منتصف الليل، حين توقف هطول الثلج وهدأت الريح فجأة، بين أشجار الصنوبر، وامتلأت سماء السهل بنجوم جليدية. كان قد مرّ قبالة أنوار بوردو الهاجعة، ولكنه لم يتوقف إلا لملء خزان الوقود في إحدى محطات الطريق، فقد كانت لديه الحماسة الكافية للوصول إلى باريس دون التوقف لالتقاط أنفاسه. كان سعيداً جداً بلعبته الكبيرة التي يبلغ ثمنها خمسة وعشرين ألف جنيه استرليني، حتى إنه لم يسأل نفسه إذا ما كانت سعيدة مثله تلك المخلوقة المشعة النائمة إلى جواره وضماد إصبعها مضمخ بالدم، وأحلامها المراهقة متقاطعة، أول مرة، بدفقات من القلق.

لقد تزوجا قبل ثلاثة أيام، على بعد عشرة آلاف كيلومتر من ذلك المكان، في كارتخينا دي إندياس، وسط ذهول أبويهما، وخيبة أملها هي، ومباركة شخصية من رئيس الأساقفة بالذات. لم يكن هناك أحد سواهما يفهم الأساس الحقيقي لذلك الحب الطارئ، أو يعرف منشأه. كان حبهما قد بدأ قبل ثلاثة شهور من الزفاف، في يوم أحد بحري

هاجمت فيه عصبة بيللي سانتشث غرف استبدال ملابس النساء في نادي السباحة في ماربيبيا. كانت نينا داكونتي قد أكملت ثمانية عشر عاماً من عمرها، ورجعت لتوها من مدرسة شاتيلنيه في سانت بلايز بسويسرا، وهي تتكلم أربع لغات دون لكنه، ولديها براعة تامة في عزف الساكسيفون. وكان ذلك هو يوم الأحد الأول الذي تخرج فيه إلى البحر منذ عودتها. كانت قد تعرت تماماً لكي ترتدي ملابس السباحة عندما بدأت تتعالى صرخات الهلع وضجة الهجوم في الغرف المجاورة، ولكنها لم تدرك ما الذي كان يجري إلى أن طار مزلاج بابها متشظياً، ورأت أمامها أجمل قاطع طريق يمكنها تخيله. الشيء الوحيد الذي كان يرتديه هو سروال سباحة رفيع جداً من جلد فهد مزيف، وكان له جسم متناسق ومرن ولون ذهبي كلون أهل البحر. وفي قبضة يده اليمنى، حيث يوجد سوار مصارع روماني معدني، كان يحمل سلسلة حديدية ملفوفة على يده يستخدمها كسلاح قاتل، وكان يعلق في عنقه سلسلة لا تحمل صورة قديس، وتتبض بصمت مع ذعر القلب.

لقد كانا معاً في المدرسة الابتدائية، وكانا قد كسرا معاً جرار حلوى كثيرة معلقة في أعياد ميلادهما، ذلك أنهما كانا ينتميان إلى السلالة الريفية التي تتحكم بمصير المدينة منذ زمن المستعمرة، ولكنهما لم يلتقيا منذ سنوات طويلة، ولهذا السبب لم يتعرف كل منهما على الآخر للوهلة الأولى. بقيت نينا داكونتي واقفة دون حراك، ودون أن تفعل شيئاً لإخفاء عريها الحاد. حينئذ أنجز بيللي سانتشث طقوسه الصبيانية: أنزل سرواله جلد الفهد، وعرض عليها حيوانه المنتصب. فنظرت إليه مباشرة ودون دهشة، وقالت متحكمة برعبها:

- رأيت ما هو أكبر وأصلب. لهذا عليك أن تفكر جيداً في ما ستفعله، لأنه عليك أن تكون في سلوكك معي أفضل من عبد زنجي.

الحقيقة أن نينا داكونتي لم تكن عذراء وحسب، بل إنها لم تكن قد رأت رجلاً عارياً من قبل. ولكن تحديها أعطى نتيجة. فالشيء الوحيد الذي خطر لبيللي سانتشث هو توجيه لكمة غضب إلى الجدار

بقبضته الملفوفة عليها السلسلة، فهشم عظامها. حملته بسيارتها إلى المستشفى، وساعدته على تجاوز فترة النقاهة، وأخيراً تعلما ممارسة الحب بالأسلوب القويم. أمضيا أمسيات حزيران الصعبة على الشرفة الداخلية للبيت الذي ماتت فيه ستة أجيال من أعيان أسرة نينا داكونتي: هي تعزف ألحاناً دارجة على الساكسيفون، وهو يتأملها ويده ملفوفة بالجصّ، من أرجوحة النوم وهو غارق في خدر لا سكينة فيه. كان للبيت نوافذ كبيرة بحجم الجسم، تطل على مستنقع الخليج المتعفن. وكان البيت أحد أكبر الدور وأقدمها في حي لامانغا، وأكثرها قبحاً دون شك. أما الشرفة ذات البلاط الشطرنجي حيث كانت نينا داكونتي تعزف الساكسيفون، فكانت ملاذاً مريحاً في قيظ الساعة الرابعة، تطل على فناء وارف الظلال تتخلله جذوع أشجار مانجا وشجيرات موز، وتحتها قبر عليه لوحة لا تحمل اسماً، أقدم من البيت ومن ذاكرة الأسرة. وحتى أقل المتفهمين للموسيقى كانوا يفكرون في أن صوت الساكسيفون كان غير مناسب لمثل ذلك البيت النبيل. وكانت جدة نينا داكونتي قد قالت لها حين سمعتها تعزف أول مرة: «صوته مثل صوت سفينة». حاولت أمها عبثاً جعلها تعزف بطريقة أخرى، وليس مثلما كانت تفعل هي بوضع مريح لها، رافعة تنورتها حتى فخذيها ومباعدة ما بين ركبتيها، وبحسية لم تكن تبدو لأمها ضرورية في الموسيقى، فكانت تقول لها: «لا يهمني أية آلة تعزفين ما دمت تفعلين ذلك بساقين مضمومتين». لكن موسيقى السفن المودعة تلك وشراسة الحب هي التي أتاحت لنينا داكونتي أن تكسر قوقعة بيللي سانتشث المريرة. وتحت سمعة الفظاظة المحزنة التي كانت ثابتة عليه بتأثير كنيتيه الشهيرتين، اكتشفت يتيماً مذعوراً ورقيقاً. وقد توصل كل منهما إلى معرفة الآخر جيداً بينما كانت عظام يده تلتحم، حتى أنه هو نفسه ذهل للسلاسة التي يجري بها الحب حين أخذته إلى سرير عذريتها في مساء يوم ماطر كانا فيه وحيدين في البيت. وكل يوم في مثل تلك الساعة، وعلى امتداد أسبوعين تقريباً، تداعبا عاريين تحت الأنظار

الذاهلة لصور المحاربين الأهليين والأجداد النبلاء الذين سبقوهما إلى فردوس ذلك السرير التاريخي. وحتى في استراحات الحب، كانا يبقيان عاريين، والنوافذ مفتوحة، يستنشقان نسيم حطام السفن في الخليج، ورائحته البرازية، ويستمعان في صمت الساكسيفون إلى ضجة الحياة اليومية في الفناء، والمعزوفة الوحيدة للضفدع تحت شجيرات الموز، ووقع قطرة المطر على قبر المجهول، وخطوات الحياة الطبيعية التي لم يكن لديهما متسع من الوقت لمعرفتها من قبل.

حين رجع أبوا نينا داكونتي إلى البيت، كان الشابان قد تقدما في الحب إلى حد لم يعد معه العالم يتسع لشيء آخر، وكانا يمارسانه في أي وقت وأي مكان، ويحاولان اختراعه من جديد في كل مرة. في البدء مارساه على أحسن وجه يستطيعانه في السيارات الرياضية التي كان أبو بيللي سانتشث يحاول التكفير عن خطاياه بشرائها له. وعندما أصبحت السيارات سهلة جداً عليهما، صارا يدخلان في الليل إلى الغرف المقفرة على شاطئ ماربيا، حيث قادهما القدر للقاء أول مرة، بل إنهما دخلا متنكرين في كرنفال تشرين الثاني إلى الغرف المستأجرة في حي العبيد القديم في خيتسيماني، في كنف المومسات اللواتي كن يعانين الأمرين إلى ما قبل شهور قليلة من بيللي سانتشث وعصابته من ذوي السلاسل الحديدية. وقد استسلمت نينا داكونتي لممارسات الحب السرية بالولاء الجنوني نفسه الذي كانت تهدره من قبل في العزف على الساكسيفون، إلى أن انتهى الأمر بقاطع طريقها المروض لأن يفهم ما عانته حين قالت له إنه عليه ان يكون في سلوكه معها مثل عبد زنجي. وقد تجاوب بيللي سانتشث معها جيداً على الدوام، وبالفرح نفسه. وبعد زواجهما، قاما بواجبهما في ممارسة الحب، أثناء نوم المضيفات، فوق الأطلسي، وهما محبوسان بصعوبة في مرحاض الطائرة، وكانا في أثناء ذلك يموتان من الضحك أكثر مما يموتان من اللذة. وهما وحدهما كانا يعرفان، بعد أربع وعشرين ساعة من الزفاف، أن نينا داكونتي، كانت حبلى منذ ثلاثة شهور.

وهكذا فإنهما حين وصلا إلى مدريد، كانا بعيدين عن الإحساس بأنهما عاشقان متخمان، ولكنهما كانا يملكان احتياطات كافية للتصرف كزوجين جديدين صافيين. كان والدا الاثنين قد جهزا لهما كل شيء. فعندما حطت الطائرة، صعد أحد موظفي المراسم إلى مقصورة الدرجة الأولى حاملاً إلى نينا داكونتي معطفاً من فراء النمس المسكي الأبيض، فيه خطوط سوداء لامعة، كهدية زفاف من والديها. وحمل إلى بيللي سانتشث سترة من جلد الخروف هي الموضة الجديدة في ذلك الشتاء، ومفاتيح سيارة لا تحمل اسم ماركتها لتكون مفاجأة.

استقبلته بعثة بلاده الدبلوماسية في صالة المطار الرسمية. ولم يكن السفير وزوجته صديقين قديمين لأسرتهما وحسب، بل إن السفير نفسه كان الطبيب الذي أشرف على ولادة نينا داكونتي، وقد كان ينتظرها بباقة ورد مشعة وطازجة، حتى إن قطرات الندى عليها بدت كأنها اصطناعية. سلمت على الاثنين بقبلات ممازحة، وهي تشعر بشيء من الارتباك كمتزوجة جديدة، ثم تلقت باقة الورد. وحين أمسكت بها، وخزت شوكة منها إصبعها، ولكنها تجاوزت الحادثة بمزحة فاتنة:

ـ لقد تعمدت ذلك لكي تنتبهوا إلى خاتمي.

وبالفعل، أبدى جميع أعضاء البعثة الدبلوماسية إعجابهم بروعة الخاتم الذي لا بد أنه يساوي ثروة، ليس لنوعية ماساته فقط، وإنما لِقِدَمه المحفوظ جيداً. ولكن أحداً لم ينتبه إلى أن الإصبع بدأت تنزف. فقد انصرف انتباه الجميع بعد ذلك إلى السيارة الجديدة. وقد كان لدى السفير ميلاً إلى الدعابة جعله يأخذ السيارة إلى المطار، ويلفها بورق السيلوفان، ويعقد حولها شريطاً ذهبياً هائلاً. ولم ينتبه بيللي سانتشث إلى تلك اللفتة الذكية من السفير. فقد كان متلهفاً للتعرف على السيارة، فمزق اللفافة بشدَّة واحدة، ووقف مبهوراً. كانت من نوع بينتلي، موديل السنة نفسها، وكانت منجدة من الداخل بجلد حقيقي. ومع أن السماء كانت تبدو كأنها رداء من رماد، وكانت غوادارإما ترسل ريحاً قارسة وجليدية، ولم يكن الوقوف في العراء مناسباً، إلا أن

بيللي سانتشث لم يكن يعرف بعد ما هو البرد. وقد أبقى البعثة الدبلوماسية في المرآب المكشوف، غير منتبه إلى أنهم كانوا يتجمدون من البرد لمجاملته، إلى أن انتهى من التعرف على السيارة بكل تفاصيلها الخفية. بعد ذلك جلس السفير إلى جواره ليدله على الطريق إلى منزله الرسمي، حيث أعدوا له غداء. وكان يشير له في الطريق إلى المعالم المشهورة في المدينة، ولكنه بدا غير مهتم بشيء سوى افتتانه بالسيارة.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يخرج فيها من بلاده. وكان قد مرّ بكلِ أنواع المدارس الخاصة والعامة، مكرراً السنة الدراسية نفسها دائماً، حتى انتهى به الأمر إلى الطفو في ليمبوس من الكراهية. إن رؤيته الأولى لمدينة مختلفة عن مدينته، ولغابة العمارات الرمادية بأنوارها المضاءة في عز النهار، والأشجار العارية، والبحر النائي، كانت تزيد كلها من إحساسه بفقدان الحماية الذي يجهد لإبقائه في هامش قلبه. ومع ذلك، فقد سقط بعد قليل، ودون أن ينتبه، في أولى مصايد النسيان. كانت قد بدأت تهب عاصفة مفاجئة وصامتة، الأولى في ذلك الموسم، وحين خرجا من منزل السفير، بعد العشاء، ليبدأا الرحلة إلى فرنسا، وجدا المدينة مغطاة بثلج متوهج. حينئذ نسي بيللي سانتشث السيارة، وراح يطلق الصرخات أمام الجميع، ويلقي حفنات من الثلج على رأسه، ويتمرغ في الشارع وهو بمعطفه.

انتبهت نينا داكونتي، أول مرة، إلى أن إصبعها ينزف، عند خروجهما من مدريد في أمسية تحولت إلى الصفاء بعد العاصفة. وقد فوجئت بذلك، لأنها كانت قد عزفت على الساكسيفون لمرافقة زوجة السفير التي تحب غناء مقاطع من الأوبريات الإيطالية بعد ولائم الغداء الرسمية، ولم تكد تشعر بأي إزعاج في بنصرها. وفيما بعد، بينما هي تدل زوجها على أقصر الطرق إلى الحدود، كانت تمص إصبعها، لاشعورياً، كلما نزف، ولم يخطر ببالها البحث عن صيدلية إلا عندما وصلا إلى جبال البيرنيه. ثم استسلمت أخيراً للنعاس المتراكم من الأيام الأخيرة، وحين استيقظت فجأة من الكابوس الذي رأت فيه أن السيارة

تمشي على الماء، لم تتذكر لفترة طويلة المنديل المربوط على إصبعها. رأت ساعة لوحة القيادة المضيئة، وكانت قد تجاوزت الثالثة، فأجرت حسابات ذهنية سريعة، وأدركت عندئذ فقط أنهما قد تجاوزا بوردو، وكذلك انغوليم وبواتيه، وكانا يعبران سد اللور الذي غمره الطوفان. كان بريق القمر يتسرب من بين الغيوم، وتبدو أشباح القصور بين غابات الصنوبر كأنها قصور حكايات الجنيات. وقدرت نينا داكونتي التي كانت تعرف المنطقة عن ظهر قلب، أنهما صارا على مسافة نحو ثلاث ساعات من باريس، وبيللي سانتشيث لا يزال ممسكاً بالمقود.

ـ أنت متوحش. ـ قالت له ـ إنك تسوق منذ إحدى عشرة ساعة دون أن تأكل شيئاً.

كان لا يزال يقيم أوده على نشوته بالسيارة الجديدة. وعلى الرغم من أن ما نامه في الطائرة كان قليلاً، وبشكل سيء، فإنه كان يشعر بالانتعاش والقوة الكافية للوصول إلى باريس مع طلوع النهار.

ـ مازلت شبعاً من غداء السفارة ـ قال، وأضاف دون أي منطق ــ: ثم إنهم يخرجون الآن من السينما في كارتاخينا. فالساعة هناك الآن حوالي العاشرة.

ومع ذلك، خشيت نينا داكونتي أن يغفو وهو يقود السيارة. ففتحت إحدى علب الهدايا الكثيرة التي قدموها لهما في مدريد، وحاولت أن تدس في فمه قطعة من حلوى البرتقال بالسكر. لكنه تفاداها قائلاً:

ـ الذكور لا يأكلون حلوى.

انقشع الضباب قبل قليل من وصولهما إلى أورليان، وأضاء قمر كبير الحقول المغطاة بالثلج، ولكن حركة المرور أصبحت أصعب بسبب شاحنات الخضار الكبيرة وسيارات صهاريج النبيذ المتوجهة إلى باريس. كانت نينا داكونتي راغبة في مساعدة زوجها على المقود، ولكنها لم تتجرأ على مجرد التلميح إلى ذلك، لأنه كان قد نبهها، منذ أول مرة خرجا فيها معاً، إلى أنه ليس هناك من إذلال للرجل أكبر من ترك امرأته تقوده. كانت تشعر بالانتعاش تماماً بعد نحو خمس ساعات

مـن النـوم، وكانـت سـعيدة أيـضاً لأنهمـا لم يتوقفـا فـي أحـد فنـادق المقاطعات الفرنسية التي كانت تعرفها منذ طفولتها في رحلاتها العديدة مع أبويها. وكانت تقول: «لا توجد منـاظر طبيعية فـي الدنيا أجمل منها. ولكن المرء يموت من العطش فيها دون أن يجد من يقدم له كوب ماء مجاناً». وقـد كانـت مقتنعـة بـذلك إلى حـد وضـعت معـه، فـي اللحظـة الأخيرة، قطعـة صـابون ولفافـة ورق صـحي فـي حقيبـة يـدهـا، لأنهم فـي فنادق فرنسا لا يضعون الصابون مطلقاً، أما ورق المراحيض عنـدهم فهو صحف الأسبوع السابق مقصوصة على شكل مربعات ومعلقة بخطـاف. والـشيء الوحيـد الـذي كانـت تتحـسر عليـه حينئـذ هـو تبديـدهما ليلـة كاملة دون ممارسة الحب. وكان ردّ زوجها فورياً:

ـ الآن بالـضبط كنتُ أفكـر فـي أن ممارسـة الحـب علـى الـثلج ستكون مشوقة. هنا بالذات، إذا شئتِ.

فكرت نينـا داكـونتي فـي الأمـر جـدياً. كـان منظـر الـثلج علـى جـانبي الطريـق، وتحـت القمـر، يبـدو وثـيراً ودافئـاً؛ ولكـن حركـة المـرور، مـع اقترابهمـا مـن ضـواحي بـاريس، صـارت أشـد كثافـة، وكانـت هنـاك مراكـز صـناعية مـضاءة وأعـداد مـن العمـال علـى الدراجات. ولو لم يكن الفصل شتاء، لكان النهار قد طلع منذ زمن.

ـ من الأفضل الانتظار حتى باريس ـ قالت نينا داكونتي ـ سنكون دافئين جيداً، وفـي سرير عليه ملاءات نظيفة، مثل الناس المتزوجين.

ـ هذه أول مرة لا تتجاوبين فيها معي ـ قال.

ـ طبعاً ـ ردت ـ. فهذه أول مرة نتزوج فيها.

قبل الفجر بقليل، غسلا وجهيهما وتبولا في استراحة على الطريق، وتناولا قهوة وكرواسان ساخنة، حيث كان سائقو الشاحنات يتناولون الفطور مع نبيذ أحمر. ولاحظت نينا داكونتي وهـي فـي المرحاض وجود بقع دم على بلوزتها وتنورتها، ولكنها لم تحاول تنظيفها. ألقت المنديل المبلل بالدم إلى القمامة، ونقلت خاتم الزواج إلى يدها اليسرى، وغسلت الإصبع المجروح بالماء والصابون. كانت الوخزة غير مرئية تقريباً. ولكن

ما إن رجعا إلى السيارة حتى عاد النزيف ثانية، فأخرجت نينا داكونتي ذراعها خارج السيارة موقنة من أن لهواء الحقول الجليدي فوائد علاجية. كانت وسيلة أخرى غير مجدية. ولكنها لم تكن مذعورة بعد، فقد قالت بفتنتها الطبيعية: «إذا أراد أحد العثور علينا، فسيجد الأمر سهلاً جداً. ما عليه إلا أن يتتبع أثر دمي على الثلج». ثم فكرت في ما قالته بصورة أفضل، وأشرق وجهها مع أنوار الصباح الأولى.

- تصور - قالت -: أثر من الدماء على الثلج من مدريد إلى باريس. ألا يبدو لك هذا جميلاً في أغنية؟

لم يكن لديها متسع من الوقت للتفكير ثانية. ففي ضواحي باريس صار إصبعها ينبوعاً لا يتوقف، وأحست أن روحها تفارقها عبر ذلك الجرح. حاولت وقف النزيف بلفافة الورق الصحي التي تحملها في حقيبتها، ولكنها ما كانت تكاد تلف الإصبع حتى تضطر إلى رمي قطع الورق المضمخة بالدم من النافذة. وراحت ملابسها ومعطفها ومقاعد السيارة تبتل بالدم شيئاً فشيئاً، ولكن بطريقة لا يمكن وقفها. أحس بيللي سانتشث بذعر حقيقي، وأصر على البحث عن صيدلية، ولكنها كانت قد أدركت عندئذ أن الأمر لم يعد من اختصاص صيدلي.

- إننا بالقرب من بوابة أورليان - قالت -. تابع التقدم إلى جادة الجنرال ليكلير، وهي الأكثر اتساعاً، وفيها أشجار كثيرة، وهناك سأوجهك.

كان ذلك الطريق هو أصعب مقطع في الرحلة. فقد كانت جادة الجنرال ليكلير عقدة جهنمية من السيارات الصغيرة والدرجات النارية المتزاحمة في الاتجاهين، وبينها شاحنات ضخمة تحاول الوصول إلى الأسواق المركزية. وأصبح بيللي سانتشث نزقاً جداً بسبب صخب نفير السيارة غير المجدي، وتبادَلَ الشتائم بلغة حملة السلاسل الحديدية مع عدة سائقين، بل إنه حاول النزول من السيارة ليتعارك مع أحدهم، لكن نينا داكونتي تمكنت من إقناعه بأن الفرنسيين لا يصلون إلى حد الضرب بالأيدي مطلقاً. وكان ذلك برهاناً آخر على فطنتها، لأنها كانت تبذل جهدها كيلا يضيعا الوقت.

وقد تطلب منهما الخروج من ميدان ليون دي بيلفو وحده ساعة كاملة. كانت المقاهي والمخازن مضاءة كما لو أن الوقت منتصف الليل، ذلك أنه كان يوم ثلاثاء تقليدي من أيام كانون الثاني الباريسية الغائمة والوسخة، يتخلله رذاذ مطر لجوج لا يصل إلى التحول إلى ثلج. أما جادة دينفر ـ روشو، فكانت أكثر صفاء. وبعد اجتياز عدة شوارع، أشارت نينا داكونتي على زوجها أن ينعطف إلى اليمين، وتوقف أمام مدخل الطوارئ في مستشفى ضخم وقاتم.

كانت بحاجة إلى مساعدة كي تخرج من السيارة، ولكنها لم تفقد صفاءها ولا صحوها. وبانتظار مجيء الطبيب المناوب، أجابت على أسئلة الممرضة التقليدية، عن هويتها وسوابقها الصحية. حمل لها بيللي سانتشث محفظتها وضغط على يدها اليسرى حيث كانت تضع خاتم الزواج، فأحس أنها خامدة وباردة، وكانت شفتاها قد فقدتا لونهما. بقي إلى جانبها ويده في يدها إلى أن جاء الطبيب المناوب، وقام بفحص سريع لبنصرها الجريح. كان رجلاً فتياً جداً، وجهه بلون النحاس القديم ورأسه أصلع. لم توله نينا داكونتي أي اهتمام، بل اتجهت إلى زوجها بابتسامة شاحبة، وقالت له بسخريتها الدائمة:

ـ لا تخف. الشيء الوحيد الذي يمكن حدوثه هو أن يقوم آكل اللحم البشري هذا، ببتر يدي، وأكلها.

أنهى الطبيب فحصه، وفاجأهما عندئذ بلغة قشتالية سليمة، وإن كانت تشوبها لكنة آسيوية، قال:

ـ لا يا صبية. آكل اللحم البشري هذا يفضل الموت قبل أن يبتر يداً بهذا الجمال.

سيطر عليهما الذهول، لكن الطبيب طمأنهما بإيماءة لطيفة، ثم أمر بجر النقالة. حاول بيليي سانتشث أن يمضي معها، ممسكاً بيد زوجته. لكن الطبيب أمسك بذراعه وقال:

ـ حضرتك لا. سنذهب بها إلى قسم العناية المشددة.

ابتسمت نينا داكونتي لزوجها من جديد، وظلت تلوح له بيدها

مودعة إلى أن اختفت النقالة في نهاية الممر. وتأخر الطبيب وهو يدرس المعلومات التي سجلتها الممرضة على اللوحة الصغيرة. فناداه بيللي سانتشث:

- دكتور! - ثم قال له: - إنها حبلى.

- في أي شهر؟

- الشهر الثاني.

لم يُبد الطبيب الاهتمام الذي انتظره بيللي سانتشث. بل اكتفى بالقول: «أحسنت صنعاً بإخباري»، ومضى في إثر النقالة. ظل بيللي سانتشث واقفاً في الصالة الكئيبة العابقة برائحة عرق المرضى، لايعرف ما يفعل وهو ينظر إلى الممر المقفر الذي أخذوا عبره نينا داكونتي، ثم جلس على مقعد خشبي، حيث كان عدة أشخاص ينتظرون. لم يدر كم من الوقت مضى عليه هناك، لكنه حين قرر الخروج من المستشفى كان الوقت ليلاً، ولا يزال رذاذ المطر متواصلاً، وبقي لا يعرف ما الذي يفعله بنفسه وهو رازح تحت ثقل العالم كله.

أُدخلت نينا داكونتي المستشفى في الساعة التاسعة والدقيقة الثلاثين من يوم الثلاثاء، السابع من كانون الأول، وقد تأكدتُ من ذلك بنفسي بعد سنوات طويلة، من خلال أرشيف المستشفى. وفي تلك الليلة، نام بيللي سانتشث في السيارة المتوقفة قبالة مدخل طوارئ المستشفى. وفي صباح اليوم التالي، أكل ست بيضات مسلوقة، وشرب فنجاني قهوة بالحليب في أقرب كافتيريا وجدها، ذلك أنه لم يكن قد تناول وجبة كاملة منذ مغادرته مدريد. بعد ذلك رجع إلى قسم الإسعاف ليرى نينا داكونتي، ولكنهم أفهموه بأن عليه الذهاب إلى البوابة الرئيسية. وهناك وجد أخيراً، بين عمال الخدمة، شخصاً من أستوريا، ساعده على التفاهم مع البواب. فأكد له أن نينا داكونتي مسجلة في المستشفى بالفعل، ولكن الزيارة غير مسموح بها إلا في أيام الثلاثاء، ما بين التاسعة والرابعة، أي بعد ستة أيام. حاول أن يلتقي بالطبيب الذي يتكلم القشتالية، وقد وصفه لهم بأنه أسود وأصلع، ولكن أحداً لم

يستطع إفادته بشيء من خلال هاتين المعلومتين البسيطتين.

وبعد أن اطمأن، حين أخبروه بأن نينا داكونتي تخضع للفحوصات، رجع إلى المكان الذي ترك فيه السيارة، وهناك أجبره شرطي المرور على الوقوف بها بعد تقاطعين، في زقاق ضيق جداً، وفي الجانب المخصص للأرقام الفردية. وكان هناك على الرصيف المقابل مبنى مرمم عليه لوحة تقول: «فندق نيكول». كان فندقاً بنجمة واحدة، فيه صالة استقبال ضيقة جداً، لا يوجد فيها سوى أريكة وبيانو قديم، ولكن صاحب الفندق ذا الصوت المزماري، كان قادراً على التفاهم مع الزبائن بأي لغة، شريطة أن يكون لديهم المال لدفع الحساب. أقام بيللي سانتشث مع إحدى عشرة حقيبة وتسع علب هدايا في الغرفة الوحيدة غير المشغولة، وكانت عليّة مثلثة الشكل في الطابق التاسع، يتم الوصول إليها بشق النفس على سلم حلزوني تنبعث منه رائحة رغوة الملفوف المسلوق. وكانت جدران الغرفة مغطاة بستائر كئيبة، ولم تكن النافذة الوحيدة تتسع لأكثر من الضوء العكر الآتي من الفناء الداخلي. كان هناك سرير مزدوج، وخزانة كبيرة، وكرسي عادي، ومبولة متنقلة، وطست لغسل الأيدي مع إبريقه. وقد كانت الطريقة الوحيدة للبقاء في الغرفة هي الاستلقاء على السرير. كل شيء كان أكثر من قديم وبائس، ولكنه نظيف أيضاً، وبه أثر صحي من دواء جديد.

لم يكن العمر كله كافياً لجعل بيللي سانتشث قادراً على حل ألغاز ذلك العالم القائم على موهبة التقتير. فهو لم يفهم على الإطلاق، سر نور السلّم الذي ينطفئ قبل أن يصل إلى طابقه، ولم يفهم كذلك طريقة إشعاله ثانية. واحتاج إلى نصف نهار كي يعرف أن هناك مرحاضاً، على عتبة الدرج في الطابق. وكان قد قرر استخدامه في العتمة، حين اكتشف بالمصادفة، أن النور يضاء عند إغلاق المزلاج من الداخل، حتى لا ينسى أحدهم النور مضاء. أما الحمام الذي كان في أقصى الممر، وأراد هو استخدامه مرتين في اليوم، مثلما اعتاد أن يفعل في بلاده، فكان لا بد من دفع تعرفة استخدامه بصورة منفصلة

ونقداً، وكان الماء الساخن الذي يتم التحكم به من الإدارة، ينقطع بعد ثلاث دقائق. ومع ذلك، فقد كان لدى بيللي سانتشث من وضوح الحكمة ما يكفيه لأن يدرك أن ذلك النظام المختلف تماماً عن نظامه، هو أفضل في كل الأحوال من البقاء في عراء كانون الثاني. وكان يشعر فوق ذلك بالذهول والوحدة، حتى إنه لم يستطع أن يفهم كيف تمكن من العيش يوماً دون حماية نينا داكونتي.

ما إن صعد إلى الغرفة، في صباح يوم الأربعاء، حتى ألقى بنفسه منبطحاً على السرير، دون أن يخلع معطفه، مفكراً في المخلوقة العجيبة التي ما زالت تنزف في الجهة المقابلة من الشارع، وسرعان ما غط في نوم طبيعي جداً، حين استيقظ منه، نظر إلى الساعة فوجدها الخامسة. ولكنه لم يعرف إن كانت الخامسة مساء أم فجراً، ولم يعرف في أي يوم من الأسبوع هو، ولا في أي مدينة زجاجية تصفعها الرياح والأمطار. انتظر في السرير مستيقظاً، وكان يفكر طوال الوقت في نينا داكونتي، إلى أن أدرك أن الوقت صباحاً. عندئذ ذهب لتناول الفطور في كافتيريا اليوم السابق، وعرف هناك أن اليوم هو الخميس. كانت أنوار المستشفى مضاءة. وكان المطر قد توقف. وهكذا بقي متكئاً على جذع شجرة كستناء قبالة المدخل الرئيسي، حيث كان يدخل ويخرج أطباء وممرضات يلبسون الأردية البيضاء، وهو يأمل بالعثور على الطبيب الآسيوي الذي استقبل نينا داكونتي. لم يجده، ولم يجده كذلك في مساء ذلك اليوم بعد الغداء، عندما اضطر إلى التخلي عن الانتظار، لأنه بدأ يتجمد. وفي الساعة السابعة، تناول فنجاناً آخر من القهوة بالحليب، وأكل بيضتين مسلوقتين أخريين، تناولهما بنفسه من الخزانة الزجاجية، بعد ثمانية وأربعين ساعة من تناوله الطعام نفسه في المكان نفسه. وعندما عاد إلى الفندق لينام، وجد سيارته وحدها على الرصيف، وجميع السيارات الأخرى على الرصيف المقابل، وكانت هناك قسيمة بغرامة موضوعة تحت ماسحة الزجاج الأمامي. وتكلف بواب فندق نيكول مشقة كبيرة ليوضح له بأنه في الأيام الفردية من

الشهر، يمكن وقف السيارات ذات الأرقام الفردية على الرصيف، وفي اليوم التالي على الرصيف المقابل. لم تكن تلك الإجراءات العقلانية مفهومة لدى واحد من أكثر آل سانتشث دي أفيلا نقاء. فقد كان هو نفسه قد دخل قبل أقل من سنتين إلى إحدى دور سينما الأحياء المكشوفة بسيارة المحافظ الرسمية، وأحدث إصابات مميتة تحت نظر الشرطة غير المبالية. وكانت قدرته على الفهم أقل، حين نصحه بواب الفندق بأن يدفع الغرامة، ولكن دون أن ينقل السيارة من مكانها في مثل تلك الساعة، لأنه سيكون مضطراً إلى تبديل المكان ثانية، في الساعة الثانية عشرة ليلاً. وفي فجر ذلك اليوم، لم يفكر في نينا داكونتي وحسب، بل كان يتقلب في الفراش دون أن يتمكن من النوم، متذكراً لياليه الحزينة في حانات الشاذين جنسياً في السوق العام، في مدينة كارتخينا الكاريبية. كان يتذكر طعم السمك المقلي، والأرز مع جوز الهند في مطاعم الميناء، حيث ترسو سفن جزيرة أروبا. تذكر بيته بجدرانه المغطاة برموز الثالثوث، حيث الساعة الآن توشك أن تبلغ السادسة من مساء الأمس، ورأى أباه ببيجامة حريرية يقرأ الجريدة في برودة الشرفة.

وتذكر أمه التي لا أحد يعرف أين تكون في أية ساعة من ساعات اليوم. أمه الشهية والمهذارة التي تظل بملابس يوم الأحد، مع وردة على أذنها، منذ المساء؛ مغرقة نفسها في الحر الذي يسببه أقمشة ملابسها الرائعة. ففي مساء أحد الأيام، عندما كان في السابعة من عمره، دخل فجأة إلى حجرتها وفاجأها عارية في السرير مع أحد عشاقها العابرين. تلك الحادثة التي لم يتحدث عنها قط، أقامت بينهما علاقة تواطؤ كانت أكثر جدوى من الحب. ومع ذلك، لم يعِ هذا الأمر، ولا أموراً رهيبة أخرى، في عزلته كابن وحيد. وظل كذلك حتى الليلة التي وجد نفسه فيها يتقلب في السرير، في عَلِيّة كئيبة في باريس، دون أن يكون هناك أحد إلى جانبه، يستطيع أن يحدثه عن مصائبه، بغضب شرس ضد نفسه بالذات، لأنه لا يطيق تحمل رغبته في البكاء.

لقد كان أرقاً نافعاً. فقد استيقظ يوم الجمعة مضعضعاً من تلك الليلة السيئة، ولكنه عاقد العزم على تحديد حياته. وحزم أمره أخيراً على خلع قفل حقيبته كي يتمكن من تبديل ملابسه، لأن مفاتيح الحقائب كلها في محفظة نينا داكونتي، مع الجزء الأكبر من النقود، ودفتر أرقام الهواتف الذي ربما كان سيجد فيه أرقام أحد معارفه في باريس. وفي الكافتيريا المعهودة، أنتبه إلى أنه صار يعرف كيف يطرح التحية بالفرنسية، وكيف يطلب سندويتشات الجامبون والقهوة بالحليب. وكان البيض المسلوق تحت نظره، في الخزانة الزجاجية، يتناوله بنفسه دون حاجة لأن يطلبه. كما أن عمال الخدمة تألفوا معه، بعد ثلاثة أيام من تردده عليهم، وصاروا يحاولون مساعدته في التعبير عن نفسه. وهكذا، عند الغداء يوم الجمعة، بينما هو يحاول أن يثبت رأسه في مكانه، استطاع أن يطلب شريحة لحم عجل مع بطاطا مقلية وزجاجة نبيذ. وأحس أنه في أحسن حال، فطلب زجاجة أخرى شرب نصفها، ثم اجتاز الشارع وقد اتخذ قراراً حازماً بدخول المستشفى عنوة. لم يكن يعرف أين سيجد نينا داكونتي، لكن صورة الطبيب الآسيوي التي بعثتها العناية الإلهية كانت راسخة في ذهنه، وكان واثقاً من أنه سيجده. لم يدخل من البوابة الرئيسية، وإنما من مدخل الطوارئ الذي بدا له أن الحراسة عليه أضعف، ولكنه لم يتقدم أبعد من الممر الذي لوحت له فيه نينا داكونتي بيدها مودعة. فقد سأله حارس يلبس رداء ملوثاً بالدم، شيئاً لدى مروره، لكنه لم يلتفت إليه. فلحق الحارس به مردداً السؤال بالفرنسية، ثم أمسك به أخيراً من ذراعيه بقوة أوقفته في مكانه. حاول بيللي سانتشث التخلص منه بحركات حَمَلَةِ السلاسل الحديدية، فشتم الحارس أمه بالفرنسية، ولوى ذراعه وراء ظهره بحركة بارعة، وقاده وهو يكاد يرفعه عن الأرض، حتى الباب، وألقى به مثل كيس بطاطا في وسط الشارع.

في مساء ذلك اليوم، بدأ بيللي سانتشث الذي آلمته العبرة، بالتحول إلى راشد. فقرر أن يفعل ما كانت ستفعله نينا داكونتي لو كانت

مكانه، أي اللجوء إلى السفارة. وبالرغم من أن بواب الفندق كان يبدو نفوراً من مظهره، إلا أنه كان خدوماً جداً، وصبوراً جداً كذلك في التعامل مع اللغات. وقد وجد رقم هاتف السفارة وعنوانها في دليل الهاتف، وسجلهما على بطاقة. ردّت على المكالمة امرأة لطيفة جداً، ومن صوتها المتقطع والخالي من البريق، تعرف بيللي سانتشث في الحال على لهجة أهل الأنديز الكولومبيين. بدأ بالإعلان عن اسمه كاملاً، وهو واثق من أنه سيبهر المرأة بكنيته، ولكن صوتها لم يتأثر عبر الهاتف. سمعها تلقي عليه، من الذاكرة، الدرس المحفوظ، بأن السيد السفير غير موجود في مكتبه الآن، ولا يمكن أن يأتي حتى اليوم التالي، لكنه لا يمكنه أن يستقبله، في كل الأحوال، دون موعد مسبق، ومن أجل قضية خاصة جداً. وأدرك بيللي سانتشث عندئذ أنه لن يصل إلى نينا داكونتي بهذا الأسلوب، فشكر المرأة على تلك المعلومات باللطف نفسه الذي قدمتها به إليه، ثم ركب سيارة أجرة وذهب إلى السفارة.

كانت السفارة في الرقم 22، في شارع الإليزيه، في أحد أكثر قطاعات باريس هدوءاً. ولكن الشيء الوحيد الذي أدهش بيللي سانتشث، كما أخبرني هو نفسه في كارتخينا دي اندياس، بعد سنوات عديدة، هو أن الشمس كانت هناك صاخبة مثل شمس الكاريبي، لأول مرة منذ وصوله. وأن برج إيفل كان يبرز أعلى من المدينة كلها، في سماء مشرقة. وكان يبدو على الموظف الذي استقبله بدلاً من السفير، أنه قد استرد عافيته للتو من مرض مميت، ليس بسبب البدلة السوداء التي كان يلبسها، والياقة التي تضغط على عنقه، وربطة العنق الحدادية وحسب، وإنما كذلك بسبب تكتم إيماءاته ووداعة صوته. وقد أبدى تفهمه لجزع بيللي سانتشث، ولكنه ذكّره، دون أن يفقد عذوبته، بأنهم في بلاد متحضرة، تركز أنظمتها الصارمة على أقدم المعايير وأكثرها حكمة، على عكس بلدان أمريكا اللاتينية البربرية، حيث تكفي رشوة البواب للدخول إلى المستشفيات. وقال له: «لا، يا عزيزي الشاب». فليس هناك من وسيلة أخرى سوى الخضوع

لسلطة العقل، والانتظار حتى يوم الثلاثاء. وقال أخيراً:

- ثم إنه لم يبق سوى أربعة أيام. وفي هذه الأثناء، اذهب إلى اللوفر، إنه جدير بالمشاهدة.

حين خرج بيللي سانتشث، وجد نفسه في ساحة كونكورد، دون أن يعرف ما عليه أن يفعله. رأى برج إيفل بارزاً فوق الأبنية، وبدا له قريب جداً، فحاول الوصول إليه ماشياً على الأرصفة. لكنه سرعان ما انتبه إلى أنه أبعد مما يبدو عليه، وأنه يبتعد كلما مشى نحوه. فراح يتخيل نينا داكونتي جالسة على مقعد، على ضفة السين. رأى مرور السفن تحت الجسور، فلم تبد له سفناً، وإنما بيوت عائمة تائهة، ذات سقوف ملونة، ونوافذ على عتباتها العلوية أصص أزهار، وعلى سطوحها حبال غسيل. راقب طويلاً صياد سمك ثابتاً في مكانه يحمل قصبة ثابتة، يتدلى منها خيط ثابت وسط التيار. وتعب وهو ينتظر أن يتحرك شيء، وبقي إلى أن بدأ الظلام يخيم، فقرر الرجوع إلى الفندق في سيارة أجرة. وعندئذ فقط، تنبه إلى أنه لا يعرف اسم الفندق، ولا عنوانه، وأنه ليست لديه أي فكرة عن القطاع الباريسي الذي يوجد فيه المستشفى.

أعماه الرعب، فدخل إلى أول مقهى وجده. طلب كأس كونياك، وحاول تنظيم أفكاره. وبينما هو يفكر، رأى نفسه مكرراً مرات كثيرة، ومن زوايا مختلفة، في المرايا العديدة على الجدران. وجد نفسه خائفاً ووحيداً، وفكر أول مرة منذ مولده، بواقعية الموت. لكنه شعر بالتحسن مع الكأس الثانية، وخطرت له فكرة ألهمته إياها العناية الإلهية، بالعودة إلى السفارة. بحث عن البطاقة في جيبه، ليتذكر اسم الشارع، فاكتشف أن اسم الفندق وعنوانه مطبوع على قفاها. وقد كان لتلك التجربة أثر سيئ جداً عليه، حتى إنه لم يعد للخروج من غرفته في نهاية ذلك الأسبوع إلا لتناول الطعام وتبديل موقف السيارة إلى الرصيف المناسب. وطوال ثلاثة أيام، هطل دون توقف رذاذ المطر الوسخ الذي كان يهطل في صباح يوم وصولهما. وتمنى بيللي سانتشث الذي لم يقرأ كتاباً كاملاً في حياته، أن يكون معه كتاب كي يقاوم الضجر وهو مستلق

على السرير، لكن الكتب الوحيدة التي وجدها في حقائب زوجته، كانت بلغات أخرى غير القشتالية. وهكذا بقي ينتظر يوم الثلاثاء وهو يتأمل الطواويس المكرورة على ورق الجدران، دون أن يتوقف لحظة واحدة عن التفكير في نينا داكونتي. ويوم الاثنين، رتب الغرفة قليلاً، مفكراً في ما ستقوله إذا وجدتها في مثل تلك الحالة، وعندئذ فقط انتبه إلى أن معطف الفراء ملوث ببقع دم جافة. أمضى المساء وهو ينظفه بصابون معطر وجده في حقيبة اليد، إلى أن تمكن من إعادته ثانية مثلما كان عندما صعدوا به إليهما في الطائرة، في مدريد.

وجاء يوم الثلاثاء مضطرباً وجليدياً، ولكن دون رذاذ المطر. وقد استيقظ بيللي سانتشث منذ السادسة، وانتظر أمام بوابة المستشفى مع حشد من ذوي المرضى المحملين بعلب هدايا وباقات أزهار. ودخل وسط الزحمة حاملاً على ذراعه معطف فراء النمس المسكي، دون أن يسأل شيئاً، ودون أن تكون لديه أي فكرة عن المكان الذي قد تكون فيه نينا داكونتي، لكنه كان يستند إلى يقين راسخ بأنه سيلتقي بالطبيب الآسيوي. اجتازا فناء داخلياً واسعاً جداً، فيه أزهار وعصافير برية، وعلى جانبيه كانت عنابر المرضى: النساء إلى اليمين، والرجال إلى اليسار. ودخل مع الزائرين إلى جناح النساء. رأى صفاً طويلاً من المريضات يجلسن على الأسرة وهن يرتدين قمصان نوم المستشفى المهترئة، وتنعكس عليهن أضواء النوافذ الكبيرة، وفكر في أن ذلك المكان أكثر بهجة مما يخيل إلى المرء من الخارج. وصل إلى نهاية الممر، ثم ذرعه مرة أخرى بالاتجاه المعاكس، حتى تأكد من أن أياً من أولئك المريضات ليست نينا داكونتي. ثم اجتاز مرة أخرى الجناح الخارجي، وهو ينظر عبر النوافذ إلى عنابر الرجال، حتى ظن أنه رأى الطبيب الذي يبحث عنه.

وكان هو نفسه فعلاً. كان مع أطباء آخرين وعدة ممرضات، يقومون بفحص أحد المرضى. دخل بيللي سانتشث إلى العنبر، وأبعد من طريقه إحدى ممرضات المجموعة، ووقف في مواجهة الطبيب الآسيوي الذي كان منحنياً على المريض. ناداه. فرفع الطبيب عينيه الحزينتين،

وفكر لحظة، ثم تعرف عليه. قال:

- ولكن، إلى أي شياطين ذهبت حضرتك؟

شعر بيللي سانتشث بالارتباك، وقال:

- إلى الفندق. هنا عند الناصية.

وعندئذ عرف كل شيء. لقد ماتت نينا داكونتي نزفاً في الساعة السابعة وعشر دقائق من يوم الخميس، التاسع من كانون الثاني، بعد ستين ساعة من الجهود غير المجدية التي بذلها أفضل الأطباء الاختصاصيين في فرنسا. وقد ظلت صاحية وهادئة حتى اللحظة الأخيرة، وأعطت توجيهات للبحث عن زوجها في فندق بلازا أتينيه، حيث كانت هناك غرفة محجوزة لهما، وقدمت المعلومات اللازمة للاتصال بوالديها. وقد أُعلمت السفارة بالأمر يوم الخميس في برقية مستعجلة من وزارة الخارجية، في الوقت الذي كان فيه والدا نينا داكونتي يطيران نحو باريس.

تولى السفير نفسه الإشراف على إجراءات التحنيط والمأتم، وظل على اتصال بمديرية شرطة باريس لمعرفة مكان بيللي سانتشث. وقد أذيع نداء خاص ومستعجل بأوصافه، من الإذاعة والتلفزيون، منذ ليل الجمعة حتى مساء يوم الأحد. وكان خلال تلك الساعات الأربعين أكثر رجل يجري البحث عنه في فرنسا. وكانت صورته التي عُثر عليها في محفظة نينا داكونتي، معروضة في كل مكان. وتم العثور على ثلاث سيارات من نوع بينتلي، ومن الموديل نفسه، لكن أياً منها لم تكن سيارته.

وصل والدا نينا داكونتي يوم السبت ظهراً، وسهرا على الجثمان في كنيسة المستشفى، وانتظرا حتى اللحظة الأخيرة العثور على بيللي. وقد أُخبر والداه أيضاً، وكانا جاهزين للطيران إلى باريس، لكنهما تخليا عن فكرة السفر أخيراً، بسبب تشوش في البرقيات. وقد جرت مراسم نقل الجثمان يوم الأحد، في الثانية بعد الظهر، على بعد مئتي متر فقط من غرفة البؤس في الفندق، حيث كان بيللي سانتشث

يحتضر في الوحدة، حباً بنينا داكونتي. أما الموظف الذي استقبله في السفارة، فقد أخبرني بعد سنوات أنه هو نفسه من تلقى برقية وزارة الخارجية بعد ساعة من خروج بيللي سانتشث من مكتبه، وأنه خرج يبحث عنه في برات فوبوسانت أنوري. واعترف لي بأنه لم يوله اهتماماً كبيراً عندما استقبله، لأنه لم يتصور قط أن ذلك الشاب الساحلي المذهول بباريس الجديدة عليه، والذي يرتدي، بصورة سيئة، معطفاً من جلد الخراف، يمكن أن يكون له مثل ذلك النسب النجيب. وفي ليل الأحد بالذات، عندما كان بيللي سانتشث يتحمل معاناة رغبته في البكاء قهراً، تخلى والدا نينا داكونتي عن البحث عنه، وحملا الجثمان المحنط في تابوت معدني، ومن تمكنوا من رؤية ذلك الجسد، ظلوا يكررون طوال سنوات كثيرة أنهم لم يروا قط امرأة أجمل منها، سواء وهي حية أو وهي ميتة. وهكذا، حين دخل بيللي سانتشث أخيراً إلى المستشفى، كانت قد انتهت عملية الدفن في مقبرة لامانغا الكئيبة، على بعد أمتار قليلة من البيت الذي حلا فيه أول رموز السعادة. وقد أراد الطبيب الآسيوي الذي أطلع بيللي سانتشث على المأساة، أن يعطيه بضعة أقراص مهدئة في صالة المستشفى، لكنه رفضها. ومضى دون كلمة وداع، ودون شيء يشكر عليه، مفكراً في أن الشيء الوحيد الذي يحتاج إليه، وبأقصى سرعة، هو العثور على شخص يحطم له أمه بضربات السلاسل كي يستطيع الخروج من محنته. وحين غادر المستشفى، لم ينتبه إلى أنه كان يهطل من السماء ثلج لا يحمل أي أثر للدم، وكانت ندف الثلج الناعمة والناصعة، تبدو كأنها ريش حمام، وكان هناك جو احتفال في شوارع باريس، لأن الثلج كان يسقط بمثل تلك الغزارة أول مرة منذ عشر سنوات.

1976

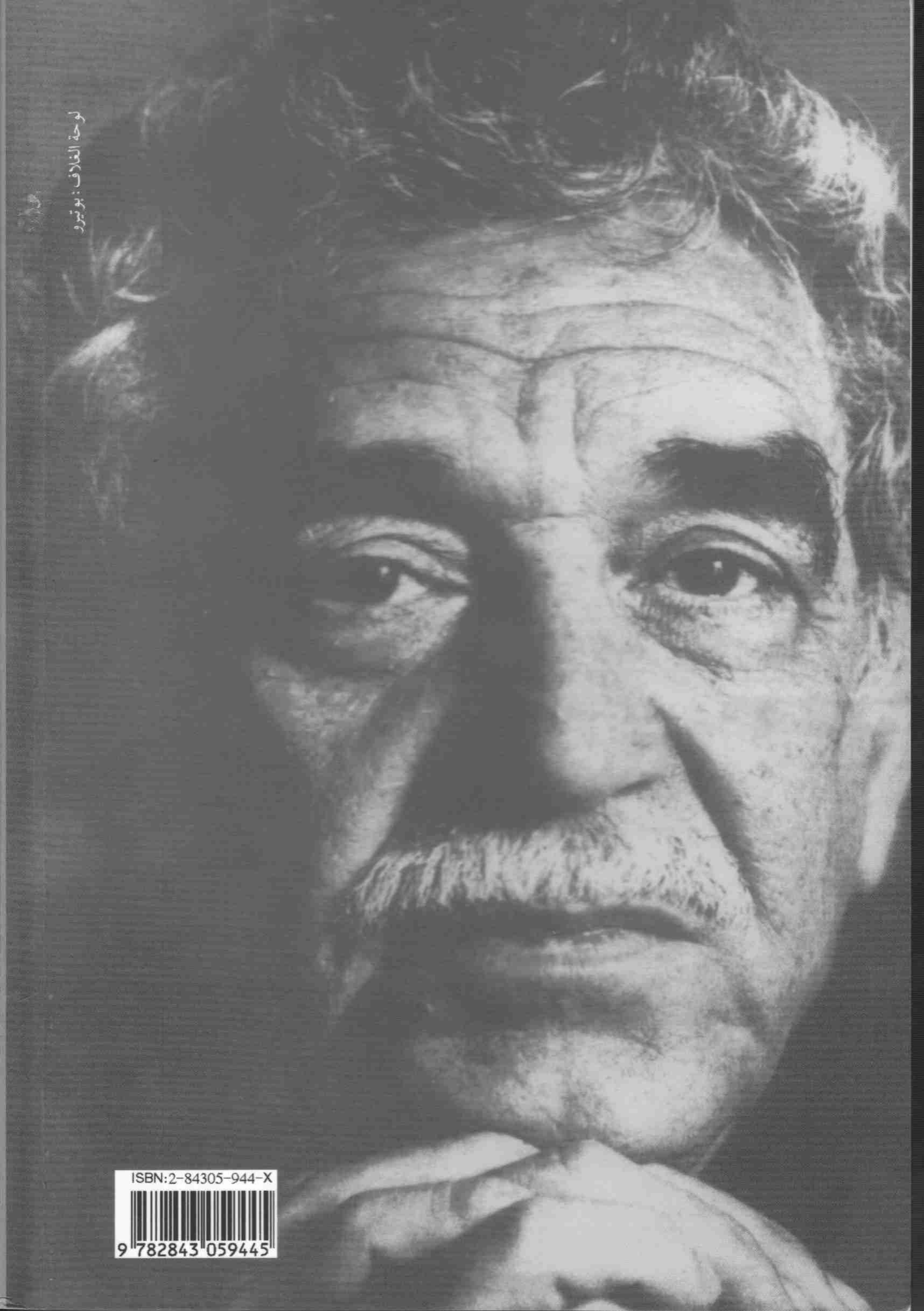
الفهرس

عينا كلب أزرق

جنازة الأم الكبيرة

القصة الحزينة التي لا تُصدق لإرينديرا البريئة وجدتها القاسية

اثنتا عشرة قصة قصيرة مهاجرة



لوحة الغلاف: بوتيرو

ISBN:2-84305-944-X
9 782843 059445